

الأعمال الكاملة

لفضيلة الشيخ

عبدالله النوري

المتوفى سنة (١٤٠١هـ/١٩٨١م) رحمه الله

شهر في الحجاز

يوميات زائر للشرق الأقصى

حكايات من الكويت

اعتنى به

د. تركي محمد حامد النصر

فكرة وإشراف

د. عبدالمحسن عبدالله الجار الله الخرافي

المجلد العاشر

سلسلة جمع تراث علماء الكويت - ٢ -



الأعمال الكاملة

لفضيلة الشيخ

عبد الله النوري

المتوفى سنة (١٤٠١هـ/١٩٨١م) رحمه الله

١٠



تأسست عام (١٤٠١هـ / ١٩٨١م)

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

(١٤٤٤هـ/٢٠٢٣م)

رقم الإيداع بمكتبة الكويت الوطنية

ISBN: 978-9921-9721-2-2

البريد الإلكتروني (الإيميل)

Info@alnouri.org

هاتف: (٢٢٥٤٠٢٨٠)، (٢٢٥٤٠٢٧٠)، فاكس: (٢٢٥٤٠٢٦٠)

جمعية الشيخ عبدالله النوري الخيرية

جمعيةٌ كويتيّةٌ خيريّةٌ تُساهِمُ في بناءِ المُجتمعاتِ وتنمِيَتِها

وتُكملُ المَسيرةَ الخَيِّرَةَ للمغفور له بإذن الله الشَّيخ عبد الله النُّوري رحمه الله



الأعمال الكاملة

لفضيلة الشيخ

عبدالله النوري

المتوفى سنة (١٤٠١هـ/١٩٨١م) رحمه الله

شهر في الحجاز

يوميات زائر للشرق الأقصى

حكايات من الكويت

اعتنى به

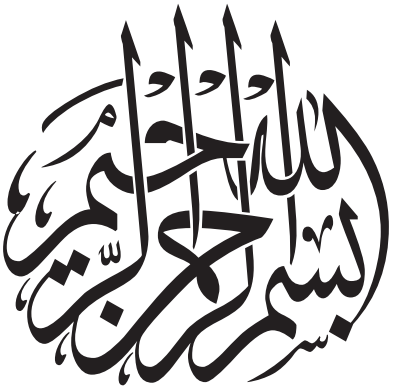
د. تركي محمد حامد النصر

فكرة وإشراف

د. عبدالمحسن عبدالله الجار الله الخرافي

المجلد العاشر

سلسلة جمع تراث علماء الكويت - ٢ -


بسم الله الرحمن الرحيم



الأعمال الكاملة

لفضيلة الشيخ

عبدالله النوري

المتوفى سنة (١٤٠١هـ/١٩٨١م) رحمه الله

شهر في الحجاز

اعتنى به

د. تركي محمد حامد النصر

فكرة وإشراف

د. عبدالمحسن عبدالله الجار الله الخرافي



المؤلف عبد الله النُّوري

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٢-٥]، والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا محمَّد خاتم النَّبيِّين وإمام المرسلين وزعيم المُصلحين، وعلى آله وأصحابه الَّذين جاهدوا في الله حقَّ جهادِهِ، حتَّى بنوا صرح الدِّين، وشادوا مجده المتين، أمَّا بعد:

فإنَّ الملايين من المسلمين يولُّون وجوههم إلى بيت الله خمس مرَّات في اليوم واللَّيلة، ويذكرون الله ويصلُّون على نبيِّه محمَّد عشرات المرَّات، ويشهدون أن لا إله إلَّا الله وأنَّ محمَّدًا رسول الله عشرات المرَّات كذلك، وقد تعلَّقت قلوبهم ببيت الله، وامتزجت محبَّة النَّبيِّ بدمائهم، فهم أبدًا يحنُّون إلى حجِّ بيته وزيارة قبر نبيِّه، لا لشيءٍ إلَّا ابتغاءَ رضوان الله وامتثالَ أوامره، وطمعًا في أن تُغْفَرَ ذنوبهم فيعودوا كيوم ولدتهم أمَّهاتهم، كما قال رسول الله ﷺ: «**من حَجَّ فلم يَرفُثْ، ولم يَفسُقْ، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنبِهِ**»(١).

وقد مَنَّ الله عليَّ في موسم الحجِّ لسنة (١٣٧٢هـ) الموافق شهر تمُّوز (١٩٥٣م) أنْ أزور الدِّيار المقدَّسة للمرَّة الثَّانية، وكانت الأولى

(١) رواه الترمذي، رقم: (٨١١)، وقال: حديث أبي هريرة حديثٌ حسنٌ صحيح.

في سنة (١٣٥٠هـ)[١] على ظهور الجمال، وقد رأيت أن أُسَجِّلَ ذكريات هذه الرِّحلة المُباركة لتكون ذكرى مخلَّدةً، يقول الشَّاعر أحمد شوقي:

فارفعْ لنفسِكَ بعدَ موتِكَ ذكرَها فالذِّكرُ للإنسانِ عمرٌ ثانٍ[٢]



(١) أي: سنة (١٩٣١م).

(٢) انظر: صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال، للقاضي (٢/ ٣٤٥).

الحجُّ

شرَّع كلُّ دينٍ لتابعيه اجتماعاتٍ في أوقاتٍ مُعيَّنة، وعَيَّن لها أمكنةٌ يَفِدُ إليها مُتَّبِعوه من كلِّ فجٍّ ونهجٍ؛ لِمَا في الاجتماعات من فوائدَ عظيمة تعود على مُتَّبعيه، فمن ذلك تسهيلُ طرق التَّعارف والتَّآلفِ والتَّعاون، وتبادلُ المنافع من بيعٍ وشراءٍ ومُراسلاتٍ وإرشادٍ إلى غير ذلك ممَّا تؤيِّده المصلحة العامَّة، وتقوية المنافع المرسلة لهذهِ الفوائد وغيرها.

فرض الله علينا اجتماعاتٍ خاصَّةٍ؛ كصَّلاة الجماعة، وعامَّة؛ كصلاةِ الجمعة والعيدين، ولمَّا كانت هذه الاجتماعات قاصرةً على محلٍّ واحدٍ أو بلدٍ واحدٍ فرض الله على الأُمَّة الإسلاميَّة اجتماعًا عامًّا يحضره كلُّ قادر على الوصولِ إليه مادِّيًّا أو صحِّيًّا في العمر مرَّة، واختار له مكَّة المكرَّمة؛ لِمَا لها من الفضل على سائر البقاع، ولكونها موطن إسماعيل ومولد محمَّد عليهما الصَّلاة والسَّلام، ومنها كان مبعثه إلى النَّاس بشيرًا ونذيرًا، وفيها أوذي، ومنها هاجر الهجرة الَّتي كانت مبدأ عهدٍ جديدٍ للأُمَّة الإسلاميَّة، وفيها ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عِمرَان: ٩٦].

وقد قضت الشَّريعة الإسلاميَّة أن يكون هذا المجتمع في عرفات الَّتي تبعدُ من مكَّة اثنين وعشرين كيلو مترًا، وأن يَفِدُوا إلى هذا المجتمع في زيٍّ واحدٍ يتساوى فيه الغنيُّ والفقير، والمأمور والأمير،

والسَّيِّد والمسود، والتَّابع والمتبوع؛ لأنَّهم مُقبِلون على ربِّهم جميعًا، «**لا فضل لبعضهم على بعض إلَّا بالتَّقوى**»[١]، فيتجرَّدون من عاداتهم ونعيمهم ورياشهم، ويكونون في زيِّ الأموات؛ لما في ذلك من تصفية النَّفس وتهذيبها وإشعارها حقيقة العبوديَّة لله الواحد، والأخوَّة للنَّاس.

نعم، إنَّ الإقبال على الله بتلك الهيئة والتَّقلُّب في مناسك الحجِّ على الوجه المشروع، والاعتقاد بالعبوديَّة الخالصة لله في تلك الأعمال يمحو من النَّفس آثار الذُّنوب وظُلمها، ويُدخِلها في حياةٍ جديدة ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٦]، وقد ورد في الحديث الصَّحيح عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**العُمرَةُ إلى العُمرَةِ كفَّارةٌ لما بَينَهُمَا، والحَجُّ المَبرُورُ لَيسَ لَهُ جَزَاءٌ إلَّا الجَنَّةُ**»[٢].



(١) رواه أحمد، رقم: (٢٣٤٨٩)، بلفظ: «ألا لا فضل لعربيٍّ على عجميٍّ... إلَّا بالتَّقوى».

(٢) رواه مسلم، رقم: (٤٣٧).

العزم على السَّفر

كنتُ في العشر الأواخر من شهر رمضان سنة (١٣٧٢هـ)[١] أُحدِّثُ نفسي وأُمَنِّيها بالحجِّ، ولكنِّي أخاف الحرَّ ووعْثَاء[٢] السَّفر، والحجُّ سيكون في تمُّوز وآب، وكلاهما في أوساط الصَّيف.

وفي اليوم العاشر من شهر تمُّوز خرجت إلى الوظيفة، وقبل انتهاء الدَّوام بساعةٍ تذكَّرت قول الله ﷻ: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٩]، فذهبت إلى وكالة شركة (فورد)، واشتريت السَّيَّارة، وكانت من النَّوع المعروف (بيك آب) أكملناها إلى أن أصبحت صالحةً للسَّفر؛ فزوَّدناها بمكانٍ للماء، ومكانٍ لخزن الغذاء، وظلَّلنا مكانًا لا تصل إليه الشَّمس، وقد اخترت لمرافقتي من أولادي؛ نوري وأحمد، وخادمًا، وطبَّاخًا، وسائق سيَّارة، فكنَّا ستَّة أشخاصٍ، ورافقنا في الطَّريق وفي سيَّارةٍ خاصَّةٍ أيضًا إسريع بن عبد الرَّحمن السَّريع زميلنا في الوظيفة، ومعه محرمه وأولاده.

وكان في القافلة الشَّيخ عبد الوهَّاب بن عبد الله الفارس إمام الحملة ومفتيها، وأخبرنا رئيس القافلة الحاجُّ فهد بن سليمان الفهد

(١) أي: سنة (١٩٥٢م).

(٢) الوعثاء في السَّفر: المشقَّة والشِّدَّة. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٥/ ٣٨٤).

أنَّ السَّفر سيكون مساء يوم الجمعة (١٣) ذي القعدة الموافق (٢٤) تمُّوز بعد صلاة العصر.



الحملدار فهد الفهد

عَمِلَ في نقلِ الحجَّاج سنة (١٣٦٧هـ)[١]، ومنذ بدأ في هذا العمل المُبارك وهو مرضيٌّ عنه، محمودٌ عند جميع من سافر معهم؛ فكان ييسِّرُ أمورَ الحجَّاج من ماءٍ وزادٍ وكلِّ ما يحتاج إليه الحاجُّ في رحلته، فضلًا عن مداراته المريضَ والضَّعيف، فكان يخدمهما بنفسه إن لم يجدا مَن يخدمهما، وهو إلى ذلك لطيف المعشر، حلو الحديث، واسع الصَّدر، وقد رُزِقَ رضا النَّاس عنه، وهذا من نعم الله يمنُّ الله بها على مَن يحبُّه من عبادهِ.



(١) أي: سنة (١٩٤٨م).

بدأ السَّفر

خرجنا بعد صلاة العصر يوم الجمعة (١٣) ذي القعدة (١٣٧٢هـ) الموافق (٢٤) تمُّوز (١٩٥٣م) خارجَ مدينة الكويت، وقبل الغروب بساعة ركبنا سيَّاراتنا متوجِّهين إلى المدينة المنوَّرة؛ لنؤدِّي سُنَّة زيارة المسجد النَّبويِّ قبل المسجد الحرام، وقد وصلنا قرية صباحَ يوم السَّبت، والمسافة بين الكويت وقرية (٢٥٦) كيلومترًا، وكان السَّير متقطِّعًا؛ لقرب عهدنا بالسَّفر، ولكثرة النِّساء اللَّاتي كنَّ معنا، ومشيئة الحملدار بعدم تكليفهنَّ المشاقَّ؛ اتِّباعًا لقول الرَّسول ﷺ: «**رفقًا بالقوارير**»[1].

كنت في سيَّارتي مواصلًا السَّير، وقد رافقني أحد الرِّفاق بسيَّارته، وهو الحاجُّ إسريع بن عبد الرَّحمن حتَّى وصلنا الحدود؛ كي نستريح قبل وصول القافلة جمعاءَ، وعندما أصبحنا واجتمعنا قال لي الحاجُّ فهد رئيسُ الحملة: إن شئتم مرافقتنا فلا تُفارقونا ولا تسبقونا ولا تتخلَّفوا عنَّا؛ حتَّى يكون لكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإلَّا فالوجه من الوجه أبيض، ومعناه: الكلُّ غير مسؤولٍ عن صاحبه، وقد رأيت في قوله نصيحةً ومحبَّةً لازمناها حتَّى وصلنا إلى الكويت.

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٦١٤٩)، ومسلم، رقم: (٢٣٢٣) بلفظ: «ويحك يا أنجشة، رويدك سوقًا بالقوارير».

أقمنا في قرية يومي السَّبت والأحد، وهي قريةٌ حارَّةُ الهواء، كريهةُ الماء، موحشةُ المسكن، كثيرةُ العواصف والغبار، منخفضةُ الأرض، تحيط بها كثبان من الرَّمل، يسكنها جماعة من قبيلة إمطير وبعض الأُسر النَّجديَّة.

تركنا قرية مساء الأحد إلى ماءٍ يُقال له: أمُّ عقله، والمسافة بينهما (١٥٩) كيلومترًا، وصلناها منتصف اللَّيل، وهي بئرٌ ارتوازيٌّ ماؤه عذبٌ وخفيفٌ، وهو السَّبب الَّذي جعل المكان يعمر بقرية يسكنها بدوٌ من مختلف القبائل، وبعد أن أرقنا الماء الَّذي استقيناه من قرية ارتوينا من مائها، وواصلنا السَّير إلى مكان يسمَّى الرُّجوم على حدود الدَّهناء؛ والرُّجوم: هي صخور وضع بعضها فوق بعض لتكون شاخصًا بطول الإنسان أو أطول منه، يتعرَّف بها الخارج من الدَّهناء طريقه.

نمنا عند الرُّجوم حتَّى أسفرنا وصلَّينا الصُّبحَ، ومع شروقِ الشَّمس ركبنا سيَّاراتنا لنعبرَ الدَّهناء، وهي ثلاثةُ عروقٍ رمليَّةٍ حمراء صعبة المسلك، أوَّلها: نفود السَّرو، وثانيها: نفود الرُّويكب، وثالثها: نفود الحمراويِّ، ومسافة ما بينها نحو (٩٠) كيلومترًا.

وبعد أن قطعنا هذه النُّفود الثَّلاثة وصلنا إلى رماح - والمسافة بين أمِّ عقلة ورماح (١٢٩) كيلومترًا - في السَّاعة التَّاسعة من صباح يوم الإثنين، وسافرنا مغادرين رماح مساءً عند السَّاعة الرَّابعة، ورماحُ هذا ماءٌ يسكنه بدو من قبيلتي حرب ومطير، وهو من الطِّوال وهي الآبار البعيدة القعر، ومنها: اللَّصافة والحفر، وطول آبار رماح بين

(٢٢) و (٢٤) باعًا، أو نحو (٤٥) مترًا، وقد رأينا في رماح الفقر المُجسَّم؛ القومُ عراةٌ جياعٌ مرضى، لا يستر طفلهم ساتر، ارتسم الجوع على وجوههم وحالفه الجهل والمرض، وحضرة القارئ يعلم أنَّ المملكة السُّعوديَّة غنيَّة بمواردها من الذَّهب الأصفر والأسود، وأنَّ دخلها يكفي لسعادةِ أهلها بكلِّ وسائل السَّعادة، ولكنَّ أنانيَّة بعض ولاة الأمور واستحواذ بعض من لا يُحْسِن التَّصرُّف استنفدت ذلك الدَّخل، فحرمت منه مستحقِّيه ونعمت فيه بغير حقٍّ.

بعد خروجنا من رماح بنحو أربع ساعاتٍ صَدمت سيَّارةُ الحاجِّ إسريع - وكان سائقها نائمًا - إحدى سيَّاراتِ القافلةِ الَّتي كانت تسير خلفنا فصَدمَت سيَّارتنا، لكنَّ الله سلَّم، فلم يتأثَّر بهذه الصَّدمة سوى اثنين في السَّيَّارة الوسطى؛ جُرِحَ أحدهُما، وانهارت أعصاب الثَّاني؛ لأنَّه كان غافلًا، وفي سنٍّ لا يتحمَّل فيها شدَّة الاصطدام، أمَّا سيَّارتنا فلم تتأثَّر بعطبٍ، وأمَّا السَّيَّارتان فقد أُصيبتا بشيءٍ من العَطبِ لم يُعَطِّل سيرهم، وبعد راحةٍ في الطَّريق واصلنا سيرنا صباحًا إلى أن وصلنا في التَّاسعة قرية مراة بعد سير (٢٨٦) كيلومترًا من رماح.

ومراة قرية لطيفةُ الهواء، عذبةُ الماء فيها مزارع وبساتين من النَّخيل واللَّيمون، وفيها دائرة برق، وقد رأيت فيها طفلًا يحملُ دفاتر، فسألتُه: أذاهبٌ إلى المدرسة؟ فقال: لا، بل مُنصرفٌ منها. وعلمت منه أنَّ في مراة مدرسة حكوميَّة تابعة للمعارف السُّعوديَّة هي أشبهُ بالكُتَّاب، فيها معلِّمان، وفيها أقلُّ من مئة تلميذٍ يتعلَّمون مبادئ القراءة والكتابة.

سُكَّان مراة من حَضَرِ نجدٍ، وفيهم بدو من هتيم ومن مختلف القبائل، وهي طريقٌ وسطٌ بين كثيرٍ من البلاد النَّجديَّة؛ لذا تجد فيها كثيرًا ممَّا يحتاج إليه المسافرون من وقودٍ للسَّيَّارات وقِطَعِ تبديلٍ لها، وفيها دكاكين تبيع أكثر ما يحتاجه المسافر بأثمانٍ معتدلة، وهي كغيرها من القُرى النَّجديَّة في الحالة الاجتماعيَّة.

خرجنا من مراة إلى الرَّبيعيَّة - والمسافة بينهما (٢٣) كيلومترًا - وهي غابةُ نخيلٍ، ومنذ دخلناها لم نرَ السُّموم المُحْرِقَةَ الَّتي رأيناها في غيرها، أكلنا فيها الخُضَرَ الطَّريَّة كالبِطِّيخ والقرع والباذنجان، وأكلنا الرَّطْب الطَّريَّ، ووجدنا عند أهلها لطفَ المعشر، وهي أوَّل قرية أعجبتنا منذ خرجنا من الكويت، تركناها السَّاعة الرَّابعة من مساء يوم الأربعاء بعد أن أقمنا فيها اثنتي عشرةَ ساعةً وقطعنا نفودها؛ وهي من نفود الدَّهناء، وقد ساخت[1] فيها عجلات سيَّارتنا وبعض السَّيَّارات الأُخرى، وطولُ هذا النُّفود سبعةُ كيلو مترات.

ومررنا في طريقنا بوادي عنيزة، وقطعناه في نحو ثلثي السَّاعة، وصلَّينا فيه المغرب والعشاء جمعًا جماعةً، وهو وادٍ ماؤه عذبٌ قريبٌ من وجه الأرض، فيه نخيلٌ وبساتين، لكنَّ أهله يجهلون الزِّراعة كما يجهلون غيرها من وسائل المعيشة، فقد رأيتهم يغرسون النَّخلة قرب النَّخلة والشَّجرة قرب الشَّجرة، ورأيت في طريقي ثلاثَ نخلاتٍ في حوضٍ لا يتجاوز قطره المترين، وبعد أن خرجنا من وادي عنيزة، وسرنا في أراضٍ وَعْرَةٍ، وأراضٍ سهلةٍ وصلنا إلى

(١) ساخت: غاصت في الأرض. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٧/ ٢٧٥).

أراض فسيحة، فافتقدنا إحدى سيَّاراتنا الَّتي تحمل أربعين راكبًا، وكانت قد أُصيبت بعطلٍ في مجرى وقودها، وبعد أن أُسعِفت وأُتِيَ بها بِتْنا في مكانِنَا حتَّى الصَّباح، وكانت هذه الأرض محاطةً من الغرب بوادي ذي الرُّمَّة، ومن الشَّمال بجبلين صغيرين لم أعرف اسمهما، والأرض سهلةٌ طيِّبةُ الرَّائحة؛ لأنَّها منبتُ حَمْضٍ ورَمْثٍ[١].

وقبل طلوع الشَّمس سرنا، وبعد ساعتين وصلنا جبال أبانات، ثمَّ بعدها وصلنا جبل قطن، وهو الحدُّ الفاصل بين نجدٍ والحجاز، وفي السَّاعة العاشرة نزلنا إلى مكانٍ اسمه عقلة الصُّقور، وهي مزارع صغيرةٌ تسكنها بيوتاتٌ[٢] من قبيلة حرب، والمسافة بين الرَّبيعيَّة وعقلة الصُّقور (٢٥٦) كيلومترًا.

وبعد أن استرحنا وصلَّينا الظُّهر والعصر جمعًا، سرنا بقيَّةَ يومنا وأكثرَ ليلنا حتَّى وصلنا صباحَ الجمعة إلى المدينة المنوَّرة بعد أن قطعنا في مسيرنا من عقلة الصُّقور إليها (٣٤٠) كيلومترًا، ولو كان الطَّريق مستقيمًا لكانت المسافة أقلَّ، ولكنَّ اعوجاج السُّبل والتفافها أطالَهُ، شأنها شأن سائر طرق المملكة، فلو أنَّنا سِرْنَا من الكويت تجاه الغرب دفعةً واحدةً إلى المدينة المنوَّرة لَمَا طالَ علينا الطَّريق، لكنَّنا سرنا منها جنوبًا إلى رماح، ثمَّ غرَّبنا نريد المدينة مع التواءٍ في

(١) الرمث: شجر يشبه الغضى، لا يطول ولكنه ينبسط ورقه، وهو شبيه بالأشنان. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٥/ ٢٦٤).

(٢) البيوتات: جمع الجمع من البيت، والبيت من بيوتات العرب: الذي يضم شرف القبيلة. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٤/ ٤٥٧).

الطَّريق، تارةً إلى الشَّمال وتارةً إلى الجنوب في أوديةٍ وهضابٍ وسهولٍ ورمالٍ.

وفي طريقنا من عقلة الصُّقور إلى المدينة المنوَّرة مررنا بماءٍ يُدعى النُّقرة، تحيط به هضاب صخريَّة سوداء، وتنتشر في أرضه قطعٌ صغيرةٌ من صخورٍ لامعةٍ تشبه الزِّفت، بعضها خفيف وبعضها ثقيل، فإذا كسرت الحصاة وجدت بمكسرها خطوطًا حمراء أشبه بلون الحديد، وبعد أن استرحنا فيها قليلًا منتظرين بقيَّةَ السَّيَّارات سرنا إلى ماءٍ اسمه العرجاء، وبعد أن استرحنا قليلًا وصلَّينا المغرب والعشاء جمعًا توجَّهنا إلى الحناكيَّة؛ وهي قريةٌ ذات نخيل ومزارع، ماؤها كريه الطَّعم والرَّائحة، وقطعناها في السَّاعة الحادية عشرة ليلًا، وواصلنا السَّير إلى المدينة وصلَّينا الفجر عند ماءٍ يقالُ له: الصُّويدرة.

وفي صباح يوم الجمعة (٢٠) من شهر ذي القعدة سنة (١٣٧٢هـ) الموافق (٣١) تمُّوز (١٩٥٣م) دخلنا المدينة من بابها المعروف بالشَّاميِّ، وليس هناك أبواب، لكن بقيت الأسماء على ما كانت عليه قبلًا، وأوَّل من قَابَلَنَا فيها مُفَتِّشو الجمارك، وقد فتَّشوا السَّيَّارات تفتيشًا صعبًا، فوضحت فيه الإهانة لحجَّاج بيت الله وزوَّار رسوله، وقد ساءني ذلك، فكلَّمت المفتِّش قائلًا: إنَّه ليس من اللَّائق بنا - ونحن حجَّاجٌ - أن نُقابل بمثل هذه المُقابلة، لكنَّه أجابني جوابًا جافًّا لا يخرج إلَّا من قليل التَّربية، وقد أوقع تفتيشه الشَّديد عليَّ، ممَّا دلَّ على أنَّه يقصدُ انتقامًا، وكانت معي بندقيَّتان للأولاد؛ ليصطادوا بهما

فاختطفهما وكأنَّه نال كسبًا، فأمرت الأولاد أن يعطياه ذخيرة البندقيَّتين، وطلبت فيهما إيصالًا؛ لأنِّي لم أحضرهما للبيع، والأحسن أن يظلَّا أمانةً عند الحكومة ما دُمنا في مدينة رسول الله، فأُسْقِطَت البندقيَّتان في يد حضرة المفتِّش، وقد بُلِّغَ أميرُ المدينة بهذا الفعل، فأمر بإعادة البندقيَّتين وذخيرتهما إليَّ.





المطوِّفون وعملهم

والمطوِّفون: هم أدلَّاء الحجَّاج في مكَّة.

في موسم الحجِّ لسنة (١٣٧١هـ)[١] وبعد فراغ الكويتيِّين من أداء النُّسك - وكانوا يومئذٍ قد عزموا على الرَّحيل من الأراضي المقدَّسة عائدين إلى الكويت - إذا بهم يُمنعون من السَّفر؛ لأنَّهم ملزمون بتسليم رسوم المطوِّفين، الَّتي لم يعتادوا دفعها؛ لكون الكويتيِّ لا يحتاج مطوِّفًا؛ إذ يعرف كيف يدعو ربَّه، فلم يسبق قطُّ أن استعان بمطوِّفٍ يخدمه أو يرحِّله وينزِّله، وهو بدوره أيضًا كريمٌ لا يبخل على من يحتاج إعانته وإحسانه من أولئك المطوِّفين الَّذين ينسبون أنفسهم إلى الكويت أو الخليج العربيِّ.

ولكن شاء اللهُ أن تُقضى أمور الكويتيِّين بعد إقامة عشرة أيَّامٍ في مكَّة، عطَّل فيها ذلك المطوِّف أمورَهم لحاجة في نفسِه يريد قضاءها، فسافروا إلى بلدهم دون أن يفرح ذاك المطوِّف منهم بقليلٍ أو كثيرٍ؛ فقد قطع عن نفسه معروف الكويتيِّ الَّذي يأتي للمطوِّفين دون مقابل، وقد علمنا ساعةَ وصولنا إلى المدينة أنَّ جماعة المطوِّفين في مكَّة شنُّوا الغارة علينا؛ لأنَّهم يريدون أن يسلِّم الكويتيُّ في المدينة مبلغًا

(١) أي: سنة (١٩٥١م).

مقدَّمًا قدره خمسةٌ وسبعون ريالًا سعوديًّا رسمًا للمطوِّف، وخمسةٌ وعشرون ريالًا سعوديًّا ضريبةً للطَّريق، ولكنَّ الحجَّاج الكويتيِّين ساءهم ذلك كثيرًا؛ لأنَّهم لم يُقَابَلُوا بمثل هذه الإهانة من قبلُ، وللحليم غضبتُه، وللكريم ثورتُه، لذلك اجتمعوا في مساء يوم الجمعة بخيمة رئيس الحملة وتناقشوا فيما بينَهم، وكتبوا هذه البرقيَّة لوليِّ العهد الأميرِ سعود (جلالة الملك، أَطَالَ اللهُ بقاءَهُ).

صورة البرقيَّة السَّبت (٢١-١١-١٣٧٢هـ)[1]

صاحبَ السُّموِّ الملكيِّ وليَّ العهد المعظَّم، الرِّياض.

نحن أهل الكويت وصلنا المدينة يوم الجمعة بصحبةِ الحملدار فهد الفهد، وعددنا (١٥٠) شخصًا، فطلبت منَّا هيئة المطوِّفين بالمدينة رسومًا على كلِّ حاجٍّ (٧٥) ريالًا، مع أنَّه سبق لصاحب الجلالة أن ألغاها العام الماضي؛ لأنَّ الكويتيَّ لا ينزل على مطوِّفٍ بمكَّة ولا يحتاج إلى خدماته.

صاحبَ السُّموِّ، عند وصولنا إلى منطقة قرية سلَّمنا ضريبةً قدرها (٢٥٥) ريالًا عن كلِّ سيَّارةٍ كبيرةٍ، وضريبةً قدرها (١٤٦) ريالًا عن كلِّ سيَّارة «وانيت»، والآن يُطْلَبُ منَّا ضريبةٌ قدرها (٢٥) ريالًا عن كلِّ نفرٍ، رسمًا يسمَّى بدلَ امتياز للشَّركة العربيَّة.

---

(١) أي: سنة (١٩٥٣م).

يا صاحبَ السُّموِّ! صدر أمرُ صاحب الجلالة في العام الماضي بإلغاء هذه الرُّسوم عن الكويتيِّ خاصَّةً، وعن غيرهم من رعايا الإمارات العربيَّة المتَّحدة عامَّةً، فهل يؤمر به هذا العام؟!

حرَّرناه لسموِّكم الملكيِّ، راجين إفادتنا بالأمر الواقع، ونحن للأمر مطيعون.

التَّوقيعات

١- راشد بن أحمد. ٩- إسريع العبد الرَّحمن، ورفقاه.

٢- سعدون العبد العزيز. ١٠- خليفة البحوه، ورفقاه.

٣- عبد الله النُّوريُّ، وأولاده. ١١- عبد الله طه، ورفقاه.

٤- عبد العزيز الوقيان. ١٢- عليٌّ السَّيِّد حامد.

٥- عبد الرَّحمن العبسي. ١٣- محمَّد الشَّايجيُّ.

٦- محمَّد الخال، ورفقاه. ١٤- عيسى مطر.

٧- عبد العزيز التُّويجريُّ. ١٥- أحمد بشارة.

٨- عليٌّ عبد العزيز.

وفي صباح الأحد راجعنا صاحب السَّعادة أميرَ المدينة، فلم نجد عنده خبرًا عمَّا جرى، وفي أثناء خروجنا علمنا أنَّ برقيَّةً أتت من سموِّ وليِّ العهد إلى حضرة صاحب السُّموِّ الملكيِّ نائب الملك في الحجاز الأمير فيصل، ونقلها إلى أمير المدينة وهذا نصُّها:

مستعجل جدًّا

الأخ فيصل لعبد الله السُّديريِّ أمير المدينة:

اِطَّلعوا على برقيَّة حجَّاج الكويت نمرة (١٠٩٢) بإمضاء راشد بن أحمد ورفقائه من المدينة.

الحقيقة تقضي بأَنْ ليس للمطوِّف حقٌّ؛ لأنَّ الحجَّاجَ أحرارٌ إن أرادوا النُّزول عند المطوِّف دفعوا عوائدَ المطوِّفين، وإن أرادوا النُّزول على نفقتهم الشَّخصيَّة فهم أحرار، ولا يمكن أن يُغصبوا على النُّزول عند المطوِّفين، وإن استلموا منهم دراهم تُرْجَعُ إليهم.

احرصوا على ذلك جيِّدًا.

سعود.

وكتب أمير المدينة إلى مدير الحجِّ الأمر الآتي:

عدد (١٤٨٠) نمرة (١)

حضرة مدير الحجِّ المحترم

نُبلِغُكُم:

في أعلاه صورةُ أمر سمُّوِّ سيِّدي وليِّ العهد المعظَّم - أيَّده الله - البرقيَّة موجَّهة لسموِّ سيِّدي الأمير فيصل بعدد (١٨٧٦٣) (٢٢-١١-١٣٧٢هـ)[1] المُبَلَّغ لنا صورةٌ منه بعدد (١٨٧٦٤)، (٢٢) منه، وفي طَيِّه

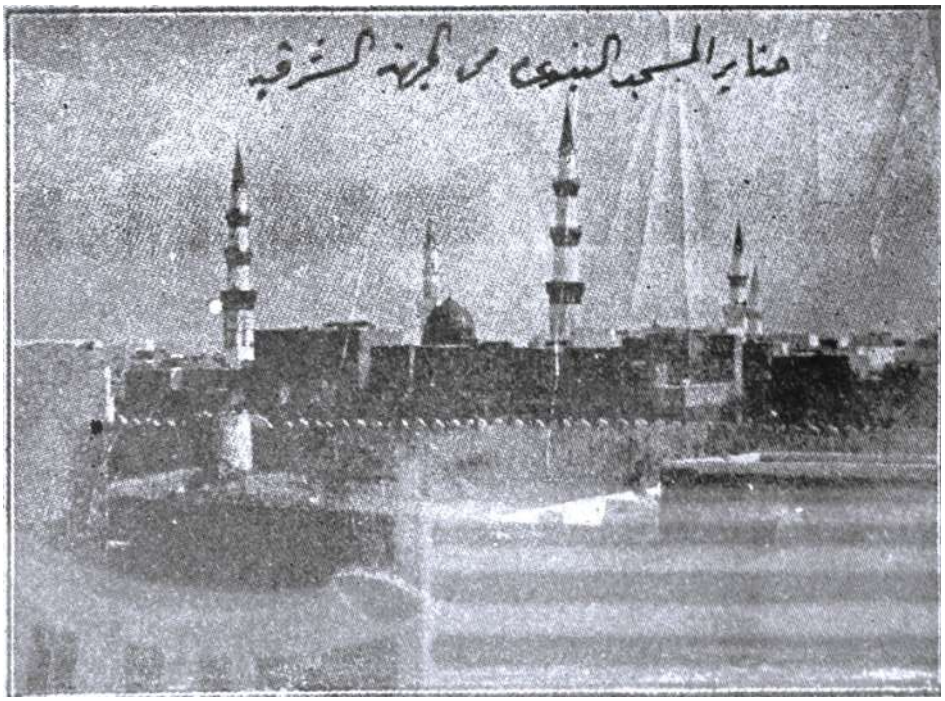
(١) أي: سنة (١٩٥٣م).

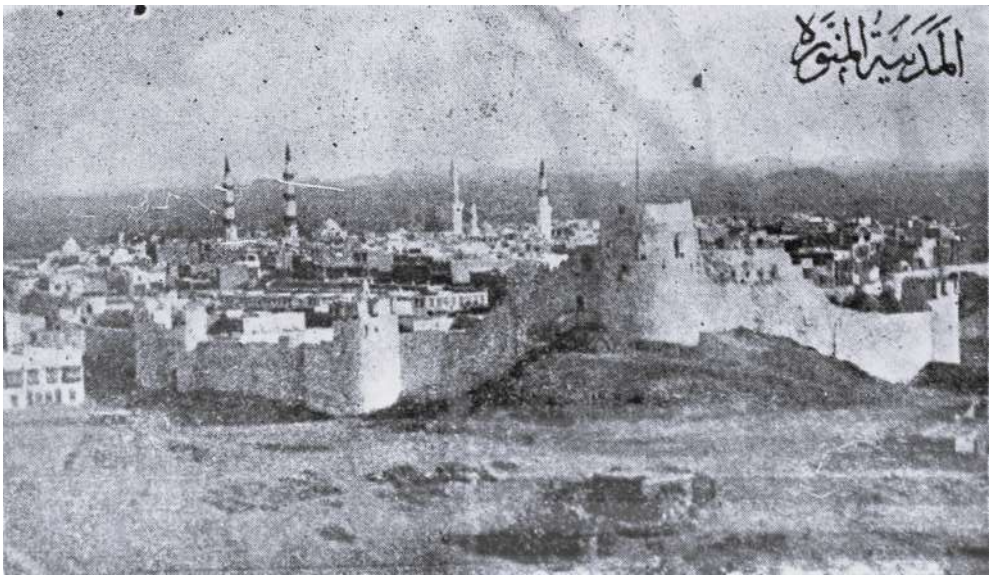
أيضًا برقيَّةُ حُجَّاج الكويت راشد بن أحمد ورفقائه للعلم بمنطوقه الكريم واعتماد مقتضاه، مع إبلاغ هيئةِ المطوِّفين ذلك؛ لإرجاع ما أُخِذَ من الحجَّاج المذكورين إن كان أُخِذَ منهم شيءٌ (٢٣-١١-١٣٧٢هـ).

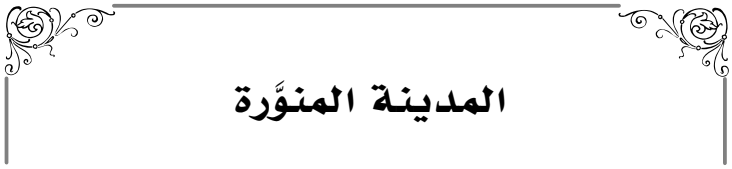
التَّوقيع

وكيلُ أمير المدينة

وفي صباح يوم الأحد (٢٣-١١-١٣٧٢هـ) الموافق (٣-٨-١٩٥٣م) ذهبنا إلى مدير الحجِّ، وبعد التَّرحيب بنا تكلَّم بعضنا معه بما يلزم، وشكر صاحبُ السُّموِّ وليُّ العهد لجلالةِ الملكِ لطفَه وبرَّه وعدلَه ورجا له ولجلالة الملك وأصحاب السُّموِّ طولَ البقاء، وردَّ الله كيد المطوِّفين في نحورهم، والحمد لله على ذلك.


منارة المسجد النبوي من الجهة الشرقية


المدينة المنورة



المدينة المنوَّرة

تاريخها قديمٌ، ويقول بعض المؤرخين: إنَّها من وضع المصريِّين، وإنَّ اسمها في القديم «اتربس» حرَّفه العرب إلى يثرب، وهي تقعُ على خطِّ عرض (٢٤) وربعٍ، وعلى ارتفاع (٢٠٢٠) قدمًا عن سطح البحر أو (٦١٩) مترًا، وهي مدينةٌ جميلة الهواء، عذبة الماء، تقعُ في سهلٍ عريضٍ منبسط، يحدُّه من الشَّمال جبل أُحد، ومن الجَّنوب جبل عير، ومن الشَّرق حرَّة واقم، ومن الغرب حرَّة الوبرة، تكثرُ فيه البساتين المملوءة بمختلف أشجار الفواكه، وفي المدينة غابات نخيلٍ كثيرةٌ، وأرضها خصبةٌ.

وقد دخلتُ كثيرًا من بساتينها فأعجبني نظام الزِّراعة والرَّيِّ فيها، والمدينة تُصدِّر إلى القرى المجاورة لها كثيرًا من فاكهتها من عنبٍ وليمون، وأغلب خضرها النَّعناع، وشراب اللَّيمون أحسن ما يقدَّم عندهم للضَّيف صيفًا.

عدد سكَّانها ببادیتها أربعون ألفًا أو يزيدون قليلًا، أمَّا سكَّان المدينة وحدها فنحو أربعة عشر ألفًا يغلب عليهم حسن الخُلق وحلاوة الحديث ولين الجانب وإكرام الضَّيف، والذَّكاء الفطريُّ غالبٌ على شبابهم، لكنَّه ذكاءٌ ضائعٌ؛ لقلَّة المدارس الَّتي تُنْمِي هذا الذَّكاء أو تستثمره، فلهذا نجده قد مات في مغرسه الأوَّل، فالمدينة المنوَّرة الَّتي كانت في الصَّدر الأوَّل من الإسلام مدينةَ العلمِ لا تجد

فيها سوى ثلاث مدارس أسماؤها أكبر منها، وكلُّها لا تعدو أن تكون مدارس ابتدائيَّةً تُعلِّم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب وكتب العبادات من الفقه.

ولتحالف الفقرِ والجهلِ أصبحَ النَّاس أغلبهم يمتهنون حرفة السُّؤال بصورةٍ لطيفةٍ أيَّامَ الحجِّ، فنجد منهم في المسجد النَّبويِّ السَّاقي والمزوِّر، ومن يستعمل المروحة فيحرِّكها ليجلبَ نسيم الهواءِ للنَّاس، ومنهم من يقرأ القرآن على ملأ من السَّامعين، ومنهم من يستخدم ولده عندما يشتدُّ ساعده في صنعةٍ أو عملٍ ولو بشيءٍ قليلٍ يعينه على تَكْلِيفَاتِ الحياة، وهؤلاء كُثُرٌ، ولو أنَّ هذا الأبَ ترك ولده ليتعلَّم ما ينفعه في دينه أو دنياه، أو أنَّ الحكومة فتحت أبواب التَّعليم، أو أجبرت بعض الأولياء على تعليم من ولَّاهم الله أمرهم لنفعوا أنفسهم وبلادهم.

وفي المدينة مكتباتٌ ثلاثٌ، أكبرها مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت، وأحدثها مكتبة الحرم النَّبويِّ أسَّسها جلالة الملك عبد العزيز السُّعود، لكنَّها مكتبات مهجورةٌ؛ لشيوع الأُمِّيَّة في البلاد، وقد قابلت كثيرًا من الصِّبية أكثرهم أُمِّيٌّ أو شِبه أُمِّيٍّ، والسَّبب في ذلك أنَّ هذا يُعيْلُ عاجزًا، وذاك يُعيْلُ أرملةً، وهذا يساعد أباه في الكسب.

هذه المدينة الَّتي كانت في الصَّدرِ الأوَّل من الإسلام منهل المسلمين في العلم، وقطبها في الهداية عندما كانت عامرةً بمصابيح العلم الَّتي تنير معاهدها، ولكنَّ تلك السِّراج أظلمت، فأظلمت المدارس، وأقفرت المعاهد، وتفرَّق خلفاؤهم في البلاد لمَّا تغافل

ولاة الأمور عن النَّظر إليها وإلى أهلها، وتقاصرت همَّة أهلها عن استعادة مجدها، فخسر الإسلام مجده وتفرَّق شمل أهله، وتعدَّدت طوائفهم وضاقت الحدود عليهم؛ لأنَّه لا قطب يرجعون إليه في تيههم، ولا محور يجذبهم إليه في دورانهم.

إنِّي محدود الفكر قليل الدِّراية في السِّياسة لكنِّي أقول: بدأ مجد الإسلام من المدينة ولن يعود مجده إلَّا إذا عاد مجد المدينة لها، فهي منبع هذا المجد، فيا أيُّها المسلمون بدأ سعدكم من المدينة المنوَّرة، فأعيدوه إليها يَعُدْ إليكم عزُّكم.



المزوِّرون

عند دُخولِكَ المسجدَ النَّبويَّ يضايقُكَ كثيرٌ من النَّاسِ يُسمُّونَ أنفُسَهم مزوِّرين، ولا أُبالغ إذا قلتُ: إنَّ أكثرَ أهل المدينة قد اتَّخذوا هذه الصِّفة في مواسم الحجِّ والزِّيارة وتلبَّسوا بها.

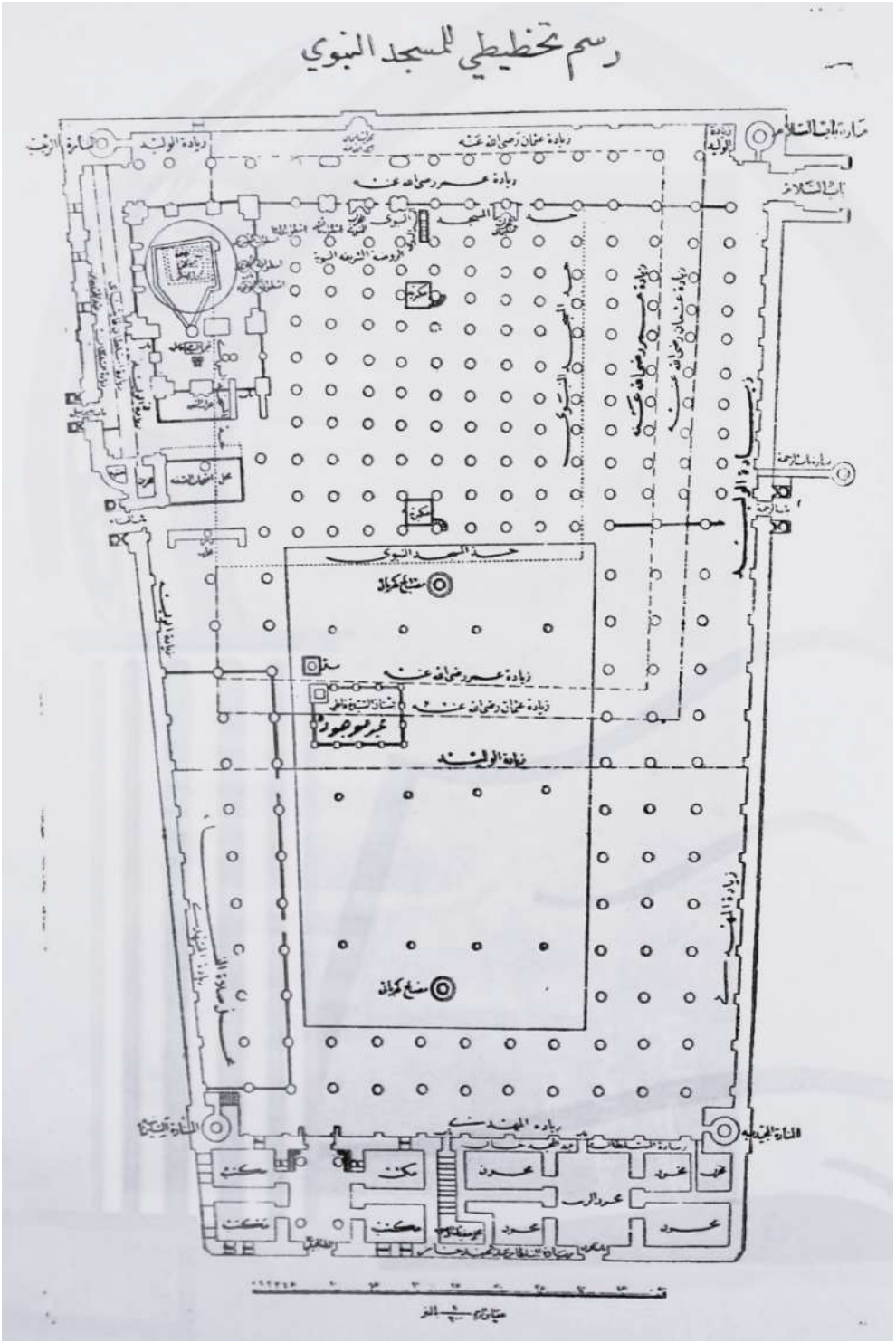
ومزوِّر: مشتقَّة من زوَّر، وتحتمل ثلاثةَ معانٍ: المعنى الأوَّل: المضعَّف من زار إذا تعدَّى إلى مفعولين، كقولك: زوَّرته الدَّار أو القبرَ، والمعنى الثَّاني: النِّسبة إلى الزُّور أو تزيين الكذب، والمعنى الثَّالث: زوَّره بمعنى: أكرمه بما قدَّمه إليه بعد زيارته له، كقولك: زوَّرت فلانًا لمَّا زارني؛ أي: قدَّمتُ إليه ما يُقَدَّمُ للضَّيف، والقوم اتَّخذوا المعنى الأوَّل، وهو أنَّهم يستقبلون زائر المدينة أو زائر المسجد النَّبويِّ، فيزوِّرونه قبرَ الرَّسول ﷺ، ويُلَقِّنونَه صيغةً لا أعلم من أين جاؤوا بها! بصوتٍ يخلو من أدبٍ، فلا يرقى لأن يكون من مسلم لنبيِّه، مخالفين قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾ [الحُجرَات: ٢-٣].

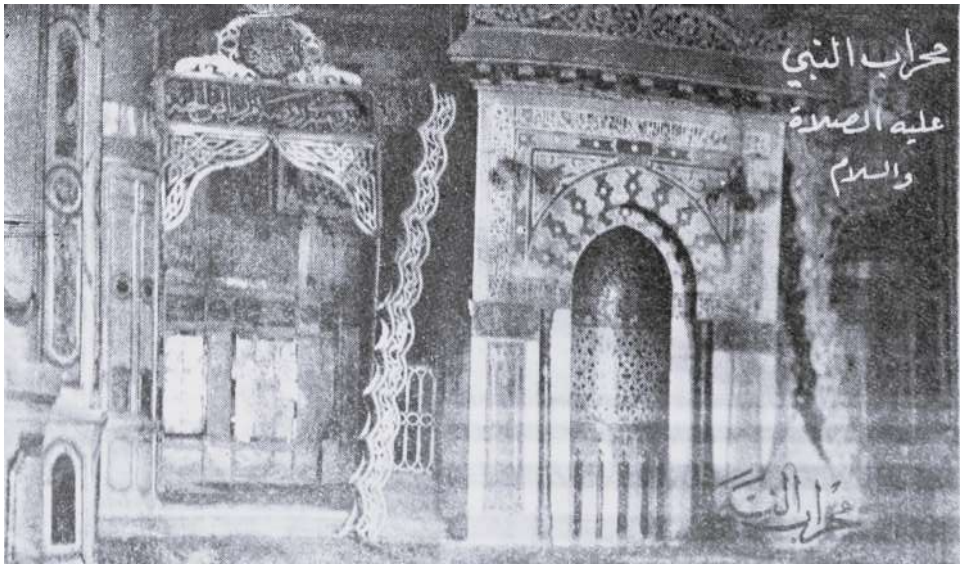
فالمسلمُ بطبيعة الحال يعلم أنَّه قادمٌ إلى قبرِ نبيِّه، فيُسلِّم عليه معتقدًا أنَّه يُسلِّم على البشر الَّذي اختاره الله فبعثه إلى النَّاس كافَّةً بشيرًا ونذيرًا، فيمتلئ قلبه خشيةً ووقارًا واحترامًا وتعظيمًا لمن هو

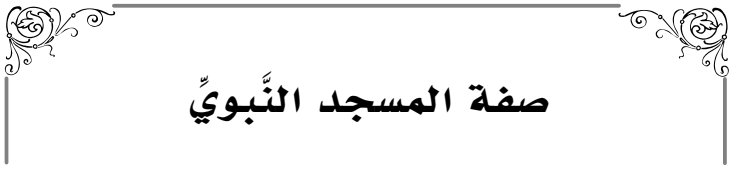
واقف أمام قبره، وربَّما امتدَّ به الخيال واتَّسع، فشعر بما هو أكثر من ذلك، وإذا بهذا المزوِّر يرفع صوته بأقصى جهده، وإذا بهذا الشُّعور، وهذه الخشية قد فرَّت، وإذا بالزَّائر يتبع المزوِّر برفع صوته، فيخسر الزَّائر المعنى الرُّوحيَّ للزِّيارة، وإذا به يأثم لمخالفته أمر الله ﷻ: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢]، وإذا بالإثم المركَّب يعود على المزوِّر؛ لأنَّ الدَّالَّ على الشَّرِّ كفاعله.

أذكر أنَّني جئت مع ابني لزيارة قبر الرَّسول ﷺ غير محتاجٍ إلى مزوِّرٍ ولا إلى تزوير، دخلت المسجد، وقصدت الرَّوضة، وصلَّيت ركعتي تحيَّةِ المسجدِ، وتَبِعني ابناي، وشرحت لهما حدود الرَّوضة، وحدود المسجد النَّبويِّ، ومكان الحجرات والزِّيادات الَّتي طرأت على المسجد، ومكان دور عليٍّ وأبي بكرٍ وعمر وأبي أيُّوب رضي الله عنهم، وتاريخ المسجد الشَّريف، وكيف اشتراه النَّبيُّ ﷺ من اليتيمين، وكيف كان ناديًا ومدرسةً وديوان حربٍ ومصلًّى ومجتمعًا ودار شورى، وكان مكانًا للنَّشاطات كلِّها في عهد رسول الله ﷺ، ثمَّ قمنا للمواجهة الشَّريفة، وإذا بشيخٍ حسن المنظر تملأُ وجهَهُ لحيةٌ بيضاءُ تزيدهُ وسامةً وَضَعَ يده على كتفي، وقال: مزوِّر يا شيخ، قلت: تفضَّل، ووقفنا أمام الحجرة الشَّريفة، والتفت إليَّ ولديَّ وإذا بهما قد اغرورقت عيناهما فدمعت عيني، وإذا بالمزوِّر يصيح بأعلى صوته دون أدبٍ للمقام وصاحبه: بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، فطارت دمعة عيني، والتَفَتُّ إلى الشَّابَّين فوجدتهما قد اعتراهما ما اعتراني؛ لهذا عزمت ذلك اليوم أن أزوره عند هدأة النَّاس، وفي الأوقات الَّتي تسبق الصَّلوات.




رسم تخطيطي للمسجد النبوي
زيادة عثمان رضي الله عنه
زيادة عمر رضي الله عنه
المنبر
المحراب
زيادة عثمان رضي الله عنه
زيادة عمر رضي الله عنه
زيادة الوليد
حد المسجد النبوي
مصابيح كهربائية
زيادة عمر رضي الله عنه
زيادة عثمان رضي الله عنه
أساطين القبة والمظلة
حجر موجودة
زيادة الوليد
مصابيح كهربائية
زيادة المهدي
عمود
عمود
عمود
عمود
عمود
عمود
عمود
عمود
عمود


محراب النبي
عليه الصلاة
والسلام



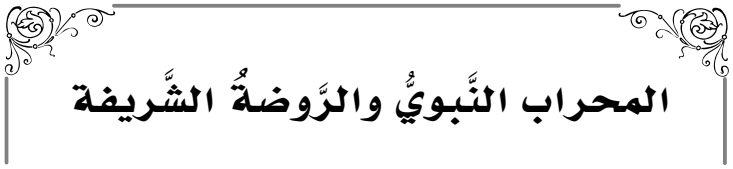
صفة المسجد النَّبويِّ

موقعه في قلب المدينة، وهو شبه مستطيلٍ لم أذرعه[١]، ولكن قيل لي: إنَّ طوله (١١٦) مترًا من الشَّمال إلى الجنوب، وعرضه من الجنوب (٨٦) مترًا، ومن الشَّمال (٦٦) مترًا.

بناؤه شامخ، وأغلبه مسقَّفٌ بالقباب، عددُها (٣٢٧) قبَّةً، كلُّها مُزخرفةٌ بأنواع الزُّخرف من أزهارٍ وصور نباتاتٍ ونقوشٍ، تأخذ بالألباب، بينها آياتٌ قرآنيَّة وأبياتٌ شعريَّةٌ في مديح النَّبيِّ ﷺ، كلُّها مكتوبةٌ بخطٍّ جميلٍ بديعٍ منه الكوفيُّ والنَّسخ والرُّقعة، أمَّا جداره القبليُّ - وهو الجدار الجنوبيُّ - ففيه من الزَّخرفة شيءٌ كثيرٌ في منتهى الدِّقَّة والنِّظام، وفي المسجد ستَّة محاريب: محرابان يقعان على الحدِّ القبليِّ لمسجد الرَّسول، وهما المحراب النَّبويُّ والمحراب السُّليمانيُّ، والثَّالث يقع في الجدار القبليِّ للمسجد، ويسمَّى: المحراب العثمانيُّ، وهو المحراب الَّذي يقوم فيه الإمام أيَّامَ المواسم والحجِّ، والمحراب الرَّابع محراب التَّهجُّد، قيل: إنَّه بُنِيَ في متهجَّد الرَّسول ﷺ، والمحراب الخامس محراب فاطمة، وهو داخل المقصورة، والمحراب السَّادس في شماليِّ دكَّة الأغوات، ولا أعلم لماذا بُنِيَ!



(١) ذرع الثَّوبَ وغيره: قدَّره بالذِّراع. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٨/ ٩٤).

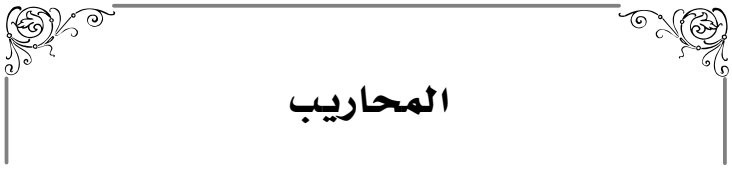


المحراب النَّبويُّ والرَّوضةُ الشَّريفة

يقع محراب النَّبيِّ ﷺ شرقَ المنبر، وهو مُزَيَّنٌ بالآيات المنقوشة بماء الذَّهب، وبقطعٍ ملوَّنَةٍ من الرُّخام، وأجملُ ما فيه العمودان الجانبيَّان، وهما من الرُّخام الأحمر الباهت، تَعلُوه قبَّةٌ مخروطيَّة الشَّكل مربَّعة القواعد، فوقها هلالٌ من النُّحاس الأصفر، وبين القبر والمنبر الرَّوضةُ الشَّريفة الَّتي ورد فيها الحديث الشَّريف الصَّحيح: «**ما بَينَ قَبرِي وَمِنبَرِي رَوضَةٌ مِن رِيَاضِ الجَنَّةِ**»[1]، طولها (٢٢) مترًا وعرضها (١٥) مترًا، وأعمدةُ الرَّوضة تخالف أعمدة المسجد؛ فالثُّلث الأسفل منها مرخَّمٌ بالرُّخام الأبيض، كما أنَّ أعمدةَ المسجد النَّبويِّ القديم مكسوَّةٌ بقطع الرُّخام المُذهَّب أعلاه.



(١) رواه أحمد، رقم: (١١٦١٠).



المحاريب

المحراب السُّليمانيُّ: يقع إلى يمين المحراب النَّبويِّ، والمسافة بينهما أقلُّ من عشرة أمتار، وهو شبيهٌ بالمحراب النَّبويِّ، بناه السُّلطان سُليمان العُثمانيُّ مع المحراب النَّبويِّ سنة (٩٣٨هـ)[١].

المحراب العثمانيُّ: يقع وسط الجدار القبليِّ للحرم النَّبويِّ، وهو محرابٌ فخمٌ جدًّا، مُحَلًّى بقطعٍ من الرُّخام اللَّامع، وفوقه آياتٌ قرآنيَّةٌ مكتوبةٌ بخطٍّ في غاية الإبداع، ويُنسَبُ لعثمان بن عفَّان رضي الله عنه.



(١) أي: سنة (١٥٣٢م).

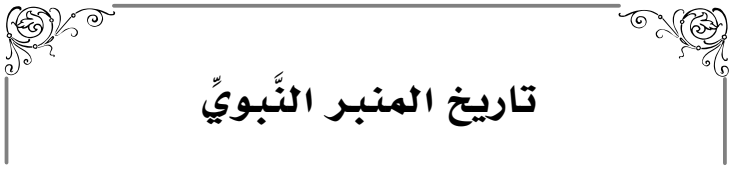


المنبر

مصنوعٍ من المَرْمَرِ[١]، وظاهره مطليٌّ بالذَّهب وبنقوشٍ خلَّابة[٢]، وفوقه قبَّةٌ لطيفةٌ مخروطيَّةُ الشَّكلِ، قائمةٌ على أربعة أعمدة من المرمر، لطيفةُ الصُّنع، وله اثنتا عشرة درجةٍ، يقال: إنَّ السُّلطان مراد العثمانيَّ أرسله إلى المسجد النَّبويِّ في أواخر القرن العاشر من الهجرة النَّبويَّة، وذلك منقوشٌ على المنبر.



(١) المرمر: وهو الرُّخام الأملسُ. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٦/ ٤٩٩).
(٢) يُقال خَلَبَت عقله؛ أي: سلبته إيَّاه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢/ ٣٧٨).



تاريخ المنبر النَّبويِّ

كان ﷺ يخطب غير مستندٍ إلى شيءٍ، ثمَّ خَطَبَ إلى جذع النَّخلة يعتمد عليه، ثمَّ بدا له أن يتَّخذ منبرًا من خشب الأثل[١] ذا درجات ثلاث، وكان يقف على الثَّالثة.

فلمَّا خطب أبو بكر نزل درجةً، ثمَّ نزل عمر درجة، وقام عثمان على الدَّرجة السُّفلى ستَّة سنين، ثمَّ رقي حيثُ كان رسول الله ﷺ يخطب، وهو أوَّل من كسا المنبر ثيابًا قبطيَّة، ثمَّ زاد فيه مروان ستَّ درجات من أسفله، وكان الخلفاء وعمَّالهم يقفون على السَّابعة الَّتي هي الأولى من المنبر النَّبويِّ.

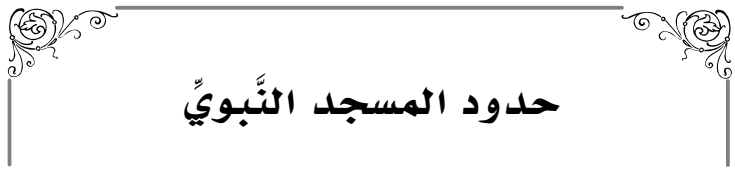
وبقي المنبر والحال هذه حتَّى احترق المسجد سنة (٦٥٤هـ)[٢]، واحترق المنبر، ومنذ ذلك اليوم والأمراء يجدِّدون منبر الحرم النَّبويِّ إلى أن كانت سنة (٩٩٨هـ)[٣]، حيث أرسل السُّلطان مراد العثمانيُّ المنبر الموجود اليوم الَّذي يعدُّ من عجائب الدُّنيا، فلا مثيل له في جميع مساجد العالم الإسلاميِّ.



(١) الأثل: شجرٌ شبيهٌ بالطرفاء إلا أنه أعظم منه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣/ ٥٠٠).

(٢) أي: سنة (١٢٥٦م).

(٣) أي: سنة (١٥٩٠م).



حدود المسجد النَّبويِّ

يستطيع زائر المسجد أن يعرف حدَّ المسجد النَّبويِّ من أعمدة المسجد، إذ إنَّ الأعمدةَ كلَّها لونها أحمر عدا أعمدةِ المسجد النَّبويِّ والرَّوضة الشَّريفة الَّتي تخالف تلك الأعمدة في أنَّها مكسوَّةٌ إلى أقلَّ من نصفها بالرُّخام الملوَّن وعددها (٣٢) عمودًا.





الأبواب

أبواب المسجد خمسةٌ كما أنَّ مآذِنَهُ خمسٌ، وهي:

١- باب السَّلام: وعليه منارته، يقع في الجنوب الغربيِّ، ويدخل على الزِّيادة.

٢- باب الرَّحمة: يقع شمال باب السَّلام، وعليه منارته.

٣- باب النِّساء: مقابلٌ بابَ الرَّحمة من الشَّرق تمامًا.

٤- باب جبريل: يقع حِذَاءَ[١] باب النِّساء من الجنوب.

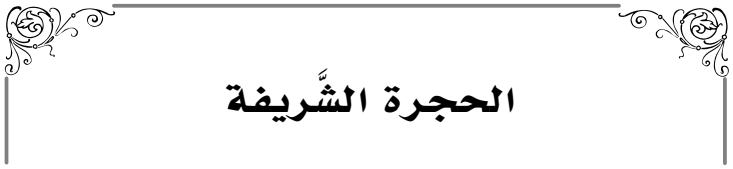
٥- الباب المجيديُّ: يقع شمال شرقيِّ المسجد.

وهي أبوابٌ ضخمةٌ غايةٌ في الجودة والحسن.

أمَّا المنائر فمنارة باب السَّلام، ومنارة باب الرَّحمة، والمنارة المجيديَّة الَّتي تقعُ في الزَّاوية الشَّماليَّة الغربيَّة لصحن المسجد، والمنارة السُّليمانيَّة في الزَّاوية الشَّماليَّة الشَّرقيَّة وتقابل المنارة المجيديَّة، والمنارة الرَّئيسة الَّتي تقع في الزَّاوية الجنوبيَّة الشَّرقيَّة للمسجد.



(١) الحذاءُ: الإزاءُ، يقال: حاذاه؛ أي: صار بإزائه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٧/ ٤١٣).



الحجرة الشَّريفة

هي الحجرة الَّتي تضمُّ القبور الثَّلاثة الشَّريفة: قبرَ النَّبيِّ ﷺ، وقبرَي صاحبيه: الصِّدِّيق والفاروق رضي الله عنهما، وهي السُّور الخارجيُّ المربَّع المعروف، طوله من الشَّمال إلى الجنوب ستَّةَ عشر مترًا، ومن الشَّرق إلى الغرب خمسةَ عشر مترًا، داخله دائر مخمَّس، تعلوه القبَّة الخضراء، والبناءُ الحاليُّ هو بناء الملك الأشرف قايتباي، وللسُّور الخارجيِّ أربعة أبوابٍ: بابٌ جنوبيٌّ مقابل للقبلة هو باب المواجهة، وبابٌ في الشَّمال، وبابٌ في الشَّرق، وبابٌ في الغرب.

مُسبَلٌ على السُّور الخارجيِّ ستائر من الأطلس الأخضر قديمةُ الصُّنع، تآكلَ بعضها، وتغيَّر بعضها الآخر، وفي سنة (٥٥٧هـ)[1] حفر الملك نور الدِّين الشَّهيد خندقًا عميقًا حول الحجرة الشَّريفة، وصبَّ فيه الرَّصاص لِيَحُوْلَ بين الجسد الشَّريف وبين من يُريد الوصول إليه، ولهذا الحفر قصَّةٌ طويلةٌ، مُلخَّصها: أنَّ نور الدِّين الشَّهيد المعروف بالزِّنكيِّ بَلغَه أنَّ الصَّليبيِّين قد بَعَثُوا إلى المسجد النَّبويِّ الشَّريف مَن يسرق لهم الجُثَّة الشَّريفة، وأنَّه رأى في منامه استغاثةً من النَّبيِّ ﷺ، فحفر حول المقصورة الشَّريفة خندقًا نزل بأساسه إلى منابع الماء، ثمَّ أفرغ عليه الرَّصاص.



(١) أي: سنة (١١٦٢م).

تاريخ المسجد النَّبويِّ

أسَّسه رسول الله ﷺ يوم جاءَ المدينة مهاجرًا، وكان موضعه مِرْبَدًا[١] لغلامين يتيمين في المدينة هما سهل وسهيل ابنا عمرو، فاشتراه منهما ودفع ثمنه إلى معاذ بن عفراء الَّذي كان اليتيمان في رعايته، ومساحته يوم ذاك خمسةٌ وثلاثون مترًا في ثلاثين.

بناه ﷺ من اللِّبن، وسَقَفَه بالجَريد[٢]، وجعل عمده من الجذوع، وشاركَ أصحابَه في بنائه، وعمل فيه بيديه، وكان بناءً بسيطًا لا أبَّهة[٣] فيه ولا زخرف، تتجلَّى فيه روح التَّواضع والإخلاص.

ثمَّ زاده ﷺ في العام السَّابع فكان مربَّعًا، ثمَّ زاده عمر من الجنوب خمسة أمتار، ومن الغرب عشرة أمتار، ومن الشَّمال خمسة عشر مترًا، ثمَّ جدَّد عثمان بن عفان البناء، فبناه بالحجارة والجِصِّ[٤] والعمد المحشوَّة بالحديد، وسقفه بالسَّاج[٥]، وزاده من الشَّرق

(١) المربد: قال الجوهري: أهلُ المدينة يسمُّون الموضع الذي يُجَفَّف فيه التمر ليَنشَف مربدًا. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٨/ ٨٢).

(٢) الجَريد: جمعُ جريدة، وهي السَعَفةُ طويلةٌ رطبةٌ. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٧/ ٤٩٢).

(٣) الأُبَّهةُ: العظمةُ والبهجةُ. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٦/ ٣١٧).

(٤) الجصُّ: هو الذي يُبنى به. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٧/ ٥٠٥).

(٥) السَّاجُ: خشبٌ أسودُ، يُجلَبُ من الهند، ولا تكاد الأرضُ تُبْلِيه. انظر: تاج =

والغرب والشَّمال والجنوب، وجعل له ستَّة أبواب بقي منها الآن أربعةٌ غير الباب المجيديِّ.

وفي سنة (٨٨هـ)[١] جدَّد بناءَه الوليدُ بن عبد الملك، وأدخل فيه حجرات أُمَّهات المؤمنين، وأقام الدَّائر المخمَّس على القبر الشَّريف، وسقفه بالسَّاج، ونقش جداره بالفسفياء والمرمر، وذهَّب سقفه وأعمدته.

وفي سنة (١٦١هـ)[٢] أدخل آخرَ زيادةٍ من الجهة الشَّماليَّة الخليفة المهديُّ ابنُ أبي جعفر العبَّاسيُّ، وفي سنة (٦٥٤هـ)[٣] احترق المسجد فأمر الخليفة المستعصم العبَّاسيُّ بتجديد بنائه، وسقطت الدَّولة العبَّاسيَّة قبل إكماله، فأكمله الظَّاهر بيبرس البندقداريُّ ملك مصر، ثمَّ دخلت فيه تحسينات كثيرة، وآخر عماراته العمارةُ الكُبرى الَّتي أقامها السُّلطان عبد المجيد، وقد بدأها سنة (١٢٦٥هـ)[٤]، وانتهى منها سنة (١٢٧٧هـ)[٥]، وفيها فُتِحَ الباب المجيديُّ، وسُمِّي باسم فاتحه، ولم تزل أيدي ملوك الإسلام تعمل في إصلاح هذا المسجد الشَّريف وترميمه وتحسينه، وتقوم الحكومة السُّعوديَّة الآن

= العروس، للزبيدي (٦/ ٥٠).

(١) أي: سنة (٧٠٧م).

(٢) أي: سنة (٧٧٧م).

(٣) أي: سنة (١٢٥٦م).

(٤) أي: سنة (١٨٤٩م).

(٥) أي: سنة (١٨٦٠م).

بتعمير الرُّواق الغربيِّ لصحن المسجد، وإدخال زيادة فيه.

إنَّ نظرةً بسيطةً منَّا إلى هذه العمارات، وجولةً سريعةً في تاريخها تجعلنا ندرك عناية المسلمين وولاتهم بمسجد نبيِّهم ﷺ، ونعرف ما لمسجد رسول الله ﷺ من المكانة في قلوبهم، حقَّق الله للمسلمين آمالهم، وأحيا بتآلفهم معالمَ دينهم.



صحن المسجد

للمسجدِ صحنٌ واسعٌ مفروشٌ بالرَّمل الخشن الورديِّ المجلوب من وادي العقيق، وتراه بلونه الورديِّ وقد اختلط بِحَبِّ الحِنطة الذَّهبيِّ الَّذي يرميه الزَّائرون لحمام المسجد ابتغاءَ الثَّواب، ولو أنَّهم فعلوا غير ذلك لكان لهم من الثَّواب أعظمُ من ذلك، فلو أنَّهم تصدَّقوا بثمن هذا البرِّ أو تصدَّقوا به على فقراء المدينة ومُحتَاجيها لأشبعوا جائعًا هو أولى بملء بطنه من هذا الطَّائر الَّذي يدرك قوته ويكفيه القليل منه.

حديث النَّفْس في المسجد

دخلنا المسجد من باب السَّلام، وقلنا الدُّعاء المأثور: «**اللَّهمَّ أَنتَ السَّلامُ ومنكَ السَّلامُ، تباركتَ ذا الجلالِ والإِكرَامِ**»(١)، وللسَّلام معانيه؛ فمنها التَّحيَّة، ومنها الانقياد والخضوع لربِّ البريَّة، ومنها البراءة من العيوب، ومنها النَّجاة من العاهات والمُصيبات.

وقصدنا الرَّوضة الشَّريفة الَّتي أخبر النَّبيُّ ﷺ أنَّها «**روضةٌ من رياض الجنَّة**»(٢)، وهي بين قبره ومنبره الشَّريفين، وصلَّينا ركعتين تحيَّةً للمسجد، وجلست أنتظر ولديَّ نوري وأحمد، وقد قاما ليُصلِّيا تسليمةً ثانيةً، ونظرت إلى المنبر المقدَّس، وتأمَّلت حدود المسجد القديم، وجال بخاطري موقف رسول الله ﷺ على المنبر الَّذي كان في هذا المكان منذ أربعة عشر قرنًا، وكان من جذوع النَّخل ثمَّ أُبدِلَ بخشب الطَّرفاء الأثل، وكان ﷺ يخطب منه في أصحابه، فينذر قريشًا ويدعو إلى الله على بصيرةٍ، ويهدي من يشاء الله هدايته، وكأنِّي به يقول على منبره مرشدًا إلى مكارم الأخلاق وتوحيد الكلمة وجمع الشَّمل بكلمته الجامعة: «**إيَّاكم والظَّنَّ، فإنَّ الظَّنَّ أكذبُ الحديث، ولا تحسَّسُوا، ولا تجسَّسُوا، ولا تحاسَدُوا، ولا تَدَابَرُوا، ولا**

(١) رواه مسلم، رقم: (١٣٦).

(٢) أخرجه الترمذي، رقم: (٣٩١٥)، وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه.

تَبَاغَضُوا، وكونوا عبادَ الله إخوانًا»[١].

نعم، هذا منبر رسول الله الَّذي أَسْمَعَ أصحابه منه خطبه، وهذا مسجده الَّذي أمر ببنائه أوَّل وصوله المدينة؛ دار هجرته، وعمل فيه بيده وجعله معبدًا تُقامُ فيه الصَّلوات، وتؤدَّى فيه العبادات، وخارجَ هذه الأوقات كان ناديًا يجتمع فيه ﷺ بأصحابه يتحدَّثون بما يطيب لهم فيه الحديث، ويتذاكرون ما يُصْلِحُ أحوال دينهم ودنياهم، وكان مدرسةً يعلِّم فيها محمَّد ﷺ أصحابه من الشُّيوخ والشَّباب والرِّجال والنِّساء الدُّروس العِلميَّة والعَمليَّة والخُلُقيَّة، فيُعَلِّمهم الكتابَ والحِكمة ويُزَّكيهم بالنَّصائح، ويدلُّهم على الثَّبات والصَّبر في المُلِمَّات ويُرشدُهم إلى الإيمان الحقِّ بالله والمبدأ والحقيقة والنَّفس.

وكان المسجد مجلس شورى يجتمع فيه محمَّد ﷺ بأصحابه، فيطرحُ كلُّ فردٍ منهم رأيه بما ينفع مجموعتهم الإسلاميَّة، ويُعلِي كلمتها، ويقوِّي شوكتها، ومتى حَزَبَهم أمرٌ[٢] فما أسرع من أن تسمع المنادي ينادي: الصَّلاةُ جامعةٌ، فتُقْبِلُ الأمَّة بشيبها وفتيانها إلى المسجد، ولا ينفضُّ الاجتماع إلَّا وقد قرَّروا الرَّأيَ الصَّائب.

وكان هذا المسجد مجلسًا عسكريًّا، فكم من غزوةٍ بدأها الرَّسول من هذا المسجد؟! وكم من سريَّةٍ عقد لواءها لقائدها فيه؟! وكان محكمةً لفضِّ الخصوماتِ وحسمِ الدَّعاوي وحلِّ المشكلات، وفيه

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٦٠٦٤).

(٢) حزبه الأمر: نابه وأصابه واشتد عليه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢/ ٢٦٤).

قال ﷺ الحديثَ المأثور: «**إنَّما أنا بشرٌ، وإنَّكم تختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضكم أن يكون ألحن بحُجَّته من بعضٍ، فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حقِّ أخيه شيئًا فلا يأخذه، فإنَّما أقطع له قطعة من النَّار**»[(١)].

وكان مستشفى تنصب فيه الخيام لجرحى الحرب؛ حتَّى يسهل على الأصحَّاء من أصحابه تمريض مرضاهم وجرحاهم، وقد ذَكَرَ التَّاريخ «**أنَّ سعد بن معاذ** رضي الله عنه **أصيب يومَ الخندق، فضرب عليه رسول الله** ﷺ **خيمةً في المسجد ليعوده من قريب**»[(٢)]، وكان ملجأً للعجزة والضُّعفاء ولمن لا مأوى لهم، وقد أمر ﷺ ببناء الصُّفَّةِ، وهي جناحٌ بُنِيَ في الجهة الشَّماليَّة الغربيَّة من المسجد؛ لتكون مأوى يقوم مقام التَّكايا[(٣)] والملاجئ في العصر الحاضر.

سيِّدي رسول الله عليك صلَّى الله؛ إنَّك لم تأمر ببناء مستشفى ولا بإشادة مدرسة ولا بإقامة نادٍ ولا معسكرٍ، وإنَّما بنيت مسجدًا لله، أمرتَ بأن يُرفعَ ويُذكَرَ فيه اسمُ اللهِ، فكان لله معبدًا وكان لعباده نافعًا مُسْعِدًا.

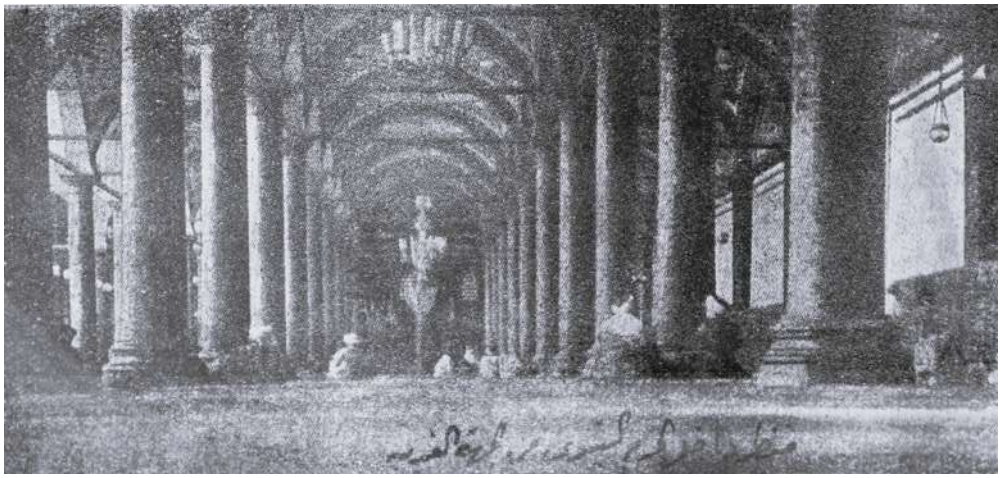
إنَّ أُمَّتَكَ - يا رسول الله - أهمَلَتْ أمرَ دينها، وصارت الدُّنيا أكبرَ همِّها وغايةَ قصدها، فلا النُّصح ينفع ولا النَّاصح يسمع، ها هي

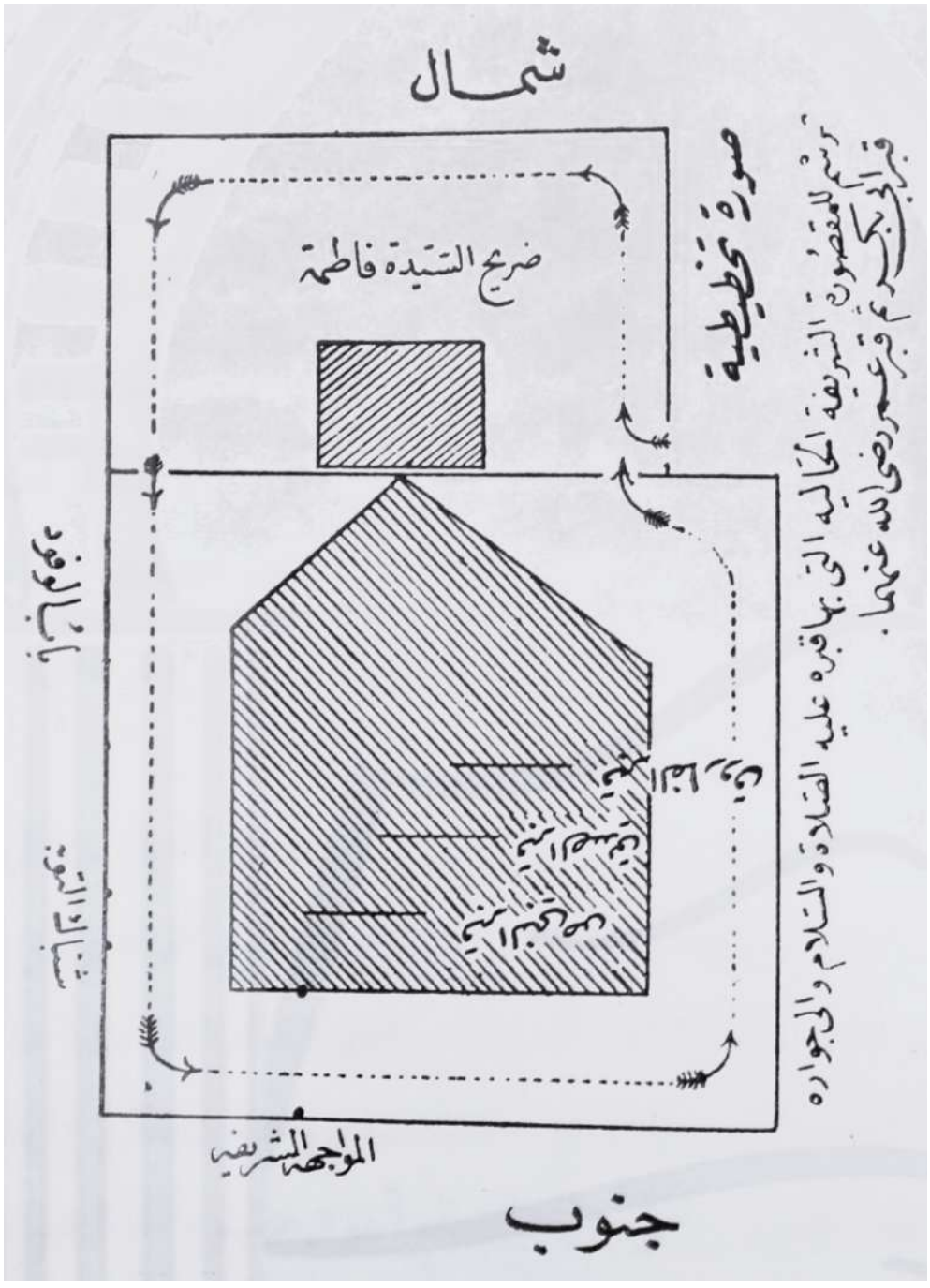
(١) رواه البخاري، رقم: (٧١٦٨).
(٢) رواه أحمد، رقم: (٢٤٢٩٤).
(٣) التَّكايَا: جمع تكية، وهي مكان يعدُّ لإيواء فقراء المسافرين. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد مختار عمر (١/ ٢٩٧).

المعابد عامرةٌ والقلوب غامرةٌ[١] خاربةٌ، والأجسام تسجد وتركع والقلوب تفكِّر بما تجمع، وقد خلف من بعد أولئك الصَّالحين خلف ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [مَريَم: ٥٩]، ربِّ أسألك وأنتَ السَّميع المُجيب أن تُصلح الأحوال وتجعل عاقبة أمرنا خيرًا من حاضره، إنَّك نِعم المولى ونِعم النَّصير، ثمَّ التفتُّ إلى ولديَّ فإذا هما قد أتمَّا صلاتهما ينتظرانني، فقمنا إلى المواجهة الشَّريفة.



(١) الغامر من الأرض والدُّور: خلاف العامر. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٥/ ٣٢).



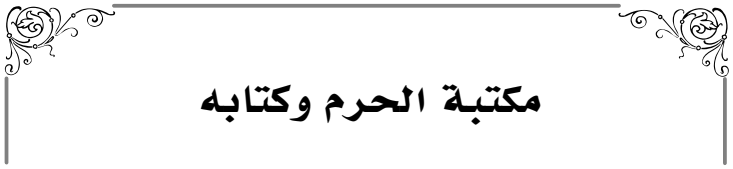


رسم للمقصورة الشريفة الحالية التي بها قبره عليه الصلاة والسلام والى جواره قبرا ابي بكر وعمر رضي الله عنهما.

أثاث المسجد وإنارته

يُفرَشُ المسجد بالسَّجَّاد التُّركيِّ بمختلف أحجامه، فمنه ما طوله ثلاثة أمتار وعرضه كذلك أو أقلُّ، ومنه ما طوله أكثر من ذلك، ويغلب على لون الجميع الحمرةُ المنقوشةُ بمختلف الألوان الزَّاهية، ومنه القديم ومنه الحديث، وفيه نخلتان من الصُّفر مثبَّتتان في الأرض لكلٍّ واحدةٍ منها جذر وجذع وسعف، وهما مثمرتان، وثمرها من قطع البلَّور الأبيض ينير في اللَّيل بالكهرباء، وفيه الثُّريَّتان الكبيرتان؛ إحداهما خارج الرَّوضة الشَّريفة من جهة الغرب والأخرى شماليها قليلًا، وغيرهما من قناديل وثُريَّات بمختلف الأحجام، وهي معلَّقةٌ بسلاسل حديديَّة بين الأعمدة والقباب، وكان المسجد في القديم يُنار بها، أمَّا اليوم فإنَّه يُنار بالكهرباء إنارةً ضعيفة؛ لكبر المسجد وكَثْرَةِ المصابيح فيه وضعف المولِّد الكهربائيِّ وقِدمه.

أمَّا التَّهوية فبالمراوح الكهربائيَّة، لكنَّها ليست كافية، على الرَّغم من أنَّ المسجد مبنيٌّ بصفة هندسيَّة تستجلب الهواء، وقد لحظنا أنَّ التَّيَّار الكهربائيَّ لا يُحرِّك المرواح إلَّا في أوقات الصَّلاة، وقد علمنا أنَّ الحكومة السُّعوديَّة - أيَّدها الله بنصره وهدايته - أمرت بجلب مُولِّد ضخمٍ يكفي لتهوية الحرم وإنارته داخلًا وخارجًا.



مكتبة الحرم وكتابه

لحظتُ في الباب المجيديِّ غرفةً واسعةً عن يسار الدَّاخل إليه وفيها أطفال يعلِّمهم الشَّيخ القراءة ومبادئ الكتابة، وأمامها غرفة أخرى مغلقة، قيل لي: إنَّها مأوى لبعض خدم الحرم، وفي الطَّابق الأعلى أربع غرف: إحداهنَّ مكتبة دخلت إليها مرَّتين فرأيتها تشتمل على كتب أكثرها دينيَّة فقهيَّة، وبها بعض الكتب الأدبيَّة والتَّاريخيَّة، يشرف عليها رجل من طلبة العلم حلو الحديث لطيفُ المعشرِ دمث الأخلاق اسمه الشَّيخ مصطفى السُّودانيُّ، وقد قال لي: إنَّه سكن المدينة منذ أعوامٍ عدَّة، وإنَّه راضٍ بهذه السُّكنى وبهذا العمل الَّذي أسند إليه، والَّذي يستفيد منه علمًا وأدبًا، ومحافظةً على العبادة، ورضًا بجوار رسول الله ﷺ.

وبجوار المكتبة غرفة أخرى فيها دواليب كثيرة كانت سابقًا من أثاث المقصورة الشَّريفة، ومن أعظمها وأدقِّها صنعًا دولابان عظيمان صُنِعا من الخشب الهنديِّ الثَّمين الأسود المعروف بالسَّيسم - وهو خشبٌ نادرُ الوجود طيِّب الرَّائحة - وقد طُعِّمَ بالصَّدف، وكانت والدة الخديويِّ عبَّاس الثَّاني قد أهدتهما للمقصورة الشَّريفة، وكأنِّي قرأت عليها تاريخ صُنعِهما (١٣٢٧هـ)[1]، وأمامهما من الجهة الغربيَّة

(١) أي: سنة (١٩٠٩م).

غرفتان مملوءتان بالمصاحف الشَّريفة المهداة من سائر الأقطار الإسلاميَّة، ومن مصر خاصَّةً.



الزِّيارة

لم يختلف فقهاء الإسلام في أنَّ زيارة المسجد النَّبويِّ سُنَّة، وأنَّه «**لا تشدُّ الرِّحال إلَّا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرَّسول ﷺ، والمسجد الأقصى**»(١) وأنَّ الصَّلاة في هذه المساجد تَفْضُلُ الصَّلواتِ في غيرها من المساجد؛ قال رسول الله ﷺ: «**صلاةٌ في مسجدي هذا خيرٌ من ألفِ صلاةٍ فيما سواهُ، إلَّا المسجدَ الحَرَامَ**»(٢)، وإنَّما الخلاف الوحيد: هل تشدُّ الرِّحال لزيارة القبر الشَّريف؟

خروجًا من الخلاف ينوي زائرُ المدينة زيارةَ المسجدِ؛ لأنَّ القبرَ والرَّوضة الشَّريفة في المسجد.

والسُّنَّة في زيارة المسجد أنَّ على قاصد المدينة أن يتطهَّر ويلبس أنظفَ ثيابه، ويبدأ بالمسجد الشَّريف فيقصد الرَّوضة، ويبتعد من الزِّحام ويُصلِّي ركعتين تحيَّةً للمسجد يقرأ فيهما بعد الفاتحة ما تيسَّر من القرآن، والأفضل أن يقرأ فيهما سورتي الإخلاص والكافرون، وبعد أن يسلِّم منهما يدعو بما تيسَّر، ثمَّ يقوم بسكينةٍ ووقارٍ إلى الحجرةِ الشَّريفةِ، ويقابل بابها الجنوبيَّ ووجهه إلى الشَّمال، فيبدأ بمحاذاة القبر الشَّريف ويسلِّم على رسول الله ﷺ قائلًا: السَّلام عليك

(١) رواه البخاري، رقم: (١١٨٩)، ومسلم، رقم: (١٣٩٧).
(٢) رواه البخاري، رقم: (١١٩٠)، ومسلم، رقم: (١٣٩٤).

يا رسول الله، أشهد أنْ لا إله إلَّا الله وأنَّك رسول الله حقًّا، بلَّغتَ الرِّسالة وأدَّيتَ الأمانة ونصحت الأُمَّة وجاهدت في الله حقَّ جهاده، فجزاك الله عن أمَّتك خيرًا، وصلَّى الله وسلَّم عليك وعلى آلك وأصحابك. ويُثني عليه بما يستحقُّ من الثَّناء، ثمَّ يخطو خطوةً إلى اليمين حتَّى يُحاذي وجه أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه قائلًا: السَّلام عليك يا خليفة رسول الله ورحمة الله وبركاته. ويثني عليه بما يستحقُّ من نُصرته للدِّين وجهاده في سبيل الله، ثمَّ يخطو خطوةً إلى اليمين حتَّى يعتقد أنَّه حاذى وجه الفاروق رضي الله عنه، فيقول: السَّلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. ويثني عليه بما يستحقُّ، ثمَّ يدعو لهما، ثمَّ يتأخَّر عن مقابلة الحجرة، ويقابل القبلة، ويدعو متفائلًا بقَبول دعوته بشرف الزَّمان والمكان.

هذه هي صفة الزِّيارة، أمَّا ما يفعله النَّاسُ في وقتنا الحاضر من تقبيل للمكان والشُّبَّاك، وما يفعله السُّذَّج[1] الجاهلون من المزوِّرين أو ما يقرؤه النَّاس من صيغ وضعوها ونسجوها حسب أذواقهم فهذه كلُّها أمورٌ ما أنزل الله بها من سلطان وضعها قوم؛ ليكتسبوا بها عرض الحياة الدُّنيا، والزَّائد كالنَّاقص، والإفراط كالتَّفريط، ونيَّة المرء الصَّالحة خيرٌ من عمله.



(١) سذَّج: جمع ساذج، وهو البسيط غير المحنَّك، قليل النَّباهة والدَّهاء، ينخدع بسهولة، قليل التبصر بالأمور. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد مختار عمر (٢/ ١٠٥١).

من آثار المدينة

أُحد

وهو جبلٌ صخريٌّ ورديُّ اللَّون، طوله من الشَّرق إلى الغرب ستَّة كيلومترات، فيه رؤوس هضباتٍ كثيرة يتخيَّلها النَّاظر سلسلة جبال مرتبطة ببعضها، وقد حصلت فيه وقعة أُحد المشهورة في السَّنة الثَّالثة من الهجرة، وذلك أنَّ قريشًا جهَّزت جيشًا عدَّته ثلاثة آلاف رجل، تريد الهجوم غرَّة[1] على المدينة، لكنَّ الله أطلع نبيَّه على ذلك، فخرج من المدينة وعَسْكَرَ في وادٍ في سبعمئة من أصحابه، ونزل الشُّعب من أُحد، وجعل ظهره للجبل ووجهه للمدينة، ونزل المشركون بطن الوادي الَّذي قَبْلَ أُحد، و«استحضرَ الرَّسول الرُّماة وكانوا خمسين رجلًا أمَّر عليهم عبد الله بن جبير الأنصاريَّ، ووقفهم خلف الجيش على ظهر الجبل المعروف بجبل الرُّماة، وقال لهم: **«لَا تَبرَحُوا، إِنْ رَأَيتُمُونَا ظَهَرنَا عليهم فَلَا تَبرَحُوا، وَإِنْ رَأَيتُمُوهُم ظَهَرُوا علينا فلا تُعِينُونَا»**، فلمَّا لقينا هربوا، حتَّى رأيت النِّساء يشتدِدنَ في الجبل، رفعن عن سوقهنَّ، قد بدت خلاخِلُهُنَّ، فأخذوا يقولون: الغنيمةَ الغنيمةَ، فقال عبد الله: عهد إليَّ النَّبيُّ ﷺ ألَّا تبرحوا، فأبَوا، فلمَّا أبوا صُرِفَت وجوههم، فأُصيبَ سبعون قتيلًا، وأشرف

(١) أتاه على غرة؛ أي: غفلة. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٣/ ٢٣١).

أبو سفيان، فقال: أفي القوم محمَّد؟ فقال: «**لا تجيبوه**»، فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ فقال: «**لا تجيبوه**»، فقال: أفي القوم ابن الخطَّابِ؟ فقال: إنَّ هؤلاء قُتِلُوا، فلو كانوا أحياءً لأجابوا، فلم يملك عمر نفسه، فقال: كذبت يا عدوَّ الله، أَبْقَى الله عليك ما يُخْزِيكَ، فقال أبو سفيان: اعْلُ هُبَلُ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**أجيبوه**»، قالوا: ما نقول؟ قال: «**قولوا: اللهُ أعلى وأجلُّ**»، فقال أبو سفيان: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**أجيبوه**»، قالوا: ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله مولانا ولا مولَى لكم**» قال أبو سفيان: يومٌ بيوم بدر، والحَرْبُ سِجَالٌ، وتَجِدون مُثْلةً، لم آمر بها ولم تسؤني»[(١)].

ثمَّ ابتدأ القتال بالمبارزة، ثمَّ حملت خيَّالة المشركين على المسلمين ثلاث مرَّات، وفي كلِّ مرَّة ينضحهم[(٢)] المسلمون بالنَّبل يتقهقرون[(٣)]، ثُمَّ التقت الصُّفوف، وحميت الحربُ، وقُتِلَ حمزةُ بن عبد المُطَّلِب عمُّ النَّبيِّ وسيِّد الشُّهداء بعد أن غافلَهُ وحشيٌّ وهو يجول في الصُّفوف فضربه بحربةٍ لم تُخطئ خاصرته[(٤)].

«ثمَّ لمَّا قُتِلَ أصحابُ لواءِ المشركين واحدًا بعد واحد، ولم يقدر

(١) رواه البخاري، رقم: (٤٠٤٣).
(٢) نضح فلان بالنبل: إذا رماه ورشقه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٧/ ١٨١).
(٣) تقهقر: تراجع مهزومًا. انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية (٢/ ٧٦٤).
(٤) رواه أحمد، رقم: (١٦٠٧٧).

أحد أن يدنو منه، انهزم المشركون، وَوَلُّوا الأدبار، فتبع المسلمون المشركين يضعون فيهم السِّلاح وينتهبون الغنائم، ففارقت الرُّماةُ محلَّهم الَّذي أمرَهم ﷺ ألَّا يفارقوه، ونهاهم أميرهم عبد الله بن جبير، فقالوا له: انهزم المشركون فما مقامنا هاهنا؟! وانطلقوا ينتهبون، وثبت عبد الله بن جبير مكانه، وثبت معه دون العشرة، وقال: لا أجاوز أمر رسول الله ﷺ، فنظر خالد بن الوليد؛ قائد خيَّالة المشركين إلى خلاءِ الجبل من الرُّماة وقِلَّةِ من به منهم، فَكَرَّ بالخيلِ ومعه عكرمة بن أبي جهل رضي الله تعالى عنهما - فإنَّهما أسلما بعد ذلك - فحملوا على من بقي من الرُّماة فقتلوهم مع أميرهم عبد الله بن جبير، ومَثَّلُوا به، ومن كَثْرَةِ طعنه بالرِّماح خرجت حشوته، وأحاطوا بالمسلمين، فبينما المسلمون قد شُغِلُوا بالنَّهب والأسر، إذ دخلت خيول المشركين تنادي فرسانها بشعارها: يا للعُزَّى يا لهبل، ووضعوا السُّيوف في المسلمين وهم آمنون، وتفرَّقَ المسلمون في كلِّ وجهٍ وتركوا ما انتهبوا، وخَلَّوا من أسروا، وانتقضت صفوف المسلمين، واختلط المسلمون وصار يضرِبُ بعضُهم بعضًا»[1].

وكان كعبُ بنُ مالكٍ أوَّلَ من عَرَفَ رسول الله ﷺ بعد شيوع مقتله ﷺ وهزيمة المسلمين، وقول القائل: قُتِلَ رسول الله ﷺ، وقال: عرفت عينيه تزهران؛ أي: تضيئان وتَتَوَقَّدَان من تحت المغفر، وهو

(١) انظر: السيرة الحلبية، لعلي الحلبي (٢/ ٣٠٨).

ما يُجْعَل على الرَّأس من الزَّرد[١]، فناديت بأعلى صوتي: «**يا معشر المسلمين أبشروا**»، هذا رسول الله ﷺ، فأشار إليَّ أن أنصت[٢].

فالتفَّ حوله من كان في الوادي ولم ينهزم، ولَمَّا انتهت الوقعة صعد أبو سفيان الجبلَ ونادى بأعلى صوته: «يومٌ بيوم بدر، والحَرْبُ سِجَالٌ، وتَجِدون مُثْلةً، لم آمر بها ولم تسؤني»[٣].

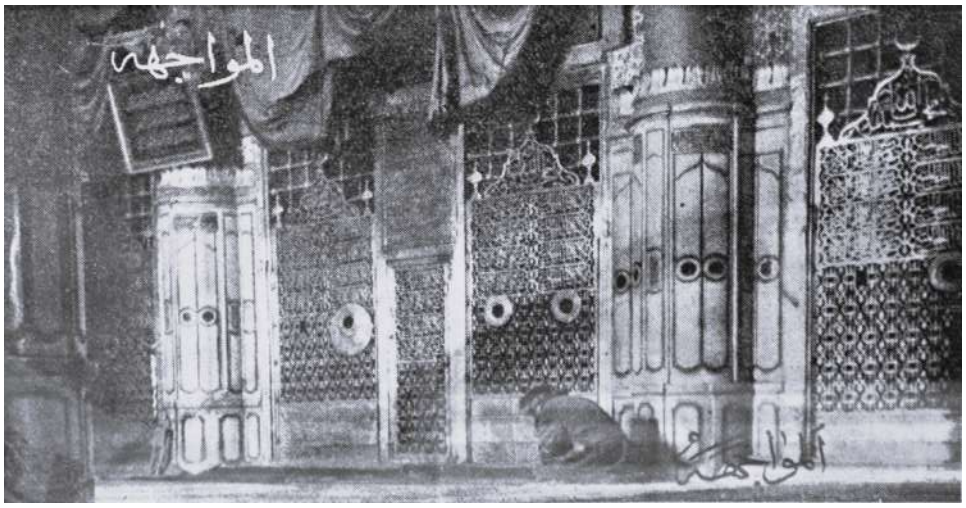
وفي هذه الواقعة نزلت الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران: ١٥٢] إلى آخر الآيتين.

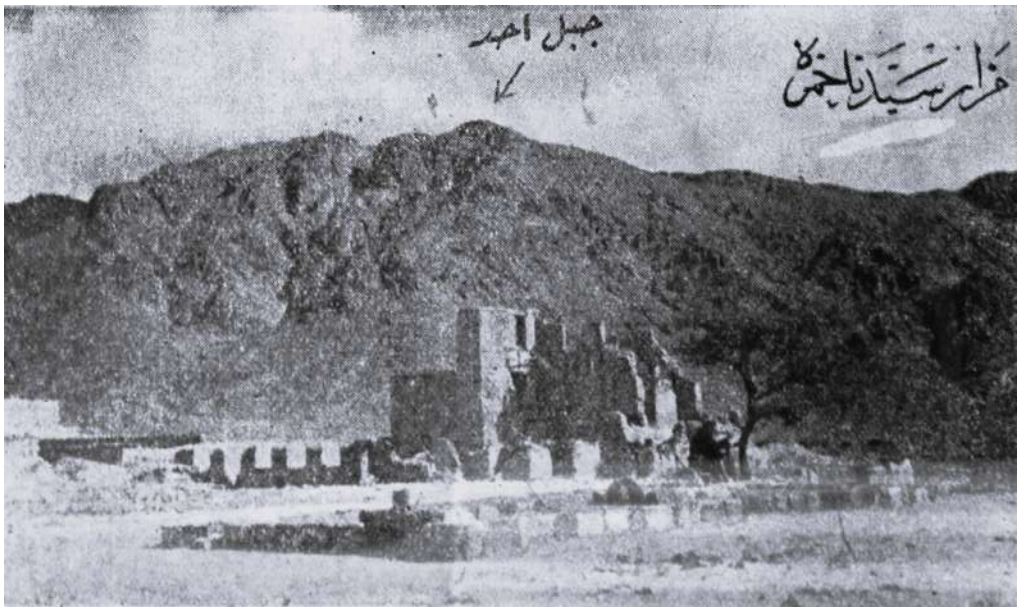
أمَّا جبلُ الرُّماة فيقع جنوبَ جبلِ أُحد، يفصل بينه وبين الوادي أقلُّ من مئة مترٍ، وقبور الشُّهداء قد نقلت من الوادي في أيَّام معاوية ووضعت بينه وبين العين المعروفة بعين الشُّهداء.

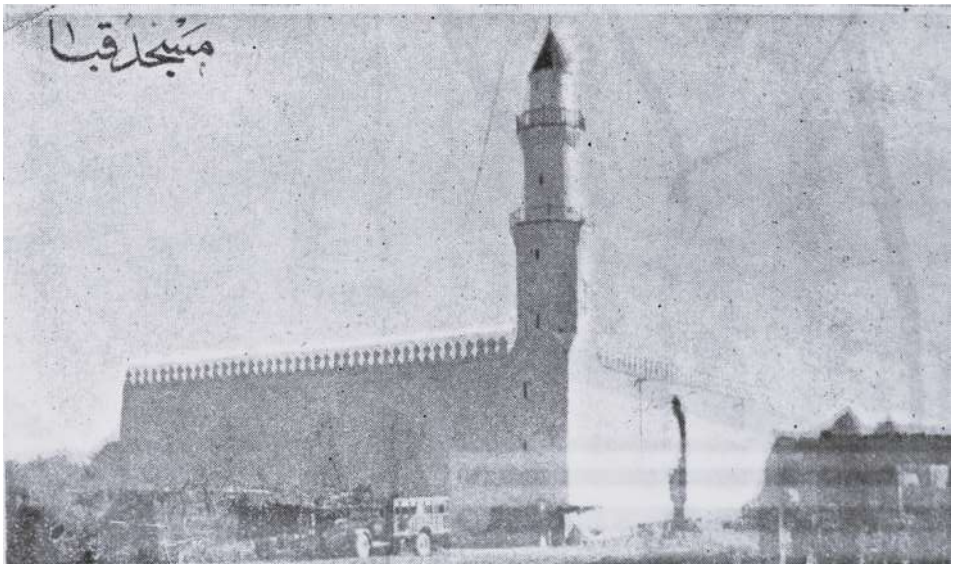
وكان هناك قبل حكم السُّعوديِّين مسجد وقبَّة هدمها السُّعوديون، وبقي حائط فيه قبرُ حمزة وقبرٌ آخر أظنُّه قبرَ جابر بن عبد الله، أمَّا بقيَّة الشُّهداء فقد جمعهم مكانٌ واحدٌ وبين القبور والجبل عين ماء

(١) الزَّرد: الدِّرع المزرودة. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٨/ ١٤٢).
(٢) انظر: السيرة الحلبية، لعلي الحلبي (٢/ ٣٢٠).
(٣) سبق تخريجه.

جارية اسمها عينُ الشُّهداء، وكانت تُسمَّى الكظامة، يقال: إنَّها حُفِرَت في أيَّام معاوية، وهي عذبةُ الماء، قويَّة التَّدفُّق، وقد رأينا فيها سمكًا صغيرًا.


المواجهة
المواجهة


جبل احد
قبر سيدنا حمزة


مسجد قبا

العين الزَّرقاء

كانت الآبارُ عُمدَةَ شراب أهل المدينة قبل الهجرة وبعدها، حتَّى ولِّي الخلافةَ معاويةُ بن أبي سفيان- وقد زخرت المدينة بسُكَّانها - فجالَ في خاطره أن ينقذ أهلَ المدينة ممَّا هم فيه من العطش؛ لأنَّ هذه الآبار لا تكفي لإنقاذهم ممَّا يهدِّدهم، فكتب إلى عامله على المدينة مروان بن الحكم أن يفكِّر في مشروع يُنقِذ به النَّاس، مستبدلًا بالاستقاء بالدِّلاء والبكرات ماءً يتدفَّق من مجارٍ وأنفاق، فصدع مروان بالأمر، واختار من ذوي الخبرة والفطنة من استحضره من مهندسين، فاكتشفوا عينًا خلف قباء سمُّوها بئر الأزرق أو العين الزَّرقاء نِسْبَةً إلى مروان بن الحكم؛ لأنَّه كان أزرق العينين، والحقُّ أنَّ العينَ الزَّرقاء كانت لسكَّان المدينة فاتحةَ عصرٍ جديدٍ في حياتهم.

وللعين الزَّرقاء مجارٍ ومصادرُ تضاف إليها، منها: بئر أريس وبئر بويرة وغيرهما، وتجري حتَّى تدخل المدينة في مجاريها وتوزَّع على عشرة مناهل يستقي منها النَّاس، غير الصَّنابير المنتشرة في بقيَّة محلَّات المدينة، وعددها أكثر من خمسين صنبورًا يستقي منها أهل المدينة كلُّهم.

وقد اهتمَّ المرحوم الملك عبد العزيز آل سعود - أسكنه الله فسيح جنَّته - بهذه العين وجعل لها لجنةً وهيئةً ومالًا خاصًّا لتفقُّد ما قد

يطرأ على هذه العين الَّتي هي قوام الحياة في المدينة.



مسجد قُباء

هو أوَّل مسجد أُسِّسَ في الإسلام، ذكره الله في كتابه العزيز بقوله: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]، أَسَّسَهُ رسول الله ﷺ يوم وصوله من مكَّة إلى قُباء، وصلَّى فيه أوَّل جمعة في الإسلام، وعمل في بنائه بنفسه، ثمَّ عمَّره عثمان بن عفَّان رضي الله عنه، وعمر بن عبد العزيز، ونمَّقه ووسَّعه عبد الملك بن مروان، وهو أوَّل من أقام مئذنةً له، وآخر عماراته العمارة الَّتي بدأ بها السُّلطان محمود الثَّاني وأتمَّها ابنه السُّلطان عبد المجيد سنة (١٢٤٥هـ)[١].

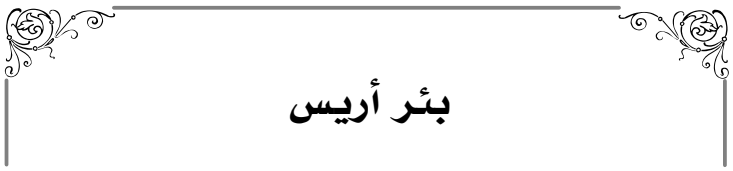
يقع جنوب المدينة ويبعد من المسجد النَّبويِّ نحو خمسين دقيقةً بالسَّير المعتدل، والطَّريق إليه من المدينة ضَيِّقٌ ومُعْوَجٌّ، وقد رأيت فيه محرابان؛ محراب وسط الجدار الجنوبيِّ للمسجد، ومحراب في الزَّاوية الجنوبيَّة الشَّرقيَّة، وفيه ستَّة أروقة، وقد رأينا عند العمود الموالي للمحراب من الجهة الغربيَّة سجَّادة مفروشة، قال لنا قيِّم[٢] المسجد: إنَّ هذا محلُّ صلاة رسول الله ﷺ، فنوينا التَّبرُّكَ وصلَّينا[٣].

(١) أي: سنة (١٨٢٩م).

(٢) القيم: السيد، وسائس الأمر. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٣/ ٣١٩).

(٣) مسألة التبرك بآثار النبي ﷺ بعد وفاته من المسائل المختلف فيها بين العلماء. تُنظر في مظانها في كتب العقيدة.

وفي حجَّتي الأولى رأيت وسط صحن المسجد قبَّةً صغيرةً، قيل: إنَّها مبرك النَّاقة، وقد أُزيلت هذه القُبَّة عن مكانها.



بئر أريس

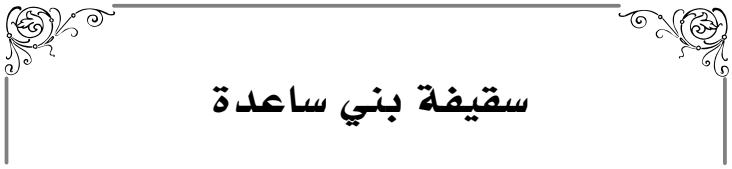
يقع بئر أريس في غربيِّ مسجد قُباء على بعد أربعين مترًا، وتسمَّى أيضًا بئر التَّفلة أو بئر الخاتم، وعمقها ستَّة أبواع، يجري فيها الماء من فتحتين وتتَّصل بالعين الزَّرقاء، وعليها قبَّة عالية، وماؤها غزير وقد روي أنَّ النَّبيَّ ﷺ تَفِلَ فيها، فسُمِّيت بئر التَّفلة، وسواء صحَّ هذا الخبر أم لم يصحَّ فإنَّ ماؤها عذبٌ ولذيذٌ وخفيفٌ على المعدة، وثبت في الحديث «**أنَّ النَّبيَّ ﷺ جلس على بئر أريس وتوسَّطَ قُفَّها**[1] **وكشف عن ساقيه ودلَّاهما في البئر، ثمَّ جاء أبو بكر فجلس إلى يمينه، ثمَّ جاء عمر فجلس إلى يمين أبي بكر، ثمَّ جاء عثمان فإذا القُفُّ قد مُلِئَ فجلس وجاههم من الشِّقِّ الآخر وفعلوا جميعهم كما فعل رسول الله**»[2]، وتُسمَّى أيضًا بئر الخاتم نسبةً إلى خَاتَمِ النَّبيِّ ﷺ «**الَّذي كان من ورقٍ، وكان في يده، ثمَّ كان بعدُ في يد أبي بكر، ثمَّ كان بعد في يد عمر، ثمَّ كان بعد في يد عثمانَ حتَّى وقع بعدُ في بئر أريسَ، نقشُهُ: محمَّدٌ رسولُ الله**»[3].



(١) قُفُّ البئر: هو الدَّكَّة التي تُجعلُ حولها. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٤/ ٢٨٠).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٣٦٧٤)، ومسلم، رقم: (٢٤٠٣).

(٣) رواه البخاري، رقم: (٥٨٧٣)، ومسلم، رقم: (٢٠٩١).



سقيفة بني ساعدة

ثبت أنَّ النَّبيَّ ﷺ جلس فيها[١]، وثبت أنَّ بيعة أبي بكرٍ بالخلافة كانت فيها، وقد مررت يومًا مع الدُّكتور سعيد الأسيوطيِّ المصريِّ المقيم في المدينة في طريقٍ ضيِّقٍ مظلمٍ، فقال لي: إنَّ هذه سقيفة بني ساعدة، فنبَّه شعوري إلى ما حدث في السَّقيفة يوم توفِّي رسول الله ﷺ من أمرٍ عظيمٍ، أمرِ اجتماع صحابة رسول الله من المهاجرين والأنصار، وكيف اجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة يطلبون الأمر، فقالوا: «منَّا أميرٌ ومنكم أميرٌ»، فذهب إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ثمَّ تكلَّم أبو بكرٍ، فقال: «نحن الأُمَراء وأنتم الوُزراء»، فقال حباب بن المنذر: لا والله لا نفعل، منَّا أميرٌ ومنكم أميرٌ، فقال أبو بكر: «لا، ولكنَّا الأمراء وأنتم الوزراء»، ثمَّ يشتدُّ القول بينهم فينبري عمر بن الخطَّاب فيُبايعُ أبا بكر، وينتهي الخلاف عند هذا الحدِّ، ويُسارع المسلمون إلى مبايعة أبي بكرٍ، وينصر الله دينه بأبي بكرٍ[٢].

يقول عمر: «ثمَّ إنَّه بلغني أنَّ قائلًا منكم يقول: والله لو قد مات

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (٥٧٩٢)، بلفظ: «. . .فأقبل رسول الله ﷺ يومئذٍ حتَّى جلس في سقيفة بني ساعدة هو وأصحابه. . .إلخ».
(٢) رواه البخاري، رقم: (٣٦٦٨).

عمرُ بايعت فلانًا، فلا يغترَّنَّ امرؤٌ أنْ يقولَ: إنَّما كانت بيعةُ أبي بكرٍ فَلْتَةً وتمَّت، ألَا وإنَّها قد كانت كذلك، ولكنَّ الله وقى شرَّهَا، وليس منكم من تُقْطَعُ الأعناقُ إليه مثل أبي بكرٍ»[١]، فقد كان أبو بكرٍ رضي الله عنه أقوى المسلمين عزمًا وأكملهم دينًا وأمضاهم عزيمةً وأفضلَهُم بعد نبيِّهم ﷺ، رضي الله عن أبي بكرٍ وجزاه عن الإسلامِ والمسلمين خيرًا.

ثمَّ اجتمعت بالأخِ الشَّيخِ محمَّد بن حسن الضَّبيب، وقلتُ له: لقد مررنا اليوم بسقيفة بني ساعدة ووصفت له الطَّريق، فقال لي: إنَّ القولَ في أنَّ هذه سقيفةُ بني ساعدة قولٌ ضعيفٌ، والأرجح أنَّه مقعد بني حسين - هكذا يسمُّونه - وإنَّما سقيفةُ بني ساعدة تقع في شرقيِّ الباب الشَّاميِّ في الطَّريق المؤدِّي إلى بئر بضاعة، ولا أثرَ لها اليوم، وعلى أيَّة حالٍ فإنَّ المدينة كلَّها آثارٌ مقدَّسةٌ، وللمؤمن فيها ذكرياتٌ نافعةٌ، أعظمها مسجدُ رسول الله ﷺ ومنبره ومحرابه، شعَّ منها النُّور، فأضاء قلوب المسلمين وأضاء العالم، وكانت أمَّةٌ؛ هي خيرُ أمَّة أخرجت للنَّاس؛ تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله، وتحثُّ على مكارم الأخلاق، وتنهى عن سفاسفها[٢]، وتدعو إلى الفضيلة، وتمنع الرَّذيلة.

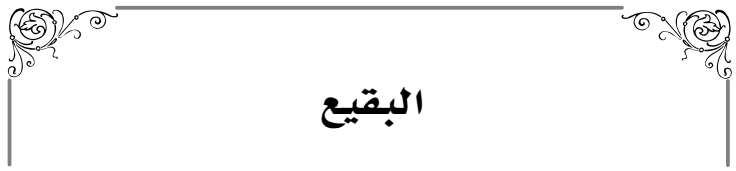
﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم

(١) رواه البخاري، رقم: (٦٨٣٠).

(٢) السفساف: الرديء من كلِّ شيء، والأمر الحقير. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٣/ ٤٤١).

بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عِمرَان: ١٠٣]، قال المسلم في المدينة: الله أكبر، فردَّد قوله مئات الأُلوف من المؤذِّنين في مشارق الأرض ومغاربها، في إمبراطوريَّةٍ عظيمةِ الحدود، واسعةِ الرُّقعة، تختلف في لغاتها وألوانها، عدا شيءٍ واحدٍ فيها؛ هو: لا إله إلَّا الله، محمَّد رسول الله.



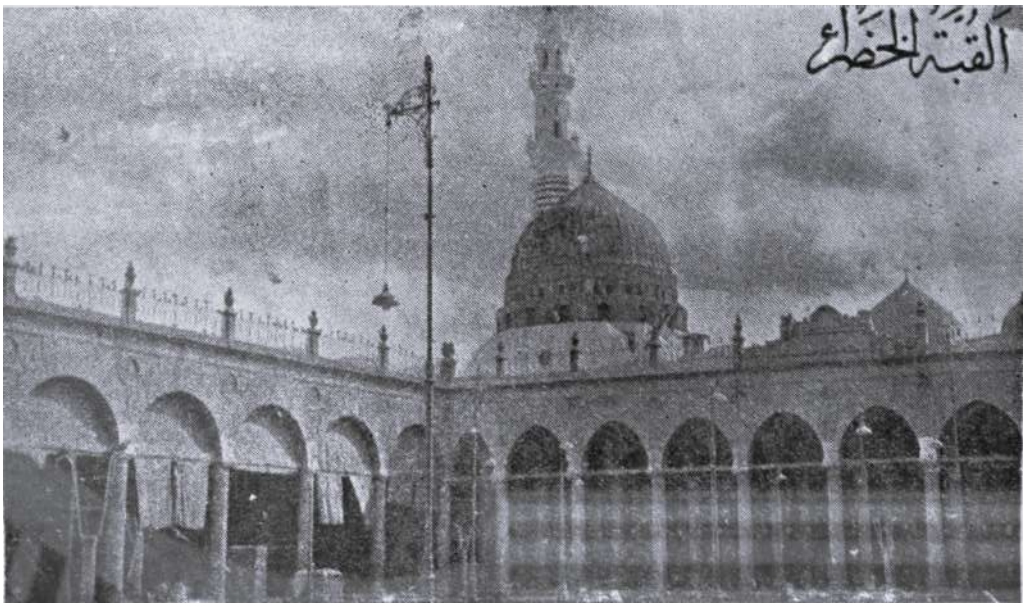


البقيع

هي المقبرة الوحيدة في المدينة منذ عصر الرِّسالة إلى اليوم، وهي أرضٌ مستطيلةٌ تقع شرقيَّ المدينة، مسوَّرة من جميع نواحيها، طولها (١٥٠) مترًا في عرض مئةِ مترٍ، دُفِنَ فيها ما يُقارب عشرةَ آلاف صحابيٍّ، ومن أشهر القبور الموجودة فيها الآن: قبورُ بناتِ رسولِ الله ﷺ وزوجاتِهِ وعمِّه العبَّاس وابنهِ إبراهيمَ وسِبْطِه[1] الحسن، وعمَّتِهِ صفيَّة بنت عبد المطَّلب، ومرضعته حليمة السَّعديَّة، وصهره عثمان بن عفَّان، وأخيه في الرَّضاعة عثمان بن مظعون رضي الله عنهم أجمعين.



(١) السبط: ولد الابن والابنة. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٩/ ٣٢٩).


القبة الخضراء


جنة البقيع فى القديم
منذ كانت قبابها عامرة



مسجد القبلتين

يقع شمال غربيِّ المدينة على مرتفع يُشرف على وادي العقيق، طوله تسعة أمتار وربعٌ، وعرضه أربعة أمتار ونصفٌ، وارتفاعه كذلك، مبنيٌّ بالحجارة المجصَّصة، ويُسمَّى مسجدَ القبلتين؛ لأنَّ النَّبيَّ «لَمَّا قَدِمَ المدينةَ صلَّى نحو بيتِ المَقْدِسِ ستَّةَ عشرَ أو سبعةَ عشرَ شهرًا، وكان يُحِبُّ أن يوجَّه إلى الكعبة، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤]، فوُجِّهَ نحو الكعبة، وصلَّى معه رجلٌ العصرَ، ثمَّ خرجَ فمرَّ على قومٍ من الأنصار، فقال: إنَّه يشهد أنَّه صلَّى مع النَّبيِّ ﷺ، وأنَّه قد وجِّه إلى الكعبة، فانحرفوا وهم ركوع في صلاة العصر»[(١)]، ومن ذلك اليوم سُمِّي مسجدَ القبلتين، وما يزال يحمل هذا الاسم حتَّى اليوم.

وبالقرب من هذا المسجد بئر رومة الَّذي كان ليهوديٍّ، وكان يبيع ماءَها للمسلمين فاشتراها عثمان رضي الله عنه بعشرين ألفَ درهمٍ تحقيقًا لرغبة رسولِ اللهِ حيث قال: «**من يشتري بئر رومة فيجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنَّة**»[(٢)]، وجعل ماءها وقفًا على

(١) رواه البخاري، رقم: (٧٢٥٢)، ومسلم، رقم: (٥٢٧).
(٢) رواه الترمذي، رقم: (٣٧٠٣).

المسلمين، وماؤها عذبٌ سائغٌ شرابه، ولا تزال نافعةً مقصودةً.

ولوادي العقيقِ في التَّاريخ أنباء جعلته وادي النِّعمة والتَّرف وخفضِ العيش، ترنَّم الشُّعراء بمحاسنه، وقصَّ الرُّواة أنباءَ ما انطوت عليه قصوره من رفاهيةٍ ونعيم، «**أقطعه الرَّسول ﷺ بلالَ بن الحارث، وكتب فيه وثيقةَ تملُّكٍ، ولكنَّ بلالًا لم يُصْلِح من العقيق شيئًا، فنزعه منه عمر رضي الله عنه وأقطعه للنَّاس**»[1]، وقِيل: ترك له قسمًا صغيرًا منه، وتنافس الَّذين ملكوا العقيق بعد بلال في غرسه جنَّاتٍ ناضرة كانت كلُّها بهجةً للنَّاظرين.



(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى، رقم: (٧٦٣٧).



الإقامة في المدينة

أقمنا في المدينة عشرةَ أيَّام، استأجرنا فيها شقَّةً تقعُ جنوبيَّ الحرمِ في حيٍّ يُعرف بالحمام، يدخل قاصد الحرم منه إلى الحرم من باب جبريل، وقد أصابتني في هذه المدَّة وعكةٌ شديدةٌ اضطرَّتني لملازمة الفراش خمسةَ أيَّام كاملةً كنتُ فيها تحت إشراف الطَّبيب الدُّكتور سعيد الأسيوطيِّ طبيب التَّكيَّة المصريَّة في المدينة، وقد أعجبَنِي في الرَّجل خُلُقُه، وصدقُ إيمانه، وحسنُ معالجته مرضاه، وزرته في بيته، فرأيت فيه البساطةَ مع النَّظافة، وذلك دليلٌ على أنَّ الرَّجلَ قانعٌ بما قُسِمَ له، ولو شاء الغِنْى لَنَالهُ، لكنَّ غناه - كما قال لي - في جوارِ رسولِ الله ﷺ، ثمَّ غادرت الفراش في اليوم السَّادس إلى الحرم النَّبويِّ، والحمد لله على نعمةِ العافية.





السَّفر من المدينة

بعد أن صلَّينا عصر يوم الإثنين (٣٠) ذي القعدة الموافق (١٠-٨-١٩٥٣م) في الحرم النَّبويِّ، وزرنا زيارة الوداع سائلين الله ﷻ ألَّا يجعلها آخرَ عهدِنَا بهذا الحرم الكريم، سافرنا متوجِّهين إلى مكَّة في وديان تُكَنِّفُها[1] جبالٌ صمٌّ سودٌ، أو حمرٌ يضرب لونها إلى السَّواد، أراضيها وَعْرَةٌ تضيق تارةً وتتَّسِعُ تارةً أُخرى، وهذا شأن طُرُقِ الحجازِ كلِّها، إلى أن وصلنا بعد ساعةٍ إلى أبيار عليٍّ، وهي ميقاتُ أهل المدينة، واسمها في الزَّمن الأوَّل ذو الحليفة، وبينها وبين المدينة تسعةُ كيلومترًا، وبعد أن اغتسلنا منها بنيَّة الإحرام ولبسنا ملابس الإحرام، صلَّينا المغربَ في مسجدها، ونوينا الإحرام للعمرة بنيَّة التَّمتُّع قائلين: اللَّهم إنِّي نويت الإحرام بالعُمرة متمتِّعًا بها إلى الحجِّ، اللَّهُمَّ فَيَسِّرها لي وتقبَّلها منِّي، وإن حبسني حابسٌ فمحلِّي حيثُ حبستني، نويتُ الإحرام بالعمرة.



(١) كنَّف الشيء: إذا أحاط به. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٤/ ٣٣٨).

الإحرام ومواقيته

الإحرام: هو التَّجرُّد من المَخِيْطِ والمحيط، والتَّقيُّدُ بأشياءَ والامتناعُ عن أشياءَ؛ هي محظورات الإحرام، يتجرَّد قاصد مكَّة من ثيابه ويتَّزِرُ بإزارٍ، ويرتدي رداءً، وإنَّهما لباس المحرم حتَّى ينتهي من نُسُكِهِ حجًّا وعمرةً، ولا يسمَّى إحرامًا إلَّا إذا لبسه حجًّا أو عمرةً.

والإحرامُ ثلاثة: أوَّلها التَّمتُّع: وهو أن يُحْرِمَ بالعمرة في أشهرِ الحجِّ متمتِّعًا بها إلى الحجِّ، وأشهُرُ الحجِّ هي: شوَّال، وذو القعدة، والتِّسعة الأوائل من ذي الحجَّة.

الثَّاني: الإفراد: وهو أن يُحْرِمَ بالحجِّ فقط، فإذا انتهى من أعمال الحجِّ اعتمر.

الثَّالث: القِرَان: وهو أن يُحْرِمَ بالعمرة والحجِّ معًا، وتدخل أعمالُ العمرة في أعمالِ الحجِّ.

ومواقيت الإحرامِ خمسةٌ، وهي المواضع الَّتي يمرُّ بها قاصد مكَّة من بلادِ المعمورةِ المختلفة:

أوَّلها: ذو الحليفة: وهي المعروفة بأبيار عليٍّ، وهي ميقاتُ أهل المدينة ومَن مرَّ بها.

ثانيها: الجحفة: وهي ساحل قرية رابغ المعروفة اليوم، وهي ميقات أهل الشَّام ومصر، وأغلبُ مَنْ يُحْرِمُ منها الآن هم الَّذين

يقصدون مكَّةَ من شمال البحرِ الأحمر.

ثالثها: يلملم: قريةٌ معروفةٌ، بينها وبين مكَّة مرحلتان، وهي ميقات أهل اليمن ومن مرَّ بها.

رابعها: قرن: وتسمَّى الآن السَّيل، وهي ميقاتُ أهل نجدٍ والطَّائف ومن مرَّ بهما.

خامسها: ذاتُ عِرْقٍ: وتسمَّى الضَّربية، وهي ميقات أهل الشَّرق كالعراقيِّين وغيرهم.

وكلُّ من مرَّ بهذهِ المواقيت قاصدًا مكَّةَ لِزِمَه أن يُحْرِمَ منها.





مواصلة السَّير

سِرْنا إلى رابغ سيرًا متقطِّعًا؛ لكثرةِ الرِّفاق ووعورةِ الطَّريق وانتظارِ بعضهم بعضًا، حتَّى وصلنا موضعًا يُقالُ له: الفريش نحوَ السَّاعة التَّاسعة، تأخَّرنا قليلًا حتَّى لاحقتِ السَّيَّارات بعضها بعضًا، ومنه سِرْنَا في أوديةٍ طويلة تضيقُ حينًا ولا تكادُ تتَّسعُ لأكثرَ من سيَّارةٍ واحدةٍ، وتتَّسع أحيانًا، وتَسْهُلُ تارةً، وتَصْعُبُ تارةً أُخْرَى بالطَّريقِ السُّلطانيِّ، وربَّما كان لهذا الاسم تاريخ مرتبطٌ بحجِّ إحدى أمَّهات سلاطين آل عثمان منه، ويغلب على الظَّنِّ أنَّ النَّبيَّ ﷺ سلكه في حجَّة الوداع.

وصلنا رابغ في السَّاعة التَّاسعة والنِّصف من صباح يوم الثُّلاثاء (١) ذي الحجَّة بعد أن قطعنا من ذي الحليفة (٢٥٠) كيلومترًا، وهي كغيرها من القُرى جهلًا وفقرًا، فاسترحنا فيها حتَّى حان وقتُ الغداء، واستقينا من مائها كريه الطَّعم والرَّائحة، وأكلنا فيها السَّمك أوَّلَ مرَّةٍ منذ تركنا الكويت، وقد كانت تبعد من ساحل البحر الأحمر نحوَ أربعة كيلومترًا، ورأينا فيها من السَّمك المعروف في الكويت باسم الشِّعم والشِّعريِّ والإبياح.

ولم تكن إقامتنا في رابغ إقامةً مريحةً؛ بسبب هبوب الرِّياح ذلك اليوم واشتدادها، وما كانت تحمله إلينا من رمالٍ وترابٍ سلبَ راحتنا وأتلفَ غداءنا، حتَّى إنَّنا اضطررنا أن نُصلِّي في مسجدها؛ لأنَّنا لم

نستطع الصَّلاة في المخيَّم.

سافرنا من رابغ في يومنا متوجِّهين إلى جدَّة في طريق مبلَّط بالإسفلت طوله (١٦٣) كيلومترًا، مررنا فيه بِقُرًى كثيرةٍ كغيرها من قرى الحجاز، منها: الفضيمة وتول وذهيان.



جدَّة

مدينة قديمةٌ تقعُ على ساحل البحر الأحمر الشَّرقيِّ، وهي ميناء مكَّة المكرَّمة، ذكرها التَّاريخ الإسلاميُّ قبل البعثة عندما جدَّدت قريش بناء الكعبة، والتمست الخشبَ لها من سفينةٍ تكسَّرت على ساحل جدَّة؛ إذ اجتمعت قريش لبناء الكعبة وكانوا يَهُمُّونَ بذلك ليسقفُوهَا، ويَهَابُون هَدْمَهَا، وإنَّما كانت رَضْمًا[١] فوق القَامَة، فأرادوا رفعَهَا وتسقيفَهَا؛ وذلك أنَّ نَفَرًا سَرَقُوا كَنْزَ الكعبةِ، وإنَّما كان في بئرٍ في جوف الكعبة، وكان الَّذي وُجِدَ عنده الكنز دويك مولًى لبني مُلَيْح بن عمرو بن خُزَاعة، فقَطَعَت قريشٌ يدَهُ، وتَزعُمُ قريشٌ أنَّ الَّذين سرقوه وضعوه عند دويكٍ، وكان البحر قد رمى بسفينةٍ إلى جدَّة لرجلٍ من تُجَّار الرُّوم، فتحطَّمَت، فأخذوا خشبها فأَعَدُّوهُ لتسقيفها.

قال الأمويُّ: كانت هذه السَّفينةُ لقيصرَ ملكِ الرُّومِ تحملُ آلاتِ البناءِ من الرُّخام والخشب والحديد سرَحَهَا[٢] قيصر مع باقومَ الرُّوميِّ إلى الكنيسة الَّتي أحرقها الفُرْسُ للحبشة، فلمَّا بلغت مرساها من جُدَّة بَعَثَ الله عليها ريحًا فحطَّمَتها[٣].

(١) الرَّضْم: صخور عظام يرضم بعضها فوق بعض في الأبنية، الواحدة رضمة. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٢/ ٢٦٢).
(٢) السَّرح: الإرسال. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٦/ ٤٦٣).
(٣) انظر: البداية والنهاية، لابن كثير الدمشقي (٢/ ٣٠١).

وذكرها بعد البعثة عندما هاجر الصَّحابة الأوَّلون: جعفر بن أبي طالب ورفاقه من ميناء جدَّة في سفينة إلى الحبشة، ولا أعلم تاريخها قبل ذلك.

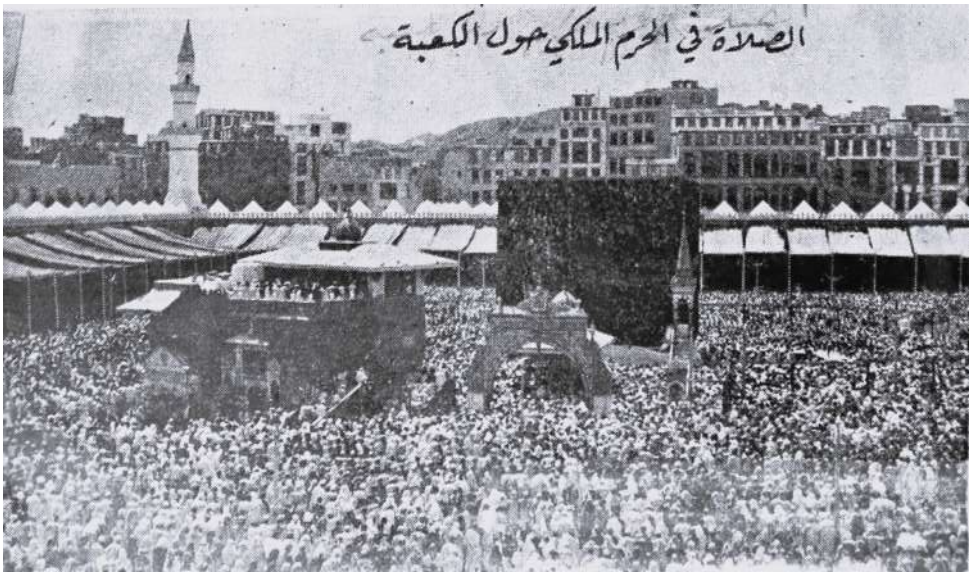
وكانت في القديم قريةً صغيرةً، لكن منذ الحرب العالميَّة الأولى بدأت أهميَّتها، وبدأ اتِّساعها، وصارت مدينة عامرةً تضمُّ سفراء الدُّول الشَّرقيَّة والغربيَّة في المملكة الهاشميَّة أيَّام الملك حسين بن عليٍّ، ثُمَّ في المملكة السُّعوديَّة الحاضرة.

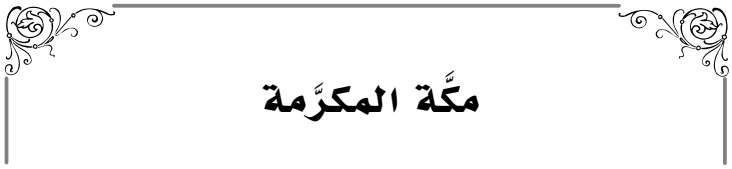
ومنذ خمس سنوات اهتمَّ المرحوم الملك عبد العزيز آل سعود بشرب أهل جدَّة الَّذين عاشوا السِّنين الطِّوال يشربون من مياه الآبار الَّتي لا تغني من ظمأ، أو من مياه البحر الَّتي تُقَطَّر بالآلات، وينقصها كثيرٌ من الأملاح والمعادن، اهتمَّ رَحِمَهُ اللَّهُ في ذلك، فقرَّر أن يجري الماء لهم من عين جارية في وادي فاطمة، فكان ذلك اليوم الَّذي جرى فيه الماء بجدَّة يومًا مشهودًا في تاريخها وعمرانها وحياة أهلها، ومنذُ ذلكَ التَّاريخ القريب حتَّى يومنا هذا وجدَّة في اتِّساعٍ مستمرٍّ، وأهلها في صحَّة، وقد أعجبني فيها سعةُ طرقها، والفيلَّات المنتشرة في أطرافها إلى مسافاتٍ بعيدةٍ من وسط المدينة الَّذي لا يزال على ما كان عليه من ضيقٍ وتشويهٍ.

وصلنا جدَّة في السَّاعةِ الثَّانيةِ بعد منتصفِ اللَّيل، وبِتْنَا في سهلٍ فسيحٍ جدًّا خارجَ جدَّة يبعدُ منها مسافة تزيد على كيلومترين، وبعد أن أشرقت الشَّمس دخلناها مخترقين الطَّريق العامَّ، ومنه خرجنا من باب

مكَّة متوجِّهين إلى أمِّ القرى وقبلة الإسلام في طريق مُبلَّط طوله (٧٣) كيلومترًا.




الصلاة في الحرم الملكي حول الكعبة



مكَّة المكرَّمة

أمُّ القُرى ومَهْبِطُ الوحي وقِبْلةُ الإسلام والبلدُ العتيقُ الأمين، فيها الكعبة؛ أوَّلُ بيتٍ وُضِعَ للنَّاس مثابةً وأمنًا، وهي مدينة جبليَّة حارَّةٌ ترتفع عن سطح البحر (١٠٨٠) قدمًا، أو (٣٣٠) مترًا، يتوسَّطها المسجد الحرام الَّذي تتوسَّطه الكعبة؛ البيت العتيق الَّذي وضع قواعده إبراهيم خليل الله عليه السلام بأمر من الله؛ إذ قال: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج: ٢٦]، ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: ١٢٧].



تاريخ مكَّة

لا يُعْرَفُ لمكَّة تاريخ قبل سيِّدنا إبراهيم عليه السلام حيث أمره الله بالهجرة إليها بولده إسماعيل وأمِّه هاجر، فذهب بهما إلى الوادي كما سيأتي ذكره في تاريخ زمزم، وكما ذكره الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، ثمَّ كانت زمزم بعد ذلك حياةً جديدةً لهذا الوادي، فجاء العمالقة وسألوا هاجرَ الإقامةَ معها على أن يكون الأمر لها ولولدها إسماعيل، وكان إبراهيمُ يتردَّدُ لزيارتهما من بيت المقدس في فلسطين، حتَّى أَمَرَهُ الله تعالى برفعِ قواعدِ هذا البيت وتطهيره: ﴿وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، ثمَّ أمره الله أن يؤذِّن في النَّاس بالحجِّ: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧﴾ [الحج: ٢٧]، ومن ثمَّ بدأت شهرة هذا البيت تعظم وتذاع في القبائل المجاورة، حتَّى أُسِّسَت حوله الدُّور والبيوت فكانت مكَّة، ثمَّ مات إبراهيم وبقي إسماعيل في خدمة هذا البيت، وبعده تولَّى خدمته بنوه إلى أن ضعفوا، وتغلَّب عليهم العمالقة، وصار أمر البيت إليهم، حتَّى وفدت جُرْهُم على مكَّة بعد سيل العرم، فزاحموا العمالقة وغلبوهم على أمرهم وصارت لهم الكلمة في مكَّة، بل في الحجاز كلِّها، ثمَّ عاثوا في الأرض فسادًا، فوقع فيهم وباءٌ

نالَ منهم، فضَعُفَ أمرهم وتغلَّبَ عليهم بنو إسماعيل واستردُّوا أمرَ البيتِ منهم وطردوهم من مكَّةَ.

وما كادت تنحصِرُ السُّلطة في بني إسماعيل حتَّى أتت خُزَاعَةُ، وتغلَّبت عليهم، ووَلِيَت أمر البيت زمنًا طويلًا إلى أن رجع قصيُّ بن كلاب من الشَّام، وسعى بأصالةِ رأيه وذكائه حتَّى اشترى من خزاعة حجابةَ البيت، ثمَّ أجلاهم إلى وادي فاطمة الَّذي كان يُعرف يومئذ ببطن مُرٍّ.

هذا ما نعرفه من تاريخ الكعبة منذ زمن إبراهيم عليه السلام إلى زمن قصيِّ بن كلاب.



تاريخ الكعبة

اختلف المؤرِّخون في عدد المرَّات الَّتي بُنِيَت فيها الكعبة، ولم يثبت لنا شيء عن البناء الَّذي كان قبل إبراهيم عليه السلام، وقد قِيلَ: إنَّها بُنِيَت قبله ثلاث مرَّات: أوَّلها بناء الملائكة، وثانيها: بناء آدم ثمَّ بناء أولاده، أمَّا بناء إبراهيم عليه السلام فقد تقدَّم ذكره.

وبعد إبراهيم بنتها العمالقة، ثمَّ جرهم، ثمَّ قصيُّ بن كلاب، ثمَّ بنتها قريش قبل البعثة بخمس سنين، ثمَّ بناها عبد الله بن الزُّبير، وبناها بعده الحجَّاجُ بن يوسف الثَّقفيُّ، وهو البناءُ الَّذي لا يزالُ قائمًا حتَّى اليوم، ويُقال: إنَّ الزَّمن بين بناء إبراهيم وبناء قريش (١٦٧٥) سنةً، وبين بناء قريش وبناء الزُّبير (٨٢) سنةً.

أمَّا بناءُ إبراهيم وبناء قريش وبناء ابن الزُّبير فكان بناء كاملًا من الأساس، وأمَّا بناء جُرْهُم والعمالقة فقد كان ترميمًا، وأمَّا الحجَّاج فإنَّه تجوَّز في البناء، فهدم ما زاده ابن الزُّبير من إدخال الحجر في البيت بعد سماعه من خالته أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إنَّ قومكِ استَقصَرُوا مِن بُنيَانِ البيت، ولولا حداثةُ عهدهم بالشِّرك، أعدتُ مَا تَرَكُوا مِنهُ، فَإِنْ بَدَا لقومكِ من بعدي أن يَبنُوهُ**

فهلُمِّي لأُرِيَكِ مَا تَرَكُوا منهُ»[١].



(١) رواه مسلم، رقم: (٤٠٣).



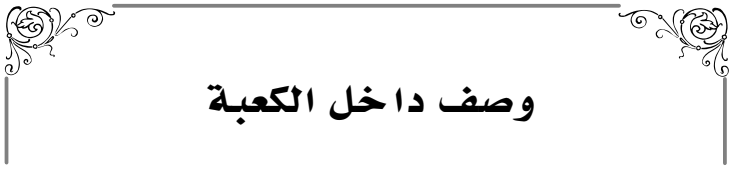
صفة الكعبة

ذكر المؤرِّخون رحمهم الله أوصافَ الكعبة، ومساحتها طولًا وعرضًا وارتفاعًا، ونحن ننقل ما كتبوه؛ طولُها من الرُّكن الأسود إلى الرُّكن الشَّاميِّ وهو الضِّلع الَّذي فيه الباب خمسةٌ وعشرون ذراعًا، ومن الرُّكن الشَّاميِّ إلى الرُّكن الغربيِّ وهو الضِّلع الَّذي فيه الميزاب[1] واحدٌ وعشرون ذراعًا، ومن الرُّكن الغربيِّ إلى الرُّكن اليمانيِّ خمسةٌ وعشرون ذراعًا، ومن الرُّكن اليمانيِّ إلى الرُّكن الأسود عشرون ذراعًا، فتكون مساحتها (٥١٢) ونصفَ ذراعٍ مربَّعٍ، عدا الحجرِ الَّذي هو جزءٌ من الكعبة.

سقفها مُسَطَّح وجدارها الشَّماليُّ فيه الميزاب الَّذي يصبُّ في الحجر، وكان مصنوعًا من الخشب، ثمَّ في زمن الوليد بن عبد الملك طلاه بالذَّهب، ثمَّ صُنِع من الفضَّة وطُعِّمَ بالذَّهب إلى أن كان زمن السُّلطان عبد المجيد فعمل لها ميزابًا من الذَّهب لا يزال موجودًا حتَّى الآن.



(١) ميزاب الكعبة: وهو مصبُّ ماء المطر. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢/ ٢٤).



وصف داخل الكعبة

في وسط الكعبة ثلاثةُ أعمدةٍ من الخشب السَّميك القويِّ، قطرُ الواحدِ منها نصفُ مترٍ يضرب لونها إلى الصُّفرة، وقد تآكل أسفلها من طُوْلِ الزَّمن، فبُنِيَ حولها إلى ارتفاع مترٍ ونصفٍ من أرض الكعبة، وضعَ هذهِ الأعمدة الثَّلاثة عبد الله بن الزُّبير رضي الله عنه.

أمَّا أرضُها فمفروشةٌ بالرُّخام الملوَّن وأكثرُهُ الأبيض، يكسو جدارها الدَّاخليَّ ستارٌ من الحرير الأحمر، مكتوب عليه الشَّهادتان وأذكارٌ مأثورةٌ، كما أنَّ سقفها مكسوٌّ بستارٍ قد تغيَّر لونه، وعلى ارتفاع ثلثيِّ الأعمدة دعامةٌ من الخشب، عُلِّقَ عليها قناديل ممَّا أُهدي إلى الكعبة قديمًا، وليس في داخل الكعبة شيءٌ يلفت النَّظر إلَّا قدسيَّة المكان الرُّوحيَّة، نسأل الله ألَّا يحرمنا زيارتها، إنَّه سميعٌ مجيبٌ.





الحجر والحطيم

الحطيم يقع شمالَ الكعبة، وهو بناءٌ يشكِّل نصفَ دائرةٍ، ارتفاعه مترٌ وثلثٌ، وعرضُ جدارهِ مترٌ ونصفٌ وهو مغلَّفٌ بالرُّخَام، وأحدُ طرفيه مُحاذٍ للرُّكنِ الشَّاميِّ يفصل بينه وبين الرُّكن متران وثلث، وثانيهما مُحاذٍ للرُّكن الغربيِّ، ويفصل بينه وبين الرُّكن متران وربع.

والمسافة بين طرفيِّ البناء ثمانيةُ أمتارٍ، والأرض الَّتي بينَ جدارِ الكعبةِ والحطيم تُعرَفُ بالحجر، وهي مفروشةٌ بالرُّخَام الأبيض والأسود، والمسافة بين جدارِ الكعبة ووسطِ الحطيم أقلُّ من ثمانية أمتار ونصف.





المعجنة

ويسمِّيها العامَّة حفرة التَّوبة، وتقع بين باب الكعبة والرُّكن الشَّاميِّ، عمقُهَا قدمٌ واحدٌ، يقالُ: إنَّ إبراهيم عليه السلام كان يَعْجِنُ فيها ملاط[1] الكعبة.



(١) الملاط: الطين الذي يجعل بين سافي البناء ويملط به الحائط. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٠/ ١١٩).



الملتزم

وهو ما بين ركن الحجر وباب الكعبة، ويسنُّ للحاجِّ أو المعتمر بعد طواف الوادع أن يلتزمَ ويدعوَ بما شاءَ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ فعل ذلك.





الرُّكن اليمانيُّ

وهو الرُّكن الَّذي بين جداريِّ الكعبةِ؛ الشَّرقيِّ والجنوبيِّ، ويسنُّ استلامه عندَ كلِّ شوطٍ من أشواط الطَّواف إن أمكنَ بلا زِحَامٍ.



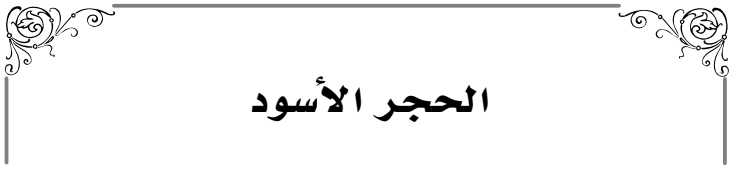


المطاف

يحيط بالكعبة، وهو مكان المسجد الأوَّل في عهد النَّبيِّ ﷺ، وقياسهُ ثلاثة عشر مترًا وربع من الجهة الشَّرقيَّة، وعشرون مترًا ونصف من الجهة الشَّماليَّة، وستة عشر مترًا وسدس من الجهة الغربيَّة، وأربعة عشر مترًا وثلاثة أرباع المتر من الجهة الجنوبيَّة، وهو مرصوف بالرُّخام الأبيض الأملس، أُقيمَت عليه دائرةٌ من أعمدةٍ صُنِعَت من الصُّفر[1]، ووُصِلَ بينها بعوارض حديديَّة، وتجاه كلِّ ضلع من أضلاع البيت سقيفة قامت على أعمدةٍ رخاميَّةٍ نُسِبَت كلُّ واحدةٍ منها لمذهبٍ من المذاهب الأربعة.



(١) الصُّفر: من النحاس الجيد، وقيل: هو ضربٌ من النحاس. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٢/ ٣٣١).

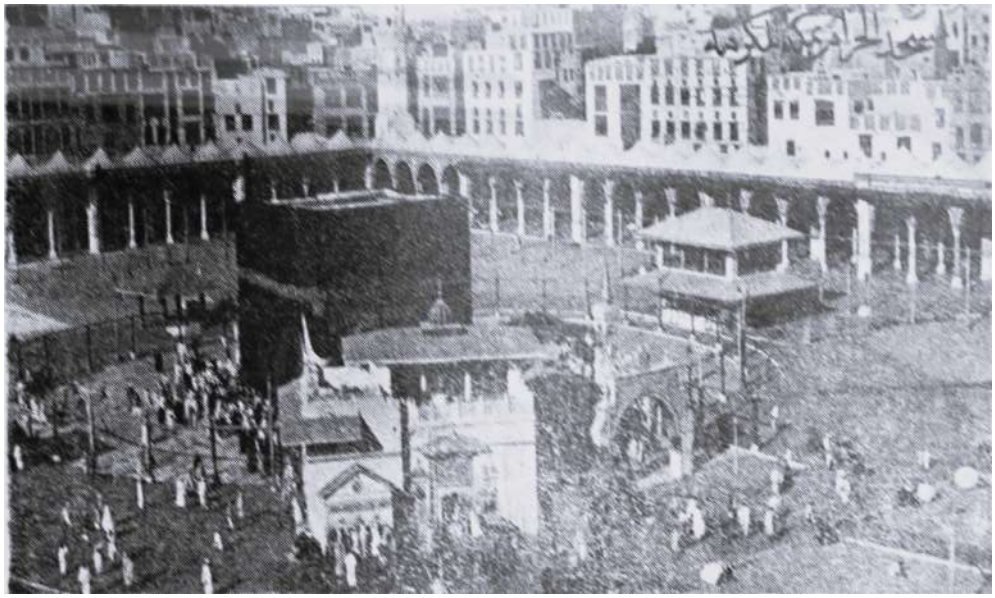


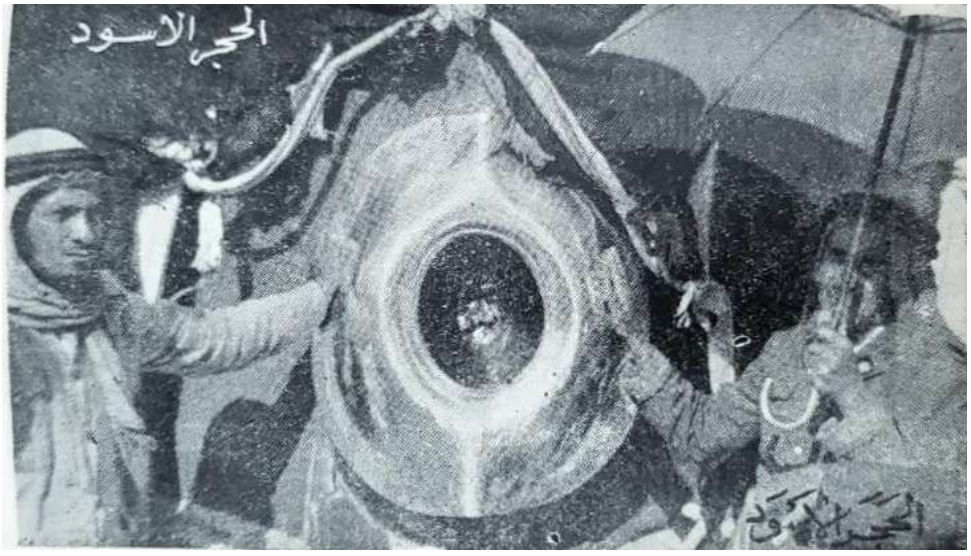
الحجر الأسود

لا نعلم للحجر الأسود تاريخًا ثابتًا إلَّا أنَّه حجرٌ مقدَّسٌ في الكعبة منذ أن بُنِيَت الكعبة إلى أن جاء الإسلام فأقرَّ تقديسه، وقال عمر رضي الله عنه: «**إنِّي أعلم أنَّكَ حجرٌ لا تنفع ولا تضرُّ، ولولا أنِّي رأيت رسول الله ﷺ يُقبِّلك ما قبَّلتُكَ**»(١).



(١) رواه البخاري، رقم: (١٥٩٧).


المسجد الحرام بمكة المكرمة


الحجر الاسود

نبذةٌ من تاريخ الحجر الأسود

لَمَّا جدَّدت قريش بناء الكعبة في السَّنة السَّادسة قبل البعثة اختلفت فيمن يضع الحجر الأسود في موضِعِه، واشتدَّ الخصام بينهم حتَّى أتوا بطستٍ من دمٍ، ووضعوا أيديهم فيه، وأقسموا على القتال، فقال أحدهم: لنحكِّم بيننا أوَّل داخل إلى المسجد، فكان رسول الله ﷺ وهو لم يبعث بعد، فنزع رداءه ووضع الحجر الأسود فيه وأمرهم أن تأخذ كلُّ قبيلة بطرفٍ من هذا الرِّداء حتَّى حاذى مكانهنَّ فأخذه ﷺ بيده الشَّريفة ووضعه في مكانه[١].

وفي عهد ابن الزُّبير احترقت الكعبة، وتصدَّع الحجر من أثر النَّار، فكان ثلاثةَ أوصالٍ، وتشظَّت[٢] منه شظيَّة كانت عندَ آلِ بني شيبةَ، وقد شدَّه عبد الله بن الزُّبير بالفضَّة ثمَّ تزلزلت الفضَّة، وخيف عليه أن يَنْقَضَّ، فلمَّا اعتمر هارون الرَّشيد في سنة (١٨٩هـ)[٣] أَمَرَ بالحجارة الَّتي بينها الحجر فنُقِلَت من فوقه ومن تحته، ثمَّ أفرغ فيها الفضَّة.

وفي سنة (٣١٧هـ)[٤] اعتدى أبو طاهر القرمطيُّ على المسجد

(١) انظر: السيرة النبوية، للسباعي (ص ٣٦)
(٢) تشظَّى الشيء: إذا تطاير شظايا. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٨/ ٣٧٨).
(٣) أي: سنة (٨٠٥م).
(٤) أي: سنة (٩٢٩م).

الحرام ومكَّة، وأعمل سيفه في الطَّائفين والمصلِّين، وقَتَلَ في الحرمِ وفي شعابِ مكَّة أكثرَ من ثلاثينَ ألفًا، طَمَرَ كثيرًا منهم في بئر زمزمَ وفي المسجد الحرام، ونهبَ أموال الحجيج وأموالَ أهلِ مكَّة، واقتلعَ الحجرَ الأسودَ وذهبَ به إلى بلاد هجر القطيف، وفي سنة (٣٣٩هـ)[١] أعادهُ سميرُ بن الحسن القرمطيُّ، وقد شُدَّ بالفضَّة من شقوقٍ حدثت فيه بعد قلعه، فوضعه في مكانه، ثمَّ قال: أخذناه بقدرة الله ورَدَدْنَاه بمشيئة الله[٢]، وقد بَذَلَ الخليفةُ ببغداد المقتدر بالله العبَّاس للقرامطة خمسينَ ألف دينارًا؛ ليردُّوا الحجرَ الأسودَ إلى موضعه فأبوا.



(١) أي: سنة (٩٥٠م).

(٢) انظر: القول المبين في سيرة سيد المرسلين، للنجار (صـ٤٢).

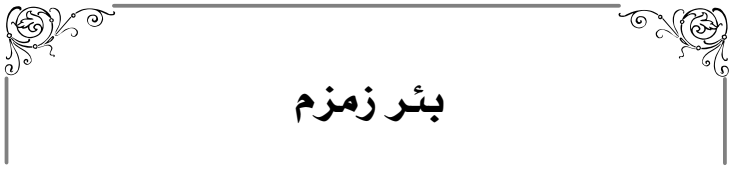


المقام

أمام جدار الكعبة الشَّرقيِّ مقام إبراهيم، وهو الأثر الإسلاميُّ الخالد الَّذي حفظه الله كما حَفِظَ الحجرَ الأسودَ، يرجع عهده إلى سيِّدنا إبراهيم عليه السلام وذلك أنَّه لَمَّا أمره الله بأن يرفعَ قواعد البيت كان يقوم عليه، وهو الحجر الَّذي فيه أثرُ قدمه، قيل: إنَّ طوله ثلاثة أشبار، وسعته شبران، وأعلاه أوسع من أسفله، وقد وُضِعَ عليه قفص من الصُّفر خشيةَ أن يَتْلَفَ هذا الأثر الإسلاميُّ من كثرة اللَّمس، تعلو القفص قبَّة وُضِعَت فوق المقام وخلف القفص ظُلَّةٌ[1] قائمةٌ على أربعة أعمدة يصلِّي فيها النَّاس عند انتهائهم من الطَّواف بحيث تكون مقصورة المقام بينهم وبين الكعبة؛ امتثالًا لأمر الله عز وجل: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البَقَرَة: ١٢٥].



(١) ظلة: كلُّ شيء يظلك فهو ظلة. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١١/ ٤١٧).



بئر زمزم

يقع شرقيَّ المقام، وزمزم بئر الحرم المكينة[١] عند المسلمين مقدَّسة لديهم؛ لِمَا لها من ذكريات يرجع تاريخها إلى السَّنة الأولى من ميلاد إسماعيل عليه السلام، فإنَّ إبراهيمَ هاجر بولده إسماعيل وأمِّه هاجر إلى مكَّة، ودعا تلك الدَّعوات الَّتي ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٖ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: ٣٧] إلى آخر الآيات الخمس من سورة إبراهيم، وعطش إسماعيل، وطلبت هاجر الماء فلم تجده وأخذت تسعى بين الصَّفا والمروة حتَّى جاءت الرَّحمة من عند الله كما روى ذلك البخاريُّ رحمه الله في حديثه عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «أنَّ إبراهيم عليه السلام جاء بزوجته هاجر وابنها إسماعيل وهي تُرضعه حتَّى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكَّة يومئذٍ أحدٌ، وليس بها ماءٌ، فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابًا فيه تمر، وسقاءً فيه ماء، ثمَّ قفَّى إبراهيم منطلقًا، فتبعته أمُّ إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهبُ وتتركنا في هذا الوادي الَّذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت

(١) مكينة: أي: متمكنة في الأرض. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٣/ ٢٢٠).

له: آلله الَّذي أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يُضيِّعُنَا، ثمَّ رجعت، فانطلق إبراهيم حتَّى إذا كان عند الثَّنيَّة حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثمَّ دعا بهذه الكلمات، ورفع يديه إلى السَّماء، فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] حتَّى بلغ ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وجعلت أمُّ إسماعيل تُرْضِعُ إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء حتَّى نَفِدَ ما في السِّقاء وعطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوَّى - أو قال: يتلبَّط - فانطلقت كراهيَةَ أن تنظر إليه، فوجَدَت الصَّفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثمَّ استقبلت الوادي تنظرُ هل ترى أحدًا فلم ترَ أحدًا، فهبطت من الصَّفا حتَّى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثمَّ سعت سعيَ الإنسان المجهود حتَّى جاوزت الوادي، ثمَّ أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدًا، فلم ترَ أحدًا ففعلت ذلك سبع مرَّات، قال ابن عبَّاس رضي الله عنه قال النَّبيُّ ﷺ: «**فَذَلِكَ سَعيُ النَّاسِ بَينَهُمَا**»، فلمَّا أشرفت على المروة سمعت صوتًا، فقالت: صه - تريد نفسها - ثمَّ تسمَّعت فسمعت أيضًا، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث[1]، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه، - أو قال: بجناحه - حتَّى ظهر الماء فجعلت تحوطه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفورُ بعدما تغرف، قال ابن عبَّاس: قال النَّبيُّ ﷺ: «**يَرحَمُ اللهُ أُمَّ إِسمَاعِيلَ، لو**

(١) الغواث: من الإغاثة: الإعانة. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٣/ ٣٩٢).

تَرَكَتْ زَمْزَمَ»، أو قال: «**لو لم تَغْرِفْ من المَاءِ لَكَانَتْ عَيْنًا مَعِينًا**[١]»، قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضَّيعة، فإنَّ هاهنا بيت الله، يبني هذا الغلام وأبوه، وإنَّ الله لا يُضِيع أهله، وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرَّابية تأتيه السُّيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتَّى مرَّت بهم رفقة من جُرْهُم أو أهل بيت من جُرْهُم مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكَّة فرأوا طائرًا عائفًا، فقالوا: إنَّ هذا الطَّائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جريًّا أو جريَّين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا، قال: وأمُّ إسماعيل عند الماء، فقالوا لها: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم، ولكن لا حقَّ لكم في الماء، قالوا: نعم، قال ابن عبَّاس، قال النَّبيُّ ﷺ: «**فألفى ذلك أمَّ إسماعيل وهي تحبُّ الإِنْسَ**»، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتَّى إذا كان بها أهل أبياتٍ منهم، وشبَّ الغُلامُ، وتعلَّم العربيَّة منهم وأنفسهم[٢] وأعجبهم حين شبَّ، فلمَّا أدرك زوَّجوه امرأة منهم، وماتت أمُّ إسماعيل»[٣].



(١) ماء معين: أي: جارٍ. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٣/ ٤١١).
(٢) أنفسَهُ: أعجبه. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٦/ ٥٦٩).
(٣) رواه البخاري، رقم: (٣٣٦٤).



كسوة الكعبة

أوَّل من كسا الكعبة تُبَّعٌ الحميريُّ، كساها بالأنطاع ثمَّ كساها بالثِّياب الحميريَّة[١]، ثمَّ لَمَّا بنت قريش الكعبة صنعوا لها كِسًا[٢] من أنواع الثِّياب شتَّى، كلَّما جاءت كسوة طُرِحَت على سابقتها، ثمَّ لمَّا كان زمن أبي ربيعة بن المغيرة المخزوميِّ وكان ثريًّا، قال لقريش: أنا أكسو الكعبة سنةً وحدي، وجميع قريش سنة[٣]، واستمرَّ الأمر على هذا حتَّى عهد النَّبيِّ ﷺ.

وأوَّل أعرابيَّةٍ كستِ الكعبة حريرًا في الجاهليَّة نُتَيْلَة بنت جَنَاب النَّمِرِيَّة أمُّ العبَّاس بن عبد المطَّلِب رضي الله عنه، وسبب ذلك أنَّ العبَّاس ابنها ضاع وهو صغير، فنذرت إن وجدته لتكسونَّ الكعبة، فأتاها به رجل جذاميٌّ فوفَّت بما نذرت[٤].

وفي الإسلام أوَّل من كساها النَّبيُّ كساها بالثِّيَاب اليمانيَّة، ثمَّ كساها أبو بكر الصِّدِّيق وعمر وعثمان بالقباطيِّ المصريَّة، وكان عمر

(١) انظر: السيرة الحلبية، لعلي الحلبي (١/ ٢٥٠).

(٢) كِسًا: جمع كسوةٍ، وهي الثوب الذي يلبس. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٩/ ٤٠١).

(٣) انظر: السيرة الحلبية، لعلي الحلبي (١/ ٢٥٠).

(٤) انظر: بهجة المحافل وبغية الأماثل، للحرضي (٢/ ١٤٧).

ينزع كسوتها كلَّ سنة، ويستبدل بها كسوةً جديدةً، ويقسم الأولى بين الحُجَّاجِ، وكساها معاوية ويزيد وابن الزُّبير وعبد الملك بالدِّيباج والقباطيِّ والحبرات[١].

وفي سنة (١٦٠هـ)[٢] حجَّ المهديُّ، فذكر له السَّدنة[٣] أنَّ كِسَا الكعبة كثرت عليها، والبناء ضعيفٌ يُخْشَى عليه من ثقلها، فأمر بتجريدها وألَّا يُسْدَل عليها إلَّا كسوةٌ واحدةٌ، واستمرَّ ذلك إلى يومنا هذا.

وفي سنة (٧٥٠هـ)[٤] أوقف الملكُ الصَّالح بن عبد الملك النَّاصر بن قلاوون ثلاث قرى من قرى القليوبيَّة في مصر لكسوة الكعبة والحجرة النَّبويَّة، ثمَّ أضاف إليها السُّلطان سليمان بن سليم سبع قرى، وفي عهد محمَّد علي باشا والي مصر حُلَّ هذا الوقف، وتعهَّدَت الحكومة المصريَّة صنع الكسوة من ماليَّتها إلى أن استولت المملكة السُّعوديَّة على الحجاز، فقامت بصُنْعِ الكسوة بنفسها مدَّةَ عشرين سنةً، وبعد أن زارَ الملك عبد العزيز السُّعود القاهرةَ عادت المياه إلى مجاريها، وأعادت الحكومة المصريَّة صنعَ الكسوة في كلِّ سنة، وآخر كسوة رأيناها على الكعبة الكسوةُ الَّتي كُتِبَ عليها:

---

(١) انظر: السيرة الحلبية، لعلي الحلبي (١/ ٢٥٠).

(٢) أي: سنة (٧٧٧م).

(٣) السَّدنة: جمع السَّادن؛ وهو خادم الكعبة. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٣/ ٢٠٧).

(٤) أي: سنة (١٣٤٩م).

صُنِعَت في عهد أحمد فؤاد الثَّاني، واستُبدِلَت أمامنا بالكسوة الَّتي صُنِعَت في عهد الجمهوريَّة المصريَّة.

وفي اليوم السَّابع من شهر ذي الحجَّة تُرفع الكسوة القديمة من فوق مستوى الحجر الأسود حول الكعبة، ويُستبدلُ بما رُفع منها إزارٌ أبيض يحيطُ بها، فَيُقال: أحرمت الكعبة، ثمَّ في اليوم العاشر وبعد خروج النَّاس جميعًا إلى مِنىً تُنزَعُ الكسوة عن الكعبة كلِّها، وتُستبدل بها الكسوة الجديدة أوصالًا، ثمَّ في الأيَّام الباقية تخاط هذه الأوصال إلى بعضها حتَّى تصبح قطعةً واحدة محيطةً بالكعبة من أعلاها إلى أسفلها.



المسجد الحرام

يقع في وسط مكَّة، وهو مستطيل الشَّكل تقريبًا، مساحته (١٧٩٠٢) مترًا مربَّعًا، طول ضلعه الشَّماليِّ (١٦٤) مترًا وفيه باب الزِّيادة، والجنوبيِّ (١٦٦) مترًا وفيه باب الصَّفاء، والشَّرقيِّ (١٠٨) أمتار وفيه باب السَّلام، والغربيِّ (١٠٩) أمتارًا، وفي وسط المسجد تقريبًا الكعبة.

تحيطُ بالمسجد ثلاثةُ أروقةٍ يفصل بين كلِّ رواق صفٌّ من الأعمدة الرُّخاميَّة الجميلة، وفي وسط المسجد صحنٌ واسعٌ توسَّطته الكعبة يحيط بها المطاف، وأمامَ كلِّ ضلع من أضلاع البيت سقيفةٌ كان يقوم بها إمام المذهب الَّذي نُسِبَت إليه تلك السَّقيفة، فالسَّقيفة المقابلة للحطيم سُمِّيت مقام الحنفيِّ، والمقابلة للضِّلع الغربيِّ سُمِّيت مقام مالك، والمقابلة للرُّكن الجنوبيِّ سُمِّيت مقام الحنبليِّ، والَّتي فوق زمزم سُمِّيت مقام الشَّافعيِّ.

ويقابل ركن الباب باب بني شيبة؛ وهو عقدٌ أُقِيْمَ على عمودين من الرُّخام كتبت عليه الآية الكريمة: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الإسرَاء: ٨٠]، وتحته كُتبت الآية: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحِجر: ٤٦].

وأرضُ المسجد منخفضةٌ عن الأراضي المحيطة به، يُصْعَدُ منه

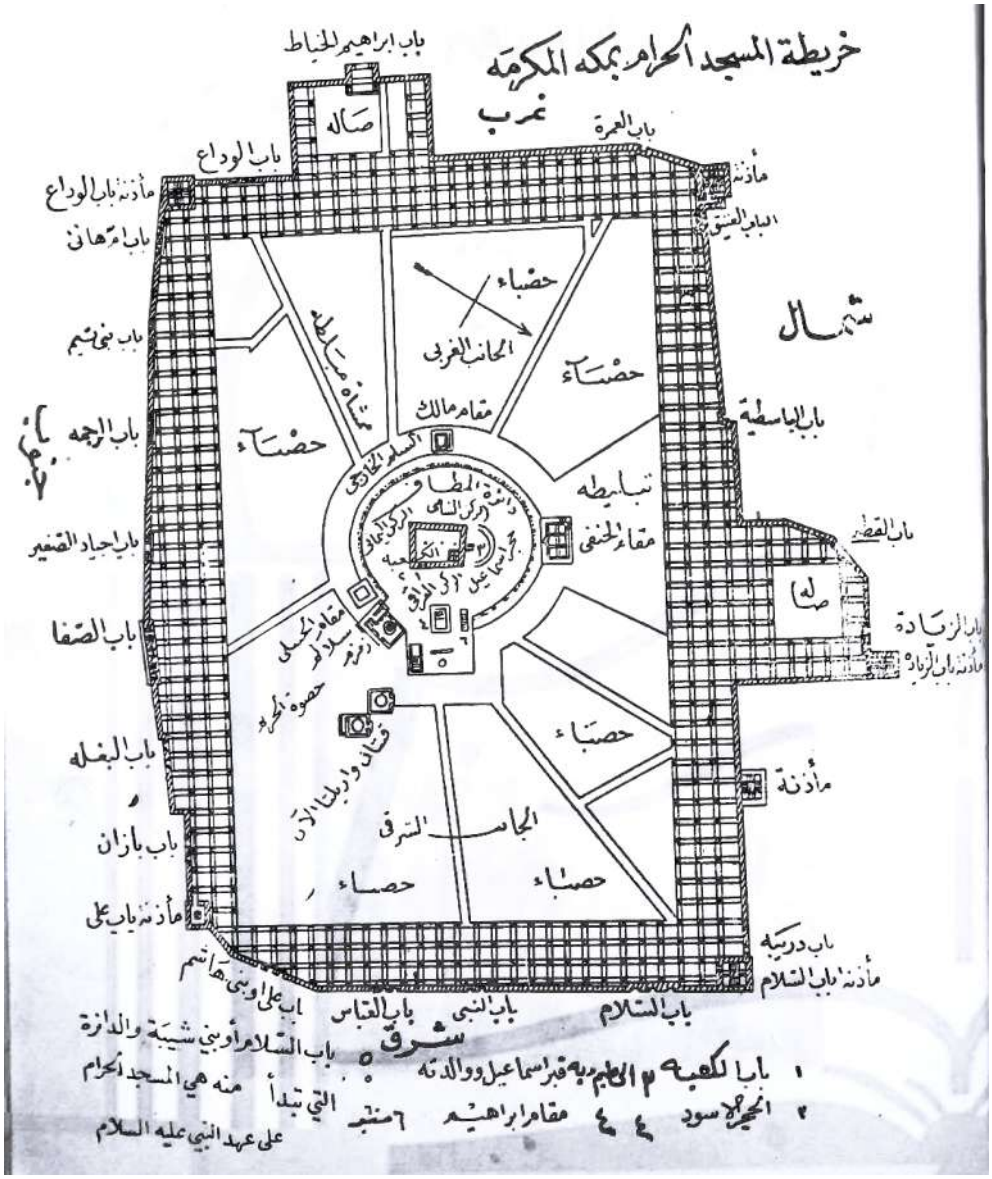
على درجاتٍ يختلف عددها بين تسع درجاتٍ وثلاث عشرة؛ أي: إنَّ متوسِّط انخفاض أرضه عن الأراضي المحيطة به نحو عشرة أقدام، وأرض المطاف أيضًا تنحدر تدريجيًّا عن الأرض القريبة من الأبواب بنحو ثلاثة أقدام، وصحن المسجد لا سقف له، وكلُّه مفروش بالحصباء إلَّا ما تخلَّله من مماشٍ تبدأ بالأروقة وتنتهي بالمطاف.

وقد جدَّد الملكُ عبد العزيز السُّعود رَحِمَهُ اللَّهُ الممشى الموصل بين المطاف وباب السَّلام، والممشى الموصل بين المطاف وباب الصَّفاء، ورصفهما بالرُّخام الأبيض والأسود.

ويحيطُ بالمسجد خمسةٌ وعشرون بابًا؛ ثمانيةٌ في الشَّمال، وخمسةٌ في الشَّرق، وسبعةٌ في الجنوب، وخمسةٌ في الغرب، أكبرها باب السَّلام، وهو ذو ثلاث فتحات، وباب عليٍّ ذو ثلاث فتحاتٍ أيضًا، ولباب الصَّفاء خمس فتحات، وستَّةٌ من هذه الأبواب صغيرةٌ وهي خوخات[1].

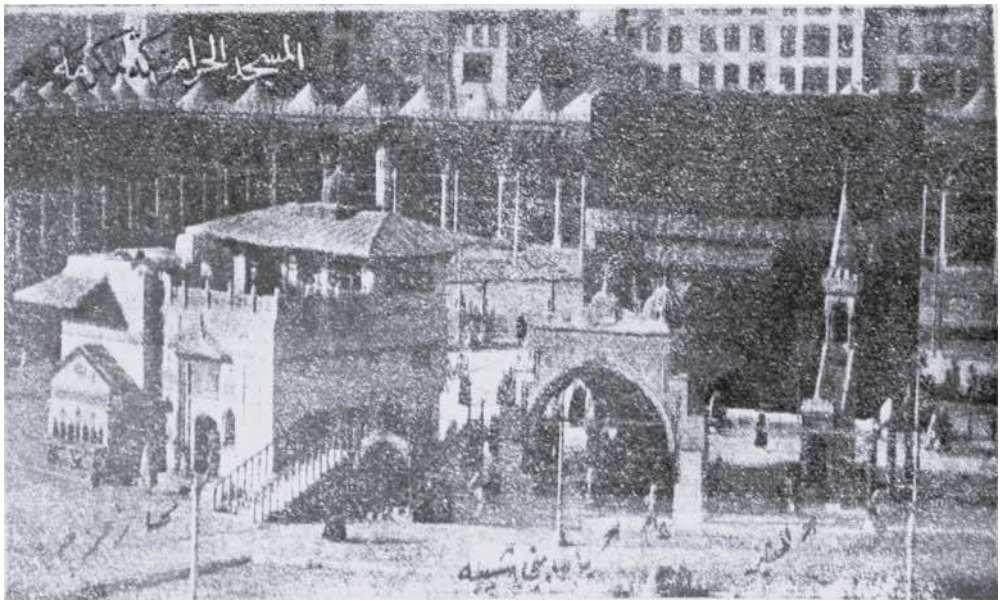


(١) خوخات: جمع خوخة، وهي باب صغير كالنافذة الكبيرة تكون بين بيتين ينصب عليها بابٌ. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٧/ ٢٤٧).


خريطة المسجد الحرام بمكه المكرمه
باب ابراهيم الخياط
صاله
غرب
باب الوداع
باب العمرة
مأذنة باب الوداع
باب الحزورة
مأذنة
الباب العتيق
شمال
حضباء
الحائط الغربي
مقام مالك
حصباء
حصباء
باب الباسطية
باب الرحمه
باب بني شيم
مقام الحنفي
تبليطه
باب القصبه
باب اجياد الصغير
صاله
باب الزيادة
مأذنة باب الزيادة
باب الصفا
حصوه نحره
حصباء
باب البغله
مأذنة
باب بازان
الجامع الشرقي
حصباء
حصباء
مأذنة باب علي
باب دريبه
مأذنة باب السلام
باب السلام
باب النبي
باب العباس
باب علي او بني هاشم
شرق
١ باب الكعبه ٣ الحطيم به قبر اسماعيل ووالدته
٢ الحجر الاسود ٤ مقام ابراهيم ٦ منبر
باب السلام أو بني شيبة والدائرة التي تبدأ منه هي المسجد الحرام
على عهد النبي عليه السلام



الدخول في الكعبة المشرفة


المسجد الحرام بمكة المكرمة

تاريخ المسجد الحرام

كانَ المسجدُ الحرامُ في عهد النَّبيِّ ﷺ وخليفته الصِّدِّيق بلا جدار يحيط به، وكانت الدُّور محدقة به من كلِّ جانب، وبين الدُّور أزقَّة متَّصلة بالمسجد يدخل منها النَّاس، وحدود المسجد هي حدود المطاف الآن، ولَمَّا استخلف الفاروق رضي الله عنه اشترى دورًا تحيطُ به، فهدمها ووسَّع بها المسجد، وكان ذلك في السَّنة (١٧هـ)[١]، وتلك أوَّل زيادة، وقد امتنع بعض النَّاس أن يأخذوا ثمن دورهم، فوضع أثمانها في خزانة الكعبة وقال لهم: «**إنَّما نزلتم على الكعبة وهو فناؤها، ولم تنزل الكعبةُ عليكم**»[٢]، ثمَّ أخذوا أثمان دورهم بعد ذلك، وبنى عمرُ حولَ المسجد جدارًا قصيرًا توضع عليه المصابيح، وقيل: إنَّ أوَّل مصباح وُضِعَ على جدار المسجد يضيءُ للطَّائفين هو مصباح عتبة بن الأزرق، وكانت داره ملاصقة للمسجد.

ثمَّ في زمن عثمان رضي الله عنه كَثُرَ النَّاس، وضاق بهم المسجد، فاشترى في سنة (٢٦هـ)[٣] دورًا تجاور المسجد، وأبى قومٌ أن يبيعوه، فهدم عليهم دورهم، فصاحوا به، فقال لهم: «إنَّما جرَّأكم

(١) أي: سنة (٦٣٨م).
(٢) انظر: أخبار مكة، للأزرقي (٢/ ٦٩).
(٣) أي: سنة (٦٤٧م).

عليَّ حِلْمِي عنكم، فقد فعل بكم عمر هذا فلم يَصِحْ به أحدٌ، فاحتذيتُ على مثاله فصيَّحتُم بي»[١]، ثمَّ أمر بهم إلى السِّجن حتَّى كلَّمَهُ فيهم عبدُ الله بن خالد بن أسيد فتركهم، وجعل عثمان للمسجد أروقة تحيط به.

وفي سنة (٦٤هـ)[٢] زاده عبد الله بن الزُّبير، ومن جملة ما اشتراه دار ابن الأزرق.

وفي سنة (٧٥هـ)[٣] حجَّ عبد الملك بن مروان وعَمَرَ المسجد ولم يزد فيه، وإنَّما رفع جداره وسقفه وذهَّبَ أسطواناته، ثمَّ جاء الوليد بن عبد الملك، فنقض ما عَمَرَهُ أبوه، ووسَّع المسجد، وسقَّفه بالسَّاجِ المزخرف وأزَّره بالرُّخام، وذهَّبَ رؤوسَ أساطينه[٤] بصفائح الذَّهب والصُّفر، ورصَّع طيقانه[٥] بالفسيفساء.

وفي سنة (١٣٧هـ)[٦] زاد المنصور العبَّاسيُّ في جانبيه الشَّماليِّ والغربيِّ، ثمَّ عَمَرَه ابنه المهديُّ ولم يزد فيه، وبعد ذلك حجَّ المهديُّ، فرأى الكعبة في شقٍّ منَ المسجد، فأحبَّ أن تكون في

(١) انظر: أخبار مكة، للأزرقي (٢/ ٦٩).
(٢) أي: سنة (٦٨٣م).
(٣) أي: سنة (٦٩٤م).
(٤) أساطين: جمع أسطوانة، والغالب عليها أنَّها تكون من بناءٍ بخلاف العمود. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٥/ ١٨٦).
(٥) الطاق: ما عُطِفَ من الأبنية، والجمع طاقات، وطيقان: فارسيٌّ معرَّبٌ. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٦/ ١٠٧).
(٦) أي: سنة (٧٥٤م).

وسطه، فدعا المهندسين وشاورهم، ثمَّ خرج إلى عاصمة ملكه، وخلَّف لذلك الأموال عند عامل مكَّة، فاشترى من النَّاس دورهم، ووسَّع المسجد، ولم يتمَّ ذلك إلَّا في خلافة الهادي.

لم يزد في المسجد بعد عمارة المهديِّ إلَّا زيادة دار النَّدوة في الجانب الشَّماليِّ، وقد زادها المعتضد العبَّاسيُّ، وزيادة باب إبراهيم في الجانب الغربيِّ، وزادها المقتدر العبَّاسيُّ، ثمَّ حصلت بعد ذلك ترميمات في المسجد، أمَّا العمارة الَّتي هو عليها الآن فهي عمارة السُّلطان سليم الَّتي بدأ بها سنة (٩٧٩هـ)[١]، ومات سنة (٩٨٠هـ)[٢] فأتمَّها ابنه السُّلطان مراد سنة (٩٨٤هـ)[٣]، وتولَّى أمر التَّعمير أحمد بك الَّذي جدَّ واجتهد وأدَّى واجبه تجاه المسجد الحرام منذ أن أمره السُّلطان سليم حتَّى أتمَّه.

وقد بقي ملوكُ الإسلام وأمراؤهم يؤدُّون واجبهم تجاه قِبْلَة الإسلام حتَّى تولَّى الملك عبد العزيز بن سعود رَحِمَهُ اللَّهُ، فرمَّم عموم المسجد، ورخَّمه، وأصلح كلَّ ما يجب إصلاحه، فأصلح المماشي والمطاف والأبواب، وطلى مقام إبراهيم والأساطين المُحيطة بالمطاف بالدِّهان الأخضر.

ثمَّ في سنة (١٣٦٤هـ)[٤] أصدر أمرًا بإصلاح المسجد كلِّه؛ داخله

(١) أي: سنة (١٥٧١م).
(٢) أي: سنة (١٥٧٢م).
(٣) أي: سنة (١٥٧٦م).
(٤) أي: سنة (١٩٤٥م).

وخارجه، وأمر بتجهيز اللَّوازم جميعها الَّتي تؤمِّنُ الرَّفاهية للحجَّاج، فعمَّم الفُرُشَ، وأمر بوضع مظلَّاتٍ متحرِّكة تحيط بالمسجد ممَّا يلي الأروقة؛ بحيث تغطِّي كلُّ مظلَّةٍ ما يقاربُ عشرة أمتار تتَّصلُ بالأروقة، ثمَّ أمر بوضع أعمدة للنُّورِ في صحن المسجد عددها أربعة وعشرون عمودًا، ووضع المراوح الكهربائيَّة داخل الأروقة؛ بين كلِّ ثلاثة أساطين مروحة، وأَمَرَ بمسحِ جميع ما كان متراكمًا على الأسطوانات من غبارٍ؛ لتعود إلى لونها الأصليِّ ناصع البياض، وهكذا فإنَّ المسجد الحرام في وضعه الحاضر له منظرٌ يُعجِب الأنظار، فضلًا عمَّا فيه من هيبة ووقار واحترام.





إنارة المسجد الحرام

كان المسجد منذُ القِدَمِ يُضاءُ بالزَّيت على عادة النَّاس في ذلك الزَّمن، ثمَّ في زمن السُّلطانَ عبد الحميد أرسل إلى الحرمين الشَّريفين مولِّدين كهربائيِّين مع مهندسين لهما، وبعد طول عهد ضَعُفَ هذا فأرسل أحد أثرياء الهند إلى المسجد الحرام مولِّدًا كهربائيًّا جديدًا بقي يستعمل إضافةً للمولِّد الأوَّل حتَّى آخر أيَّام الملك عبد العزيز السُّعود، فإنَّه رَحِمَهُ اللَّهُ أَمَرَ بجلب مولِّدٍ ضخمٍ يكفي الحرمَ المكِّيَّ بأروقته وصحنه ومنائره وممرَّاته وطرقه ونواحيه كلِّها مع ما يضاف إلى ذلك من التَّهوية، وقد وصل هذا المولِّد بعد وفاته رَحِمَهُ اللَّهُ، وتولَّى خليفته جلالة الملك سعود تنفيذ إرادة والده، رحم الله السَّلف وبارك في عُمرِ الخلف.



مقامنا في مكَّة قبل الحجِّ

وصلنا مكَّة يوم الأربعاء السَّاعة التَّاسعة صباحًا، وكان يومًا شديدَ الحرِّ فلم نستطع أن نكمل أركان العمرة الَّتي أحرمنا بها؛ لهذا اضطررنا أن نلتمس مكانًا لراحتنا فلم نجد إلَّا منزل المجاهدين المعروف بحوض البقر الَّذي يشغله عسكر المملكة المعروفون بأهل الجهاد، ويقع قرب منى، ولكنَّ أهلَ الجهاد البدو أساؤوا الجيرة، فتعرَّضوا أوَّلًا للرِّجال يُسْمِعُونَهم كلامًا جافًّا لا يصدر إلَّا من جُفَاةٍ[1]، ولكنَّ الرِّجال لم يلتفتوا إليهم ممتثلين قولَ الله ﷻ: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ [البَقَرَة: ١٩٧]، إلَّا أنَّ ذلك ساءهم فتعرَّضوا للنِّساء بكلام مُشِين، ولَمَّا رأينا الأمر وصل هذا الحدَّ اضطررنا أن نلتمس مكانًا يقينا ويقي نساءَنا شرَّ المتعرِّضين، وكما قال الشَّاعر:

دَارِ جارَ السُّوء بالصَّبر وإن لم تجدْ صبرًا فما أحلى النُّقَلْ[2]

ونزلنا في مكانٍ يُقالُ لهُ: العدل، يقعُ بين جبلي نور وغرور، فالتفَّ حولنا أكثرُ الكويتيِّين، وكانت حملات الكويتيِّين ذلك العام

(١) رجل جافي الخُلُق: أي: كزٌّ غليظ العشرة خرق في المعاملة متحامل عند الغضب. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٧/ ٣٥٩).
(٢) انظر: نفح الأزهار في منتخبات الأشعار، للبتلوني (١/ ٥٤).

كثيرةً ضربت الرَّقمَ القياسيَّ، حيثُ بلغَ عدد الحجَّاجِ الكويتيِّين (١٦٠٠) حاجٍّ وحاجَّةٍ أو يزيد.

العمرة

وهي إحرامٌ من الميقات على من مرَّ به، أو من أقربِ الحلِّ لمن هو في مكَّة، وطوافٌ وسعيٌ وحَلْقٌ وتقصيرٌ.

وهي سنَّة مؤكَّدةٌ عند الحنفيَّة والمالكيَّة، وفرض عند الشَّافعيَّة والحنابلة.

الحجُّ

والحجُّ نُسْكٌ واجبٌ على من استطاع إليه سبيلًا؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عِمرَان: ٩٧].

وهو إحرامٌ بالحجِّ من الميقات، ووقوفٌ بعرفة، ومبيتٌ في منى، وطوافٌ، وسعيٌ، ورَميُ جمارٍ، وحَلْقٌ، وتقصيرٌ، وطوافُ وداعٍ، ولكلٍّ من هذه المناسك أحكام مذكورة في كتب الفِقْهِ لا يمكن ذكرها هنا، وإنَّما هي مُيَسَّرَةٌ لمن أرادَ الاطِّلاع عليها.

وفي اليوم الثَّامن من ذي الحجَّة الموافق (١٨-٨-١٩٥٣م) قبل أن نصلِّي الظُّهر أحرمنا بالحجِّ من المسجد الحرام بالصِّيغة الشَّرعيَّة المعروفة، وهي: اللَّهمَّ إنِّي نويت الإحرام بالحجِّ فيسِّره لي وتقبَّله منِّي، وإن حبسني حابس فمحلِّي حيثُ حبستني، نويت الإحرام بالحجِّ.

ثمَّ ركبنا سيَّاراتنا متوجِّهين إلى منى، وبِتنَا فيها ليلتنا تلك، وبعد صلاة الصُّبح نقلنا أمتعتنا وبدأنا بعد طلوع الشَّمس سيرنا إلى عرفات، وكان الزِّحام شديدًا جدًّا، فقد استغرقت المسافة بين منىً وعرفات ثلاث ساعاتٍ في السَّيَّارة، على أنَّ المسافة بينهما لا تزيد على تسع كيلومتراتٍ، ولَمَّا وصلنا إلى محلِّنا في عرفات حمدنا الله على السَّلامة، ونصبنا خيامنا، واشتغلنا بالدُّعاء وتلاوة القرآن الكريم

وسؤال الله من فضله، وألَّا يردَّنا بعد هذا الموقف خائبين، ولا من بابِ رحمته مطرودين.

وصف عرفات

سهلٌ واسع يمتدُّ النَّظر فيه، وأمامه من جهة الشَّمال الغربيِّ جبلُ عرفات، وفي الشَّمال تمامًا جبلُ الرَّحمة أو جبل الصَّخرات، ومن جهة الشَّرق جبلان، ويحدُّ ميدان عرفات من الجنوب نمرة.

في اليوم التَّاسع من ذي الحجَّة من كلِّ سنةٍ يمتَلِئُ هذا الميدان بالمسلمين من حجَّاجِ بيتِ الله الحرام الَّذين أتوا من بلادهم شعثًا غبرًا من كلِّ فجٍّ عميق، أتوا من بلادهم بين راكبٍ وماشٍ يحنُّون إلى رحمة الله ورضوانه حنينَ الطَّير إلى أوكارها، تركوا لَذِيذ معاشهم، وهجروا لذيذ فراشهم، لا قصدَ لهم إلَّا الله، ولا رجاءَ لهم إلَّا مِنَ الله.

بعد أن تَلَوتُ ما تيسَّر لي من كتابِ الله، ودعوت الله تعالى بما ألهمني به من دعاء، وتوجَّهت إليه كما يجب أن يتوجَّه الإنسان إلى ربِّه، خرجت من خيْمَتي وتَلَفَّتُّ يمنةً ويسرةً فإذا النَّاس على امتداد بصري كلُّهم داعٍ ومبتهلٌ[1] وقارئٌ ومذهولٌ في مناجاة ربِّ الأرباب، وهم على اختلاف أجناسهم ولغاتهم متَّجهون إلى فاطرِ السَّموات والأرض يدعونه بمختلف اللُّغات ويسألونه قَبولَ توبتهم والمغفرةَ لذنوبهم والعفوَ عن زلَّاتهم.

(١) المبتهل: المُسَبِّح الذَّاكر لله. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١/ ٣٧٥).

الله! هذا صينيٌّ، وذاك مغربيٌّ، والآخرُ سودانيٌّ، وغيرهم تُركيٌّ، وعربيٌّ، وهنديٌّ، الله أكبر، وما أكثرَ الحامدين في الأرض!

سمعت مكبِّر الصَّوت في مسجد نمرة يُذِيْعُ صوتَ رجلٍ يُلقِّنُ النَّاس دعاء عرفات، فعجبت من ذلك، محدِّثًا نفسي: لو أنَّه ترك النَّاس وأنفسهم يسألون الله بما يعرفونه من سؤالٍ لكان أولى، إذ ما فائدة تلقينهم بلغة عربيَّةٍ وهم على جنسيَّاتٍ مختلفةٍ؛ هنديَّة وتركيَّة وصينيَّة؟!

أيُّها الرَّجل! دع النَّاس وشأنهم واتركهم يسألون الله بما يلهمهم به، فالله ﷻ أعلم بنيَّاتهم وحاجاتهم.

وبعد الزَّوال أذَّن المؤذِّن لصلاة الظُّهر، وخطبَ الخطيب يعلِّم النَّاس مناسك الحجِّ، وهي خطبة اعتاد النَّاس سماعها منذ القِدَم، وبعد الانتهاء من هذه الخطبة خطر لي خاطر؛ أين هذه الخطبة من خطبة النَّبيِّ ﷺ في حجَّةِ الوداع؛ أو مِنْ خُطَبِ الخلفاء الرَّاشدين أو من خُطَبِ أمراء الحجِّ في صدر الإسلام يوم كانت الإمبراطوريَّة الإسلاميَّة قد ضربت أطنابها في نصف العالم المعمور؟!

يؤذِّنُ المؤذِّن معلنًا بصوته بين ساعات وساعات: الله أكبر، فترسل الحياة في هذه الكلمة، ويهتف لندائها أُلوف الألوف من البشر مردِّدين: الله أكبر، من فوق منائر طشقند في الشَّرق، ومنائر فاس في الغرب ومنائر ما بينهما.

إنَّ المسلمين اليوم ليسوا قلَّةً، إنَّما هم أكثر مالًا وعددًا من ذي قبل، لكنَّهم جهلوا المعاني السَّامية الَّتي يدعو إليها دينهم، إنَّهم في

آسيا وحدها أكثر من مئتي مليون مسلم، وفي غيرها نحوٌ من هذا العدد، لكنَّهم قليلون؛ لأنَّهم لا جامعةَ تجمعهم، ولا وحدة تؤلِّف بين قلوبهم، ولو أنَّهم أدركوا مبلغ قوَّتهم وقيمة حياتهم، وفهموا ما يدعو إليه دينهم من معانٍ روحيَّة سامية، ونبذوا كُلَّ عبوديَّة لغير الله، واستهانوا بالحياة في سبيل الله، وسارعوا إلى البرِّ والتَّقوى والتَّعاون عليهما والتَّراحم والتَّآزر؛ لاستطاعوا أن يُجَدِّدوا مجدهم، ويُعيدوا للإسلام عظمته المادِّيَّة، وللإنسانيَّة معانيها الرُّوحيَّة.

الله أكبر، لا إله إلَّا الله، الله أكبر، ولله الحمد، لا إله إلَّا الله وحده، صَدَقَ وعدَه، ونَصَرَ عبده، وأعزَّ جندهُ، وهَزَمَ الأحزابَ وحدَه، سمعتها من رجلٍ نَطَقَ بها في السَّاعة الأخيرة من نهار عرفات، فأغمضت عينيَّ وكأنِّي أرى سيِّدنا محمَّدًا ﷺ في وقفته في هذا السَّهل الفسيح في حجَّة الوداع، قالها ﷺ وسمع صوته مئةُ ألفِ حاجٍّ من مختلف البلاد في الجزيرة العربيَّة، وردَّد هذه الكلمات مئةُ ألفِ لسانٍ، كلُّها تشهد أَنْ لا إله إلَّا الله، وأنَّ محمَّدًا رسول الله، وجاءت بعدها مئات الألوف، وألوف الألوف وقالوها ولكن أين هذه من تِلْكَ؟!

تلك أمَّة قالت بأفواهها وقلوبها وسيوفها، وبذلت أموالها وأرواحها في سبيل الإسلام، وصدَّقت بهذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١].

أمَّا اليوم فإنَّ الأمر بخلاف ما كان عليه الأوَّلون؛ إنَّ الألسنة تنطق، والحناجر تصرخ، لكنَّ القلوب جبُنَت، والأيدي غُلَّت، والقوم في جهالةٍ عمياء، سهل خداعهم واستغلالهم، وهانت نفوسهم، وقنعوا بضعفهم وفقرهم، ورضوا بهوانهم، وكان البلاءُ أنَّهم جهلوا أمر دينهم، وقرؤوا كتابهم، ولم يفهموا أمرَ الله إذ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصَّف: ١٠-١٣].

الزَّمن يمحو الزَّمن، والعمل يغيِّرُ العمل، وساعة من العمر فيها أملٌ كفيلٌ بتغيير الحال، فاجتهد - أيُّها المسلم - في السَّاعات الباقيات من عُمرك لتُكَفِّرَ بها عمَّا أهملت في السِّنين الماضية منه، واجتهد لتُحيي مجدَ دينك، فالدِّينُ جسدٌ والمسلمون أعضاؤه، ويجب على كلِّ مسلمٍ أن يكون عضوًا عاملًا؛ لا عاطلًا يشكِّل عبئًا عليه.

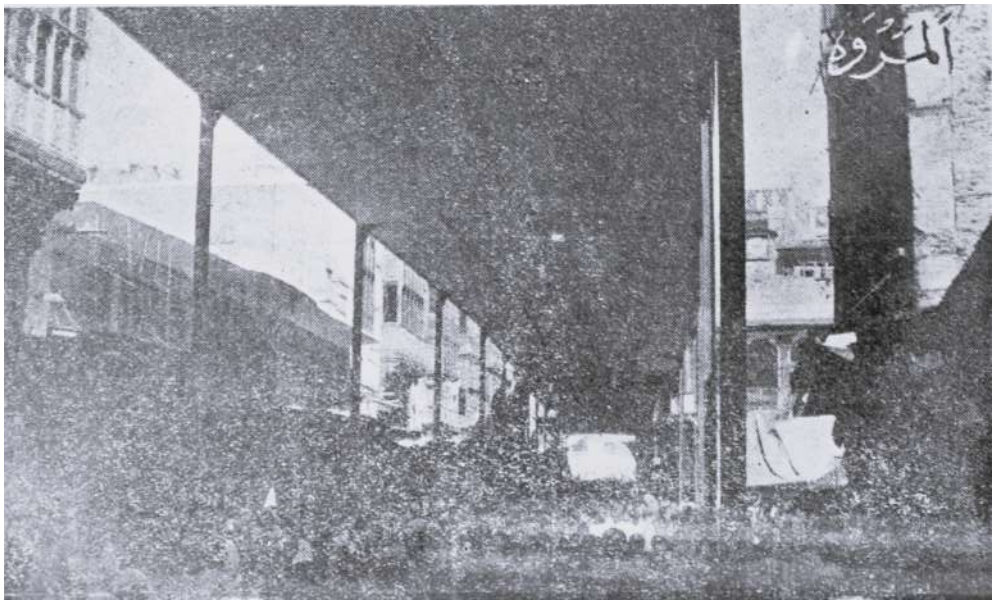
أمسى المساء، وقاربت الشَّمس الغروب، واستعدَّ النَّاس للإفاضة، وخطر لي قول النَّبيِّ ﷺ: «**إنَّ الله عزَّ وجلَّ يُبَاهِي ملائكته عشيَّة عَرَفَةَ بأهل عَرَفَةَ، فيقول: انظُرُوا إِلَى عِبَادِي أَتَونِي شُعْثًا غُبْرًا**»[1].

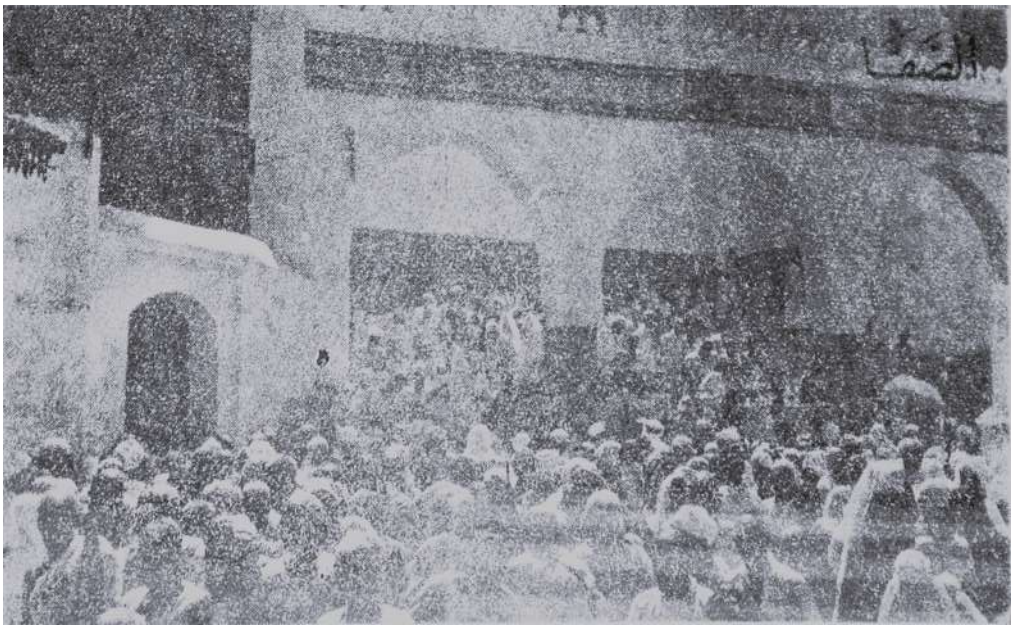


(١) رواه أحمد، رقم: (٧٠٨٩).


جَبَلُ الرَّحمَةِ بعرفة


عرفات


المروة


الصفا

المسعى

وهو الطَّريق الواصل بين الصَّفا والمروة، وطوله أربعمئة مترٍ تقريبًا، يُخْرَجُ إليه من المسجد من باب الصَّفا، ويبدأ السَّاعي بصعود درجات الصَّفا، ثمَّ يستقبل القِبلة وينوي السَّعي، ثمَّ يُكَبِّرُ ويحمد الله، ويسبِّح بحمدهِ ويدعو بما شاء، ثمَّ ينزل حتَّى يصل إلى الميل الأوَّل، والمسافة بينه وبين الصَّفا خمسة وسبعون مترًا تقريبًا، ثمَّ يهرول إلى الميل الثَّاني، والمسافة بينهما سبعون مترًا، ثمَّ يمشي حتَّى يصل إلى المروة فيرقاها، ويستقبل القِبلة ويُكَبِّر ويحمد الله ويُسبِّح بحمده ويدعو بما شاء.

وقد جعل المطوِّفون ومن سَنَّ سُننهم للسَّعي دعاءً، فيه المأثورُ وفيه ما زادَ على المأثورِ، وكلُّه حسنٌ لمن فَهِمَ معانيه، وجعلوا لكلِّ شوطٍ منه دعاءً خاصًّا، وأفضلُ الدُّعاء ما كان في القرآن أو ما وعاه الإنسان.

والسَّعي سبعةُ أشواطٍ؛ من الصَّفا إلى المروة شوطٌ، ومن المروة إلى الصَّفا شوطٌ، يبدأها من الصَّفا ويختمها بالمروة، ويقع أكثر السَّعي في شرقيِّ الحرم إلَّا ما كان مواليًا للصَّفا فإنَّه يقع في جنوبيِّ الحرم.

كان في الزَّمن الأوَّل مكشوفًا، والحجَّاج مُعَرَّضون لحرِّ الشَّمس

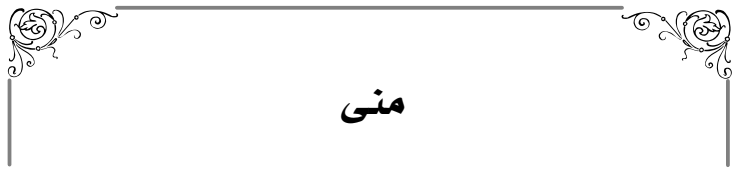
أيَّامَ الصَّيف، وكان قذرًا تجتمع فيه الأوحال والأوساخ، وكان المسجد معرَّضًا لأوساخ طريق المسعى كالَّذي يحمله الحاجُّ بأرجله، أو تحمله سيول الأمطار إذا ما كَثُرَت وفاضَ فائِضُها على صحن الحرم.

وكان أيضًا مأوى لكلاب مكَّة الَّتي تجدُ في المسعى أمنًا، حتَّى ضُرِبَ فيها المثل للخاملين والعاطلين، ولكنَّ الحكومة الحاضرة - وفَّقها الله - نظرت إلى المسعى نظرة احترام، فأمر الملك عبد العزيز السُّعود رَحِمَهُ اللَّهُ أن يُبَلَّطَ المسعى، وأن يُظَلَّلَ بظُلَّةٍ شاملةٍ تقي الحُجَّاج حرَّ الشَّمس، وتمنع عنهم بلَلَ المطر.

وأمر رَحِمَهُ اللَّهُ في آخر أيَّامه أن يُقْسَمَ شارع المسعى بفاصلٍ خشبيٍّ يمشي فيه الإنسان عن يمينه في ذهابه وإيابه، شرقيُّه للذَّاهب إلى المروة، وغربيُّه للذَّاهب إلى الصَّفا؛ حتَّى لا يزاحم الذَّاهب الآيب.

وأمر رحمه الله بلديَّة مكَّة أن تنظِّفَ المسعى في أيَّام الحجِّ خاصَّةً؛ ليكون لائقًا بضيوف الله، أمَّا الكلاب فلا ترى لهم أثرًا في مكَّة؛ لأنَّها حُصِرَت في حظائر خاصَّة بها.





منى

وتبعد من مكَّة ما يقاربُ اثنين وعشرين كيلومترًا، وهي قرية تعمر أيَّام الحجِّ، يسكنها بطنٌ من قريش يؤجِّرون الحجيجَ دورَهمَ في المواسم، وكانت في الزَّمن القديم خاويةً على عروشها حتَّى تبدَّلت الأوضاع، فعَمَرَ ذوو اليسار فيها قصورًا ومساكنَ يأوون إليها أو يستثمرونها في مواسم الحجِّ.

وتنقسم منىً إلى قسمين: القسم الموالي لمكَّة وهو العامر بمبانيه، والقسم الَّذي يلي عرفات، ولا يزال على عهده القديم.

وقد أَمَرَ جلالةُ الملك المرحوم عبد العزيز السُّعود بتبليط شارعين كبيرين في منى للسَّيَّارات، وللذَّاهب والآيب أن يسلك اليمينَ منهما أيَّام الحجِّ؛ تخفيفًا للزِّحام.

وفي منى الجمرات الثَّلاثة، أكبرُها جمرة العقبة، تُرجَمُ صباح اليومِ العاشر من ذي الحجَّة، ويرجمها الحاجُّ في الأيَّام الثَّلاثة التَّالية إن لَم يتعجَّل.



جمرة العقبة

وتقع في طرف منى من جهة مكَّة، وخلف الجمرة كان موضع المُبَايعتين اللَّتين بدأ بهما ظهور الإسلام، وكانت المبايعة الأولى في السَّنة الحادية عشرة للبعثة، بايع رسولَ الله ﷺ اثنا عشر رجلًا من أهل المدينة، والمبايعة الثَّانية كانت في السَّنة الثَّانية عشرة للبعثة.

وفي العقبة أيضًا قبر أبي رِغَال، وقد ورد ذكر لأبي رغال في كثيرٍ من الكتب، ومن هذه الأخبار ما رواه عبد الله بن عمرو «أنَّهم كانوا مع رسول الله ﷺ في سفرٍ أو مسيرٍ، فمرُّوا بقبرٍ، فقال: «هذا قبرُ أبي رغال، كان من قومِ ثمودَ، فلمَّا أهلك الله قومه بما أهلكهم به منعه لمكانه من الحرمِ، فخرج حتَّى إذا بَلَغَ هذا المكان أو الموضعَ مات ودُفِنَ معه غصنٌ من ذهبٍ»[1].

ويقال: إنَّه خان قومه ووطنه ومات في هذا المكان ورُدِمَت جُثَّتُهُ بالحجارة.

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى، رقم: (٧٦٥٣).



وضع الطَّريق

طرق الحجاز كلُّها وَعرَة، وقد رأيتها في حجَّتي الأولى منذ ثلاثٍ وعشرين سنة، إلَّا الطُّرق الَّتي بين مكَّة وعرفات، فقد بُلِّط أكثرُها، وفُصِل بعضها عن بعض للذَّاهب والآيب وللرَّاجل والرَّاكب، وبهذا سَهُلَ السَّير وإن كان الزِّحام شديدًا، حتَّى إنَّنا في سيرنا من الموقف إلى المشعر الحرام لم نستطع أن نصل المشعر في مزدلفة إلَّا بعد خمسِ ساعاتٍ، على الرَّغم من أنَّ المسافة بين المشعر وعرفات ما يقارب خمس كيلومتراتٍ.

شاهدنا في طريقنا كثيرًا من الحجَّاج المُشاة، أغلبُهم هنودٌ وسودان؛ أمَّا الهنود فمعظمهم قد بَلَغَ نهايةَ العمرِ، خَرَجَ من بلادِه معتقدًا أنَّه هاجر إلى الله ورسوله، وفي قلبه الآية الكريمة: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النِّسَاء: ١٠٠]، وكثير منهم يموت جوعًا أو عطشًا أو تعبًا قبل أن يَصِلَ إلى الحجاز، وقد شاهدنا في حجَّتنا الأولى أربعةَ عشر هنديًّا اشتركوا في شراءِ جملٍ من الكويت وحمَّلوه زادهم ومتاعهم، لكنَّ الجملَ ماتَ في طريقه إلى مكَّة قبلَ أن يصلَ بهم إلى القصيم.

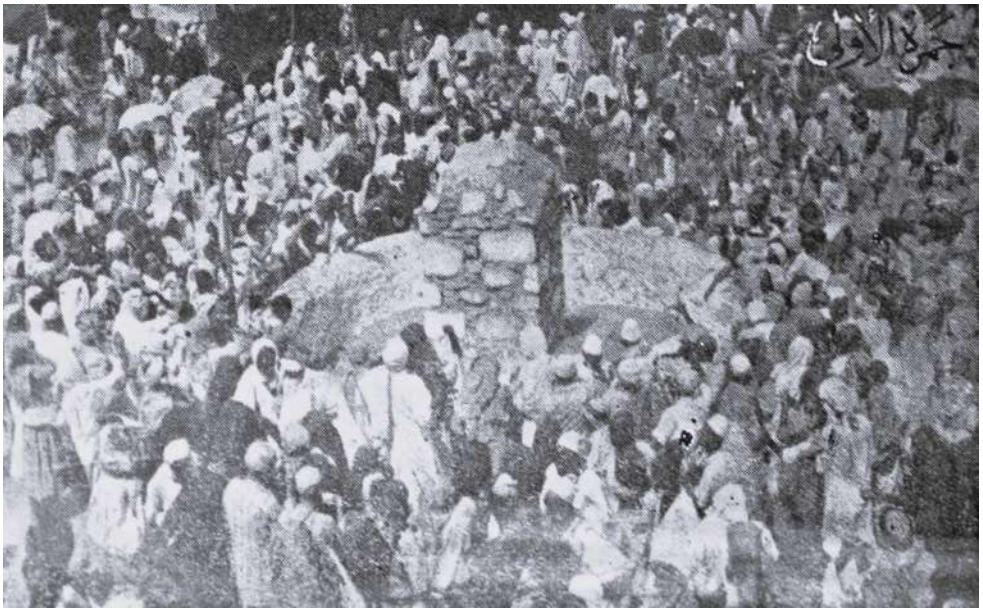
وبعضهم يرافق قوافلَ الجِمَال الَّتي تسير إلى نجدٍ أو الحجاز، فيسير معها ماشيًا، لعلَّه يصيب من طعامهم وشرابهم، أو لعلَّ بعضهم يُحْسِنُ إليه، فيُرْكِبُه ميلًا أو ميلين، ولو أنَّهم فهموا الدِّين حقَّ الفهم،

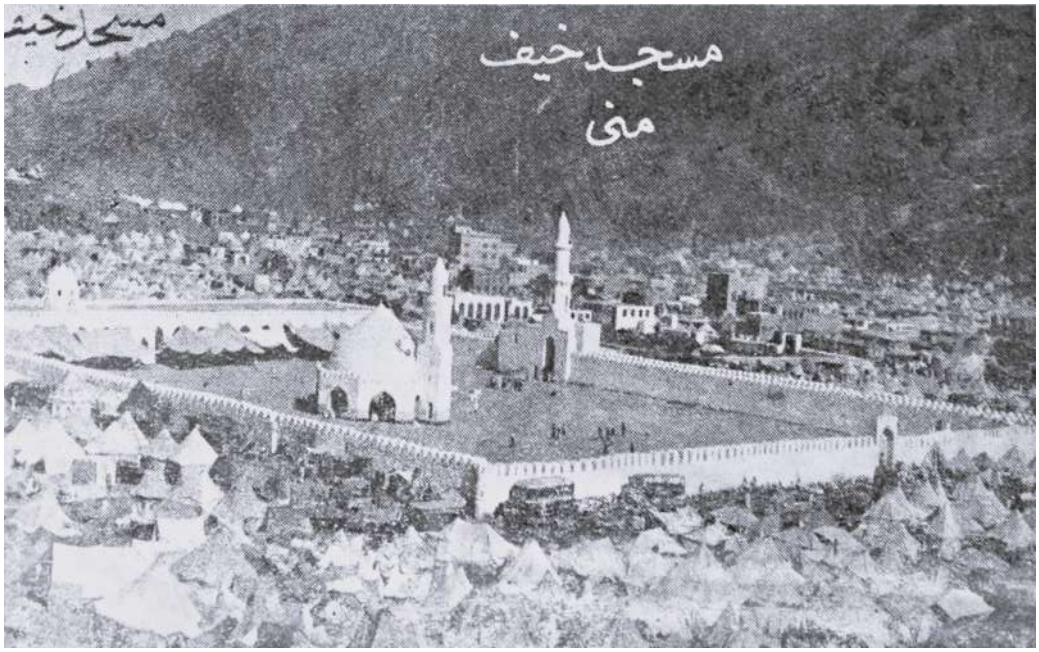
وعلموا أنَّ الله فَرَضَ الحجَّ على من استطاع إليه سبيلًا، وفهموا سبب نزول الآية الكريمة: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠] لما صنعوا ما صنعوا، فإنَّ هذه الآية نزلت في المستضعفين من المؤمنين الأوَّلين الَّذين خرجوا من مكَّة فرارًا بدينهم إلى دار الهجرة، فأدرك بعضَهم الموتُ قبل أن يَصِلُوا إلى نبيِّهم ﷺ، وقيل: إنَّها نزلت في خالد بن حزام الَّذي هاجر إلى أرض الحبشة مع جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، فنهشته حيَّةٌ في الطَّريق فمات[1].

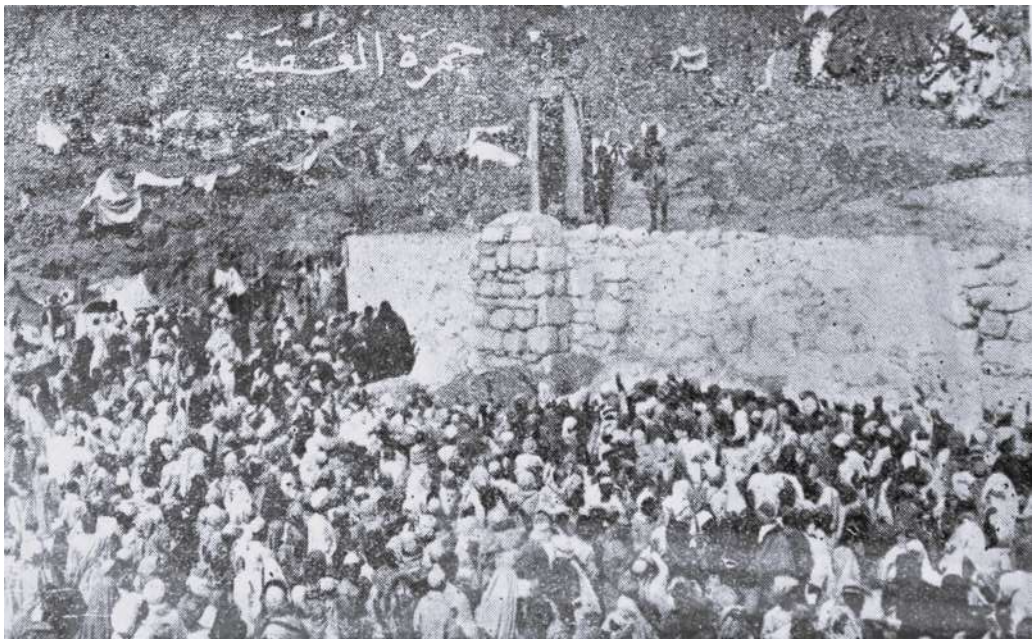
أمَّا حجيج السُّودان المُشاة - وأغلبهم من المعروفين باسم التَّكارنة أو الدَّكارنة - فهؤلاء يأتون للاكتساب وطلب المعيشة فيما ينالونه من عطفِ الحجَّاج وصدقاتهم، أو ما يكسبونه من خدماتهم، وما يُحَصِّلون من فضلات هديهم وأضاحيهم، وهم بالجملة أقوى من الحجَّاج الهنود جسمًا وعزمًا؛ لأنَّ أكثرهم يأتي إلى الحجِّ مبكِّرًا وفي أوقات لا تشتدُّ فيها حرارةُ الشَّمس، وأكثرُ الحجَّاج التَّكارنة من الشَّباب.



(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٣٣).


جمعة الأولى


مسجد خيف
منى


جمرة العقبة


جمرة الوسطى
منى


المشعر الحرام (المزدلفة)



بعد الإفاضة

أفضنا من عرفات إلى المشعر الحرام امتثالًا لأمر الله ﷻ حيث قال: ﴿أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ [البَقَرَة: ١٩٩]، وذكرناه وشكرنا له أن هدانا للإسلام، ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعرَاف: ٤٣]، ودعونا الله ﷻ بما ألهمنا من دعاءٍ لديننا ودُنيانَا ولأُمَّتِنَا الإسلاميَّة، ثُمَّ بعدَ الفجر نزلنا مكَّةَ وطفنا طوافَ الإفاضةِ وسعينا ورجعنا إلى منازلنا في منى فرمينا الجمرة الكبرى وحلقنا وتَحَلَّلنا.

وسمعنا أنَّ رئيسَ جمهوريَّة مصر اللِّواء محمَّد نجيب، والشَّافعيُّ معه مِن أعضاءِ مجلسِ الثَّورة: صلاح سالم، وحسين الشَّافعيُّ، ومعهم وزير الأوقافِ أحمد حسن الباقوريُّ وغيرهم، قد حجُّوا هذا العام، وقد رأينا اللِّواء محمَّد نجيب بإحرامِهِ، وعلى شفتيه ابتسامتُهُ المعهودة وهو يُحيِّي النَّاس في المسجد الحرام والمسعى، وتفاءلنا خيرًا بحجِّه وحجِّ أصحابه.

وفي اليوم الثَّاني من أيَّام منى وهو اليوم الحادي عشر من ذي الحجَّة نحرنا هدينا وفِدَانا ورمينا الجمار، وفي اليوم الَّذي يليه رمينا جماره، وتعجَّلنا النُّزول فيه إلى مكَّة، وكان ذلك يومَ السَّبت (١٢) من ذي الحجَّة (١٣٧٢) الموافق (٢٢-٨-١٩٥٣م).

وبقينا في مكَّة يوم الأحد وضحوة الإثنين؛ لقضاء أشغالنا، واشترينا منها الهدايا لأبنائنا وأقربائنا وأصدقائنا، وكانت قلائدَ، وسبحاتٍ، وأعوادَ سواكٍ، ونحوها من تحفٍ معدنيَّة نحاسيَّة.

وفي ظهر يوم الإثنين طفنا طواف الوداع، وارتوينا من ماء زمزم، وذكرنا اسمَ الله وحمدناه على ما منَّ به علينا من نِعَم لا يحصيها إلَّا هو، فقد وهبَنا عقلًا نعرفه به، ولسانًا نَذْكره به، وأعيُنًا نبصر بها آلاءَه، وفكرًا نسبِّح به في عظيم ملكه، وأياديَ نبطش بها، وأرجُلًا نمشي بها، وآذانًا نسمع بها، وبصيرةً تُرشِدُنا إلى ما ينفعنا وتمنعنا عمَّا يَضُرُّنا.

حمدناه وسألناه أن يزيدنا من نعمه وأن يحفظ لنا ما منَّ به علينا من مالٍ وولدٍ، وأن يهدينا الطَّريقَ المستقيم.

طفنا طواف الوداع ووقفنا أمام المُلْتَزَم؛ لأنَّنا لم نتمكَّن من التزامه للزِّحام الشَّديد عليه، وسألنا الله ربَّ هذا البيت ألَّا يجعل هذا آخر عهدنا به، وأن يجعلنا ممَّن تجلَّى الله عليهم، فغفر لهم.

صلَّينا الظُّهر في المسجد الحرام، وملأنا أعيننا من النَّظر إلى الكعبة المشرَّفة، ثمَّ خرجنا إلى المخيَّم، وإذا بالرِّفاق قد نقضوا الخيام وشدُّوا الأحمال.



القُفول

سافرنا من مكَّة بعد عصر يوم الإثنين (١٤) ذي الحجَّة (١٣٧٢هـ) الموافق (٢٤-٨-١٩٥٣)، وبعد نصف ساعةٍ ومسير (٢٢) كيلومترًا وصلنا الشَّرائع، وهي حدود الحِلِّ من الحرم، وبعد مسير (٢٠) كيلومترًا من الشَّرائع وصلنا الزَّيمة، وهي وادٍ فيه عينٌ جاريةٌ ماؤها عذبٌ، وأكثرُ ثمرها الموزُ واللَّيمونُ، تتخلَّل غاباتِها أشجارُ نخيلٍ، فصلَّينا المغرب هناك، واشترينا من فاكهة الزَّيمة وخضرها، ثمَّ بعد مسير (٣٦) كيلومترًا وصلنا السَّيل، وهو المكان المعروف قديمًا بقَرْن المنازل؛ ميقات نجد ومن مرَّ بها.

ثمَّ بعد استراحة قصيرةٍ واصلنا السَّير إلى العرف، وهو أوَّل ركبة، وهي سهل واسع منبسطٌ يرتفع كثيرًا عن سطح البحرِ، بِتنَا فيه بقيَّةَ ليلتنا، وكان البردُ شديدًا جدًّا حتَّى إنَّنا لَمَّا أصبحنا التمس كثيرٌ من الرِّفاق النَّارَ؛ طلبًا للدِّفء.

وبعد طلوع الشَّمس من يوم الثُّلاثاء واصلنا السَّير إلى المويه، والمسافة من السَّيل إليه (٢٠٥) كيلومتراتٍ، ثمَّ منه إلى الدَّفينة بمسافة طولها (٨٠) كيلومترًا، ومنها إلى القاعيَّة (٢١٠) كيلومتراتٍ، ثمَّ سرنا إلى الدَّوادميِّ بطريق طوله (١٠٠) كيلومتراتٍ، وكلُّها قرى فيها مياهٌ ونخيلٌ ومزارعُ لا تكفي حاجةَ أهلها، يتجسَّم في أهلها الفقر والجهل.

تركنا الدَّوادميَّ إلى خفٍّ بعد أن سرنا (٧٦) كيلومترًا، وبِتْنَا فيه

حتَّى أشرقت الشَّمس، ودخلنا النُّفود المعروف بنفود السِّرِّ، والمسافة إليه من خفِّ ستَّة كيلومتراتٍ، وعرض النُّفود (٣٧) كيلومتراتٍ قطعناها في طُرُقٍ معوجَّةٍ في صعودٍ وهبوطٍ، وكلُّ سيَّارةٍ ضربت طريقًا خاصًّا.

والنُّفود كثبانٌ رمليَّةٌ ناعمةٌ حمراء ينقلها الهواء حيثما هبَّ، ونباتها قليلٌ، وأغلبُ ما ينبت فيها شجرُ الأرطى والعرفج، وسلَّم الله، وخرجنا من النُّفود، ولم تتعطَّل في قافلتنا إلَّا سيَّارةٌ واحدةٌ انفجر فيها مخزن الدِّهن، فأسعفناها بسيَّارتنا الخاصَّة.

ومن النُّفود سرنا إلى مراة الَّتي تبعد من النُّفود (٦٢) كيلومترًا بطريق رمليَّةٍ صعبةٍ تشبهُ النُّفود، ساخت فيه عجلاتُ كثيرٍ من السَّيَّارات، وبقينا في مراة ستَّ ساعاتٍ؛ استرحنا فيها، وتغدَّينا، وارتوينا، وأصلحنا السَّيَّارة، وبعدها اتَّكلنا على الله، وتوجَّهنا في الطَّريق الَّذي سلكناه في مجيئنا إلى الحجاز، حتَّى وصلنا إلى أهلنا مساءَ يوم السَّبت (١٩) ذي الحجَّة (١٣٧٢) الموافق (٢٩-٨-١٩٥٣م) قائلين ما قاله نبيُّنا ﷺ حين قفوله من أسفاره: «**آيِبُونَ تَائِبُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ**»[١]، «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بكَ من وَعثَاءِ السَّفَرِ، وكَآبَةِ المَنظَرِ، وسوءِ المُنقَلَبِ في المال والأهل**»[٢]، ونسأل الله القبول.

الكويت (٨) رجب (١٣٧٣)

(١٢) آذار (١٩٥٤).



(١) رواه البخاري، رقم: (٣٠٨٦)، ومسلم، رقم: (١٣٤٢).

(٢) رواه مسلم، رقم: (١٣٤٢).



الأعمال الكاملة

لفضيلة الشيخ

عبدالله النوري

المتوفى سنة (١٤٠١هـ/١٩٨١م) رحمه الله

يوميات زائر للشرق الأقصى

أو

٣٥ يوماً في الشرق الأقصى

اعتنى به

د. تركي محمد حامد النصر

فكرة وإشراف

د. عبدالمحسن عبدالله الجار الله الخرافي



الإهداء

إلى المسؤولينَ جميعًا في الاتِّحادِ الفيدراليِّ الماليزيِّ

وإلى المسؤولين جميعًا في الاتِّحادِ الإندونيسيِّ

أُهدي هذه الرِّسالةَ.

عبد الله النُّوريُّ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

أَحْمَدُ اللهَ الَّذي لا إلهَ إلَّا هو حمدًا يليقُ بجلالِه، وأشكرُه شُكرًا يليقُ بجزيلِ نِعَمِه، ويؤهِّلُني إلى نيلِ مزيدٍ مِن فضلِه، وأُصلِّي وأُسلِّمُ على عبدِه ورسولِه الَّذي بعثَهُ رحمةً للعالَمِينَ مِن خَلقِه، وعلى آلِه الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ كافَّةً، وعلى صحابتِه العاملِينَ بِسُنَّتِهِ، والتَّابعِينَ لهم بإحسانٍ، وبعدُ:

فقد حقَّقَ اللهُ رجاءً كنتُ أرجوهُ منذُ شبابي، فحمدًا للهِ الَّذي أرادَ أمرًا هيَّأَ أسبابَهُ، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، وأخيرًا زرتُ الشَّرقَ الأقصى، وشبهَ جزيرةِ الملايو، وجزيرةَ جاوا، كان يَعْرِفُهُما النَّاسُ بهذَينِ الاسمَينِ، أو يسمُّونَهُما قبلَ أن تكونَا ماليزيا وإندونيسيا.

وفَّقَنِي المولى لأداءِ فريضةِ الحجِّ عامَ (١٣٥٠هـ)[1]، وفي الحرمَينِ؛ مكَّةَ والمدينةِ التقيتُ بكثيرًا من حُجَّاجِ الشَّرقِ الأقصى، وكانوا آلافًا معدودةً، كلُّهم يُعرَفونَ عندَ أهلِ مكَّةَ المكرَّمةِ والمدينةِ المنوَّرةِ بالجاويِّينَ أو الملاويِّينَ، ولم يكنْ يومئذٍ اتِّحادٌ فيدراليٌّ

(١) أي: سنة (١٩٣١م).

ماليزيٌّ، ولا اتِّحادٌ إندونيسيٌّ، وإنَّما استعمارٌ هولنديٌّ في جاوا وما جاورَها، واستعمارٌ إنجليزيٌّ في شبهِ جزيرةِ الملايو وما جاورَها.

وكان النَّاسُ يتحدَّثون عن غاباتٍ بِكْرٍ لم تطأْها قدمُ إنسانٍ، لا أوَّلَ لها ولا آخِرَ، ويتحدَّثونَ عن خضرةٍ لا تذبلُ نضارتُها، وعن ربيعٍ زاهٍ لا يَذْوِي[١]، وعن فاكهةٍ ﴿كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الواقِعَة: ٣٢-٣٣]، وعن جنَّاتٍ وارفةٍ ظلالُها[٢]، قد ذُلِّلتْ قطوفُها[٣].

وأسمعُ منهم حكاياتٍ عن أشجارٍ ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، وعن أنهارٍ لا ينضُبُ[٤] ماؤُها، ومياهٍ غزيرٍ تدفُّقُها، وشلَّالاتٍ لا ينقطعُ هديرُها[٥]، وعن شعبٍ نشأَ صِغارهُ على الفطرةِ، وعليها شبَّ كبارهُ، وعن صدقٍ في المعاملاتِ، ووفاءٍ بالوعودِ والعهودِ والعقودِ.

وأخيرًا زرتُ ماليزيا وإندونيسيا، ورأيتُ أكثرَ ممَّا سمعْتُ، رأيتُ ربيعًا قيل لَي: إنَّه لا يذوي[٦]، وفصولُ العامِ جميعُها ربيعٌ.

قالوا: إنَّ المنطقةَ استوائيَّةٌ، وقرأْنا - ونحنُ صغارٌ -: إنَّ المنطقةَ

---

(١) ذَوَى يَذْوِي: ذَبَلَ ويَبِسَ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٨/ ١٠١).
(٢) وَرَفَ الظِّلُّ: اتَّسعَ. ناظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٤/ ٤٥٦).
(٣) ذُلِّلَت قُطُوفُها: أُصلِحَتْ وقُرِّبَتْ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٩/ ١٤).
(٤) نضبَ: قلَّ أو انقطعَ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٤/ ٢٨٣).
(٥) هدرَ: صوَّتَ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٤/ ٤١٣).
(٦) ذوى: ذبل، وهو أن لا يصيبه رِيُّه أو يضربه الحرُّ فيذبل ويضعف. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٤/ ٢٩٠).

الاستوائيَّة حارَّةٌ، ولكنِّي لمْ أرَ الحرَّ ولم أشعرْ به، فدرجة الحرارة في اللَّيلِ والنَّهارِ بينَ (٢٨-٣١)، وفي اللَّيل ننامُ في الغرفة، وقد نحتاجُ إلى الغطاءِ الخفيفِ.

وقيلَ لنا: إنَّ المنطقةَ وبائيَّةٌ، لكنَّنا لم نرَ وباءً ولا أمراضًا، وإنَّما رأينا أُمَّةً النَّظافةُ عندها فطرةٌ، وشعبًا نشيطًا، ووجوهًا ناضرةً[١]، وحياةً تَدِبُّ في اللَّيلِ والنَّهارِ، وقِيلَ لنا عن المنطقةِ أشياءُ كثيرةٌ تُخيفُ، ولم نرَ بحمدِ اللهِ إلَّا ما يُفرِحُ؛ الماءُ رائقٌ[٢]، والمعدةُ تقبلُ الطَّعامَ وتهضمُه، والنَّظافةُ والحياةُ بمعانيها كلِّها بارزةٌ للبصرِ وللبصيرةِ.

وأَسِفْتُ أشدَّ الأسفِ على عشرينَ عامًا مضتْ من حياتي، وأنا أصطافُ[٣] في بلادٍ شرقيَّةٍ أو غربيَّةٍ قد أحتاجُ فيها إلى ما أحتاجُ إصلاحَه، فلا أجد مَن يدُلُّني، بل لا أجدُ وجهًا يَبِشُّ[٤] لي إذا سألتهُ عن حاجتي، فلماذا لم أصطفْ في مثلِ هذه البلادِ الَّتي لم أجدْ فيها وجهًا عابسًا، بل وجدتُ البسمةَ الدَّائمةَ الَّتي لا تخلو صباحًا ومساءً مِن تحيَّته؟!

ورأيتُ شعبًا يُحبُّ الغريبَ ومُساعدتَه، ويُجيبُ عن كلِّ سؤالٍ

(١) النَّضْرَةُ: نعيم الوجه. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٤/ ٢٣٧).
(٢) راقَ الشَّيءُ: إذا صفا. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٥/ ٣٧٧).
(٣) اصطافَ: أقامَ في الصَّيفِ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٤/ ٤٥).
(٤) البَشُّ: طلاقةُ الوجهِ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٧/ ٨٠).

يَعْرِفُ جوابَهُ، أو يُرشدُكَ إلى مَنْ يُجيبُكَ إذا أعياهُ[١] الجوابُ، وأقولُ لأهلِ هذه البلادِ سواءٌ في الشَّمالِ أم في الجنوب:

لماذا لا تدعونَ النَّاس لزيارةِ بلادِكم؟ لماذا لا تهتمُّون بالدِّعايةِ كما يهتمُّ بها أهلُ الغربِ؟ الدِّعايات السِّياحيَّةُ الَّتي تُرَغِّبُ النَّاسَ فيكم، وبلادُكم تَصلُحُ للمشتى وللمصيفِ.

قلتُ ذلك لكثيرٍ من المسؤولينَ هناك، وحاولتُ أن أقنعَهُم بقولي: إنَّ الدِّعاياتِ الأجنبيَّةَ ضدَّكم كثيرةٌ، وإنِّي لم أصلْ إلى بلدِكم إلَّا بعدَ أن أخذتُ وقاياتٍ طبِّيَّةً ضدَّ أنواعٍ من الأمراضِ اختلقَها دُعاةُ الغربِ ضدَّكم؛ كالكوليرا، والحُمَّى الصَّفراءِ، والجدريِّ، والطَّاعونِ، والملاريا، وغيرِها من أمراضٍ لم نسمعْ بها إلَّا في كتبِ الطِّبِّ، ولكن شاهتْ[٢] وجوهُ الكاذبينَ، فقد زُرْنا الشَّرقَ الأقصى، ولم نرَ بحمدِ الله إلَّا الصِّحَّةَ والعافيةَ والأُنسَ.

أكتبُ مذكَّراتي هذه عن رحلتي وانطباعاتي عنها، وأُهديها إلى المسؤولينَ في ماليزيا وإندونيسيا، أرجو منهم أن يهُبُّوا لنشرِ دعايةٍ سياحيَّةٍ لبلادِهم؛ ليعلمَ الأشقَّاءُ من إخوانِهمُ المسلمينَ والأصدقاءُ أنَّ بلادَهم تصلُحُ لكلِّ زائرٍ، وفيها سيرى المتعةَ لعينيه؛ في المناظرِ الطَّبيعيَّة والخضرة الزَّاهية، والمتعةَ لنفسهِ؛ بالانسجامِ معَ شعبٍ يُحبُّ

(١) أعيا عليهِ الأمرُ: إذا لم يهتدِ لوجهِ مرادِه. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٩/ ١٣٥)

(٢) شاهتِ الوجوهُ: أي: قَبُحَتْ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٦/ ٤٢٠).

كلَّ زائرٍ، وزائرُهم لا يجدُ بينَهم الغربةَ؛ لأنَّه يستمتعُ بالمقامِ الطَّيِّبِ، والطَّعامِ اللَّذيذِ، والماءِ النَّميرِ[١]، والهواءِ الصَّافي.

وصدقَ الشَّاعرُ؛ إذ يقولُ وكأنَّه يصفُ أهلَ الشَّرقِ الأقصى:

ثَلَاثَةٌ تَجْلُوْ عَنِ الْقَلْبِ الْحَزَنْ تَنَالُهَا مِنْ غَيْرِ إِيْذَاءٍ وَمَنْ
فِيْ أُمَّةٍ، اَلضَّيْفُ فِيْهِمْ لَمْ يَهُنْ اَلْمَاءُ وَالْخُضْرَةُ وَالْخُلْقُ الْحَسَنْ[٢]

وكلُّها بحمدِ الله في ولاياتِ ماليزيا كلِّها، أو في جزرِ إندونيسيا كلِّها.

والله الموفِّق.

عبدُ اللهِ النُّوريُّ



(١) النَّميرُ من الماءِ: النَّاجعُ في الرِّيِّ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٤/ ٢٩٤).
(٢) انظر: نضرة البهار في محاورةِ اللَّيلِ والنَّهار، للحسنيِّ الجزائريِّ (١/ ١٣٩).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بدأتِ الرِّحلةُ من الكويتِ يومَ السَّبت (١٢) يونيو سنةَ (١٩٧٦م) خرجْنا من البيتِ إلى المطارِ السَّاعةَ الرَّابعةَ والنِّصفَ صباحًا، ووصلناه قبلَ الخامسةِ، ووجدنا الموظَّفَ المسؤولَ عن الطَّائرةِ الماليزيَّةِ في مكتبِ الاستقبالِ، وقال لي باللُّغةِ الإنجليزيَّةِ: هل أنتم الخمسةُ؟

فأجبتُه باللُّغةِ نفسِها: نعم.

وكنَّا خمسةً؛ أنا وابنتي وزوجَها وولدَيهِما، واستلمَ منِّي التَّذاكرَ والأوراقَ والأمتعةَ الخاصَّة بنا، وبعد إنهاءِ معاملاتها جلسَ معَنا؛ لأنَّه لم يكن هناك مسافرونَ إلى ماليزيا من الكويتِ غيرنا، ولأنَّه في إجازةٍ فسيسافرُ معَنا، وكان في وداعِنا حفيدي عبدُ اللهِ النُّوريُّ الَّذي أكملَ إخراج الجوازاتِ.

وبعدَ لحظاتٍ جاءَ القائمُ بأعمالِ السَّفارةِ الماليزيَّة يودِّعُنا، وجلسَ هو وزوجُهُ[1] معَنا أيضًا، ولَمَّا أعلنتِ الاستعلاماتُ عن إقلاعِ الطَّائرةِ ذهبْنا إلى صالةِ المسافرينَ في المطارِ بعد أن ودَّعنا القائمَ بالأعمالِ

(١) قالَ بعضُ النَّحْويِّينَ: أمَّا الزَّوجُ فأهلُ الحِجَازِ يضعونَه للمذكَّرِ والمؤنَّثِ وضعًا واحدًا، تقول المرأةُ: هذا زوجي، ويقول الرَّجلُ: هذه زوجي. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٦/ ٢٠).

وزوجَهُ، وركبْنا في سيَّارةٍ خاصَّةٍ إلى الطَّائرةِ علمًا بأنَّ أمكنتَنا محجوزةٌ فيها.

أقلعتِ الطَّائرةُ السَّاعةَ الخامسةَ وخمسًا وأربعينَ دقيقةً صباحًا من أرضِ الكويت، وقلنا: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزّخرُف: ١٣].

وطالتِ السَّفرةُ سبعَ ساعاتٍ ونِصْفًا، قضيتُها في كتابةٍ وقراءةٍ، وحديثٍ مع الطِّفلَينِ، وقد قطعنا في هذه السَّاعاتِ الطَّويلةِ الخليجَ العربيَّ وشبهَ جزيرةِ قطرٍ والبحرَ العربيَّ، حتَّى وصلْنا إلى سماءِ بومباي، ثمَّ شبهِ القارَّة الهنديَّةِ، ثمَّ المحيطِ الهنديِّ، حتَّى ساحلِ شبهِ جزيرةِ الملايو.

كانَ فرقُ التَّوقيتِ بينَنا وبينَ توقيتِ ماليزيا الغربيَّةِ أربعَ ساعاتٍ ونصفًا؛ معنى ذلك أنَّنا غادرْنا أرضَ الكويت السَّاعةَ السَّادسةَ صباحًا بتوقيتِ الكويت، ووصلْنا عاصمةَ ماليزيا مساءَ السَّاعةِ السَّادسةِ والنِّصفِ بتوقيتِها، وهبطَتِ الطَّائرةُ على أرضِ المطارِ، وحمدْنا اللهَ على السَّلامةِ، وقلنا: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩].

قبلَ شهرٍ ونصفٍ كنتُ قد اتَّفقْتُ معَ صهري على زيارةِ الشَّرقِ الأقصى مدَّةَ ثلاثةِ أسابيعَ؛ للاطِّلاع على بلادٍ إسلاميَّةٍ، خالطتُ نفرًا من شعبِها ولم أرَها، وكانتْ النِّيَّةُ سرِّيَّةً لم يطَّلعْ عليها أحدٌ حتَّى أقربُ النَّاسِ إليَّ، وأوكلْتُ إلى صهري حمودٍ الفرحان إجراءَ المعاملاتِ كلِّها، والاتِّفاقَ مع شركةٍ سياحيَّةٍ تتولَّى راحتَنا، ولا سيَّما

في شأنِ النُّزولِ في الفنادقِ، وكانتْ هذه الشَّركةُ (شركةَ ماس)، ومعناها: الشَّركةُ الماليزيَّةُ للسِّياحة.

ولكنَّ العزمَ لم يبقَ سرًّا عندَ هذه الشَّركةِ، فقد أخبرت المسؤولينَ لدى الحكومتَينِ الماليزيَّةِ والإندونيسيَّةِ، وقبلَ السَّفرِ بأسبوعٍ زارني السَّفيرُ الإندونيسيُّ، وبلَّغَني تحيَّاتِ وزيرِ الشُّؤونِ الدِّينيَّةِ الإندونيسيِّ، وتحيَّاتِ صاحبِ الفضيلةِ الشَّيخِ عبدِ الملكِ بْنِ عبدِ الكريمِ حمكا، رئيسِ هيئةِ كبارِ العلماءِ الإندونيسيِّينَ، وأنَّهما مسرورانِ بزيارتي لإندونيسيا، وأنَّ هذه الزِّيارة ستكون رسميَّةً، وقد هيَّأتِ الدَّولةُ لي برنامجًا مدَّةَ أسبوعٍ، فشكرتُها بعدَ أن قبلتُ الدَّعوةَ.

وفي مساءِ اليومِ السَّابعِ من شهرِ يونيو سنةَ (١٩٧٦م) زارني السَّفيرُ الماليزيُّ، وأخبرني أنَّ نائبي الوزير - وهي تعني نائبَ رئيسِ الوزراءِ ومفتي عاصمةِ الاتِّحادِ - مسرورانِ بزيارتي للاتِّحاد الماليزيِّ، وأنَّ الدَّولةَ قد هيَّأَتْ برنامجًا لزيارتي، وسأكون في ضيافتِها مدَّةَ أسبوعٍ.

فقبلْتُ الدَّعوةَ أيضًا وشكرتُها، وقد جاءتْ هذه الرَّسميَّاتُ عفوًا لا قصدًا؛ لأنِّي لم أقصدْها عندما نويتُ زيارةَ الشَّرقِ الأقصى.



الوصولُ إلى مطارِ عاصمةِ ماليزيا

(كوالالمبور)

وجدْنا في المطارِ مندوبًا عن نائبِ الوزيرِ، هو الشَّيخُ السَّيِّدُ يوسُفُ بْنُ عليٍّ الزَّواويُّ الأزهريُّ دراسةً وشهادةً، وهو عربيُّ الأصل مكِّيُّ المولد، سكنَ الشَّرقَ الأقصى منذُ زمنٍ طويلٍ، وتولَّى الإفتاءَ أكثرَ مِن عشرِينَ سنةً في باهانج؛ إحدى ولاياتِ ماليزيا، وكان أبوه المرحومُ السَّيِّدُ عليٌّ الزَّواويُّ مِنَ المقيمِينَ طويلًا في سنغافورة، وله فيها أملاكٌ عقاريَّةٌ.

ووجدنا سماحةَ المفتي الشَّيخَ عبدَ المحسنِ الحاجَّ صالِحًا، وسماحةَ قاضي القُضاةِ الشَّيخَ محمَّدًا يونُسَ بْنَ محمَّدٍ يتيمًا، ووجدنا مندوبِينَ من وزاراتِ الدَّاخليَّة والخارجيَّة والإعلام، ومصوِّرِينَ صحفيِّينَ وإعلاميِّينَ، وكان الاستقبالُ حافلًا.

وخَصَّصتِ الوِزارةُ لنا سيَّارتَينِ؛ إحدَاهما معَ المرافقِ، والثَّانيةَ للأولادِ، ولكنَّ أبا الأولادِ رفضَ بعدَ أن شكرَ، وقالَ: أقبلُها الآنَ، وأعتذرُ لكم منها غدًا.

ونزلْنا في فندقٍ فخمٍ، اسمُه (هوليداي)، وكان منزلي في الدَّورِ التَّاسعِ في الغرفةِ رقم (٩١٧).



في قاعةِ المطارِ بينَ قاضي كوالالمبور ومُفتيها

(وظيفةُ نائبِ الوزيرِ)

ليسَ في الاتِّحاد الماليزيِّ وِزارةُ أوقافٍ؛ وإنَّما ثمَّةَ نائبٌ لرئيسِ الوزراءِ بمنزلةِ وزيرِ دولةٍ، يتولَّى الشُّؤونَ الدِّينيَّةَ الإسلاميَّةَ كلَّها؛ كرعايةِ الإفتاءِ، وتعيينِ المفتِينَ، ورعايةِ الجامعاتِ الإسلاميَّةِ، ورئاسةِ البحوثِ الإسلاميَّةِ، وطباعةِ الكتبِ الَّتي تصدرُ من مركزِ هذه البحوثِ، وكلِّ ما يتعلَّقُ بنشرِ الثَّقافةِ الإسلاميَّةِ ممَّا سيأتي ذكرُه عندَ اجتماعِنا به.



(كوالالمبور)

عندَما اتَّفقَ سلاطينُ ماليزيا على إقامةِ الاتِّحادِ الفيدراليِّ فيما بينَهم، طلبوا إلى سائرِ الاتِّحاداتِ العالميَّةِ أنظمتَهم؛ ليختاروا منها نظامًا يُقِيمُونَ عليه اتِّحادَهم، فلم يعجبْهمْ إلَّا نظامُ الولاياتِ المتَّحدةِ الأميركيَّةِ، ولكنْ أينَ يكونُ مقرُّ رئيسِ الاتِّحادِ؟

الدَّولةُ المتَّفقةُ على الاتِّحادِ؛ ثلاثةَ عشرَ سلطنةً، ورئيسُ الاتِّحادِ واحدٌ منهم، فهلْ يكونُ مقرُّه في بلدِهِ؟

هذا ما يجبُ ألَّا يكونَ؛ لأنَّ العاصمةَ ستنتقلُ كلَّما جدَّ انتخابٌ، ولهذا قرَّروا إنشاءَ مدينةٍ خارجةٍ عن نطاقِ السَّلطناتِ كلِّها، وبعيدةٍ عن سيطرةِ أحدِها، تكونُ في وسطِ الاتِّحادِ، وسيطرتُها شاملةٌ عليه، ويكونُ فيها سلطانُه وسكنُهُ ووُزَراؤهُ، فاختاروا مكانًا اسمُه: كوالالمبور، ومعناهُ ملتقى الأَنْهُرِ.

وكان هذا المكانُ غابةً تابعةً للسُّلطانِ سلانجور، فاشترَوهُ منه بمبلغِ (١٠٠) مليونِ دولارٍ ماليزيٍّ، ومساحةُ تلكَ الأرضِ مئةُ مليونِ مترٍ؛ أي: بسعرِ دولارٍ واحدٍ للمترِ، وهي مئةُ كيلومترٍ، أو ستَّةٌ وثلاثونَ ميلًا مربَّعًا تقريبًا، وبُنِيَتِ المدينةُ عندَ مُلتَقَى الأنهرِ في أكثرِ الأماكنِ انخفاضًا في الغابةِ، وعمرُها الآنَ عشرونَ سنةً.

الأحد (١٣/٦/١٩٧٦م):

نمتُ أمسِ نومةً هادئةً، والجوُّ لطيفٌ على غيرِ ما كُنَّا نتوقَّعُ عندَ خطِّ الاستواءِ، وأطفأتُ المكيِّفَ قبلَ العاشرةِ، ونمتُ تحتَ الغطاءِ طوالَ اللَّيلِ.

وانتبهتُ[1] السَّاعةَ الخامسةَ وعشرَ دقائقَ، وصلَّيتُ الصُّبحَ الخامسةَ والنِّصفَ، ثمَّ نمتُ حتَّى السَّابعةِ، علمًا بأنَّ الشَّمسَ تغربُ في العاصمةِ السَّاعةَ السَّابعةَ، وتشرقُ أيضًا السَّاعةَ السَّابعةَ.

نزلْنا للفطورِ السَّاعةَ الثَّامنةَ، ووجدْنا الشَّيخَ الزَّواويَّ في انتظارِنا، وعزَمْنا عليه أن يفطرَ معَنا فوافقَ، وبعدَ جلسةٍ لطيفةٍ معَه ركبْنا السَّيَّارةَ للتَّجوالِ في عاصمةِ ماليزيا.

ليسَ عندَنا اليومَ بَرنامَجٌ رسميٌّ؛ لأنَّه يومُ أحدٍ، والعطلةُ الرَّسميَّةُ في بلادِ الشَّرقِ الأقصى جميعِها يومُ الأحدِ، حتَّى لدى الشَّركاتِ التِّجاريَّة الكبيرةِ، وسألتُ: ما السَّببُ؟

قيلَ لي: حتَّى يقضيَ الموظَّفُ أشغالَه؛ لأنَّ الأسواقَ العامَّةَ أغلبَها تُفَضِّلُ العطلةَ يومَ الجمعةِ.

نزلْنا إلى البلدِ نتجوَّلُ في شوارعِها الطَّويلةِ الخضراءِ، وكأنَّها كانتْ غابةً!

وحدَّثتُ الزَّواويَّ بظنِّي، فقال: نعم، إنَّها كانت غابةً قبلَ عشرِينَ

(١) تَنَبَّه الشَّخصُ من نومه: استيقظ منه. انظر: معجم اللُّغة العربيَّة المعاصرة، لأحمد مختار عمر (٣/ ٢١٦١).

سنةً فقطْ. وحَكَى لي قصَّةَ تكوينِ العاصمةِ كما كتبتُها.

الأرضُ خضراءُ حتَّى الأرصفة إلَّا المبلَّطُ بالإسفلتِ من الشَّوارعِ، ورأيتُ النَّخيلَ الكثيرةَ المكتظَّةَ[١]، فظننتُها نخيلَ تمرٍ؛ لأنَّها تشبِهُها تمامًا، وليستْ كنخيلِ جوزِ الهندِ.

فقالَ لي الشَّيخُ: لا، إنَّها نخيلُ زيتٍ، تُثمِرُ ثمرًا يُعصَرُ منه الزَّيتُ، وهو كثيرٌ، وتُصدَّرُ منه مئاتُ الآلافِ من الأطنانِ، وصَدِّقْني إنَّه يُعَبَّأُ في سفنِ الزَّيتِ، كما يُعَبَّأُ زيتُ البترولِ عندَكم، والتَّفْلُ[٢] من بعدِ عصرِه يُبَاعُ طعامًا للطُّيورِ؛ كالدَّجاجِ والبطِّ والإوزِّ والحمامِ، وفي سنة (١٩٧٣م) صدرَ مِن هذا الزِّيتِ ثمانُمئةِ ألفِ طنٍّ، ومِنَ التَّفلِ مئةٌ وسبعونَ ألفَ طنٍّ.

ورأيتُ شجرَ الكاوتشوكِ بكثرةٍ، ويسمُّونَهُ عندَهم الرَّبرَ، وماليزيا أكبرُ دولةٍ مُنتِجَةٍ لهذه المادَّةِ، ثمَّ تجوَّلْنا في شوارعَ كثيرةٍ وأسواقٍ، ورأيتُ النَّظافةَ الَّتي لم أجدْ مثلَها في الشَّرق ولا في الغربِ، وسألتُ عن ذلك الشَّيخَ الزَّواويِّ.

فقالَ: إنَّها نظافةٌ فطريَّةٌ وليست كسبيَّةً، ولتعلمْ أنَّ مراقبي البلديَّةِ هنا هم أفرادُ الشَّعبِ كلُّهم، حتَّى الطِّفلُ الصَّغيرُ، والعقوبةُ شديدةٌ؛ فمَن رمى عَقْبَ[٣] السِّيجارةِ في الطَّريقِ، غُرِّمَ خمسَ دولاراتٍ، فكيفَ بِمَنْ يرمي منديلَ ورقٍ؟!

---

(١) مكتظَّةٌ: ممتلئةٌ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٧/ ٤٥٧).

(٢) التَّفلُ: الزَّبَدُ. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١١/ ٧٧).

(٣) العَقْبُ: آخِرُ كُلِّ شيءٍ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣/ ٣٩٨).

ومَن يرمي منديلَ ورقٍ من سيَّارةٍ، عُوقِبَ بمصادرةِ إجازةِ القيادةِ، وحرمانِه منها إلى الأبدِ. وفي طريقِنا مررْنا بمبنى البرلَمَانِ.





مبنى البَرْلَمَانِ

دخلتُه وهو معطَّلٌ بمناسبةِ يومِ الأحدِ، ومبناهُ شُيِّدَ على أرضٍ تحيطُ بها مناظرُ جميلةٌ، وبحيراتٌ صغيرةٌ، يتكوَّن مِن مبنيَينِ بينَهما جسرٌ، يشتملُ أحدُ المبنيَينِ على (١٨) طابقًا، وله فروعٌ كثيرةٌ متشعِّبةٌ، وفي أحدِ المبنيَينِ قاعةٌ كبرى ذاتُ مَدْرَجٍ، كقاعةِ المحاضراتِ في الجامعةِ، وفيه مسجدٌ للرِّجالِ ومسجدٌ للنِّساءِ.

وسألتُ رفيقي: هل في البرلَمَانِ أعضاءٌ إناثٌ؟

قالَ: نعم.

وتجوَّلتُ في أَرْوِقَةِ[1] البرلَمَانِ، ورأيتُ به مطعمًا ومكتبةً وبحيراتٍ صناعيَّةً ذاتَ نوافيرَ، ثمَّ رجعتُ إلى المسجدِ لأرى فيه جلابيبَ معلَّقةً للنِّساءِ يلبسْنَها عندَ الصَّلاةِ، ووجدْنا طواقيَ للرِّجالِ يُغَطُّونَ بها رؤوسَهمْ إذا شاؤوا عندَ قيامِهم بها.



(١) رُواقُ البيتِ: سِتْرَةُ مُقَدَّمِهِ مِن أعلاهُ إلى الأرضِ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٥/ ٣٧٥).

المدينةُ الجامعيَّةُ الإسلاميَّةُ

سِرْنا إلى المدينةِ الجامعيَّةِ المغلقةِ؛ لأنَّ العامَ الدِّراسيَّ قَدِ انتَهَى، وفُتِحَ لنا البابُ، فدخلْناها وتجوَّلْنا في شوارِعِها، ورأينا بعضَ أساتذتِها، وكان أكثرُهم يتكلَّمُ العربيَّةَ، فعلمتُ أنَّ بعضَ أساتذتِها درسَ في مكَّةَ والأزهرِ، وبعضَهم واصلَ الدَّرسَ فيهما.

وكانَ أحدُهم يتكلَّمُ العربيَّةَ بطلاقةٍ حتَّى ظننتُ أنَّه عربيٌّ، فقالَ: لا، بل أنا ماليزيٌّ الجَدَّينِ.

ورأيتُ مسجدًا فَخْمًا داخلَ سُورِ الجامعةِ، قال لي: إنَّ هذا المسجدَ بناهُ المرحومُ الملكُ فيصلُ بْنُ عبدِ العزيزِ ملكُ المملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ الرَّاحلُ، وبنى أيضًا هذا الدِّيوانَ.

وأشارَ إلى مبنًى فخمٍ يبعُدُ مِنَ المسجدِ نحوَ (٢٥) مترًا، وعلمتُ أخيرًا أنَّ معنى الدِّيوان: قاعةُ المحاضراتِ، وهو مبنى مَدْرَجٍ يصلُحُ للمحاضراتِ ولغيرِها من الاحتفالاتِ الَّتي يحتاجُ إليها الطَّلبةُ في دراستِهم، فالمسجدُ والدِّيوانُ بناهُمَا المرحومُ الملكُ فيصلُ بْنُ عبدِ العزيزِ ملكُ المملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ عندَما زارَ الشَّرقَ الأقصى سنةَ (١٩٧٠م).

المتحفُ الوطنيُّ

يقرُبُ المتحفُ الوطنيُّ مِنَ المنطقةِ الَّتي فيها البرلَمَانُ، وبناءُ المتحفِ يُمثِّلُ أُنموذجًا من الفنِّ المعماريِّ المالَوِيِّ القديمِ، ورأينا على بابِ المتحفِ أوَّلَ طائرةٍ دخلتْ ماليزيا وأوَّلَ قَاطِرةٍ.

ورأينا على أعلى بابِ المتحفِ صورًا زيتيَّةً، تحكي تقاليدَ وعاداتٍ قديمةً، ولم نرَ في المتحفِ آثارًا قديمةً إلَّا حجرًا أسودَ؛ مكتوبًا عليه بالحرفِ العربيِّ واللُّغةِ المالويَّةِ، يَذْكُرُ فيه كاتبُه تاريخَ دخولِ الإسلامِ في هذهِ البلادِ، ولم أعرفْ شيئًا ممَّا كانَ مكتوبًا في هذا اللَّوحِ.

ورأينا في المتحفِ بعضَ الطُّيورِ الْمُصَبَّرةِ[١]، والحيواناتِ، وشيئًا مِنَ الحياةِ البشريَّة البدائيَّةِ المتوحِّشةِ الَّتي لا تزالُ نادرةَ الوجودِ في أعماقِ الغاباتِ، ويُعَدُّ أفرادُها بالعشراتِ، وهي في سبيلِها إلى الانقراضِ[٢].

ورأينا عمليَّةَ استخراجِ معدنِ القصديرِ، ويُقالُ: إنَّ ماليزيا تُنْتِجُ ثلثَ ما يُنتِجُه العالَمُ كلُّه مِن هذا المعدنِ.

---

(١) أصلُ الصَّبرِ: الحَبْسُ، وكلُّ مَن حبسَ شيئًا فقد صَبَرَهُ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٢/ ٢٧١).

(٢) انقرضَ: درَجَ ولم يبقَ منه شيءٌ. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٧/ ٢١٨).

ورأينا أيضًا أُنموذَجًا مِنَ الأبنيةِ المالويَّةِ القديمةِ، وشيئًا مِنَ المدافعِ البرتغاليَّةِ الَّتي غزا بها البرتغاليُّونَ هذه البلادَ في القرنِ الخامسَ عشرَ الميلاديِّ.

وفي السَّاعةِ الثَّانيةَ عشرةَ رجَعْنا إلى الفندقِ للقيلولةِ، وبعدَ الظُّهرِ السَّاعةَ الخامسةَ تمامًا خرجْنا في جولةٍ خارجَ العاصمةِ إلى مكانٍ يبعُدُ عنها نحوَ ثمانيةَ عشرَ ميلًا، ذلك أنَّ ابنَ عمِّ القائم بالأعمالِ الماليزيَّةِ في الكويتِ جاءَ يدعونا ويستلمُ الأمانةَ الَّتي كلَّفَنا صهرُه بتسليمِها إليهِ، فوافقْناه على الدَّعوةِ.

وهناكَ رأينا بيتًا من الخشبِ يعلو على الأرضِ نحوَ مترٍ ونصفٍ، مسقوفًا بسقفٍ مسنَّمٍ فيه صالةٌ للاستقبال، ومكانٌ للطَّبخِ وللسُّفرةِ، وغرفتانِ للنَّومِ، وهو بصفتِه العامَّةِ مختصرٌ من الخارجِ، لكنَّهُ واسعٌ في الدَّاخلِ.

رحَّب بنا صاحبُ المكانِ، وقدَّمَ لنا ما يُؤكَلُ ويُشرَبُ، وهذه عادةٌ عندَ الشَّرقيِّينَ جميعِهم، متى زارَهُمْ زائرٌ فلا بُدَّ أن يأكلَ ويشربَ؛ يأكل ما يُقدَّم له ولو قليلًا من الفاكهة، ويشرب ما يُقدَّم له من عصير الفواكه أو الشَّاي أو القهوة، وزيارةٌ بلا طعامٍ لا يُقالُ لها: زيارةٌ، ومَن لا يُقَدِّمُ شيئًا لزائرِه لا يُقَدَّرُ عندَ معارفِه.

قبلَ المغربِ بقليلٍ، عُدْنا مودَّعِينَ بمثلِ ما استُقبِلْنا به، بعدَ أن سلَّمْنا الأمانةَ لأصحابِها.

الإثنين (١٤/٦/١٩٧٦م):

غلبَني النَّومُ بعدَ صلاةِ الفجرِ، فلم أستيقظْ إلَّا على صوتِ الهاتفِ، فقد أيقظني في الثَّامنةِ الشَّيخُ يوسُفُ الزَّواويُّ الَّذي أفطرَ معي في مطعمِ الفندقِ.

في برنامَجِ اليومِ:

زيارةُ معالي نائبِ الوزيرِ المكلَّفِ برعايةِ المركزِ الإسلاميِّ، ويشملُ:

الإفتاءَ، وتعيينَ الْمُفتِينَ، والإشرافَ على مركزِ البحوثِ الإسلاميَّةِ - التَّرجمة -، وشؤونَ الأوقافِ الإسلاميَّةِ، والإشرافَ عليها، والإشرافَ على دائرةِ الاقتصادِ الإسلاميِّ أيضًا، وتعيينَ قضاةِ الأحوالِ الشَّخصيَّةِ، وتعيينَ الدُّعاةِ للدَّعوةِ الإسلاميَّةِ، ولكلِّ دائرةٍ من هذه الدَّوائرِ موظَّفوها واختصاصُها.

كانَ في هذا اليومِ نائبُ الوزيرِ: داتو سري قمرَ الدِّينِ بْنَ مُحمَّدٍ عيسى شاه الَّذي أصبحَ بعدَ أسبوعَينِ وزيرًا للإعلامِ.

ومعنى داتو: معالي، ومعنى سري: السَّيِّد أو الشَّريف، زرناه في مكتبِه السَّاعةَ العاشرةَ، وتناولْنا معَهُ الشَّايَ والقهوةَ، وشيئًا من الفواكهِ والحلوياتِ من مائدةٍ شهيَّةٍ.

وكان المفتي والقاضي حاضرَينِ، ومعَهُما عددٌ من كبارِ موظَّفي الوزارةِ، وبعدَ الحديثِ الوُدِّيِّ قَدَّمَ لي هديَّةً بالنِّيابةِ عن رئيسِ الوزراءِ الدَّاتو: حسين عون؛ وهي علبةٌ فضِّيَّةٌ، مكتوبٌ عليها اسمُه،

ومنقوشٌ عليها شاراتُ ولاياتِ الاتِّحادِ، والشَّارةُ الفيدراليَّةُ لها، وقدَّمتُ له هديَّةً؛ عباءةً كويتيَّةً، وعقالًا، وكوفيَّةً.

فهمتُ من مجرى الحديثِ، أنَّ الإفتاءَ عندَهم وظيفةٌ دينيَّةٌ مهمَّةٌ، وأنَّ لكلِّ ولايةٍ من الولاياتِ مفتيًا، ولكلِّ مدينةٍ من المدنِ الَّتي يبلغُ عددُ سكَّانِها عشرِينَ ألفَ نسمةٍ أو أكثرَ مفتيًا، ولكنَّه ليس كمفتي الولايةِ؛ وإنَّما يضمُّ الإفتاءَ إلى وظيفتِه الأصليَّةِ بوصفِه إمامًا أو مُدَرِّسًا، والإفتاءُ بالنِّسبةِ إليه وظيفةُ شرفٍ.

في مكتبِ نائبِ الوزيرِ تكلَّمْنا معَ المفتي في موضوعِ الطَّلاق في مجلسٍ واحدٍ، وقالَ: إنَّهم يفتونَ بوقوعِه ثلاثًا، والمحكمةُ تحكمُ به.

وعِبْتُ عليهم هذه الفكرةَ، وقلتُ: إنَّ هذا تسرُّعٌ في هدمِ الأُسرةِ وتشتيتِ شملِها، ولا سيَّما في هذا الزَّمانِ، ولا بُدَّ أن تأخُذوا برأيِ عالِمَينِ جليلَينِ مِن خيرةِ علماءِ المسلمِينَ: ابنِ تيميَّةَ وابنِ القيِّمِ.

ثمَّ وجَّهتُ سؤالًا إلى الحاضرِينَ: مَنِ اليتيمُ؟

فأجابوا جميعًا: اليتيمُ مَن ماتَ أبوهُ ولم يبلُغِ الحُلمَ.

فقلتُ: صدقتمْ، هذا هو التَّفسيرُ الشَّرعيُّ لليتيمِ، ومِثلُ هذا يُرحَمُ ويُعطَفُ عليه، ولكنْ ما قولُكمْ في طفلٍ لا أبَ له ولا أُمَّ وأبوه وأُمُّهُ حيَّانِ؟ فإذا ذهبَ إلى أبيهِ طردَه؛ لأنَّ زوجةَ أبيه لا تقبلُه، فهو ابنُ ضرَّتها، وإذا ذهبَ إلى أُمِّه طردَهُ زوجُها.

ثمَّ قلتُ: أرجوكم فكِّروا في القضيَّةِ؛ فإنَّها قضيَّةٌ مهمَّةٌ، وفسِّروا الآيةَ الكريمةَ: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٩]، وابحثُوا في تاريخِ

الأحاديثِ، فقد كانَ الأمرُ على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ وعهدِ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ، وصدرَ من خلافةِ عمرَ أنَّ الطَّلاقَ الثَّلاثَ في مجلسٍ واحدٍ بِدعةٌ، وأنَّ طلاقَ المرَّتَينِ لا تُحسَبُ فيهِ الطَّلقةُ الثَّانيةُ إلَّا بعدَ الرَّجعةِ، وكذلك الثَّالثةُ.



في قاعةِ المركزِ الإسلاميِّ في كوالالمبور، وقد جلستُ بينَ نائبِ رئيسِ الوزراءِ متولِّي الأمورِ الدِّينيَّةِ وبينَ المفتي، وقد حضرَ الجلسةَ رؤساءُ الإداراتِ جميعُهم.

في السَّاعةِ الحاديةَ عشرَ والأربعِينَ قُمنا من مكتبِ نائبِ الوزيرِ متوجِّهِينَ إلى المركزِ الإسلاميِّ، وهناكَ وجدْنا نائبَ الوزيرِ قد سبقَنا إلى المركزِ، واجتمعْنا بخيرةٍ من الرِّجالِ على طاولةٍ أُعِدَّتْ للمُداولةِ والحديثِ، وكانَ أكثرُ الحاضرِينَ يتكلَّمُ العربيَّةَ، بعضُهم من خرِّيجي الأزهرِ ومن دارِ العلوم ومن مدارسِ مكَّةَ، ومنهم رئيسُ مركزِ البحوثِ الَّذي كان يتكلَّمُها بفصاحةٍ، وقال: إنَّه تلقَّى تعليمَه في دمشقَ، وأعطاني بعضَ المعلوماتِ عن تنظيمِ هذا المركزِ:

قسم الشَّريعة:

يبحثُ في الأحكامِ الشَّرعيَّةِ، ومنها الفتوى وقضاءُ الأحوالِ الشَّخصيَّة.

قسم العقائد:

يبحثُ في تصحيحِ ما اختلفتْ عليه الْمِلَلُ[١] والنِّحلُ[٢] غيرُ الإسلاميَّةِ، والأَولى به أن يُسمَّى قسمَ الدَّعوةِ.

قسم الاقتصاد:

يسعى لتطبيقِ النُّظُمِ الاقتصاديَّةِ الَّتي كانَ عليها النَّاسُ في صدرِ الإسلامِ مِن جَمْعِ الزَّكواتِ وما يترتَّبُ في ذمَّةِ[٣] المسلمِ منها؛ تطبيقًا للآيةِ الكريمةِ: ﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ﴾ [المعَارج: ٢٤].

(١) الملَّةُ: الشَّريعةُ أو الدِّين. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٠/ ٤٢١).
(٢) النِّحْلَةُ: الدِّينُ والتَّدَيُّنُ. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١١/ ٦٥٠).
(٣) الذِّمَّةُ والذِّمامُ: الحقُّ. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٢/ ٢٢١).

قسم التَّربية والتَّعليم:

يبحثُ فيما ينبغي تطبيقُه على المسلم، وله في مَيدانِ التَّعليمِ على منهجِ التَّربيةِ الإسلاميَّةِ في المراحلِ التَّربويَّةِ كُلِّها.

قسم المجتمع:

وظيفتُه إصلاحُ حياةِ المسلمِ ماديًّا وخلقيًّا.

قسم المكتبة:

تأسيسُ مكتبةٍ إسلاميَّةٍ كاملةٍ غنيَّةٍ بالمصادرِ والمراجعِ القديمةِ والحديثةِ؛ لسدِّ حاجةِ المسلمِينَ من ناحيةِ الثَّقافةِ الإسلاميَّةِ، وطُلَّابِ الجامعاتِ والمعاهدِ العُليا خاصَّةً.

وقد أُسِّسَ المركزُ سنةَ (١٩٦٩م) بقرارٍ من المؤتمرِ الإسلاميِّ العالَمِيِّ الَّذي انعقدَ في عاصمةِ الاتِّحادِ الماليزيِّ، وكان قد اشتركَ في هذا المؤتمرِ كبارُ علماءِ ماليزيا، وهدفُ المركزِ حلُّ المشكلاتِ الَّتي يواجِهُها مسلمو ماليزيا بينَ مُسلِمي العالمِ، ومنها: التَّربيةُ والتَّعليمُ والثَّقافةُ وتحسينُ الأخلاقِ وتطهيرُها من أدرانِ الدَّسائسِ الاستعماريَّةِ.

وقد أَصدرَ هذا المركزُ منذُ أُسِّسَ حتَّى الآنَ رسائلَ إسلاميَّةً مُسلسَلةً تحتَ عنوانِ اليقين، وأصدرَ حلولًا لمشكلاتٍ كثيرةٍ.

يتبعُ هذا المركزَ الإسلاميَّ معهدٌ يتعلَّم فيه الأئمَّةُ الخطابةَ والوعظَ وإلقاءَ الدُّروسِ ارتجالًا على العامَّةِ في المساجدِ، وفيه تُعطَى دروسٌ للدَّعوةِ الإسلاميَّةِ، يُرشَّحُ لها مَن يجدُ في نفسهِ الكفاءةَ للقيامِ بعبءِ

الدَّعوةِ في دورةٍ مُدَّتُها ثمانيةُ أشهرٍ.

وفي المركزِ مكتبةٌ أُنشِئَتْ حديثًا، فيها كثيرٌ من الكتبِ الإسلاميَّةِ باللُّغاتِ الثَّلاثِ؛ العربيَّةِ والإنجليزيَّةِ والمالويَّةِ، وفيه مركزٌ للتَّرجمةِ، تُرجِمَ فيه القرآنُ الكريمُ بالمعنى، وبعضُ كتبِ السُّنَّةِ والمواعظِ.

وزُرْنا فضيلةَ الشَّيخِ عبدِ المحسنِ بْنِ صالحٍ مُفتي العاصمةِ في مكتبِه، وعلمتُ منه أنَّ في الاتِّحادِ أربعةَ عشرَ مُفتيًا، لكلِّ ولايةٍ مُفْتٍ، والرَّابعَ عشرَ مُفتي العاصمةِ، وفيه مجلسٌ أعلى للإفتاءِ، يجتمعُ الْمُفتُونَ كلُّهم برئاسةِ أكبرِهم سنًّا، وأقدمِهم خبرةً عندَ الحاجةِ.

ويتبعُ المركزَ دائرةٌ لشؤونِ الأوقافِ الإسلاميَّةِ، ودائرةٌ تُسمَّى دائرةَ الاقتصادِ الإسلاميِّ تقبلُ مساعداتِ المحسنِينَ، وتمدُّها الحكومةُ بشيءٍ من المال، وهذه الدَّائرةُ مُختصَّةٌ بمساعدةِ العَجَزَةِ ومواساةِ المنكوبِينَ، وقد قدَّمتُ مساعدةً لهذا الفرعِ؛ ألفَ دولارٍ أمريكيٍّ، قبِلَها نائبُ الوزيرِ بصفتِه الرَّئيسَ الرَّسميَّ الدَّائمَ.

وطالَ بنا المجلسُ، وتذاكرْنا في كثيرٍ من الأمورِ المختلفِ فيها، وأَدْلَيتُ برأيي فيها، وقد سألَني بعضُهم عن رأيِ لجنةِ الإفتاءِ في الكويتِ في اللُّحومِ المستوردةِ، فقلتُ: ما استُورِدَ من بلادٍ مسيحيَّةٍ فهو حلالٌ؛ ودليلُه الآيةُ الكريمةُ: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المَائدة: ٥]، وما استُورِد من غيرِها حرامٌ.

فقالوا: وكيفيَّة الذَّبحِ؟ وأنتَ تعلمُ أنَّ الذَّبائحَ لا تُذبَحُ كالعادةِ؛ وإنَّما تمرُّ على شريطٍ، والذَّبحُ في المقصلةِ[١] أوتوماتيكيًّا.

فقلتُ: ما دام ربِّي قد أباح لي طعامَ أهلِ الكتابِ فأُسَمِّي اللهَ وآكُلُ.

ثمَّ سألوني عن الأدويةِ الَّتي لا تخلو من الكحولِ، فقلتُ: لا أظنُّ أنَّ ثمَّ دواءً خاليًا مِنَ الكحولِ اليومَ؛ لأنَّ الكحولَ في الدَّواءِ يمنعُ عنه الفسادَ كما يقولونَ، واللهُ ﷻ منعَ عن أُمَّةِ محمَّدٍ على لسانِ محمَّدٍ ﷺ الشِّفاءَ فيما حُرِّمَ عليهم، ولكن ماذا نفعلُ؟ فلا بدَّ من الاستعمالِ.

قالوا: فما قولُكَ بالحديثِ: «**ما أَسْكَرَ كثيرُهُ فقليلهُ حرامٌ**»[٢].

قلتُ: صدقَ رسول الله ﷺ، لكنَّني لم أستعملْ هذا القليلَ للسُّكرِ؛ وإنَّما استعملتُه للشِّفاءِ، وقال الفقهاءُ: «**الضَّرورات تُبيحُ المحظوراتِ**»[٣]، والحرامُ يتبعُ النِّيَّةَ، «**إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّاتِ، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوى**»[٤].

ووجَّه إليَّ أحدُهم سؤالًا: عن النَّجاسةِ إذا استحالتْ إلى تُرابٍ، أو الخمرةِ إذا استحالتْ إلى خَلٍّ هل تطهُرُ؟ وقالَ السَّائلُ: العظامُ

---

(١) قصلَهُ: قطعَهُ من وسطِه أو أسفلَ منه. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٠/ ٢٥٣).

(٢) رواه التِّرمذيُّ، رقم: (١٨٦٥)، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

(٣) أوردَهُ العجلونيُّ في كشف الخفاء، رقم: (١٦٤٠).

(٤) رواه البخاريُّ، رقم: (١).

والجلودُ تُجمَعُ، وفيها عظامُ الميتةِ وعظامُ الخنزيرِ، ثمَّ تُحرَقُ لتدخلَ في مصنوعاتٍ؛ كتبييضِ السُّكَّرِ مثلًا، فما رأيُكَ في ذلك؟

قلتُ: النَّجاسةُ قذِرةٌ، وإنَّني أسألُكم سؤالًا عن هذه الأسمدةِ الَّتي تستحيلُ بعدَ مدَّةٍ إلى فاكهةٍ شهيَّةٍ؛ طعمُها لذيذٌ وريحُها عطرٌ.

قالوا: لم نسألْكَ عن هذا، ولكنَّنا نسألُكَ عن الاستحالةِ الصِّناعيَّةِ؟

قلتُ: واللهِ في النَّفسِ منها شيءٌ، فإذا علمتُ حقَّ العلمِ أنَّ هذا الشَّيءَ نجسٌ ودخلَ المصنعَ فعليَّ أن أمتنعَ عنه.

ثمَّ عُدنا إلى المذاكرةِ في قضيَّةِ الطَّلاقِ، لكنَّ الجماعةَ لم يستجيبوا للحديثِ والبحثِ، ولم يرتاحوا له.

وفي المجلسِ قلتُ للحاضرِينَ: أيُّها الإخوةُ! الإسلامُ كتابٌ وسُنَّةٌ، والسُّنَّة ما ثبتَ عن النَّبيِّ ﷺ مِن أمرِه أو فعلِه، وكلُّ ما خرجَ عن كتابِ السُّنَّةِ، فليسَ من الإسلامِ في شيءٍ، والقرآنُ لا يمكنُ أن نختلفَ فيه، فهو الحقُّ الثَّابتُ، والسُّنَّةُ كذلك، فإذا صحَّ الحديثُ وجبَ الأخذُ به، والأصولُ لم يختلفْ فيها علماءُ الإسلامِ؛ وإنَّما اختلفوا في الفروعِ في فهمِ لفظِ الحديثِ، وإن كانَ هناكَ خلافٌ بينَ حنبليٍّ أو شافعيٍّ أو حنفيٍّ أو مالكيٍّ أو غيرِهم من المذاهبِ الإسلاميَّةِ فإنَّما هو خلافٌ بسيطٌ لا يصلُ إلى الأصولِ، فكلُّهم مُتَّفِقٌ عليها، ولهذا أُوَجِّهُ كلمتي إلى أصحابِ الفضيلةِ الحاضرِينَ: أن يرحموا السَّائلَ إذا سألَ، وألَّا يشدِّدوا في الإجابةِ، فنحنُ في زمنٍ يجبُ علينا أن نؤلِّفَ فيه بينَ القلوبِ، ونُيَسِّرَ، ونعملَ بوصيَّةِ

المصطفى ﷺ لأصحابِه: «**يَسِّروا ولا تُعَسِّروا، وبَشِّرُوا ولا تُنَفِّروا**»[(١)].

وانتهتِ الجلسةُ السَّاعةَ الواحدةَ والنِّصفَ بعدَ الظُّهر، وفي السَّاعةِ السَّابعةِ والنِّصفِ غادرْنا الفندقَ إلى المأدُبَةِ[(٢)] الَّتي أقامَها نائبُ الوزيرِ معالي السَّيِّدِ قمرِ الدِّينِ في المطعمِ الْمُسَمَّى (إكبر ريستوران)، وقد قُدِّمَ لنا فيها أصنافُ الطَّعامِ الماليزيِّ فقط، وحضرَ المأدبةَ كبارُ موظَّفي المركزِ الإسلاميِّ والقاضي والمفتي ورئيسُ الدَّعوةِ.

وفي السَّاعةِ العاشرةِ انتهى الحفلُ، وعُدْنا مُودَّعِين بمثلِ ما استُقبِلْنا به.



(١) رواهُ البخاريُّ، رقم: (٦٩)، ومسلمٌ، رقم: (١٧٣٤)، واللَّفظُ للبخاريِّ.
(٢) المأدبة: كلُّ طعامٍ صُنِعَ لدعوةٍ أو عرسٍ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢/ ١٣).

(الاتِّحادُ الفيدراليُّ الماليزيُّ)

يتكوَّنُ هذا الاتِّحادُ من (١٣) ولايةً، ولكلِّ ولايةٍ ملامحُها الخاصَّةُ، وطابَعُها الفرديُّ، من هذه الولاياتِ ولايتانِ في شمالِ جزيرةِ برنيو؛ هما ولايةُ سرواق، وولايةُ صباح.

أمَّا جنوبُ جزيرةِ برنيو، فتابعٌ للاتِّحادِ الأندونيسيِّ، ويُسمَّى: كلمنتان.

وبقيَّةُ الولاياتِ الماليزيَّةِ تقعُ في شبهِ جزيرةِ الملايو، وهي: كلانتن، ترنجان، باهنغ، جوهر، وهذه الولاياتُ الأربعُ في شرقِ شبهِ الجزيرةِ، وترتيبُها من الشَّمالِ إلى الجنوبِ.

أمَّا الولايات الغربيَّة فترتيبُها أيضًا من الشَّمالِ إلى الجنوبِ كالآتي: برليس، قدح، بينانغ، بيراك، سلانجور، سمبلان، ملاكا.

ولكلِّ ولايةٍ من هذه الولاياتِ سلطانُها الخاصُّ، وله وليُّ عهدِه مِن بعدِه، وللسُّلطانِ في كلِّ ولايةٍ الرِّئاسةُ الدِّينيَّةُ، ولكلِّ ولايةٍ مجلسٌ خاصٌّ لرعايةِ الشُّؤونِ الإسلاميَّةِ، والسُّلطانُ بصفتِه أو بسلطتِه الرَّئيسُ الشَّرعيُّ لهذا المجلسِ، واتِّحادُ هذه الولاياتِ يقضي بأن يجتمعَ السَّلاطينُ كلَّ أربعِ سنينَ، وينتخبوا منهم ملكَ الاتِّحادِ الَّذي ينتقلُ دستوريًّا إلى مدينة كوالالمبور، ويبقى في الْمُلكِ أربعَ سنواتٍ، يخلفُه في أثنائِها وليُّ عهدِهِ في سلطنتِه، ومتى انتهتِ السَّنواتُ الأربعُ

اجتمعَ سلاطينُ الاتِّحادِ؛ لينتخبوا مَلِكًا جديدًا، أمَّا الملكُ الحاليُّ فهو سلطانُ كلانتن، واسمُه: توانكو يَحيى بترا بن السُّلطانِ إبراهيمَ.

الثُّلاثاء (١٥/٦/١٩٧٦م):

كنَّا على موعدِ أن نُسافِرَ إلى ولايةِ مِلَكا، ويُسمِّيها العربُ مِلَقا، قالوا في سببِ تسميتِها: إنَّ مسلمَينِ اتَّفقا على التَّبشيرِ بالدِّينِ الإسلاميِّ في شبهِ الجزيرةِ هذه بدءًا من الشَّمالِ، فكان أحدُهما: في الجانب الشَّرقيِّ، والآخَرُ في الجانبِ الغربيِّ منها، والتقيا في هذا المكانِ، فسمَّوه الملاقاةَ، ثمَّ تطوَّرَ الاسمُ، فأصبح مِلَقا، أو مِلَكا، بكسر الميمِ وفتحِ اللَّام.

وتبعدُ مدينةُ مِلَقا عاصمةُ الولايةِ من عاصمةِ الاتِّحادِ نحوَ مئةِ ميلٍ أو (١٦٠) كيلو من المتراتِ إلى الجنوبِ، والطَّريقُ إليها طويلٌ وأخضرُ، مررْنا فيه ببلادٍ عدَّةٍ، وقطعناه في ثلاثِ ساعاتٍ، كانَ الجوُّ حارًّا، والرُّطوبةُ شديدةً، وقد استحوذَ[1] علينا الملُّ، لم نرَ في مِلَقا ما يلفتُ النَّظرَ إلَّا آثارًا برتغاليَّةً وهولنديَّةً، ورأينا قلعةً قديمةً تحيطُ بها مدافعُ من طرازٍ قديمٍ.

زرنا هناكَ متحفًا، والحقيقةُ أنَّه ليسَ بمتحفٍ؛ وإنَّما مدَّخرٌ لآثارِ امرأةٍ صينيَّةٍ، يُقالُ: إنَّ أحدَ أمراءِ المقاطعاتِ الَّذينَ كانوا يُسمَّونَ بالرَّاجاتِ تزوَّجَها، فنُقِلَ إلى هذا المكان مِنَ الصِّينِ أثاثُ عرسها وبيتها؛ لذا لم نجدْ في المتحفِ ما يلفتُ نظرَ السَّائحِ إلَّا هذا

(١) استحوذَ على كذا: إذا حواهُ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٩/ ٤٠٠).

الأثاثَ، والتَّاجَ، وبعضَ ملابسٍ، وعربةً، وفي الدَّور الأسفلِ من المتحفِ رأينا بعضَ آلاتٍ بدائيَّةٍ لحصدِ الأرزِّ وتصفيتِه، وآلاتٍ لصيدِ السَّمكِ.

تناولْنا الغداءَ في مِلَقا؛ غداءً طعمْناه من جوعٍ، ثمَّ عُدْنا إلى العاصمةِ في ثلاثِ ساعاتٍ مُتعَبِينَ مُرهَقِينَ لم نسترحْ في أثنائِها إلَّا في مقهًى في الطَّريقِ مدَّةً قليلةً لنشربَ الشَّايَ.

وفي السَّاعةِ الثَّامنةِ مساءً كنَّا مدعوِّينَ للعشاءِ عندَ وزيرِ الأراضي والمعادنِ في الاتِّحادِ الماليزيِّ معالي الحاجِّ داتو محمَّدٍ عصري، وحضرَ الدَّعوةَ نائبُ الوزيرِ؛ نائبُ رئيسِ الوزراءِ، ونائبُ وزيرِ الصِّحَّةِ؛ وكيلُ الوزارةِ، وقاضي القُضاةِ، والمفتي، ونائبُ مديرِ الكلِّيَّةِ الإسلاميَّةِ التَّابعةِ للمركزِ الإسلاميِّ في كلانتن، وجماعةٌ أفاضلُ آخرونَ.

ومعالي الحاجِّ محمَّدٍ عصري؛ من أهالي كلانتن، كانَ قبلَ تولِّيهِ الوزارةِ رئيسًا لجمعيَّةٍ إسلاميَّةٍ تُسمَّى (نيلام كوري)، ومعناهُ جمعيَّةُ الدِّراساتِ الإسلاميَّةِ العُليا، وتُسمَّى أيضًا بالمركزِ الإسلاميِّ.

وقد أَسَّسَتْ هذه الجمعيَّةُ منذُ أكثرَ من عشرِ سنواتٍ معهدًا لهذه الدِّراساتِ، أصبحَ مؤخَّرًا كُلِّيَّةً جامعيَّةً، شهادتُها مقبولةٌ في الأزهر وفي المعاهدِ العليا في المملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ وفي جامعةِ الكويتِ وفي غيرِها من البلادِ العربيَّةِ الإسلاميَّةِ، وكانَ نائبُ مديرِها الأستاذُ يَحيى عثمان موجودًا.

كانَ معالي الحاجِّ محمَّدٍ عصري يتكلَّمُ اللُّغةَ العربيَّةَ بطلاقةٍ، وبعدَ

مدَّةٍ من الحديثِ دُعِينا إلى العشاءِ الشَّهيِّ، قدَّم الرَّجلُ فيه ما دلَّ على كرمِه، وبعدَ تناولِ العشاءِ تكلَّمتُ شاكرًا فضلَ الدَّاعي.



الكلمة

حمدًا للهِ كما ينبغي أن يُحمَدَ، وصلَّى اللهُ على نبيِّهِ صلاةً يرضاها له، وبعدُ:

أبدأُ كلمتي بشكري لِمَعالي الوزيرِ الدَّاعي التَّكريمَ الَّذي خصَّني به، والتَّرحيبَ الَّذي قابلني به، ولا شكَّ أنَّ للمكارمِ أصحابَها، ولِكُلِّ امْرِئٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا[1]، ولبشاشةِ معاليه الظَّاهرةِ على مُحَيَّاهُ أجملُ الأثرِ في نفسي.

وقديمًا قالَ شمسُ الدِّينِ البديويُّ:

بَشَاشَةُ وَجْهِ الْمَرْءِ خَيْرٌ مِنَ الْقِرَى[2]
فَكَيْفَ بِمَنْ يَأْتِيْ بِهِ وَهْوَ ضَاحِكُ؟![3]

وصلتُ هذهِ البلادَ منذُ (٧٤) ساعةً، كانت هذه أوَّلَ مرَّةٍ أزورُ فيها بلدًا في الشَّرقِ الأقصى، وقد سبق لي أن عَرَفْتُ كثيرًا من الماليزيِّينَ

(١) اقتباسٌ من قولِ الشَّاعرِ المتنبِّي:
لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا وَعَادَاتُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنُ فِي الْعِدَا.
انظر: شرح شعر المتنبِّي، لأبي القاسم ابنِ الإفليليِّ (٢/ ١٩١).
(٢) قَرَى الضَّيفَ قِرًى: أضافَهُ، وأحسنَ إليهِ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٩/ ٢٨٤).
(٣) انظر: المستطرف في كلِّ فنٍّ مستظرَفٍ، للأبشيهيِّ (١/ ١٩٢).

في المدينتَينِ المقدَّستَينِ؛ مكَّةَ والمدينةِ، عَرَفْتُ منهمُ العارِفِينَ والجاهلِينَ، والعارفُ يعرِّفُكَ بعضَ الشَّيءِ، والجاهلُ لا يفيدُ نفسَهُ ولا يُفيدُ غيرَهُ إلَّا أنَّه جاءَ لِيَحُجَّ ويرجِعَ إلى بلدِه حاملًا معَ اسمِه لقبَ حاجٍّ.

وأخيرًا إنَّ اللهَ وعدَني بزيارةِ هذا البلدِ، فرأيتُ فيه أكثرَ ممَّا سمعتُ، وعشتُ هذه السَّاعاتِ في ميدانٍ تمنَّيتُ لو أنَّني عشتُ فيه مِن قبلُ، وأمسِ كنتُ في رعايةِ معالي الوزيرِ قمرِ الدِّينِ منذُ الصَّباحِ حتَّى المساءِ معَ مجموعةٍ من العلماءِ الطَّيِّبِينَ؛ الَّذِينَ أسألُ اللهَ لهم أن يوفِّقَهم في مسعاهم، ويهديَهم إلى الاستعانةِ به، ويعينَهم على أداءِ ما كُلِّفوا به، رأيتُ ما سرَّني كثيرًا من نشاطٍ أرجو ألَّا يخيبَ بذرُه، وأن يوفِّقَ الزَّارعِينَ إلى قطفِ ثمارِه.

وهُنا - ومعالي نائبِ الوزيرِ يسمعُ - أُحِبُّ أن أُذَكِّرَ ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذّاريَات: ٥٥]: «**إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّاتِ، وإنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ ما نوى**»[(١)]؛ كلماتٌ نطقَ بها المصطفى ﷺ، ومعناها: النِّيَّةُ أساسُ العملِ، فمَن صدقَ معَ اللهِ في عملِه أعانَهُ اللهُ ووفَّقَهُ فيه.

ختامًا أشكركُم يا معالي الوزيرِ، وأسألُ اللهَ أن يزيدَكَ مِن خيرِه، ويُعينَكَ على شكرِه حتَّى يُحِقَّ فيكَ وعدَهُ لعبادِهِ الشَّاكرِينَ: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ [إبراهيم: ٧]، واللهُ الموفِّقُ.

رَدَّ الوزيرُ الدَّاعي بكلمةٍ طيِّبةٍ شكرَني فيها لإجابةِ الدَّعوةِ، وأثنى

(١) سبقَ تخريجُه.

على الكويتِ وأهلِها خيرًا.

وقالَ: إنَّه قد زارَ الكويتَ ووجدَ في أهلِها الخُلُقَ الطَّيِّبَ، وأثنى على المسؤولِينَ خيرًا، ودعاني معاليه لزيارةِ المركزِ الإسلاميِّ في كلانتن بعدَ عودتي من إندونيسيا في زيارةٍ خاصَّةٍ؛ للاطِّلاعِ على مجهوداتِ هذا المركزِ وجهودِ أساتذتِه، وقد رحَّبَ الأستاذُ يَحيى عثمان نائبُ مديرِ المركزِ بهذهِ البادرةِ، وأثنى على معالي الوزيرِ حينَ عرضَها، وفي السَّاعةِ العاشرةِ انفضَّ[1] المجلسُ، فعُدنا إلى الفندقِ مودَّعِينَ بمثلِ ما استُقبِلْنا به.

الأربعاء (١٦/٦/١٩٧٦م):

بعدَ الإفطارِ ركبْنا السَّيَّارةَ مُتَوَجِّهِينَ برعايةِ اللهِ إلى كلانج عاصمةِ ولايةِ سلانجور؛ لزيارةِ الكُلِّيَّةِ الإسلاميَّةِ هناك.



(١) انفضَّ القومُ: تفرَّقوا. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٨/ ٤٩٤).

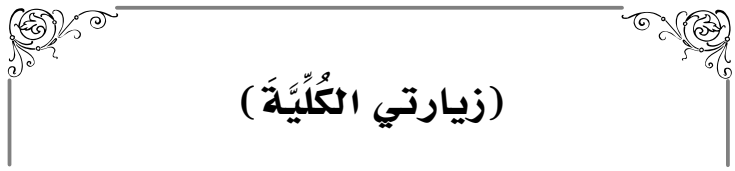


(الكُلِّيَّةُ الإسلاميَّةُ بكلانج)

هذه الكُلِّيَّة - كما علمتُ - أُسِّسَتْ بكلانج سنةَ (١٩٦٦م)، وكانتْ فرعًا من كُلِّيَّةٍ في إحدى مقاطعاتِ الملايو، قد أسَّسَها قديمًا محسنٌ هنديٌّ سنةَ (١٩٥٥م) كما أظنُّ، واسمُه: مولانا عبدُ العليم الصِّدِّيقيُّ، وهو من علماءِ الدِّينِ الْمُخلِصِينَ بعمَلِهم لِعِلْمِهِمْ، جاءَ إلى جزيرةِ سنغافورةَ، فالتفَّ حولَهُ العربُ، ومنهم السَّيِّدُ إبراهيمُ بْنُ عُمَرَ السَّقَّافُ، السَّفيرُ السُّعوديُّ الَّذي سعى لإيجادِ هذا الفرعِ في عاصمةِ سلانجور.

كان مِنَ السَّلاطينِ مَن أهدى أحدَ قصورِه إلى مبنى الكُلِّيَّةِ معَ الأرضِ التَّابعةِ له، ولَمَّا ضاقَ المبنى بحاجةِ الكُلِّيَّةِ بَنَى المسؤولونَ - بمساعدةِ الأجوادِ والمحسِنِينَ - فصولًا وقاعةً للمحاضراتِ ومَدْرَجًا ومبانيَ لسكنِ الطَّلَبَةِ الوافدِينَ مِنَ الولاياتِ الأُخرى، وفي سنةِ (١٩٧٢م) استلمتِ الحكومةُ هذه الكُلِّيَّةَ كُلَّها.





(زيارتي الكُلِّيَّةَ)

وصلتُ إلى مبنى الكُلِّيَّةِ السَّاعةَ العاشرةَ تقريبًا، واستَقبَلَني عندَ بابِ الكُلِّيَّةِ نائبُ العميدِ الأستاذُ سجاري معَ بعضِ الأساتذةِ، وبعدَ جلسةٍ قصيرةٍ طافَ بي[١] في بعضِ غُرَفِ الكُلِّيَّةِ؛ في المختبرِ الَّذي يسمُّونَهُ المعملَ، وفي المكتبةِ - وهي وإن كانتْ صغيرةً إلَّا أنَّها مُرتَّبةٌ - وفي قاعةِ المطالعةِ التَّابعةِ للمكتبةِ المنظَّمةِ تنظيمًا دقيقًا لطيفًا.

ومررْنا بقاعة الاستقبالِ، والحقيقةُ أنَّها أماكنُ تحتاجُ إلى يدٍ تُساعِدُ في تنظيمِها وتجميلِها.

بعدَ ذلك قالَ لي نائبُ العميدِ: إنَّ الطَّلبةَ أولادَكم في الدِّيوانِ ينتظرونَ قدومَكم. ومشيتُ معَهُ بينَ صفوفٍ مُغْلَقَةٍ، علمتُ أخيرًا أنَّها صفوفٌ تحتاجُ إلى تأثيثٍ[٢]؛ لأنَّ الكراسيَّ الْمُعَدَّةَ لجلوسِ الطَّلبةِ فقيرةٌ إلى التَّجديدِ أو التَّصليحِ، حتَّى وصلْنا إلى الدِّيوانِ، ومررتُ بينَ صفٍّ طويلٍ من الطَّلبةِ عن يساري، والطَّالباتِ عن يميني، مرحِّبينَ بي.

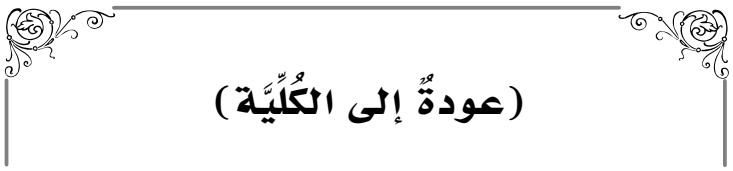


(١) طافَ بالشَّيءِ: دارَ حولَهُ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٤/ ١٠١).
(٢) أَثَّثَ الشَّيءَ: وطَّأَهُ ووثَّرَهُ. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٢/ ١١١).

(نُبْذَةٌ[١] عن الاختلاطِ في دُورِ العلمِ)

أُحِبُّ أن أُشيرَ هُنا إلى أنَّ الاختلاطَ في مدارسِ الشَّرقِ الأقصى جميعِها ولا سيَّما في ماليزيا، ولكنْ ليس بالصِّيغةِ الَّتي يريدُها لنا دعاةُ الاختلاطِ، فإنَّ الاختلاطَ في هذه البلادِ يبدأُ من الرَّوضةِ، ولا ينتهي حتَّى يشبعَ الطَّالبُ أو الطَّالبةُ مِنَ الدَّرْسِ، والطَّالبُ والطَّالبةُ في الصَّفِّ مِنَ السَّنَةِ الأُولى؛ الطَّالبُ عن يسارِ الطَّالبةِ وهي عن يمينِه مِن دونِ اختلاطٍ؛ أي: إنَّ يمينَ الصَّفِّ للبناتِ، ويسارَه للبنينَ، والبنتُ لا يظهرُ منها غيرُ وجهِها وكفَّيها، ومُحَرَّمٌ عليها أيُّ زينةٍ ما عدا الكُحْل الَّذي هو - كما يعتقدون - سنَّةٌ على البنتِ والابنِ، أو على الذَّكرِ والأُنثى.

(١) النَّبْذُ والنُّبْذَةُ: الشَّيءُ القليلُ اليسيرُ مجازًا. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٩/ ٤٨٠).



(عودةٌ إلى الكُلِّيَّة)

بعدَ جلسةٍ قصيرةٍ قامَ أحدُ المدرِّسِينَ فرحَّبَ بي باللُّغةِ العربيَّةِ، ثمَّ افتُتِحَتِ الجلسةُ بقراءةِ خمسِ آياتٍ مِنَ القرآنِ الكريم من سورةِ النَّحلِ، بدأَها بالآيةِ الكريمةِ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [النّحل: ٨٩].

ثُمَّ قامَ نائبُ العميدِ فألقى كلمةً باللُّغةِ الماليزيَّةِ، وترجمَها له أحدُ المدرِّسِينَ، وكانت كلمةً فيها ترحيبٌ ورجاءٌ من الحكومةِ الكويتيَّةِ ألَّا تُقَصِّرَ في مساعدةِ هذا المعهدِ الفقيرِ كما ساعدَ المرحومُ الملكُ فيصلُ الجامعةَ الإسلاميَّةَ حينَ بنى فيها ديوانًا ومسجدًا، وقالَ: إنَّ اللهَ أمرَ بالتَّعاونِ بينَ المسلمِينَ، وأَيُّ تعاونٍ أفضلُ مِنَ التَّعاونِ على نشرِ العلمِ والعرفانِ بينَ أبناءِ هذهِ الأُمَّةِ الواحدةِ المربوطةِ بكلمةِ الإسلامِ وبقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المؤمنون: ٥٢]؟!

خطبَ بعدَهُ أحدُ الطَّلبةِ باللُّغةِ العربيَّةِ الفُصحى بكلمةِ ترحيبٍ، وشكا سوءَ حالِ المكتبةِ وفقرَها إلى الكتبِ لا سيَّما المراجعِ، ثمَّ قامَ نائبُ العميدِ فقدَّمَني، فقلتُ كلمتي.



الكلمةُ الَّتي قلتُها أمامَ الطَّلبةِ والمدرِّسِينَ

الحمدُ للهِ، نثني عليه بما يستحقُّ، ونُصلِّي ونُسلِّمُ على معلِّمِ الإنسانيَّةِ، والرَّحمةِ المهداةِ إلى البشريَّة، سيِّدِنا محمَّدٍ، وبعدُ:

فإنِّي أشكرُ الأستاذَ نائبَ عميدِ الكُلِّيَّةِ لترحيبِه، والإخوةَ الأساتذةَ، ونائبَ الطَّلبةِ، وأولادي بنينَ وبناتٍ للمقابلةِ الَّتي قابلوني بها، وهي إن دلَّتْ على شيءٍ فإنَّما تدلُّ على حبٍّ عميقٍ لفعلِ المعروفِ.

يقولُ الحطيئةُ:

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمْ جَوَازِيَهُ
لَايَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللهِ وَالنَّاسِ(١)

أولادي طُلَّابًا وطالباتٍ:

أودُّ أن أُذَكِّرَكم أنَّ الأمانةَ شيءٌ كبيرٌ، وأنَّ اللهَ ﷻ عرضَها على السَّماواتِ والأرضِ، ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزَاب: ٧٢]، ومَن ضيَّعَ الأمانةَ كانَ منافقًا، والمنافقُ عقوبَتُه عندَ اللهِ في الدَّرْكِ الأسفلِ مِنَ النَّارِ، وأنتم أرادَ اللهُ لكم أن تكونوا طلبةَ

(١) انظر: العقد الفريد، لابن عبد ربِّه الأندلسيِّ (١/ ١٩٠).

علمٍ، وأمَّةَ مستقبلٍ، فوفَّقكم لسلوك هذه الطَّريقِ؛ طريقِ العلم، قد اخترتموها لأنفسِكم وهي لا شكَّ خيرُ طريقٍ، فصرتم محطَّ أنظارِ الشَّعبِ وآمالِه، فكونوا عندَ حُسْنِ ظنِّكم بأنفسِكم، وحُسْنِ ظنِّ الشَّعبِ بكم، استعِدُّوا لبلوغِ القصدِ الَّذي سعيتُم له، جِدُّوا واجتَهِدوا حتَّى تكونوا أهلًا لأداءِ الرِّسالةِ، وتحمُّلِ الأعباءِ.

أولادي بنينَ وبناتٍ:

أخبرَنا رسولُ اللهِ ﷺ بقوله: «**إنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ، إنَّ الأنبياءَ لمْ يُوَرِّثُوا دينارًا ولا درهمًا، إنَّما وَرَّثُوا العلمَ، فمَنْ أخذَ به أخذَ بحظٍّ وافرٍ**»[1]، إذنْ فهنيئًا لكم إن وُفِّقْتُم للفوزِ بما سعيتُمْ له.

وأُحِبُّ أن أقدِّمَ لكم نصيحةً:

إيَّاكم والجمودَ، إيَّاكم والتَّزمُّتَ، فما كان دينُكم هكذا، وإنَّما جاء نبيُّكم للدِّينِ والدُّنيا، وما جاءَ به هو للحياةِ ولِمَا بعدَ الحياةِ، واسمعوا معي قولَ اللهِ ﷻ للمؤمنِينَ من عبادِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النّحل: ٩٧].

الإسلامُ - يا أولادي - دينٌ ودنيا، مسجدٌ وسوقٌ، عبادةٌ ومعاملةٌ، سيفٌ ومُصحفٌ، حكمٌ ومُصَلًّى؛ لهذا أقول لكم: لا تجمُدوا، ولا تتعلَّموا العلمَ للوظيفةِ؛ فإنَّ الوظيفةَ قيدٌ وعبوديَّةٌ وذِلَّةٌ،

(١) رواه التِّرمذيُّ، رقم: (٢٦٨٢).

ولكن تعلَّموا العلمَ للمعرفةِ، ولاتِّساعِ المداركِ، ولتربيةِ العقلِ، ولتعرفوا عظمةَ الكونِ وعظمةَ خالقِه، والشَّهادةُ كلُّها خيرٌ، ولكنْ ما فائدةُ الشَّهادةِ إذا تركتَ الدرَّسَ بعدَ نَيلِها؟ إنَّكَ ستعودُ إلى أُمِّيَّتِكَ؛ إذن لا فائدةَ من الشَّهادةِ إذا لم يكن بعدَها درسٌ ومطالعةٌ.

إنَّ الأستاذَ نائبَ العميدِ يرجو المعونةَ من سموِّ الأميرِ صُباحٍ؛ ليبنيَ ديوانًا ومسجدًا كما بنى المرحومُ الملكُ فيصلٌ ديوانًا ومسجدًا للجامعةِ الإسلاميَّةِ.

وأقولُ: رَحِمَ اللهُ فيصلًا، وأرجو للأميرِ صُباحٍ أن يُوفِّقَهُ اللهُ فيفعلَ ما تأمُلُونَ[1]، وإنِّي مُستعِدٌّ للشَّهادةِ أمامَ المسؤولِينَ إذا قَدِمَ وفدُكم إلى الكويتِ.

في الختامِ أسألُ اللهَ لي ولكمُ التَّوفيقَ.

هذا بعضُ ما قلتُ؛ لأنَّ الكلمةَ استغرقتْ من الوقتِ نصفَ ساعةٍ تخلَّلَتْها أسئلةٌ ونُكاتٌ[2]، وقد تبرَّعتُ للمكتبةِ بشيءٍ من مؤلَّفاتي، وبخمسمئةِ دولارٍ أمريكيٍّ، وبخمسمئةٍ أخرى لِمَاليَّةِ الكُلِّيَّةِ، وبعدَ ذلك خرجْنا من القاعةِ إلى الإدارةِ، وشربْنا الشَّايَ والقهوةَ، وأكلْنا مِمَّا قُدِّمَ لنا كما هي العادةُ، ثُمَّ غادرْنا الكُلِّيَّةَ مودَّعِينَ بمثلِ ما استُقبِلْنا به.

---

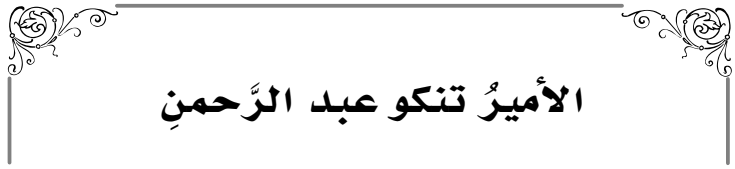
(١) تأملونَ: ترجونَ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٨/ ٢٧).

(٢) نكاتٌ: جمع نُكتة، وهي اللَّطيفةُ المؤثِّرةُ في القلبِ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٥/ ١٢٨).

بعدَ العصرِ:

كانَ مِنَ المقرَّرِ أن نحضرَ مَأدُبةَ شايٍ في السَّاعةِ الخامسةِ في بيتِ معالي الأميرِ تنكو عبدِ الرَّحمنِ، ولكنْ لِتَغيُّبِهِ عن العاصمةِ تأجَّل الموعدُ إلى مساءِ الجمعةِ.





الأميرُ تنكو عبد الرَّحمنِ

وُلِدَ الأميرُ المذكورُ من أبوَينِ أميرَينِ سنةَ (١٩٠٤م)، وجدُّه سلطانُ ولايةِ قدحٍ، وكانَ عندَ تشكيلِ الاتِّحادِ الفيدراليِّ رئيسًا للوزراءِ في هذا الاتِّحاد، ثمَّ شغلَ وزاراتٍ أخرى عديدةً، وعندَما اعتزلَ السَّياسةَ أسَّسَ جمعيَّةً للدَّعوةِ الإسلاميَّةِ، اسمُها الجمعيَّةُ الخيريَّةُ الإسلاميَّةُ الماليزيَّةُ، واختصرَ اسمَها فعُرِفَتْ بجمعيَّةِ بركيم، ودخلَ فيها كثيرٌ من الصِّينيِّينَ، تعلَّموا الإسلامَ، وحجُّوا قبلةَ الإسلامِ، وأصبحوا دعاةً في الجمعيَّةِ، وفيها دعاةٌ من المواطنِينَ وغيرِ المواطنِينَ، رجالٌ ونساءٌ يدعونَ غيرَ المسلمِينَ إلى الإسلامِ.



مؤسَّسةُ الدَّعوةِ الإسلاميَّة

الخميس (١٧/٦/١٩٧٦م):

كان مُقرَّرًا في البرنامجِ أن نزورَ مكتبَ رئيسِ مؤسَّسةِ الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ المسمَّاةِ في لغةِ الملايو ياياسن دعواه؛ أي: مؤسَّسةُ الدَّعوةِ، واستقبلَنا رئيسُ المؤسَّسةِ تانسوري ناصر إسماعيل - وتانسوري كلمةُ تشريفٍ، تُمنَحُ مِن السَّلاطينِ؛ وهي أكبرُ مِن لقبِ باشا، وكلمةُ داتو تُشبِهُ كلمةَ باشا، وتعني: معالي - وجلسْنا عندَه نحوَ ساعةٍ شرحَ لنا فيها مقاصدَ الدَّعوةِ وأماكنَ فروعِها.

أمَّا عن أماكنِها فقالَ: إنَّها منتشرةٌ في ولاياتِ الاتِّحادِ جميعِها، ولها امتداداتٌ في كثيرٍ من البلادِ الإندونيسيَّةِ؛ لأنَّ اللُّغةَ في إندونيسيا وفي الملايو واحدةٌ.

وأمَّا عن شرحِ مقاصدِ الدَّعوةِ فهي:

١) رفعُ شعارِ الإسلامِ، والدِّفاعُ عن شرفِه.

٢) العملُ على إيجادِ المسلمِ الكاملِ.

٣) بناءُ مجتمعٍ يسيرُ دومًا على صراطِ الإسلامِ.

٤) العملُ على تنفيذِ مُهِمَّةِ الأمرِ بالمعروفِ، والنَّهيِ عن الْمُنْكَرِ.

٥) السَّعيُ في البلادِ الإسلاميَّةِ جميعِها؛ لتوحيدِ الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ

ومَحْوِ العُنصريَّةِ.

وهناكَ أمورٌ أخرى غايتُها نشرُ الدَّعوةِ بالقولِ والقلمِ والمؤتمراتِ والدُّروسِ والمحاضراتِ والمناقشاتِ.

بعدَ ذلك تجوَّلْنا في أقسامِ المؤسَّسةِ الَّتي فيها مكتبُ الرَّئيسِ، ثمَّ عُدْنا لتناولِ الشَّايِ والقهوةِ وبعضِ المأكولاتِ كالعادةِ، وقالَ الرَّئيسُ تانسوري ناصر: تحتاجُ جمعيَّتُنا إلى المالِ والكتبِ، أمَّا الجندُ فهم عندَنا كثيرونَ، وأكثرُهم من الشَّبابِ الَّذي يتمسَّكُ بمبدأ (B.4)، فقلتُ: ما معنى هذا المبدأ؟

قالَ: هناك كلماتٌ أربعُ مالويَّةٌ، كلُّها تبدأُ عندَنا بحرفِ الباءِ، ومعناها باللُّغةِ العربيَّةِ: اتَّحدْ وتعلَّمْ واعملْ تنجحْ، فهذهِ الكلماتُ الأربعُ الَّتي تبدأُ بحرفِ الباءِ هي شعارُ جمعيَّتِنا.

وقال: إنَّ الجمعيَّةَ بدأتْ بتأليفِ قاموسٍ أو موسوعةٍ للمصطلحاتِ الدِّينيَّةِ الَّتي تحاولُ الأفكارُ الهدَّامةُ تشويهَها، مثل: القضاء والقدر، أو الصُّوفيَّة وما أشبهَها.

وطالَ الحديثُ في مثلِ هذه الموضوعاتِ، وبعدَ أن انتهى الرَّئيسُ من كلماتِه شكرتُه لحفاوتِه[1] وحسنِ استقبالِه، ثمَّ قلتُ: كلُّ شيءٍ يمكنُ الاختلافُ عليه إلَّا الدِّينُ، والدِّينُ الإسلاميُّ كتابُ اللهِ وسُنَّةُ رسولِه ﷺ، وإن كانَ هناك اختلافٌ - كما يقولُ أعداءُ الإسلامِ - بينَ

(١) الحفاوة: المبالغةُ في السُّؤالِ عن الرَّجلِ، والعناية في أمرِه. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٧/ ٤٥٢).

المذاهبِ؛ فإنَّما هو اختلافٌ في الفروعِ، لا تمتدُّ إلى أصلِ الدِّين أبدًا، وجهلُ المسلمِينَ بالإسلامِ هو الَّذي شجَّعَ أعداءَ الإسلامِ على استغلالِ المسلمِينَ الجَهَلَةِ، وأنا لا أُصَدِّقُ أنَّ مُسْلِمًا يتركُ إسلامَه ليعتنقَ دينًا آخرَ، وقد عرفَ دعاةُ الشَّرِّ ذلك، فاتَّخذوا طريقةَ تشكيكِ المسلمِينَ بدينِهم، فالمسلمُ إذا تركَ دينَه ألحدَ، ودعاةُ الأفكارِ الهدَّامةِ رَضُوا أن تكونَ نتيجةُ محاربتِهم للإسلامِ تشكيكَ المسلمِينَ بدينِهم، والبلادُ المسلمةُ كلُّها في هذا العصرِ يغزوها حَمَلَةُ الأفكارِ الهدَّامةِ الَّذينَ اتَّخذوا لهم جندًا من القوى المسؤولةِ في هذه البلادِ، واتَّخذوا طريقَهم إلى المدارسِ؛ لتنشئةِ الصِّغارِ والشَّبابِ على اللَّادينيَّةِ.

معالي الرَّئيس تانسوري ناصر، أيُّها الإخوةُ القائمونَ على المشروعِ! أنا مسرورٌ كثيرًا بهذا المشروعِ الفذِّ الَّذي لم أسمعْ بمثلِه في أيِّ بلدٍ من البلادِ الَّتي زُرتُها، وأرجو أن يوفِّقَكمُ اللهُ ﷻ لِمَا تسعَون له، ويمُدَّكم بعونِه، فإنَّه لا مُعِينَ إلَّا اللهُ، ومَن أحسنَ القصدَ وُفِّقَ، واللهُ من وراءِ ذلكَ كلِّه.

سُرِرْتُ كثيرًا بمشروعِ القاموسِ الَّذي تكلَّمَ الرَّئيسُ عليه، وآملُ أن يُعِينَ اللهُ على إكمالِه؛ حتَّى نراهُ شوكةً في عيونِ دُعاةِ الشَّرِّ، وخرْسًا لألسنتِهم، وغُصَّةً[1] في حناجرِهم، وخيبةً لآمالِهم.

(١) الغُصَّةُ: ما اعترضَ في الحلقِ وأشرقَ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٨/ ٥٥).



عندَ بابِ المدرسةِ التَّوفيقيَّةِ يستقبلُ الطَّلبةُ ضيفَهم، وعن يساري مديرُ المدرسةِ، ثمَّ المرافقُ الشَّيخُ يوسُفُ الزَّواويُّ.

المدرسةُ التَّوفيقيَّةُ

خرجْنا من مركزِ مؤسَّسةِ الدَّعوةِ متوجِّهينَ إلى قريةٍ صغيرةٍ قريبةٍ جدًّا من العاصمة، تُسمَّى جالن مانتري، فيها مدرسةٌ أسَّسها أهلُ القريةِ، وتبرَّعتْ لهم الحكومةُ بالمكانِ فقط، وهو ضيِّقٌ، وفيه غرفةٌ واحدةٌ ذاتُ طابقَينِ؛ الَّتي تقعُ في الأسفلِ يستعملونَها للدَّرس، والَّتي تقعُ في الأعلى اتَّخذوها مسجدًا للصَّلاةِ، ومكانًا للدُّروسِ الدِّينيَّةِ، وألحقوا بالغرفةِ السُّفلى غطاءً مسقوفًا بالزَّنكِ لا يُغنِي شيئًا، ولا سيَّما عندَ هطولِ الأمطارِ، والأمطارُ هناك تتوالى، فصوتُ المطرِ يحجبُ صوتَ المدرِّسِ، وإذا كان معَ المطرِ هواءٌ ضايقَ الأولادَ برطوبتِه على كتبِهم وملابسِهم.

وعلمتُ أنْ لا موردَ لهذه المدرسةِ إلَّا ما يجودُ به أهلُ القريةِ من كَسْبِهم، وما يدفعونَه أجورًا لتعليمِ أولادِهم، وأهلُ القريةِ - كما علمتُ - أقلُّ من مئةِ أُسرةٍ، يعملونَ في الزِّراعةِ وفي مختلفِ الأعمالِ، وأولادُهم هم الَّذينَ يَشْغَلُونَ هذه المدرسةَ إلَّا أن يجدوا مِن غيرِهم مَن لا أهلَ له، فتتبنَّاهُ المدرسةُ.

والأولادُ - أي: البنينَ والبناتِ - في صفٍّ واحدٍ في هذه البلادِ كالعادةِ، تحتلُّ البناتُ جهةَ اليمينِ من الصَّفِّ، ويحتلُّ البنونَ جهةَ اليسارِ منه، وكلُّهم بلباسِهم الوطنيِّ، وفي المدرسةِ وجبةُ طعامٍ للطَّلبةِ؛ هي من أبسطِ الطَّعامِ وأنظفِه، وقد عُرِفَتْ هذه المؤسَّسةُ

البسيطةُ في مكانِها وأثاثاتِها بأنَّها الكبيرةُ في مقصدِها وغايتِها.

تكلَّم أحدُ المدرِّسِينَ القلَّةِ من الذُّكورِ والإناثِ على السَّببِ الَّذي دعا إلى تأسيسِ هذه المدرسةِ، فقالَ: إنَّنا في هذه القريةِ متضامنونَ، وكأنَّنا أهلُ بيتٍ واحدٍ، ووسائلُ المواصلاتِ بينَنا وبينَ المدينةِ معدومةٌ، وأولادُنا كثيرونَ، والطِّفلُ إذا لم يتغذَّ بالتَّعليمِ وهو طفلٌ صعبٌ عليه وهو كبيرٌ؛ لهذا اجتمعْنا وضَحَّى المُدرِّسُ والْمُدرِّسةُ كثيرًا، فهل تعلمُ أنَّ المدرِّساتِ هنا أربعُ لا يتقاضينَ راتبًا إلَّا مكافأةً يسيرةً لا تُسمِن ولا تُغني من جوعٍ؟!

ضحَّت هؤلاءِ المعلِّماتُ الأربعُ بوقتِهنَّ وحياتِهنَّ لتعليمِ أولادِ القريةِ، والحمدُ للهِ، فالطَّلبةُ كلُّهم يشعرونَ بهذهِ التَّضحيةِ ويقدِّرونَها، وكلُّنا نشيطٌ في وقوفِه معَ هذه المؤسَّسةِ، ولضيقِ المكانِ جعلْنا الدَّوامَ مرَّتَينِ بالنَّهارِ؛ للصِّغارِ في أوَّلِه وللكبارِ في آخرِه، والتَّعليمُ في المدرسةِ روضةٌ وابتدائيٌّ فقطْ، لكنْ جعلْنا الوقتَ الأوفرَ للقرآنِ الكريمِ، والدِّينِ الشَّريفِ، فنحنُ نتَّخذُ منهما وسيلةً لتعليمِ القراءةِ والكتابةِ؛ حتَّى ينشأَ الطَّالبُ مسلمًا في تعاليمِه.

وبعدَ أن أنهى المدرِّسُ كلامَه نيابةً عن مديرِ المدرسةِ، قلتُ الكلمةَ الآتيةَ:

حمدًا للهِ كما ينبغي أن يُحمَدَ، وصلاةً وسلامًا على نبيِّه محمَّدٍ، صلاةً يرضاها ربُّنا لعبدِه ورسولِه، وبعد:

فإنِّي أشكرُ مديرَ المدرسةِ والأساتذةَ والسَّادةَ الأفاضلَ الَّذينَ شاركوا بالاحتفاءِ بي، وأقولُ وباللهِ التَّوفيقُ: أبشروا بالفوزِ ما دمتمْ

مجتمعِينَ ومتضامِنِينَ ومتَّفقِينَ في الرَّأيِ والسَّعيِ، وليسَ النَّجاحُ بالمظهرِ، إنَّما بالثَّباتِ والمثابرةِ على العملِ، وكلُّ مَن سارَ على الدَّربِ وصلَ[1].

أرجو من اللهِ مستقبلًا زاهرًا لمؤسَّستِكم هذه تُسَرُّون به، وأن يكونَ لكم من هذه النَّاشئةِ الزَّاهرةِ خيرُ مُعينٍ على بناءِ هذه المؤسَّسةِ وازدهارِها وبقائِها.

أيُّها الإخوةُ! قالَ الأستاذُ الخطيبُ: إنَّ مدرستَكم هذه روضةٌ وابتدائيٌّ.

ولكنيِّ أرى أكثرَ الحاضرِينَ من الشَّوابِّ، ولا أدري هل هُنَّ طالباتٌ أو زائراتٌ، وأغتنمُ هذه الفرصةَ، فأقولُ للمرأةِ المسلمةِ طالبةً كانت أو زائرةً: إيَّاكِ إيَّاكِ أن تُهدِي الكرامةَ، إيَّاكِ إيَّاكِ أن تُنقصي العزَّةَ، إنَّ المرأةَ في الإسلامِ شيءٌ مقدَّسٌ، بدليل أنَّه جعل الجنَّة تحت أقدامها إن أصبحت أمًّا ولم يجعلها تحت أقدام الأب.

وإن كان للمرء بنتًا وربَّاها وأحسن رعايتها أورثته الجنَّة وصحبة رسول الله ﷺ، وإن كانت زوجةً فالإحسان والمعروف ممن يعاملها لا ينفكُّ عنها، وإن كانت أختًا كبيرةً فهي بمقام الأمِّ، والمرأةُ معَ الرَّجلِ لا تخرجُ مِن هذه الصِّفاتِ الأربعِ: أمٍّ أو أختٍ أو زوجةٍ أو بنتٍ.

---

(١) اقتباسٌ من بيتِ الشَّاعرِ ابن الوردي:

لَا تَـقُـلْ قَـدْ ذَهَـبَـتْ أَرْبَـابُـهُ كُـلُّ مَـنْ سَـارَ عَـلَـى الـدَّرْبِ وَصَـلْ.

انظر: نفح الأزهار في منتخبات الأشعار، للبتلونيِّ (١/ ٥٣).

فاحتفظي - أيَّتُها المرأةُ المسلمةُ - بعزَّتِكِ، فإنَّ اللهَ ﷻ وهبَ لكِ العزَّةَ؛ إذ سخَّرَ لكِ الرَّجُلَ يعملُ ويكدحُ[١]، فيحرثُ الأرضَ ويزرعُها ويحصدُ ويحملُ الكَلَّ[٢]، وأنتِ تمسحينَ العرقَ عن جبينِه، وتهيِّئينَ له قُوتَه، فينسى تعبَه، ويتجدَّد نشاطُه، ليخرج في غدِه إلى عملِه.

لَمَّا كلَّفَ اللهُ الرَّجلَ بالعملِ القاسي في شقِّ الأرضِ وتربيةِ الحيوانِ؛ كلَّفكِ برعايةِ أقدسِ مخلوقٍ على هذه الأرضِ، كلَّفكِ بتربيةِ الولدِ؛ الإنسانِ الَّذي كرَّمَهُ اللهُ، وسخَّر له ما في الأرضِ جميعًا، فلم يكلِّفْكِ الخالقُ - أيَّتُها المرأةُ - بشقِّ الأرضِ، ولا بتسخيرِ الحيوان، ولا بحملِ أثقالٍ، ولا بكدٍّ وحرثٍ؛ إنَّما كلَّفَكِ برعايةِ ولدِك، رَجُلِ الغَدِ، فربِّيهِ على عزَّةِ النَّفسِ والكرامةِ والشَّمَمِ[٣] والإباءِ والنَّخوةِ؛ ولكنْ مَنِ الَّذي يعرفُ العزَّةَ والكرامةَ؟

أُجيبُ عن سؤالي، فأقولُ وكلُّكم سيوافقُ على جوابي: لا يعرفُ العزَّةَ إلَّا العزيزُ، ولا الكرامةَ إلَّا الكريمُ، والذَّليلُ لا يَرْبَى عزيزًا، وإنَّما الذَّليلُ لا يَرْبَى إلَّا ذليلًا، وقديمًا قالوا: وراءَ كلِّ عظيمٍ امرأةٌ.

وختامًا أتبرَّعُ لهذه المؤسَّسةِ؛ لمنحِ السَّيِّداتِ الأربعِ اللَّواتي ضحَّينَ بنفوسِهنَّ وأوقاتهنَّ في إنهاضِ هذه المدرسةِ أربعَمئةِ دولارٍ أميركيٍّ،

---

(١) الكدْحُ: السَّعْيُ والحرصُ والدُّؤوبُ في العملِ في بابِ الدُّنيا والآخرةِ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٧/ ٧٠).

(٢) الكَلُّ: الثِّقلُ من كلِّ ما يُتكلَّفُ. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١١/ ٥٩٥).

(٣) الشَّمَمُ: كنايةٌ عن الرِّفعةِ والعلوِّ وشرفِ الأَنفُسِ. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٢/ ٣٢٧).

وأَتبرَّعُ بستِّمئةٍ للمدرسةِ نفسِها، وهذا ما أستطيعُه راجيًا المعذرةَ، واللهُ يتولَّى عونَكم وتوفيقَكم، وجزاكم اللهُ خيرًا على فعلِكم.

وقد بعثتُ بالأربعِمئةِ نقدًا، وسأرسلُ الباقي من الكويتِ بوساطةِ السَّفارةِ الماليزيَّة.

وبعدَ تناولِ ما تيسَّرَ من مشروبٍ ومأكولٍ، ودَّعْنا النَّاسَ جميعَهم هناك.



أُشاهِدُ بعضَ المعروضاتِ مِن أعمالِ الطَّالباتِ
في المدرسةِ التَّوفيقيَّةِ

الجمعة (١٨/٦/١٩٧٦م):

خرجتُ السَّاعةَ التَّاسعةَ مُتوجِّهًا إلى المسجدِ الوطنيِّ في العاصمةِ كوالالمبور، وكان الشَّيخُ الزَّواويُّ ينتظرُني هناك، وبعدَ جلسةٍ قصيرةٍ معَه توجَّهنا إلى دائرةِ التَّنسيقِ التَّابعةِ لوزارةِ الإعلامِ الَّتي تُشرِفُ في الوقتِ نفسِه على الإذاعةِ والتِّلفاز، والإذاعةُ والتِّلفازُ دائرتانِ تابعتانِ لوزارةِ الإعلام، كلٌّ واحدةٍ منهما مستقلَّةٌ عن الأخرى، والدَّائرةُ الَّتي زرناها مستقلَّةٌ أيضًا، يجبُ أن يُعرَضَ عليها ما يُسَجَّلُ للإذاعةِ والتِّلفاز قبلَ أن يُنشَرَ؛ لكي تراقِبَهُ وتُنَسِّقَهُ وتحذِفَ ما يجبُ أن يُحذَفَ قبلَ أن يراهُ الرَّائي في التِّلفاز، أو يسمعَه من الإذاعةِ.

بعدَ التَّجوالِ في أقسامِ هذه الدَّائرةِ ومنها الإستديو ذهبْنا إلى مكانٍ خاصٍّ، وجدْنا فيه من المأكولِ والمشروبِ ما كانَ مُعدًّا كالعادةِ، فأكلْنا وشربْنا، وقد علمَ المكلَّفونَ هناك بأنَّني مريضُ سكَّرٍ، فجهَّزوا لي طعامًا خاصًّا خاليًا من السُّكَّر.

وبعدَ أن فرغْنا من تناولِ ما يُؤكلُ ويُشرَبُ ذهبْنا إلى مَدْرَجٍ يُشبِهُ قاعةَ المحاضراتِ في الجامعةِ، عرضوا فيه فيلمًا، قالوا: إنَّهُ يُعرَضُ أوَّلَ مرَّةٍ، حتَّى إنَّ وزيرَ الإعلامِ لم يَرَهُ.

الفيلمُ يبدأُ بكلمةِ: بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، ثمَّ بدأَ عرضُ الفيلمِ بمشهدٍ من مشاهدِ ليالي رمضانَ في ماليزيا، وفي كلِّ بلدٍ من بلاد ماليزيا - سواءٌ كانت عاصمةً أم مدينةً أم قريةً - ظاهرةٌ كبيرةٌ لاستقبالِ رمضانَ، وبعدَ أن

رأيْنا هذا المشهدَ عُرِضَ علينا مشهدٌ من مشاهدِ المسابقةِ الإسلاميَّةِ الَّتي أجرتْها ماليزيا في رمضانَ سنةَ (١٣٩٥هـ)[١] للقرآنِ الكريمِ، وقد عُقِدَ لها في كوالالمبور حفلٌ عظيمٌ جدًّا حضرَهُ ملكُ الاتِّحادِ بنفسِه وأكثرُ من نصفِ سلاطينِ المقاطعاتِ والوزراءُ كلُّهم، وكانَ رئيسُ الوزراءِ يومئذٍ تانكو عبد الرَّحمنِ حاضرًا، واشتركَ بهذه المسابقةِ أكثرُ من ثمانينَ دولةً إسلاميَّةً، وأسفتُ على أنَّ الكويتَ لم تحضرْها، ونرجو اللهَ أن يهدي المسؤولينَ للاشتراكِ في الدَّوراتِ المقبلةِ.

اقترحَ فكرةَ هذا المؤتمرِ معالي تنكو عبد الرَّحمن؛ رئيسُ الوزراءِ السَّابقُ الَّذي وَقَعَ في عهدِه الاستقلالُ والاتِّحادُ، وقد جدَّ معاليه واجتهدَ حتَّى رأى سنةَ (١٩٦١م) أوَّلَ مؤتمرٍ عُقِدَ لمسابقةِ القرآنِ الكريمِ في ماليزيا وما جاورَها من بلادِ الشَّرقِ الأقصى، وسُرَّ لها أيَّما سرورٍ، وهذه المسابقةُ تجري كلَّ عامٍ، وهي تقليدٌ ماليزيٌّ يستعدُّ له الاتِّحادُ كلَّ سنةٍ، وقد علمتُ أنَّ إندونيسيا ستسيرُ على هذا المنهجِ في رمضانَ سنةَ (١٣٩٦هـ)[٢].

وقد رأيتُ الماليزيَّ والإندونيسيَّ يقرأانِ القرآنَ كالعربيِّ تمامًا، لا تحسُّ منهما عندَ القراءةِ بأيِّ عُجمةٍ، واشتركَ في المسابقةِ إناثٌ وذكورٌ، والحكمُ في هذه المسابقةِ من بلادٍ عربيَّةٍ، أبرزُها مصرُ والمملكةُ العربيَّةُ السُّعوديَّةُ، واشتركَ في المسابقةِ من العربِ كثيرونَ، ومن الهنودِ وباكستانَ وتايلاندَ والفيلبِّين، ورأينا مِن إفريقيَّةَ السَّوداءِ

(١) أي: سنة (١٩٧٥م).
(٢) أي: سنة (١٩٧٦م).

كثيرًا، إلَّا أنَّ المعلِّقَ على الفيلمِ لا يذكرُ في تعليقِه جنسيَّةَ المتسابقِ، وإن كُنَّا استطعْنا تعرُّفَه مِن ملابسِه عندَ ظهورِه على الشَّاشةِ.

بعدَ عرضِ المسابقةِ عُرِضَتْ مشاهدُ من توديعِ رمضانَ، واستقبالِ العيدِ، واستعدادِ النَّاسِ للسَّفرِ إلى الحجِّ، وكيفيَّةِ إجراءِ المعاملاتِ للسَّفر في الطَّائرةِ أو الباخرةِ، وبعضُ المشاهد من مناسكِ الحجِّ في مكَّةَ، ومن العودةِ في جدَّةَ، والسَّلامِ على العائدينَ عندَ وصولِهم، وكيفيَّةِ تكريمِهم للمهنِّئِينَ، وتكريمِ المهنِّئِينَ لهم.

وممَّا أعجبَني في الفيلمِ تعليمُ الحاجِّ قبلَ السَّفرِ مناسكَ الحجِّ نظريًّا وعمليًّا، وقد رأيتُ في مسجدِ نيجارا مُكعَّبًا يُجَسِّمُ الكعبةَ، ومظهرًا لرميِ الجمراتِ في مِنى، وعندَما يعزمُ الحاجُّ على الحجِّ يذهبُ إلى ذلك المكانِ؛ ليتعلَّمَ المناسكَ عمليًّا قبلَ السَّفرِ إليه.

وأخيرًا خُتِمَ الفيلمُ بكلمةِ تَمَّتْ، المكتوبةِ بالحرفِ العربيِّ تبرُّكًا بكلمةِ اللهِ في كتابِه العزيزِ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].



مسجد الملك فيصل

بعدَ الانتهاءِ من عرضِ الفيلم توجَّهْنا لصلاةِ الجمعةِ إلى مسجدِ الملكِ فيصلِ بْنِ عبدِ العزيزِ الَّذي بناهُ رحمه الله بجوارِ الجامعةِ الإسلاميَّةِ بكوالالمبور عندَما رأى حرصَ الطَّلبةِ على الصَّلاةِ، وبنى بينَ المسجدِ والجامعةِ ديوانًا، ومعنى الدِّيوانِ قاعةُ المحاضراتِ، بناهُما عندَما زارَ الشَّرقَ الأقصى سنةَ (١٩٧٠م)، كما ذكرتُهُ يومَ (١٣/٦/٩٦).

صلاةُ الجمعةِ

توجَّهْنا إلى المسجدِ، واستقبلَنا هناك المسؤولُ عنه، ولكلِّ مسجدٍ في ماليزيا إدارةٌ ومديرٌ مسؤولٌ عن شؤونِ المسجدِ كلِّها، يُطلِقونَ عليه بِلُغَتِهِمْ كلمةً معناها الْمُفَتِّشُ، ويسكنُ في دارِه الَّتي تُبنَى لهُ معَ المسجدِ، وتكونُ داخلةً في سُورِه، ومن وظيفتِه رعايةُ المسجدِ ونظافتُه وخدمتُه وملاحظةُ المصلِّينَ وما يحتاجونَ إليه والاِّتصالُ بالمسؤولِينَ مِمَّنْ هم أكبرُ منه، وقد يكونُ هذا المديرُ الإمامَ أو المؤذِّنَ، ولكنَّه في المساجدِ الكبيرةِ غيرُ ذلكَ.

استقبلَنا هذا المديرُ - كما يُسَمُّونَهُ المفتِّشَ - في بيتِه، ورأينا عندَه جماعةً من أساتذةِ الجامعةِ، وكانَ قد هيَّأَ لنا الضِّيافةَ والوضوءَ كالعادةِ، وبعدَ أن أكلْنا وتوضَّأْنا ذهبْنا إلى المسجدِ، وكانَ الجوُّ حارًّا، وليس في المسجدِ كلِّهِ سوى مَرْوَحَةٍ واحدةٍ، وهي بالنِّسبةِ إليهم كافيةٌ، والمسجدُ مملوءٌ بالجماعةِ، والمصلُّونَ خارجَ قاعةِ المسجدِ أكثرُ ممَّن في داخلِها.

صعدَ الخطيبُ المِنْبَرَ وكانَ شابًّا في حوالي العشرينَ من عُمُرِه، وابتدأَ الخطبةَ بحمدِ اللهِ وتوحيدِه والصَّلاةِ على نبيِّهِ والوصيَّةِ بتقوى الله، قائلًا ذلك باللُّغةِ العربيَّةِ، ثمَّ بدأَ الموعظةَ باللُّغةِ الملاويَّةِ، وأطالَ وأملَّ ونامَ النَّاسُ؛ إذِ استغرقتْ الخطبتانِ من الزَّمنِ ثُلُثَي

ساعةٍ، ثمَّ صلَّى بعدَهُ الإمامُ الرَّاتبُ صلاةَ الجمعةِ، وخرجْنا من المسجدِ في الثَّانيةِ والنَّصفِ.

زيارة تنكو عبدِ الرَّحمنِ

كانَ من المقرَّرِ أن نزورَ معاليه مساءَ يومِ الأربعاءِ (١٦/ ٦/ ١٩٧٦م)، لكنَّه أخَّرَها إلى مساءِ هذا اليومِ، وفي السَّاعةِ الخامسةِ بعدَ الظُّهرِ توجَّهتُ إلى منزلِه منفردًا، فقدِ انتظرتُ مرافقي الشَّيخَ الزَّواويَّ، ولكنَّه تأخَّرَ وجاءَ بعدي بثلثِ ساعةٍ، وكانَ معاليه في استقبالي معَ عددٍ كبيرٍ من رجالِ الدَّعوةِ الَّتي يرأسُها، وتكلَّمْنا عليها يومَ (١٦/ ٦/ ١٩٧٦م)، ووجدتُ منهم هنديًّا وثلاثةَ صينيِّينَ ممَّن أسلموا.

وقالَ معاليه: إنَّهم كثيرونَ، ووجدتُ عندَه زوجةَ حسين عون رئيسِ الوزراءِ البولنديَّةَ الأصلِ.

تحدَّثْنا كثيرًا عن الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ، وعن أسلوبِها، وعن اختلافِ طبيعةِ الأجناسِ البشريَّةِ في تلقِّي الدَّعوةِ، وعن طبيعةِ الصِّينيِّ بصفةٍ خاصَّةٍ، والمغوليِّ بصفةٍ أخصَّ، وقلتُ: إنَّ الصِّينيَّ صعبُ الْمِرَاسِ[1] والاقتناعِ، ولكنَّه متى اقتنعَ وانقادَ أخلصَ لمعتقدِه فلا يردُّه شيءٌ.

فقالَ معاليه: لهذا أَخُصُّ بدعوتِنا الصِّينيِّينَ؛ لأنَّ الصِّينيَّ إذا اقتنعَ كانَ لنا خيرَ عونٍ وفدائيًّا في جمعيَّتِنا.

(١) التَّمَرُّسُ: شدَّةُ الالتواء والعلوقِ. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٦/ ٢١٥).

قُبَيلَ الثَّامنةِ بقليلٍ استأذنتُ من معاليه، فقالَ: هذا المكانُ ليس بِبَيتي، وإنَّما بيتي في ولايةِ بينانج، وغدًا ستُسافِرُ إلى إندونيسيا، لذا أدعوكَ إلى بيتي في بينانج متى انتهتِ الزِّيارةُ هناك، وأرجوكَ أن تقبلَ هذه الدَّعوةَ مشكورًا.

فوعدتُه بالاستجابةِ شاكرًا لهذه الدَّعوةِ، على أن أُبلِغَهُ قبلَ ذلك بيومٍ أو يومَينِ.

النُّصْبُ التَّذكاريُّ

في طريقِنا ونحنُ عائدونَ إلى الفندقِ مررْنا بالنُّصبِ التَّذكاريِّ المُسمَّى بتمثالِ الحُرِّيَّة، ويُمَثِّلُ (١٧) شخصًا من قُوَّاتِ الأمنِ الماليزيَّةِ، يُدافِعُون عن الوطنِ في قتالِ المعتدِينَ من الإنجليزِ واليابانِ ومَنِ انضمَّ إليهم، ويُمْسِكُ الأعلى من الجنودِ بالعلمِ الماليزيِّ، يحيطُ به اثنانِ يحملانِ شيئًا في أيديهما، يُمَثِّلُ هذا الشَّيءُ رمزَ الشَّهامةِ والعزَّةِ، وأمامَ النَّاسِ جنديَّانِ؛ أحدُهما جريحٌ، والثَّاني يعالِجُه، وهذا يرمزُ إلى التَّضحيةِ الَّتي لاقاها الجندُ في سبيلِ حرِّيَّةِ وطنِهم وشعبِهم.

كان الشُّيوعيُّونَ منذُ أربعةِ أشهرٍ تقريبًا قد وضعوا تحتَ هذا النُّصْبِ قنبلةً خرَّبَتْ جهتَه الغربيَّةَ، وكانت الدَّولةُ مهتمَّةً بإصلاحِ ما خَرِبَ منه.

ارتفاعُ هذا النُّصْبِ من قاعدتِه (٥٥) قدمًا، تحيطُ به بحيراتٌ صناعيَّةٌ جميلةٌ، بُنِيَتْ من الْمَرْمَرِ[١]، كما رُصِفَتِ الأرضُ المحيطةُ به بالمرمرِ أيضًا، والمدخلُ إلى النُّصْبِ واحدٌ من الجهةِ الشَّماليَّةِ منه، ووجدْنا عندَهُ جنودًا استأذنَّاهم لصلاةِ المغربِ في ساحةِ التِّمثالِ فأَذِنُوا لنا بعدَ أن عَرَفُونا، ورأينا عندَ المدخلِ إلى النُّصْبِ قفصًا

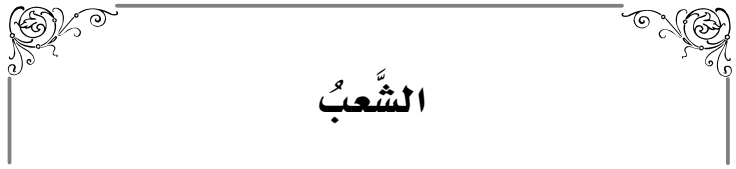
(١) المَرمَر: نوعٌ من الرُّخامِ صلبٌ. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٥/ ١٧٠).

جُمِعَتْ فيه شعاراتُ الولاياتِ المتَّحدةِ المالويَّةِ الثَّلاثةَ عشرَ، تتوسَّطُها شارةُ الاتِّحاد وعلمُه.

صلَّينا المغربَ في ساحةِ التِّمثالِ، ثمَّ واصلْنا سيرَنا إلى الفندقِ، فوصلْناهُ التَّاسعةَ مساءً، وبِغُروبِ شمسِ هذا اليومِ تنتهي الزِّيارةُ، وغدًا سنسافرُ إلى عاصمةِ إندونيسيا.

وقبلَ أن نُغادِرَ ماليزيا إلى إندونيسيا أُحِبُّ أن أتكلَّمَ قليلًا على الشَّعبِ الماليزيِّ واللُّغةِ الماليزيَّةِ والحروفِ والدِّينِ والمسجدِ الوطنيِّ في عاصمةِ ماليزيا.





الشَّعبُ

الشَّعبُ الماليزيُّ يتكوَّنُ من أجناسٍ مختلفةٍ، أظهرُها أمامَ الغريبِ الشَّعبُ المالاويُّ ونسبتُه (٥٦٪)، وطوائفُ أو قبائلُ أخرى أصيلةٌ في الملايو ونسبتُها (١٠٪)، يليهم المهاجرونَ الصِّينيُّونَ المستوطنونَ الَّذِينَ يحملونَ الجنسيَّةَ المالويَّةَ ونسبتُهم (٢٤٪)، ثمَّ الهنودُ، وهم أجناسٌ مختلفةٌ، منهم مَن هو من أصلٍ باكستانيٍّ أو هنديٍّ أو بنغاليٍّ أو سيلانيٍّ، ويُقالُ لجميعِهم هنودٌ ونسبتُهم (٩٪)، وهناك أجناسٌ أخرى مهاجرةٌ نسبتُها (١٪) تقريبًا، وللجنسِ الصِّينيِّ ظاهرةٌ في أسواقِ المدنِ الكبيرةِ في ماليزيا وهي أنَّه الماسكُ زمامَ[1] التِّجارةِ والصِّناعةِ، وكُلُّهم يحملونَ الجنسيَّةَ الماليزيَّةَ وعددُهم اثنا عشرَ مليونَ نسمةٍ كما جاءَ في إحصاءِ (١٩٧٣م).



(١) زِمامُ الأمرِ: مِلاكُه. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٢/ ٣٣٣).



اللُّغةُ

اللُّغةُ الماليزيَّةُ هي اللُّغةُ القوميَّةُ والرَّسميَّةُ للاتحادِّ الماليزيِّ والاتِّحادِ الإندونيسيِّ وجمهوريَّةِ سنغافورة، معَ وجودِ لغاتٍ أخرى بينَ مختلفِ الطَّوائفِ الأصيلةِ والطَّوائفِ المواطنةِ من المهاجرِينَ.

أمَّا الدَّوائرُ التِّجاريَّةُ والصِّناعيَّةُ والسِّياحيَّةُ ومنها الفنادقُ فتسودُ فيها اللُّغةُ الإنجليزيَّةُ، وهي مادَّةٌ إجباريَّةٌ تُدَرَّسُ في المدارسِ جميعِها للدُّولِ الثَّلاثِ؛ ماليزيا وإندونيسيا وسنغافورة، حكوميَّةً وأهليَّةً، وعلمتُ أيضًا أنَّ وِزارةَ الخارجيَّةِ في هذه الدُّولِ لا تقبلُ أيَّ مُوَظَّفٍ ما لم يكنْ متضلِّعًا[1] في اللُّغةِ الإنجليزيَّةِ، وتُكتَبُ اللُّغةُ المالويَّةُ بالحرفِ اللَّاتينيِّ والحرفِ الجاويِّ الَّذي يعتمدُ الحرفَ العربيَّ وإنَّما زِيدَ عليه خمسةُ أحرفٍ.



(١) تضلَّعَ: امتلأَ ما بينَ أضلاعِه. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١/ ٦٢).

الحروفُ الهجائيَّةُ المالويَّةُ

قبلَ أن يستعملَ الملاويُّونَ الحرفَ اللَّاتينيَّ كانوا يكتبونَ بالحرفِ العربيِّ، ويسمُّونَهُ الحرفَ الجاويَّ، وهو كالحرفِ العربيِّ تمامًا كتابةً وترتيبًا وإملاءً، لكنَّ حروفَهُ تزيدُ على الحروفِ العربيَّةِ بخمسةٍ أخرى هي:

١) ج: وهي جيمٌ بثلاثِ نقاطٍ، وتُلفَظُ: Cha.

٢) غ: غينٌ بثلاثِ نقاطٍ، وتُلفَظُ نونًا مُدغَمةً بِغَينٍ: Nga.

٣) ن: نونٌ بثلاثِ نقاطٍ، وتُلفَظُ نونًا رخيَّةً فيها ميلانٌ: Nya.

٤) ف: فاءٌ بثلاثِ نقاطٍ، ومخرجُها بينَ الفاءِ والباءِ: P.

٥) ك: كافٌ فوقَها نقطةٌ، وتُلفَظُ كالجيمِ المصريَّةِ أو الكافِ المعطَّشةِ الفارسيَّةِ: Ga.

وأرادَ الاستعمارُ طمسَ هذا الحرفِ؛ ليقطعَ العلاقةَ بينَ أهلِ البلادِ والإسلامِ الَّذي يكتبُ كتابَهُ بالحرفِ العربيِّ، والقرآنُ لا يُكتَبُ إلَّا بالحرفِ العربيِّ، وقد شعرتُ وأنا هناكَ بالرَّغبةِ الشَّديدةِ في العودةِ إلى هذه الحروفِ بعدَ أن كادتْ تندثرُ؛ لأنِّي لاحظتُ في التِّلِفِزْيُونِ درسًا نظريًّا يُعطى مساءَ كلِّ يومٍ، مُدَّتُه نصفُ ساعةٍ لتعليمِ مَن يرغبُ، ولَحَظْتُ في المدارسِ الأَهليَّةِ والحكوميَّةِ نشاطًا ملحوظًا في تعليمِ هذا الحرفِ قراءةً وكتابةً، وعندَ الخطَّاطِينَ - كما عندَنا - فنٌّ

في رسم هذا الحرفِ بقواعدَ واصطلاحاتٍ لها أسماءٌ، منها الدِّيوانيُّ والرُّقْعَةُ والفارسيُّ وما أشبهَ ذلكَ، لَحَظْتُ أيضًا تفنُّنَهم في نقشِ الحرفِ الإنجليزيِّ بطريقةٍ تُشبِهُ العربيَّةَ.



الدِّين

الدِّينُ الظَّاهرُ في البلادِ هو الدِّينُ الإسلاميُّ، ودستورُ الاتِّحادِ ينصُّ على أنَّ الإسلامَ هو الدِّينُ الرَّسميُّ لماليزيا، ونسبةُ المسلمِينَ في الشَّعبِ الماليزيِّ (٥٥٪) وهي في ازديادٍ، وهناكَ أديانٌ أُخرى لها الحُرِّيَّةُ التَّامَّةُ في ممارسةِ معتقداتِها، ولمؤسَّساتِها حقُّ تملُّكِ مُنشَآتِها من معابدَ ومدارسَ وأوقافٍ؛ كالدِّيانةِ المسيحيَّةِ كاثوليكيَّةً وبروتستانتيَّةً، والهندوكيَّةِ وأكثرُ الهنودِ يدينونَ بها، والبُوذيَّةِ المنتشرةِ بينَ أكثرِ الصِّينيِّينَ وبعضِ الهنودِ، وكلٌّ يُمارِسُ عبادتَهُ في معابدِه بِحُرِّيَّةٍ، ولِكُلٍّ الحُرِّيَّةُ في اعتناقِ الإسلامِ أو المسيحيَّةِ بلا اعتراضٍ.

المسجدُ الوطنيُّ أو مسجدُ نيجارا

أظهرَ فكرةَ تأسيسِه معالي تنكو عبد الرَّحمنِ أيَّامَ حُكمِهِ، وَوَافقَ عليها مجلسُ الوزراءِ في شهرِ حزيران سنةَ (١٩٦٠م)، واحتفلَ بتعيينِ القبلةِ احتفالًا حضرَهُ جمهورٌ كبيرٌ من ولاياتِ ماليزيا جميعِها في (٢٩/ ٩/ ١٩٦١م) برئاسةِ معالي رئيسِ الوزراءِ تنكو عبدِ الرَّحمنِ، ووضعَ الحجرَ الأساسيَّ للبناءِ الملكُ في (٢٠/ ٢/ ١٩٦٣م)، وفي ذلك اليوم حُدِّدَ يومُ الافتتاحِ في (٢٧/ ٨/ ١٩٦٥م)، ومساحةُ الأرضِ الَّتي يقومُ عليها المسجدُ (١٥) فَدَّانًا[١]، تشغلُ المباني ثلثَ هذه المساحةِ، والباقي حدائقُ وأحواضُ ماءٍ، ومساحةُ القاعةِ الكُبرى للمصلِّينَ أكثرُ من خمسةِ آلافِ مترًا مربَّعًا، وتتَّسِعُ لأكثرَ مِن عشرةِ آلافِ مُصَلٍّ، وترتفعُ القبَّةُ[٢] من وسطِها إلى أرضِ المسجدِ خمسةً وعشرينَ مترًا ونصفَ المترِ، وقطرُ[٣] القُبَّةِ ستُّونَ مترًا، وهي قائمةٌ على ستَّةَ عشرَ عامودًا أسطوانيًّا، قطرُ العامودِ الواحدِ منها (٩١) سم،

(١) فدَّان: وحدةُ مساحةِ الأرضِ الزِّراعيَّةِ. انظر: معجم اللُّغةِ العربيَّةِ المعاصرةِ، لأحمد مختار عمر (٣/ ١٦٨١).

(٢) القُبَّةُ: ما يُرْفَعُ للدُّخولِ فيه ولا يختصُّ بالبناءِ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣/ ٥١١).

(٣) أقطارُ الجبلِ والجملِ: ما أشرفَ من أعاليهِ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٣/ ٤٥٠).

وتُمَثِّلُ القُبَّةُ مِظَلَّةً مفتوحةً لها ثمانيةَ عشرَ ضلعًا، وبينَ أرضيَّةِ المسجدِ وسقفِ القُبَّةِ شُرْفَةٌ[١] تحيطُ بالمسجدِ من ثلاثِ جهاتٍ عدا القبلة، وقد خُصِّصَت لِمُصَلَّى النِّساءِ في الأعيادِ والجُمَعِ، وتتَّسِعُ لأكثرَ مِن ألفِ شخصٍ، أمَّا المنارةُ فَعُلُوُّها (٧٥) مترًا بصحنٍ واحدٍ، ومن الصَّحنِ إلى الأعلى تُمَثِّلُ مِظَلَّةً مُغلقةً، وقالوا: إنَّ مصاريفَ بناءِ المسجدِ بلغتْ عشرةَ ملايينِ دولارٍ ماليزيٍّ مُوزَّعةٍ كالآتي: (٤,٥) مليونِ دولارٍ من الحكومةِ، و(٣) مليونِ دولارٍ من الجمهورِ، و(٢,٥) مليونِ دولارٍ من حكوماتِ الولاياتِ.



(١) الشُّرْفَةُ: ما يوضَعُ على أعالي القصورِ والمدن. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٩/ ١٧١).

السَّفرُ إلى جاوا

السَّبت (١٩/٦/١٩٧٦م):

كانَ من المقرَّرِ أن نغادِرَ الفندقَ إلى المطارِ السَّاعةَ الحاديةَ عشرةَ؛ لأنَّ السَّفرَ سيكونُ في الواحدةِ؛ ولهذا لم نخرجْ من الفندقِ، فقد بقيتُ أكتبُ وأقرأُ، وقبلَ الوقتِ المقرَّرِ علمْنا أنَّ الطَّائرةَ تأخَّرتْ فهي ستُقلِعُ في الثَّالثةِ والنِّصفِ تقريبًا.

وفي طريقِنا إلى المطارِ مررْنا بالسَّيِّد الزَّواويِّ لنؤمِّنَ عندَهُ بعضَ الحقائبِ الَّتي لا حاجةَ لنا بها، وحاولْنا أن نُوَدِّعَهُ في بيتِه، ولكنَّه رفضَ إلَّا أن يُرافِقَنا إلى المطارِ.

وصلْنا المطارَ، ورأينا هناكَ المودِّعِينَ، وكانَ منهم المفتي عبدُ المحسنِ الحاجُّ صالحٌ، ومندوبٌ من وِزارةِ الخارجيَّةِ، ومندوبٌ من سفارةِ إندونيسيا في كوالالمبور، وقد أخبرَنا أنَّه اتَّصلَ بالجهاتِ المختصَّةِ مُخْبِرًا إيَّاهم بسفري.



عندَ النُّزولِ من الطَّائرةِ بمطارِ جاكرتا، وهنا المستقبلونَ ومندوبو الوزاراتِ.

أقلعتِ الطَّائرةُ في الثَّالثةِ والنِّصفِ تمامًا، وبعدَ ساعتَينِ هبطتْ في مطارِ جاكرتا عاصمةِ إندونيسيا، والمسافةُ بينَ المطارَينِ (١١٨٠) كيلومترًا.

واستقبلَنا في المطارِ رئيسُ مجلسِ العلماءِ الدُّكتورُ عبدُ الملكِ بْنُ عبدِ الكريمِ أمرِ اللهِ، ويُعرَفُ عندَ الجاويِّينَ باسمِ حمكا، والسَّيِّدُ الدُّكتورُ كفراويٌّ رئيسُ إدارةِ الإرشادِ الدِّينيِّ بوزارةِ الشُّؤونِ الدِّينيَّةِ، والسَّيِّدُ زينُ بْنُ أحمدَ نوح رئيسُ العلاقاتِ العامَّةِ بالوزارةِ، والسَّيِّدُ سوريياديٌّ رئيسُ البروتوكولِ بوزارةِ الخارجيَّةِ، ومندوبٌ من وزارةِ الدَّاخليَّةِ، ومندوبانِ من السَّفارةِ السُّعوديَّةِ، وكانَ من جملةِ المستقبِلِينَ السَّيِّدُ حامدُ بْنُ هاشم الكافُ والسَّيِّدُ مناور عبد الشَّكورِ بوصفِهما مرافِقَينِ من وزارةِ الشُّؤونِ الدِّينيَّةِ.

وبعدَ إجراءِ ما يلزمُ من الرَّسميَّاتِ في المطارِ توجَّهْنا في موكبٍ رسميٍّ تتقدَّمُه درَّاجتانِ للشُّرطةِ، حتَّى وصلْنا الفندقَ في وسطِ مدينةِ جاكرتا، وقدْ أخبرَنا مندوبُ وزارةِ الشُّؤونِ الدِّينيَّةِ بأنَّ معالي الوزيرِ السَّيِّدِ عبدِ المعطي عليٍّ قد أَعدَّ حفلَ عشاءٍ في دارِه، موعدُه في السَّابعةِ والنِّصفِ مساءً.

لفتَ نظري وأنا في الفندقِ استعدادٌ في البلدِ لأمرٍ ذي أهمِّيَّةٍ، فسألتُ المرافِقَ، فقالَ: البلدُ تستعدُّ لعيدِ ميلادِها؛ يعني ميلادَ جاكرتا.

فقلتُ: هذا أمرٌ لم أسمعْهُ طوالَ حياتي، فمتى وُلِدَتْ جاكرتا؟



في قاعةِ الاستقبالِ في المطارِ، وعن يمينِه سماحةُ رئيسِ هيئةِ العلماءِ، ومندوبا وِزارةِ الدَّاخليَّةِ والشُّؤونِ الدِّينيَّةِ.

مدينةُ جاكرتا

أسَّسها المرحومُ الشَّريفُ هدايةُ اللهِ الَّذي يُقالُ عنه إنَّهُ من أشرافِ مكَّةَ، وتعني كلمةُ شريفٍ أنَّه مِن ذُرِّيَّةِ فاطمةَ بنتِ رسولِ اللهِ ﷺ، وهو أوَّلُ من أدخلَ الإسلامَ في جزيرةِ جاوا الغربيَّةِ.

وكلمةُ جاكرتا مخفَّفَةٌ من جياكرتا، ومعناها الفتحُ المبينُ، وتاريخُ تأسيسِها (١٥٢٧/٦/٢١)، معنى ذلك أنَّ عمرَ المدينةِ يبلغُ (٤٤٩) سنةً، ولَمَّا احتلَّ الهولنديُّونَ الجزرَ الإندونيسيَّةَ جعلوها عاصمتَها، وأبدلوا باسمِها اسمَ أحدِ قُوَّادِهم بتافيا.

صَلَّينا المغربَ جمعًا معَ العشاءِ، ثمَّ ذهبْنا إلى دارِ الوزيرِ الدُّكتورِ الحاجِّ عبدِ المعطي عليٍّ، وقد رأيتُ جماعةً كثيرِينَ عندَه عرَّفَنا إيَّاهم، وذكَرَ أعمالَهم ومكاناتِهم لدى الحكومةِ والمجتمعِ، وكانَ منهم رئيسُ مجلسِ العلماءِ، والشَّيخُ عبدُ اللهِ الشَّافعيُّ الَّذي سنتحدَّثُ عنه قريبًا إن شاءَ اللهُ.

وبعدَ تبادُلِ الأحاديثِ الوُدِّيَّةِ فالدِّينيَّةِ دُعِينا إلى العَشاءِ، وبعدَ الفراغِ منه تكلَّمَ معاليه كلمةً ترحيبيَّةً مُوجَزَةً، وبعدَهُ ألقيتُ كلمتي.

الكلمةُ

بسمِ اللهِ، وله الحمدُ جلَّ شأنُه، وصلَّى اللهُ على نبيِّهِ محمَّدٍ الكريمِ صلاةً يرضاها له، وبعدُ:

فإنَّي قرأتُ اسمَ جاوا في درسِ الجغرافيَّةِ وأنا تلميذٌ، وقرأتُها جزيرةً في وسطِ البحرِ بينَ المحيطَينِ الهنديِّ والهادي، ثمَّ سمعتُ بها وطنًا لأمَّةٍ إسلاميَّةٍ محافظةٍ على الإسلامِ أحكامِه وعباداتِه، ثمَّ علمتُها العلمَ اليقينَ حينَ استوطنَها صديقُ طفولتي وشبابي صهري المرحومُ محمودٌ شوقيٌّ الأيوبيُّ الَّذي استوطنَ هذه الجزيرةَ من سنةِ (١٣٤٨هـ) حتَّى سنةِ (١٣٧١هـ)[١]، وعَرَفْتُ بعضَ أهلِيها وخالطتُهم في مكَّةَ والمدينةِ المنوَّرةِ، وكنتُ أرجو أن يمدَّ لي القدرُ يدَ معونتِه فأُسعَدُ بزيارةِ هذا الوطنِ الَّذي عَرَفْتُهُ سماعًا، وخالطتُ أهلَه وقرأتُ عنهم، لكنَّ المسافةَ بعيدةٌ، والسَّفرَ مُمِلٌّ، والخوفَ من السَّفرِ يُبَدِّدُ[٢] العزمَ، ومتى أرادَ اللهُ فلا رادَّ لإرادتِه، وقد أرادَ أن يُسعِدَني بزيارةِ هذا البلدِ، وأَحظى بمشاهدةِ هذه الوجوهِ النَّيِّرةِ الخيِّرةِ الطَّيِّبةِ الَّتي يَشِعُّ منها الإيمانُ، ويتحلَّى أهلُها بمكارمِ الأخلاقِ.

(١) أي: من سنة (١٩٢٩م) حتَّى سنة (١٩٥٢م).

(٢) بدَّدَ: فرَّقَ. انظر: تاج العروس، للزَّبيدي (٧/ ٤٠٤).



الاستقبالُ في مطارِ جاكرتا عاصمةِ إندونيسيا، وبجانبي المرافقُ مندوبُ وزارةِ الشُّؤونِ الدِّينيَّةِ، ومندوبو الخارجيَّةِ والدَّاخليَّةِ.

معالي الوزير، أيُّها الإخوةُ:

إنِّي سعيدٌ بهذه الزِّيارةِ، وشاكرٌ لكم هذه المقابلةَ الَّتي لقيتُها في المطارِ، وهذه الحفاوةَ الَّتي غمرتموني بها حتَّى وصلتُ إلى دارِكمُ العامرةِ بوجودِكم، المنيرةِ بفضلِكم وكرمِكم، أشكرُكم يا صاحبَ المعالي، وأسألُ اللهَ أن يحفظَ هذا البلدَ شعبًا وحكومةً من شرورِ المستقبلِ والشُّيوعيَّةِ والإلحادِ والانسلاخِ[1] والمفاسدِ والتَّحلُّلِ والحُرِّيَّةِ اللَّاأخلاقيَّةِ الَّتي أذابتِ الشَّبابَ وأعدمتْهم قواهم.

إنَّها أمراضٌ لا شفاءَ منها إلَّا بالإسلام؛ فهو الشِّفاءُ لِما في الصُّدورِ، ولا عصمةَ لنا من التَّدهورِ فيها إلَّا بالإسلام؛ فإنَّه النَّجاةُ من الهلاكِ، ولا حمايةَ منها إلَّا بالإسلام؛ فهو الحصنُ الحصينُ من الأدواءِ[2] والمهالكِ، فلنعتصمْ به ونُخلِصْ في اعتصامِنا بالعملِ، حتَّى إذا قُلْنا في صلواتِنا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: ٥] كنَّا صادقِينَ حقًّا.

وأمَّا أنتَ يا معالي الوزيرِ فإنِّي أسألُ اللهَ لك أن يُعينَكَ على شُكرِه، حتَّى تستحقَّ وعدَهُ لِمَنْ شَكَرَ ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

وبعدَ شُربِ القهوةِ والشَّايِ وتناوُلِ الفاكهةِ رَجَعْنا إلى الفندقِ كما جئنا منه في الموكبِ نفسِه على أن نُغادِرَه صباحَ الغدِ إلى جوكجاكرتا كما هو مُقرَّرٌ في برنامجِ الزِّيارةِ.

(١) الانسلاخُ: النَّزْعُ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٧/ ٢٧٠).
(٢) الأدواءُ: جمعُ داءٍ، وهو المرض. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١/ ٢٣١).

الأحد (٢٠/٦/١٩٧٦م):

غادرْنا الفندقَ السَّاعةَ السَّادسةَ صباحًا إلى مطارِ حليم، وأقلعتِ الطَّائرةُ السَّاعةَ السَّابعةَ إلى جوكجاكرتا، وبعدَ طيرانٍ استغرقَ (٥٥) دقيقةً وصلْناها حامدِينَ اللهَ على السَّلامةِ، وجوكجاكرتا تقعُ في جاوا الوسطى وهي عاصمةُ ولايةٍ باسمِها على السَّاحلِ الجنوبيِّ مِن جاوا الوسطى.



في دارِ معالي وزيرِ الشُّؤونِ الدِّينيَّةِ، وعن يمينِه سماحةُ رئيسِ هيئةِ العلماءِ، وعن يمينِه فضيلةُ الشَّيخِ عبدِ اللهِ الشَّافعيِّ، وأمامَهُ معالي الوزيرِ، وقد أَهداهُ نسخةً من القرآنِ الكريمِ مترجمةً بالمعنى إلى اللُّغةِ الإندونيسيَّةِ.



في دار معالي وزيرِ الشُّؤونِ الدِّينيَّةِ الإندونيسيِّ، ومعاليه يقدِّمُ طعامَ العشاءِ لضيفِه.

رافقَنا في هذه الرِّحلةِ مندوبٌ من وزارةِ الشُّؤونِ الدِّينيَّةِ، اسمُه مناورٌ عبدُ الشَّكورِ، وفي المطارِ وجدْنا مندوبِينَ من الوزارةِ نفسِها؛ فلِوزارةِ الشُّؤونِ الدِّينيَّةِ فروعٌ في كلِّ بلدٍ من بلادِ إندونيسيا، ولا أقولُ في كلِّ مدينةٍ، بل في أقلَّ مِن مدينةٍ.

ونزلْنا في فندقٍ خارجَ المدينةِ اسمُه (امبركومو)، ومعناه قريةُ عنبرٍ؛ لِنَبِيتَ فيه ليلةً واحدةً، ثمَّ نغادرهُ غدًا إلى جزيرةِ بالي، وكانَ المقرَّرَ في البرنامجِ أن نزورَ معبدَ (بوروبودور)، وهو معبدٌ وثنيٌّ هندوكيٌّ قديمٌ، لكنِّي رفضتُ زيارتَه؛ لأنَّ قصدَ الزِّيارةِ مُحَرَّمٌ، والرِّحلةَ إليه كذلكَ، وفضَّلتُ زيارةَ المعاهدِ الدِّينيَّةِ الَّتي تَقِرُّ بها عيني[1]، وينشرحُ لها صدري، ويثيبُني اللهُ عليها.

(١) قرَّتْ عينُه: من القَرورِ، وهو الدَّمعُ البارِدُ يخرجُ مع الفرحِ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٣/ ٣٩١).

مدرسةُ المعلِّماتِ الأهليَّةُ

بدأتُ بزيارةِ مدرسةِ المعلِّماتِ الأهليَّةِ، قيلَ لي: إنَّها تحتَ إشرافِ الجمعيَّةِ المحمَّديَّةِ وإرشادِها، واستقبلَنا مديرُ المدرسةِ ومُعلِّمُوها، وبعدَ جلسةِ ترحيبٍ استغرقتْ ربعَ ساعةٍ تجوَّلْنا في صفوفِ المدرسةِ، والطَّالباتُ على كراسيِّ الدَّرسِ.

وقد لَحَظْتُ أنَّ الطَّالباتِ حتَّى في نهايةِ المرحلةِ الثَّانويَّةِ لا يَعْرِفْنَ شيئًا من العربيَّةِ، وفي المدرسةِ ستُّ مراحلَ؛ ابتدائيٌّ وثانويٌّ، وقالَ لي مديرُ المدرسةِ: إنَّ خرِّيجةَ المدرسةِ تستطيعُ الدُّخولَ في الصَّفِّ التَّوجيهيِّ، وبعض الخرِّيجاتِ يشتغلْنَ مدرِّساتٍ وموجِّهاتٍ وموظَّفاتٍ.

لكنِّي لم ألمسْ ذلك فيهنَّ، ولحظتُ أنَّ في الطَّالباتِ نساءً كبيراتٍ، منهنَّ مَن بلغتِ العشرينَ، ومنهنَّ مَن لم تُجَاوزِ السَّابعةَ؛ إذ ليس ثمَّةَ تناسبٌ في العمرِ، فبِنْتُ التَّاسعةِ إذا بلغتِ الصَّفَّ السَّادسَ تكون قد بلغتِ الثَّالثةَ عشرةَ، فكيفَ تكونُ موجِّهةً أو مدرِّسةً أو موظَّفةً؟!

وبعدَ الطَّوافِ على صفوفِ الطَّالباتِ طلبَ إليَّ مديرُ المدرسةِ أن أُلقيَ كلمةَ نُصحٍ للطَّالباتِ، ففيهنَّ الكبيراتُ اللَّواتي هنَّ على أبوابِ الزَّواجِ، فلم أردَّ طلبَهُ.

فجمعَ الطَّالباتِ في بهوٍ[١] كبيرٍ يتوسَّطُ ساحةَ المدرسةِ، - وهذا البهوُ في المساكنِ الكبيرةِ كلِّها، وهو مُعَدٌّ للصَّلاةِ وسماعِ الخُطَبِ العامَّةِ - وألقى أحدُ الأساتذة كلمةَ ترحيبٍ أَطنبَ[٢] فيها ثناءً ورجاءً، وأخيرًا قالَ: والآنَ أُقدِّمُ لكمُ الضَّيفَ الزَّائرَ؛ لِيُلقِيَ على مسامعِ الطَّالباتِ كلمةَ توجيهٍ ونُصحٍ للمرأةِ المسلمةِ.



(١) البَهْوُ: البيتُ المُقَدَّمُ أمامَ البيوتِ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٧/ ٢٣٨).
(٢) أطنبَ في الكلامِ: بالغَ فيه. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣/ ٢٨٠).

الكلمةُ

باسمِ اللهِ، أحمَدُهُ كما يجبُ أن يُحمَدَ، وأُصَلِّي وأُسَلِّمُ على عبدِه ورسولِه النَّبيِّ الأُمِّيِّ الهادي المبعوثِ رحمةً للنَّاسِ، وعلى آلِه وصحابتِه هُداةِ أُمَّتِهِ، وبعدُ:

فإنِّي أبدأُ بشكرِ الأُستاذِ الَّذي قدَّمَني ورحَّبَ بي وأطنبَ في الثَّناءِ عليَّ، وأرجو أن أكونَ عندَ حُسنِ ظنِّهِ، والتَّوفيقُ بيدِ اللهِ، وأشكرُ المديرَ الَّذي وَثِقَ بي؛ فطلبَ منِّي أن أتقدَّمَ إليكُنَّ بنصيحةٍ، أو كما قالَها حرفيًّا بكلمةِ توجيهٍ ونُصْحٍ، واستجابةً لطلبِه سأُقَدِّمُ هذه الكلمةَ لكُنَّ خاصَّةً لا لغيرِكُنَّ كما أرادَها حضرةُ المديرِ.

بناتي العزيزاتِ:

قالَ اللهُ تعالى في كتابِه العزيزِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾ [الحُجرات: ١٣]، وقال أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ [النِّساء: ١]؛ فالمجتمعُ الإنسانيُّ - كما قالَ اللهُ تعالى في الآيتَينِ السَّابقتَينِ - خُلِقَ من رجلٍ وامرأةٍ، لا يمكنُ أن ينفصلَ عنها ولا تنفصلُ عنه، كلٌّ واحدٍ منهما مُتَمِّمٌ للآخَرِ، فهما نِصفانِ، والنِّصفُ لا يكونُ واحدًا، فإذا اجتمعا كونًا واحدًا لا بدَّ إذن لكلِّ نصفٍ من نصفِه المكمِّلِ له؛ الرَّجلُ يسعى ويشقى، فهو العاملُ والفلَّاحُ والزَّارعُ والصَّانعُ والرَّاعي

الَّذي يُربِّي الحيوانَ والتَّاجرُ الَّذي يسعى وراءَ الرِّبحِ يركبُ البحرَ والجوَّ والبرَّ، وأمَّا المرأةُ فإنَّها الزَّوجُ والأُمُّ، وهي ركنُ الحياةِ في المجتمعِ الإنسانيِّ، ومِن وجودِها ينمو الوجودُ الإنسانيُّ، لم يكلِّفْها اللهُ بعملٍ إلَّا رعايةَ الإنسانِ الَّذي هو أشرفُ مخلوقٍ كرَّمَهُ اللهُ مِن خَلقِه، فالزَّوجةُ تمسحُ العرقَ عن جبينِ زوجِها إذا تَعِبَ، وتُقدِّمُ له طعامَه، وتُهَيِّئُ له فراشَه لِيَجِدَ عندَها السَّكنَ؛ كما قالَ جلَّ شأنُه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الرُّوم: ٢١]، فسكنُ الرَّجلِ راحتُه، لا يجدُها إلَّا في بيتٍ فيه زوجةٌ تعرفُ كيفَ ترعاهُ.

والأُمُّ مُكَلَّفَةٌ برعايةِ أولادِها البنينَ والبناتِ، تُرَبِّيهِمْ وتُنَشِّئُهم على خيرِ ما ترجوه لهم من مستقبلٍ، فإنَّ اللهَ لم يخلقِ المرأةَ لتشقَّ الأرضَ أو تحملَ الأثقالَ، وإنَّما لتكونَ أُمًّا تحملُ الجنينَ، وتربِّيهِ بعدَ ولادتِه، وترعى أباه، وتُهيِّئُ له حاجتَه، وكلَّفَ الرَّجلَ؛ بالإنفاقِ على زوجتِه وأهلِ بيتِه، يشقى في سبيلِ عيالِه ويحميهم من كلِّ سوءٍ، وبالجهادِ في سبيلِ اللهِ، ولم يكلِّفِ المرأةَ بذلكَ، وإنَّما جعلَ جهادَ المرأةِ حسنَ التَّبعُّلِ، والتَّبعُّلُ هو الرِّعايةُ الحُسنى تؤدِّيها المرأةُ في بيتِ الزَّوجيَّةِ، وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**الدُّنيا مَتَاعٌ، وخيرُ مَتَاعِ الدُّنيا المرأةُ الصَّالحةُ**»(١)، وقالَ: «**ما استفادَ المُؤمنُ بعدَ تقوى اللَّهِ خيرًا لَهُ من زوجةٍ صالحةٍ، إنْ أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ، وإنْ نَظَرَ إليها سَرَّتْهُ، وإنْ**

(١) رواهُ مسلمٌ، رقم: (١٤٦٧).

أَقْسَمَ عليها أَبَرَّتْهُ، وإنْ غَابَ عنها نَصَحَتْهُ في نَفسِهَا وَمَالِهِ»[١].

إنَّ الأُمَّ إذا حافظتْ على عزَّتِها وكرامتِها أَنْتَجَتْ للأُمَّةِ رجالًا أعزَّاءَ، يسعدُ بهمُ الوطنُ، وتفخرُ بهم الأُمَّةُ، أمَّا تلك الأُمُّ الذَّليلةُ الَّتي لا كرامةَ لها ولا أَنَفَةَ[٢] ولا تعرِفُ العزَّةَ فكيفَ يهبُ الواهبُ شيئًا لا يملكُه؟! فمثلُ هذه الأُمِّ لن تربِّيَ أولادَها، ولن يفخرُوا بها.

قالَ الشَّاعرُ حافظُ إبراهيمَ:

اَلْأُمُّ مَـــدْرَسَـــةٌ إِذَا أَعْـــدَدْتَـــهَـــا
أَعْـدَدْتَ شَـعْـبًـا طَـيِّـبَ الْأَعْـرَاقِ[٣]

إذن فالمرأةُ نعمةٌ، والنِّعمةُ يجبُ أن تُحاطَ بشكرِ اللهِ، فإنَّ شُكرَ المُنعِم يزيدُ في النِّعَم، وعلى المرأةِ أن تشكرَ للهِ هذا التَّكريمَ، وتُحافِظَ عليه، وتُحيطَهُ بالعِفَّةِ والكرامةِ.

ختامًا أُكَرِّرُ شكري للسَّيِّدِ مديرِ المدرسةِ والأساتذةِ الحاضرِينَ، وفي جملتِهم السَّيِّداتُ المعلِّماتُ، وشكري لكنَّ جميعًا لاستماعِكُنَّ كلمتي هذه الموجَّهةَ إليكنَّ، وأرجو أن تحفظوها منِّي بالعملِ بها، واللهُ يحفظُ لكنَّ المستقبلَ، والسَّلامُ عليكم.

كانَ المديرُ نفسُه يُتَرْجِمُ كلمتي للسَّامعاتِ والسَّامعِينَ، والفقرُ ظاهرٌ في المدرسةِ بمعانيه كلِّها، وقد علمتُ أنَّها مدرسةٌ قائمةٌ على

---

(١) رواهُ ابنُ ماجه، رقم: (١٨٥٧).
(٢) الأَنَفَةُ: الغَيرَةُ والحِشْمَةُ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٣/ ٤٦).
(٣) انظر: جواهر الأدب في أدبيَّاتِ وإنشاءِ لغةِ العرب، للمصطفى الهاشميِّ (٢/ ٢٤٩).

نفقاتِ المحسنِينَ وتبرُّعاتِ المتبرِّعِينَ، ولهذا تبرَّعتُ بمبلغِ خمسمئةِ دولارٍ أمريكيٍّ مُعَجَّلٍ، نسألُ اللهَ القَبولَ.



المستشفى المحمَّديُّ

خرجْنا من المدرسةِ السَّاعةَ العاشرةَ ظهرًا متوجِّهينَ إلى المستشفى المحمَّديِّ لزيارتِه، ولفتَ نظري ما كُتِبَ على بابِه، فقد قرأتُ قولَه تعالى حكايةً عن عبدِه ورسولِه إبراهيمَ عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٠]، فقد جاءَ في سورةِ الشُّعراءِ من قولِه تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٦٩]، حتَّى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٩]، والحقُّ أنَّ المرضَ والشِّفاءَ والدَّواءَ قدرٌ من اللهِ، والطَّبيبُ كما وصفَهُ المصطفى ﷺ رجلٌ يبعثُ اللهُ الدَّواءَ على يديهِ، فإذا أصابَ الدَّواءُ الدَّاءَ بَرِئَ بإذنِ اللهِ.

استقبلَني عندَ بابِ المستشفى مديرُه السَّيِّدُ محمَّد بارد عصام، وطافَ بي في أنحاءِ المستشفى وأقسامِه وغرفِه، وأخبرَني أنَّ هذا المستشفى هو المستشفى الإسلاميُّ الوحيدُ في هذه المدينةِ، وأنَّ المستشفياتِ الإسلاميَّةَ في الجمهوريَّةِ قليلةٌ.

رأيتُ في المستشفى مكانًا لتدريسِ الممرِّضاتِ اللَّواتي يظهرنَ بلباسِهنَّ البسيطِ ووجوههنَّ الباسمةِ، وقلتُ لهنَّ: إنَّ المريضَ يطلبُ إلى الطَّبيبِ الدَّواءَ، ويطلبُ إليكنَّ الرِّعايةَ، والرِّعايةُ أقوى من دواءِ الطَّبيبِ؛ ففي رعايتِكُنَّ له علاجٌ نفسيٌّ، والمريضُ ضعيفٌ، والضَّعيفُ محتاجٌ إلى بسمةٍ وحنانٍ وعطفٍ، وإنَّ المجتمعَ الإنسانيَّ سمَّاكُنَّ ملائكةَ الرَّحمةِ، والممرِّضةُ إذا أحسنتْ قصدَها في رعايةِ المريضِ

كانتْ حقًّا ملاكَ رحمةٍ، ترعى مريضَها بالوجهِ الباسمِ واليدِ الرَّحيمةِ والقلبِ المخلصِ، فمتى كُنْتُنَّ هكذا كان اللهُ معَكُنَّ.

وفي المستشفى وجدتُ مسجدًا للصَّلاةِ وهو أقربُ مكانٍ هناكَ إلى اللهِ، حتَّى وصلْنا إلى قاعةٍ في وسطِها طاولةٌ تحيطُ بها كراسيٌّ، وعليها الشَّايُ والقهوةُ، ففهمتُ أنَّها مكانُ مداولةٍ أو اجتماعٍ للأطبَّاءِ، فتحدَّثْنا إلى الأطبَّاءِ والطَّبيباتِ.

وقبلَ الانصرافِ شكرتُ للجماعةِ حُسْنَ استقبالِهم، وتبرَّعتُ للمستشفى بألفِ دولارٍ أمريكيٍّ قبِلَها المديرُ شاكرًا، ورَجَا لي سفرًا مُرِيحًا، وإقامةً طيِّبةً، وعودًا حميدًا إلى الأهلِ والوطنِ، وغادرْنا المستشفى بمثلِ ما استُقبِلْنا به في السَّاعةِ الحادية عشرة.



معهد فابيلان

واصلْنا السَّيرَ إلى قريةِ فابيلان الَّتي تبعدُ من مدينةِ جوكجاكرتا نحوَ (٢٠) كيلومترًا إلى الشَّمال، وفي الطَّريقِ عبرْنا نهرًا يُسمَّى (كراسا)، عليه جسرٌ لعبورِ الْمُشاةِ، وجسرٌ لعبورِ القطارِ الَّذي يُوصِلُ جاوا الشَّرقيَّةَ بجاوا الغربيَّةِ، وكانَ هذا النَّهرُ قد تأثَّرَ بانفجارِ بركانِ مارابي سنةَ (١٩٧٠م) الَّذي خرَّبَ الجسرَ والقُرى الَّتي كانت على النَّهرِ، وامتلأَ النَّهرُ بالحجارةِ السَّوداءِ والحمراءِ الَّتي قذفَها البركانُ، وماتَ في ذلك عشراتُ الآلافِ من النَّاسِ، وكانتِ الخسائرُ الماديَّةُ لا تُقدَّرُ.

وصلْنا السَّاعةَ (١١ : ٤٥) معهدَ فابيلان الَّذي أسَّسَهُ مديرُه الحاجُّ هُمام جعفر وأخوه وزوجتُه سنةَ (١٩٦٥م)، وسِنِيُّ الدِّراسةِ فيه ستُّ سنواتٍ، ويَحِقُّ للمتخرِّجِ فيه الالتحاقُ مباشرةً بجامعاتِ إندونيسيا كلِّها والأزهرِ؛ لأنَّه سيتخرَّجُ متمكِّنًا في اللُّغةِ العربيَّةِ كتابةً وقراءةً ونُطقًا، وقد بُنِيَ هذا المعهدُ على جزءٍ من أرضٍ كانت صغيرةً، فبلغت خمسينَ ألفَ مترٍ كما قيل لي، وباقي الأرضِ مزروعةٌ.

تجوَّلْنا في أنحاءِ الأرضِ، فوجدْنا بحيرةً قالَ المديرُ هممٌ إنَّها مَسْمَكَةٌ[1] تنقسمُ إلى جُزْأَينِ، ليحوِّلَ الطَّلبةُ ما ينمو من السَّمَكِ من

(١) المَسمَكَة: حوضٌ يُجَدَّدُ ماؤهُ، ويُرَبَّى فيه السَّمكُ. انظر: معجم اللُّغةِ العربيَّةِ المعاصرة، لأحمد مختار عمر (٢/ ١١١١).

الأُولى إلى الثَّانيةِ.

وفي الأرضِ مكانٌ لزرعِ الخضارِ إنتاجًا واستهلاكًا، وفيها مَنْجَرَةٌ[١] ومَحْدَدَةٌ ومَخْيَطَةٌ ومطبخٌ ومكتبةٌ كبيرةُ المساحةِ، لكنَّها تحتاجُ إلى كتبٍ.

وفي الأرضِ ملاعبُ للكرةِ باختلافِ أنواعِها، وفيها ملعبٌ للمصارعةِ، ويعملُ الأولادُ في هذه الأقسامِ كلِّها الَّتي تجوَّلْنا فيها، وهي غرفٌ مبنيَّةٌ جُدرانُها من الخشبِ، وأسقفُها من الزَّنكِ، وقالَ المديرُ: إنَّها من بناءِ الأولادِ.

مررْنا بغرفِ النَّومِ، وعلمْنا أنَّ الطَّلبةَ هم الَّذينَ بنوا الغرفَ كما بنوا الأقسامَ، في كلِّ غرفةٍ عشرونَ سريرًا، وهي أَسِرَّةٌ قويَّةٌ، لكنَّها على غايةٍ من البساطةِ، كلُّ عشرةِ أَسِرَّةٍ في صفٍّ، وبينَ العشرةِ والعشرةِ طريقٌ واسعٌ، وعندَ رِجْلَي كلِّ طالبٍ مكانٌ لحفظِ ثيابِه وكتبِه يُشبِهُ الصُّندوقَ والدُّولابَ، والَّذي لاحظْناه أنَّ رأسَ الطَّالبِ عندَ منامِه يكونُ إلى جانبِ الطَّريقِ، وهكذا غرفُ نومِ البناتِ، وسألتُ المديرَ: لماذا؟

قالَ: لِنُشعِرَهم باحترامِ بعضِهم.

لحظتُ أنَّه ليس للبناتِ أَسِرَّةٌ، وإنَّما يَنَمْنَ على حُصُرٍ من صُنعِ المدرسةِ، ذلك لأنَّ غرفَ الأولادِ مبلَّطةٌ بالإسمنتِ فقط، أمَّا غرفُ

(١) مَنْجَرَةٌ: اسمُ مكانٍ من نَجَرَ، مكانٌ يُتَّخَذُ للنِّجارةِ. انظر: معجم اللُّغةِ العربيَّة المعاصرة، لأحمد مختار عمر (٣/ ٢١٧٠).

البناتِ فمبلَّطةٌ ببلاطٍ، والبلاطُ يحفظُ من الرُّطوبةِ والحشراتِ أكثرَ ممَّا يحفظُ الإسمنتُ.

وعَلِمْنا من المديرِ أنَّ المدرسةَ داخليَّةٌ، والَّذي ينتسبُ إليها من الأولادِ والبناتِ يبقى فيها، فلا يذهبُ في إجازةٍ إلَّا في الإجازاتِ الطَّويلةِ الَّتي تتجاوزُ أربعةَ أيَّامٍ.

وفي أوَّلِ الطَّريقِ الموصِلِ إلى المعهدِ رأينا الطَّلبةَ وقدِ استعدُّوا لاستقبالِنا بموكبٍ موسيقيٍّ تعزفُه كشَّافةُ[١] الفتياتِ، والكشَّافةُ ذكورُهم وإناثُهم في صفَّينِ متقابِلَينِ؛ صفٌّ للبناتِ وصفٌّ للبنينَ، ورأينا باقي الطَّلبةِ صافِّينَ على جانبي الطَّريقِ، حتَّى وصلْنا صالونَ[٢] الأساتذةِ، وكان المديرُ الحاجُّ هُمام جعفر والأساتذةُ قد خرجوا لاستقبالِنا، فصافحونا مُرَحِّبِينَ، وكانتِ ابنتي وزوجُها معي في هذه الزِّيارةِ، وقد رأينا في هذا المعهدِ ما يدلُّ على همَّةٍ جبَّارةٍ يملكُها هذا المديرُ الشَّابُّ.

وبعدَ التَّجوالِ وجدْنا مكانًا تحتَ الشَّجرِ قد هُيِّئَ، فيه مائدةٌ عليها شيءٌ من الحلوى والفاكهةِ، ولا بدَّ من الشَّايِ والقهوةِ، وكانتِ الفاكهةُ البارزةُ جوزَ النَّارجيلِ الأخضر، والحلوى الممتازةُ هي ما وجدناه في هذه الفاكهةِ مِن ماءٍ عذبٍ شهيٍّ باردٍ.

---

(١) كشَّافةٌ: عضوٌ في منظَّمةٍ كشفيَّةٍ لتطويرِ الشَّبابِ وتدريبِهم. انظر: معجم اللُّغةِ العربيَّةِ المعاصرة، لأحمد مختار عمر (٣/ ١٩٣٨).

(٢) صالون: حجرةُ استقبالٍ. انظر: معجم اللُّغةِ العربيَّةِ المعاصرة، لأحمد مختار عمر (٢/ ١٢٦٠).

وبعدَ الفراغِ من تناولِ ما قُدِّمَ لنا طلبَ إليَّ المديرُ أن أحضرَ احتفالًا أَعَدَّه لي الطَّلبةُ؛ ليستمعوا منِّي إلى كلمةِ نصحٍ، فذهبْنا إلى ساحةٍ بينَ المكتبةِ وقاعةِ المدرِّسِينَ، ورأيْنا الطَّلبةَ قَدِ اصطفُّوا كعادتِهم؛ الذُّكورُ من جهةٍ ويقربُ عددُهم من ستِّمئةٍ، والإناثُ من جهةٍ أخرى وعددُهنَّ مئتانِ تقريبًا.

وقد أعدُّوا للاحتفالِ جهازَ مكبِّرِ الصَّوتِ الَّذي يعملُ بالبطَّاريَّةِ، وليس بالكهرباءِ؛ لأنَّه لا كهرباءَ في المنطقةِ، والأهالي لا تزالُ تستعملُ نورَ الكازِ.

ألقى عَرِيفُ[1] الحفلِ كلمةَ الافتتاحِ، ثمَّ تَلَتْ القرآنَ إحدى البناتِ، قرأتْ آياتٍ من سورةِ طه، ختمتْها بقولِه تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

ثمَّ قامَ أحدُ الأساتذةِ، فرحَّب بنا، وذكر شيئًا من تاريخِ المعهدِ ونشاطِه، وختمَ كلمتَه بقولِه: وها إنَّ أبناءكَ الطَّلبةَ متشوِّقونَ لسماعِ كلمةٍ من ضيفِهم الكريمِ، فقُمْتُ وقلتُ كلمتي.



(١) العَرِيْفُ: هو القَيِّمُ بأمورِ القبيلةِ أو الجماعةِ من النَّاسِ، يَلِي أمورَهم. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٤/ ١٤٥).

كلمتي في معهدِ فابيلان

أبدأُ باسمِ اللهِ مُثْنِيًا بحمدِه تعالى حمدًا يليقُ بجلالِه وعظيمِ سلطانِه، وأشهدُ أن لا إله إلَّا اللهُ الَّذي أخبَرَنا أنَّ العاقبةَ للمُتَّقِينَ بقوله: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [هُود: ٤٩]، وأنَّه ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة: ١٩٣]، اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّمْ على عبدِكَ ورسولِكَ الَّذي بعثتَهُ رحمةً للعالَمِينَ، لِيُخرِجَهم من ظلماتٍ كانت تُحِيطُ بالبشريَّةِ إلى النُّورِ الوهَّاجِ، ومِن ظلماتِ الجهلِ إلى نورِ العلمِ، ومِن ظلماتِ الغَيِّ[1] إلى نورِ الرُّشدِ، ومِن ظلماتِ الظُّلمِ إلى نورِ العدالةِ، ومِن ظلماتِ الضَّلالِ إلى نورِ الهدايةِ، ومِن الظُّلماتِ كلِّها إلى نورِ الحقِّ الَّذي يهدي إلى الطَّريقِ القويمِ.

يا حضرةَ المديرِ، ويا حضراتِ المدرِّسِينَ، ويا أبنائي طلبةً وطالباتٍ! أشكرُكم لاستقبالِكم إيَّايَ هذا الاستقبالَ الحسنَ، وأسألُ اللهَ تعالى أن يجزيَكم عنِّي خيرًا لِمَا فعلتموه.

أبنائي وبناتي! إنَّ اللهَ خلقَ الإنسانَ كما خلقَ الحيوانَ؛ خلقَهُ من المادَّةِ نفسِها الَّتي خلقَ منها سائرَ الحيوانِ، خلقَ الإنسانَ من لحمٍ ودمٍ وعظامٍ، وكذلك الحيوانُ، والإنسانُ يتغذَّى كما يتغذَّى الحيوانُ،

(١) الغَيُّ: الضَّلالُ والانهماكُ في الباطلِ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٩/ ١٩٨).

ويتنفَّسُ كما يتنفَّسُ، لكنَّ اللهَ ﷻ فضَّلَ الإنسانَ على سائرِ خلقِه؛ بأنْ وهبَهُ عقلًا يُدْرِكُ به، وسخَّرَ له بهذا العقلِ ما في الأرضِ جميعًا، برِّها وبحرِها وهواها، سخَّرَها لِمَن عَلِمَ فَعَمَلَ بما عَلِمَ، ولِمَن غذَّى عقلَهُ بالمعارفِ، فسارَ يهديها إلى طريقٍ مستقيمٍ، أمَّا ذلك الإنسانُ الجاهلُ فقد وصفَهُ اللهُ في كتابِه العزيزِ أنَّه كالحيوانِ ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، نعم إنَّهم أضلُّ من الأنعامِ؛ لأنَّ للأنعامِ أو الحيوانِ هُدًى فُطِرَ عليه، أمَّا هؤلاءِ فلا.

وأنتم - يا أبنائي وبناتي - اخترتمْ طريقَ التَّعلُّمِ؛ لتكونوا غدًا إن شاءَ اللهُ علماءَ، فوصيَّتي لكم متى كنتم كذلك أن تؤدُّوا للأمانةِ حقَّها، أمانةِ التَّعليمِ وأمانةِ التَّبليغِ وأمانةِ النُّصحِ، تعلَّموا العلمَ للهِ؛ حتَّى يكونَ اللهُ معَكم، وتكونوا بالعلمِ رجالًا تعملونَ لخيرِ شعبِكم.

أمَّا الشَّهادةُ فإنَّها سلاحٌ تُدافِعُ به - يا ولدي - عن نفسِك، وهي ليستْ معرفةً ولا علمًا، ولكنَّها تشهدُ لك أنَّكَ جاوزتَ الدَّرجةَ، ونجحتَ في الامتحانِ فقط.

أمَّا الكفاءةُ الحقُّ فيشهدُ بها واقعُ حالِكَ، وتجرِبَتُكَ أمامَ العملِ، والشَّهادةُ لا ترفعُكَ عن درجةِ الأُمِّيَّةِ، أمَّا صحبةُ الكتابِ فترفعُكَ إلى مراتبِ العلماءِ، القراءةُ - يا بُنَيَّ - ومواصلةُ الدَّرسِ ترتقي بالقارئ والدَّارسِ في مجالسِ العلماءِ.

قال الإمامُ الشَّافعيُّ:

تَعَلَّمْ فَلَيْسَ الْمَرْءُ يُوْلَدُ عَالِمًا وَلَيْسَ أَخُوْ عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جَاهِلُ[1]

فيا أبنائي وبناتي! أنتمُ الآنَ في هذا المعهدِ محطُّ أنظارِ شعبِكم في كلِّ بلدٍ جئتم منه، والنَّاسُ كلُّهم ينظرونَ إليكم نظرةَ أملٍ للمستقبلِ، فكونوا عندَ حسنِ ظنِّكم بأنفسكم، وحسنِ ظنِّ شعوبِكم بكم.

كلمةٌ أخرى أُحِبُّ أن أُوَجِّهَها إلى البناتِ، فإنِّي أراهُنَّ ينظرْنَ إليَّ كأنَّهنَّ يَقُلْنَ: لماذا تختصُّ بكلمتِكَ البنينَ؟

يا ابنتي! تعلَّمي؛ لتكوني أُمًّا لأولادِك في المستقبلِ، والأمُّ لا تَعْرِفُ أن تُرَبِّي حتَّى تعلمَ كيفَ تُرَبِّي، والوظيفةُ للبنتِ شيءٌ ثانويٌّ، فلا تتعلَّمي - يا ابنتي - من أجلِ الوظيفةِ في دوائرِ الحكومةِ أو الشَّركاتِ، ولكن تعلَّمي للوظيفةِ الَّتي خلقَكِ اللهُ لها؛ تعلَّمي لتكوني زوجةً يسكنُ إليكِ زوجُكِ، وأُمًّا تعرفِينَ كيفَ تجعلِينَ مِن أولادِك رجالًا يفخرُ بهم الشَّعبُ ويرضاهم له قادةً يُؤتَمُّ بهم، ولا تَنْسَي أنَّ وراءَ كلِّ عظيمٍ امرأةً، وأنَّ اللهَ ﷻ خلقَ الرَّجُلَ والمرأةَ نصفَينِ يُكمِلُ بعضُه بعضَه الآخرَ، والرَّسولُ ﷺ قالَ: «**مِسكِينٌ مِسكِينٌ رجلٌ ليسَتْ لَهُ امْرَأَةٌ**»[2]، ولا شكَّ أنَّ المرأةَ الَّتي لا زوجَ لها كذلك، واللهُ ﷻ قالَ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الرُّوم: ٢١].

(١) انظر: أبياتٌ مختارةٌ، لعبدِ اللهِ بنِ محمَّدٍ البصيريِّ (١/ ٥٦).
(٢) رواهُ البيهقيُّ في شعب الإيمان، رقم: (٥٠٩٧).

فالمرأةُ العالِمةُ العارفةُ بما أوجبَهُ اللهُ عليها نحوَ زوجِها تستطيعُ أن تجعلَ من بيتِ الزَّوجيَّةِ جنَّةً، هي فيه رضوانٌ، وأولادُها حُورٌ عِينٌ، والرَّجُلُ فيه ساكنُ النَّفسِ هادئُ البالِ، يخرجُ في الصَّباحِ إلى عملِه راضيًا نشيطًا، فإذا أمسى المساءُ اشتاقَ إلى جنَّتِه وهو فَرِحٌ مسرورٌ، حتَّى إذا دخلَها وجدَ الحنانَ والرِّضا والبسمةَ والهدوءَ والكفَّ الرَّحيمةَ تمسحُ عن وجهِه عناءَ التَّعبِ، وتقدِّمُ إليه ما يحتاجُ من وسائلِ الرَّاحةِ.

بعدَ ذلك تكلَّمَ المديرُ كلمةً قصيرةً علَّقَ بها على كلمتي وانتهى الحفلُ.

وقُبَيلَ الثَّانيةِ خرجْنا مُودَّعِينَ من الطَّلبةِ والأساتذةِ، وخرجْنا - والحقُّ يُقالُ - بروحٍ خيرٍ من الرُّوحِ الَّتي دخلْنا بها، وقد تبرَّعتُ لهذا المعهدِ - وأنا مسرورٌ بما أدَّيتُ - بألفِ دولارٍ أميركيٍّ قَبِلَها المديرُ شاكرًا، وتلقَّاها الطَّلبةُ ببسمةٍ بلا تصفيقٍ، كانت عندي أحلى من أعظم قصيدةٍ يقولها أبلغُ شاعرٍ.

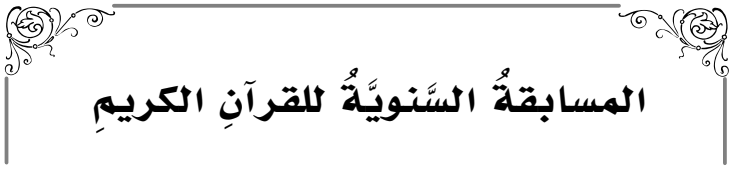




الجامعةُ الإسلاميَّةُ في جوكجاكرتا

بعدَ العصرِ السَّاعةَ الرَّابعةَ والنِّصفَ ذهبْنا لزيارةِ الجامعةِ الإسلاميَّةِ الحكوميَّةِ سونا كالي جورو، وهدفُنا أن نجتمعَ بمديرِها، ولَمَّا وصلْنا المبنى لم نجدِ المديرَ؛ لأنَّه في عملٍ رسميٍّ، فاستقبلَنا بالنِّيابةِ عنه نائبُه الأستاذُ شمسُ الدِّينِ عبد الله، وجلسْنا في بهوِ الجامعةِ معَ بعضِ الأساتذةِ، وأكثرُهم يتكلَّمُ العربيَّةَ، وقدَّمتُ لهم مجموعةً من الكتبِ، وقُبَيلَ المغربِ بقليلٍ سمعتُ تلاوةً للقرآنِ الكريمِ بصوتٍ جذَّابٍ وقراءةٍ مرتَّلَةٍ بلسانٍ فصيحٍ، وكأنَّها قريبةٌ منِّي.





المسابقةُ السَّنويَّةُ للقرآنِ الكريمِ

قلتُ: هل هذهِ قراءةٌ شفويَّةٌ أم مُسجَّلةٌ؟

أجابَني الأستاذُ شمسُ الدِّينِ: إنَّها مسجَّلةٌ.

قلتُ: أينَ؟ ومِن أينَ يأتيني الصَّوتُ؟

قالَ: من المسجدِ الَّذي فوقَنا.

إذن فوقَ المبنى الَّذي نحنُ فيه مسجدٌ تابعٌ للجامعةِ.

قالَ لي نائبُ المديرِ: إنَّ هذه التِّلاوةَ لمواطنٍ إندونيسيٍّ من جاوا، دخلَ مسابقةَ القرآنِ الكريمِ الَّتي عُقِدَتْ في إندونيسيا، وهي مسابقةٌ دوليَّةٌ إسلاميَّةٌ سنويَّةٌ تُعقَدُ في رمضانَ - كالَّتي تحدَّثْنا عنها في ماليزيا - اشتركَ فيها عددٌ كبيرٌ من الدُّولِ الإسلاميَّةِ العربيَّةِ وغيرِ العربيَّةِ.

وبعدَ أن انتهتِ القراءةُ الفصيحةُ والتَّرتيلُ الَّذي يتَّبعُ قواعدَ التَّجويدِ سمعْنا أذانَ المغربِ، فذهبْنا إلى المسجدِ الَّذي فوقَ بهوِ الجامعةِ والأقسامِ، وقدَّمَني نائبُ المديرِ إمامًا للصَّلاةِ، والجماعةُ من طلبةِ الجامعةِ المقيمِينَ بالقِسمِ الدَّاخليِّ.

وبعدَ الفراغِ من الصَّلاةِ طلبَ إليَّ نائبُ المديرِ أن أتكلَّمَ للطَّلبةِ الَّذينَ يُجيدونَ[١] اللُّغةَ العربيَّةَ.



(١) أجادَ: أتى بالجيِّدِ من القولِ أو الفعلِ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٧/ ٥٢٧).

من كلمتي في مسجدِ الجامعةِ

بعدَ حمدِ اللهِ والثَّناءِ عليه والصَّلاةِ على نبيِّهِ الَّذي ختمَ برسالتِه الرِّسالاتِ جميعَها وبعثَهُ اللهُ رحمةً للعالَمِينَ ﷺ وعلى آلِه قلتُ:

أبنائي طلبةَ هذه الجامعةِ! إنَّ اللهَ افترضَ عليكم طلبَ العلم بآياتٍ كثيرةٍ، منها قولُه: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾﴾ [الرّعد: ١٩-٢٠]؛ فالعِلمُ إذن عهدٌ، وطلبُه وبذلُه وفاءٌ للعهدِ، والمصطفى الَّذي أُنزِلَ عليه من ربِّه الحقُّ ﷺ قالَ: «**طَلَبُ العلمِ فريضةٌ على كُلِّ مُسلِمٍ**»[1]، فمَن طلبَ العلمَ اختارَ الهدايةَ، وللهدايةِ نورٌ يضيءُ لنا طريقَ الحياةِ في المستقبلِ ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [المُلك: ٢٢].

أبنائي الطَّلبةَ! فهمتُ أنَّ جامعتَكم الإسلاميَّةَ هذه تحوي كُلِّيَّاتٍ للشَّريعةِ والدَّعوةِ والتَّربيةِ الإسلاميَّةِ، فتعلَّموا كيفَ تدعونَ إلى اللهِ ﴿بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النّحل: ١٢٥]، وكيفَ تدعونَ إلى الخيرِ وتأمرونَ بالمعروفِ وتنهونَ عن المنكرِ، وكيف تجادلونَ غيرَ المسلمِينَ ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [فُصّلَت: ٣٤]، إنَّ هذا العلمَ الَّذي

(١) رواهُ ابنُ ماجه، رقم: (٢٢٤).

تتعلَّمونَ أمانةٌ، احفظوها بحقِّها وأدُّوها بحقِّها، علِّموا الجاهلَ بالرِّفقِ والكلمةِ الحسنةِ، ولا تبخلوا على السَّائلِ، مُرُوا بالمعروفِ، وإنَّ الأمرَ بالمعروفِ يجبُ أن يكونَ بالمعروفِ، والنَّبيُّ ﷺ الَّذي تتعلَّمونَ عِلْمَهُ هنا كانَ «**أَحسَنَ النَّاسِ خُلُقًا**»(١)، وألينِهم جانبًا، وأحناهم على النَّاسِ، وكان يقولُ لدعاتِه: «**يَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا، وبَشِّرُوا ولا تُنَفِّرُوا**»(٢)، وتأمَّلوا يا أبنائي في كلامِه ﷺ لدعاته هذه الكلمةَ الرَّقيقةَ: (بَشِّروا) الَّتي أخذَها منَّا المستعمرُ، ومنحَها لدعاةِ الضَّلالِ، فسمَّاهم مُبَشِّرِينَ، وكانَ الأَولى بنا أن نحتكرَ هذه الكلمةَ؛ لأنَّها دينٌ لنا.

هذه بعضُ كلمتي الَّتي خاطبتُ بها الطَّلبةَ، وبعدَ الفراغِ من صلاةِ السُّنَّةِ ودَّعَني الطَّلبةُ بالمصافحةِ والابتسامةِ الرَّقيقةِ الَّتي تملأُ الوجهَ وتُطلِقُ أساريرَه(٣).

وأخبرَني نائبُ المديرِ أنَّ هذا المسجدَ يمتلئُ بالنَّهارِ من الطَّلبةِ ومن غيرِهم، وهو مسجدٌ واسعٌ جدًّا، وله حَوْشٌ(٤) واسعٌ أيضًا يطلُّ على الشَّارعِ، ويُصعَدُ من الشَّارعِ إليه في نحوِ خمسٍ وعشرينَ درجةً، وبناؤه منحرفٌ عن القبلةِ، إلَّا أنَّ الأرضَ مخطَّطةٌ باتِّجاهِ القبلةِ، والحصرُ مفروشةٌ باتِّجاهها، ومِنبَرُ المسجدِ منصَّةٌ فقط، وقالَ لي أحدُ

(١) رواهُ البُخاريُّ، رقم: (٦٢٠٣)، ومسلمٌ، رقم: (٢٣١٠).
(٢) رواهُ البخاريُّ، رقم: (٦٩)، ومسلمٌ، رقم: (١٧٤٣)، واللَّفظُ للبخاريِّ.
(٣) الأساريرُ: هي الخطوطُ الَّتي في الجبهةِ من التَّكَسُّرِ فيها. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٢/ ٧).
(٤) الحَوشُ: شبهُ الحظيرةِ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٧/ ١٦٣).

المصلِّينَ: إنَّ المصلِّينَ يومَ العيدِ أكثرُ من ملءِ المسجدِ وساحتِه، وإنَّ الطَّريقَ ينقطعُ بالمصلِّينَ.

رَجَعْنا إلى بهوِ الجامعةِ، لنشربَ الشَّايَ والقهوةَ، ونأكلَ ممَّا قُدِّمَ لنا، ثمَّ تكلَّمَ الأستاذُ شمسُ الدِّينِ كلمةً شكرَني فيها نيابةً عن الطَّلبةِ، وعندَ انتهاءِ الزِّيارةِ كانَ في وداعي معَ الأساتذةِ مُعتذرًا عن المديرِ الَّذي لم يكن حاضرًا هذه الزِّيارةَ.



المدرسةُ الثَّانويَّةُ في المعهدِ الإسلاميِّ

بعدَ خروجِنا من الجامعةِ ذهبْنا في زيارةٍ إلى المدرسةِ الثَّانويَّةِ في المعهدِ الإسلاميِّ، ولَمَّا كانَ الوقتُ ليلًا لم نجدْ من الطَّلبةِ إلَّا المقيمِينَ بالقسمِ الدَّاخليِّ، وكان المديرُ قد خرجَ إلى صلاةِ العِشاءِ، وأرادَ نائبُ المديرِ أن يجمعَ طلبةَ القسمِ الدَّاخليِّ لمقابلتي، فقلتُ له: دَعْهم في مذاكرتِهم، فلا حاجةَ لي باجتماعِهم.

قالَ: إذن نجمعُهم في المسجدِ حتَّى تؤمَّهم لصلاةِ العشاءِ.

قلتُ: إنِّي مسافرٌ، وقد جمعتُ بين العشاءَينِ تقديمًا.

في حديثي معَ نائبِ المديرِ علمتُ أنَّ هذا المعهدَ أَسَّسَهُ سنةَ (١٩١١م) قبلَ الحربِ العالميَّةِ الأُولى المرحومُ الشَّيخُ محمَّد منوِّر الَّذي تُوفِّيَ سنةَ (١٩٣١م) بعدَ أن رأى ثمارَه يانعةً[١].

والمعهدُ والمدرسةُ يضُمَّانِ عددًا كبيرًا من الطَّلبةِ والطَّالباتِ، وله أرضٌ واسعةٌ في وسطِ مدينةِ جوكجاكرتا، ولَمَّا كانَ الوقتُ ليلًا فقدِ اعتذرتُ عن الطَّوافِ داخلَ فصولِ المعهدِ وأقسامِه.

وبعدَ أن شربنا الشَّايَ وأكلْنا ممَّا قُدِّمَ لنا خرجْنا مُوَدَّعِينَ، وقالَ

(١) اليانع: الثَّمرُ النَّاضِجُ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٢/ ٤٣٣).

لي المرافقُ: إنَّ الجمعيَّةَ المحمَّديَّةَ تدعوكَ للاجتماعِ بأعضائِها في مركزِها.

قلتُ: واللهِ لقد تعبتُ هذا اليومَ، وأرجو أن تُبَلِّغَ سماحةَ الرَّئيسِ اعتذاري.

فقالَ: ولا أن يزورَكَ في الفندقِ؟

قلتُ: إن كانَ لا بُدَّ من ذلك فلا مفرَّ لي.

وبعدَ الاتِّصالِ به وعدَ بالزِّيارةِ السَّاعةَ الثَّامنةَ والنِّصفَ مساءً، لكنَّه في الموعدِ نفسِه أرسلَ مَن يعتذرُ، وكانَ معَهُ بعضُ الكتبِ والرَّسائلِ الَّتي نشرتْها الجمعيَّةُ، مكتوبةٌ باللُّغةِ الإندونيسيَّةِ الَّتي هي اللُّغة المالويَّةُ.



جزيرةُ جاوا

إحدى جزرِ الأرخبيلِ الإندونيسيِّ الكثيرةِ البالغُ عددُها أكثرَ مِن (١٣٦٠٠) جزيرةٍ، منها (٩٣٠) جزيرةً مأهولةً، ومن بينِها (٧٦٢٠) جزيرةً تحملُ أسماءً، والباقي صخورٌ بارزةٌ على سطحِ الماءِ لا تحملُ أسماءً وليس فيها سُكَّانٌ، ومساحةُ جاوا وحدَها (١٣٢٠٠٠) كيلومترٍ مربَّعٍ، وهي أكثرُ أرضِ اللهِ ازدحامًا بالسُّكانِ؛ إذ يبلغُ عددُ سكَّانِها (٧٦) مليونَ نسمةٍ، وطولُها من الشَّرقِ إلى الغربِ (١٠٠) كيلو من المتراتِ تقريبًا، وعرضُها يختلفُ بينَ السَّعةِ والضِّيقِ، وهي أكثرُ جزرِ إندونيسيا عمرانًا.

صباح الإثنين (٢١/٦/١٩٧٦م):

كان في منهجِ اليومِ أن نَمُرَّ على سوقِ الفضِّيَّاتِ، ثمَّ نعرجُ منه إلى قصرِ السُّلطانِ الأثريِّ، وقد مررْنا أوَّلًا على السُّوقِ، ودخلْنا أحدَ معارضِ الفضَّةِ، واشترينا منه بعضَ الهدايا الرَّخيصةِ.

ثمَّ ذهبْنا لزيارةِ قصرِ السَّلطنةِ، ولم نرَ فيه ما يلفتُ النَّظرَ قطُّ، ثمَّ تجوَّلْنا في بعضِ الشَّوارعِ، وعُدنا إلى الفندقِ؛ لنستعدَّ للرِّحلةِ إلى جزيرةِ بالي.

جزيرةُ بالي

وهي من جزرِ الأرخبيلِ الإندونيسيِّ، وتقعُ شرقي جاوا تمامًا، مثلَّثةُ الشَّكلِ تقريبًا، قاعدةُ المثلَّثِ إلى الشَّمالِ، وقد شبَّهتُها بسراجِ الزَّيتِ الخزفيِّ في دورِ الآثارِ، ومساحتُها (٤٦٦٠) كيلومترًا تقريبًا، وسُكَّانُها أكثرُ من مليونَي نسمةٍ وربعِ مليونٍ، ونسبةُ المسلمِينَ فيها أقلُّ من (٥٪)، ونسبةُ المسيحيِّينَ (٢٪)، والباقي هندوكيُّونَ يعبدونَ الأوثانَ، وتُسمَّى عاصمتُها دنباسار، وهي جزيرةٌ سياحيَّةٌ، جوُّها لطيفٌ جدًّا، ودرجةُ الحرارةِ فيها ما بين (٢٥) إلى (٢١)، لذلك أحتاجُ إلى الغطاءِ ليلًا وأنا في الغرفةِ المغلقةِ نوافذُها، ولا أرتاحُ في الجلوسِ في الشُّرفةِ مساءً إلَّا بلباسي.

وصلْنا مطارَ الجزيرةِ قبلَ السَّاعةِ الواحدةِ، وكانَ في استقبالِنا مديرُ الشُّؤونِ الدِّينيَّةِ المسلمُ، ومساعدُه الهندوكيُّ، وآخرُ من موظَّفي الدَّائرةِ، وسيَّارةٌ من وزارةِ الدَّاخليَّةِ تحملُ شرطيَّينِ، ورحَّبوا بنا عندَ سُلَّمِ الطَّائرةِ، وصَحِبُونا إلى الفندقِ المُسَمَّى (هوتيل بالي بيتش)؛ أي: فندقُ شاطئِ بالي التَّابعُ لشركةِ (كونتينتال)، الشَّاغلُ مساحةً كبيرةً من الأرضِ، قدَّرْتُها بـ (٥٢٠٠٠ م٢).

وتشتملُ مبانيه على خمسِمئةِ غرفةٍ، منها المبنى الكبيرُ، وفيه نحو

(٢٤٠) غرفةً، وهناكَ ملاحقُ كثيرةٌ تحتوي باقي الغرفِ، وفيه سوقٌ تُباعُ فيه التُّحَفُ من صناعةِ الباليِّينَ سكَّانِ الجزيرةِ، تُمَثِّلُ عفاريتَ وأصنامًا وتعويذاتٍ.

وبينَ الملاحقِ والمبنى الكبيرِ ممرَّاتٌ للسَّيرِ فيها وقتَ المطرِ، وحولَ الفندقِ ملاعبُ للتِّنسِ وللأطفالِ، ومُسَقَّفاتٌ أرضيَّةٌ، ومخادعُ[١] للسَّابحِينَ، وبُحيرتانِ من الماءِ العذبِ للسِّباحةِ، وأرضٌ كبيرةٌ واسعةٌ مزروعةٌ بأنواعِ الأشجارِ المثمرةِ وغير المثمرةِ، يتخلَّلُها النَّارجيلُ[٢] ونخيلُ الزِّينةِ ونخيلٌ أخرى لم نعرفْ نوعَها ونخيلٌ لها ليفٌ ناعمٌ منسوجٌ بشكلٍ هندسيٍّ مثلَّثٍ بخطوطٍ تنسلُّ[٣] من بعضِها، كما ينسلُّ نسيجُ الثَّوبِ، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

يقعُ الفندقُ في قريةٍ تقعُ على السَّاحلِ الجنوبيِّ للجزيرةِ على رأسِ المثلَّثِ الضَّيِّقِ من جهةِ الشَّرقِ، وهذه المنطقةُ تُسمَّى سانور، ويقابِلُها من الجهةِ الغربيَّةِ المطارُ، والمسافةُ بينَ المطارِ والفندقِ أكثرُ من اثني عشرَ ميلًا، وتبعدُ سانور من العاصمةِ دنباسار نحوَ ستَّةِ كيلو من المتراتِ.

---

(١) المِخدَعُ: البيتث الصَّغيرُ يكونُ داخلَ البيتِ الكبيرِ. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٨/ ٦٥).

(٢) النَّارجيل: جوز الهند، واحدَتُهُ نارجيلة. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١١/ ٦٥٦).

(٣) انسلَّ: خرجَ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٩/ ٢٠٨).

بقينا النَّهارَ في الفندقِ؛ بسببِ الغيومِ والأمطارِ، لكنَّنا اغتنمْنا فرصةَ وقوفِ المطرِ، فنزَلْنا نمشي حولَ الفندقِ، وعلى بعد (٣٠٠) مترٍ تقريبًا رأيْنا مسجدًا صغيرًا فقيرًا جدًّا صلَّيتُ فيه المغربَ، وظهرَ لي أنَّ بعضَ شبابِ المسلمِينَ المستوطنِينَ هناك بَنَوهُ.

صباح الثُّلاثاء (٢٢/٦/١٩٧٦م):

غادْرنا الفندقَ السَّاعةَ الثَّامنةَ صباحًا؛ للتَّجوالِ في بعضِ مناطقِ الجزيرةِ القريبةِ من الفندقِ، ومررْنا بالعاصمةِ، وهي مدينةٌ صغيرةٌ بالنِّسبةِ إلى المدنِ الإندونيسيَّةِ.

وفي بالي وعلى طولِ الطَّريقِ أرى المعابدَ الهندوكيَّةَ يمينًا ويسارًا، فسألتُ الدَّليلَ: لماذا هذه الكثرةُ في المعابدِ؟

فقالَ: إنَّ في كلِّ دارٍ وأُسرةٍ وجماعةٍ معبدًا، وفي هذه الجزيرةِ وحدَها أكثرُ من أربعةِ آلافِ معبدٍ غيرِ المعابدِ الَّتي في البيوتِ.

ورأيتُ الأصنامَ على طولِ الطَّريقِ وعلى أبوابِ المنازلِ؛ بعضُها خارجُ مدخلِ المنزلِ، وبعضُها على جانبي المدخلِ من الدَّاخلِ، ومِنَ العجبِ أنَّ الشَّعبَ كلَّه لطيفٌ، فالغنيُّ والفقيرُ في النَّظافةِ سواءٌ، وأينما وجَّهتَ وجهَكَ لا ترى إلَّا نظيفًا، ولا تشمُّ أيَّ رائحةٍ كريهةٍ.

خرجْنا من مدينةِ دنباسار إلى غابةٍ تبعدُ منها نحوَ ثلاثِينَ كيلومترًا، تُسمَّى غابةَ القرودِ، وفيها - كما قالَ لنا الدَّليلُ - أكثرُ من (٤٠٠٠) قردٍ بحجمِ القططِ أو أكبرَ، أليفةُ النَّاسِ، لا تؤذي أحدًا، ورأينا

الصِّغارَ معَ أُمَّهاتِها تحملُها أو تمشي إلى جانبِها، تجولُ[١] معَ المتفرِّجينَ، وتسألُ وتأكلُ ممَّا يُعطيها النَّاسُ، والعجبُ فيها أنَّه إذا وقفَ قردٌ بجانبِك يمدُّ يدَهُ إليك يسألُكَ، ومتى فتحتَ له يدَك أدبرَ.



(١) جالَ: طافَ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٨/ ٢٤٧).

المعبدُ الكبيرُ

في طريقِنا ونحنُ عائدونَ من المدينةِ إلى الفندقِ مررْنا بمعبدٍ كبيرٍ للهندوكيِّينَ قيلَ: إنَّه معبدٌ قديمٌ، بُنِيَ سنة (١٦٠٠م) تقريبًا، دخلْناه وحمدْنا اللهَ على نعمةِ التَّوحيدِ، وحينَها تذكَّرتُ قولَ اللهِ تعالى حكايةً عن سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السلام: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصَّافات: ٩٥-٩٦].

ورأينا أصنامًا من الحجارةِ السَّوداءِ أو من الخشبِ الأسودِ بوجوهٍ قبيحةٍ وأسنانٍ بارزةٍ وأجسامٍ عاريةٍ لا تسمعُ ولا تُبصِرُ ولا تُغنِي عنكَ شيئًا، وُضِعَتْ بالعَراءِ بلا غطاءٍ ولا وقاءٍ، صُفَّتْ حولَ هذا الَّذي يسمُّونَه معبدًا.

وأرضُ المعبدِ واسعةٌ، ومساحتُها خمسةُ آلافِ مترٍ أو تزيدُ، والأصنامُ هنا وهناك على البابِ، وخارجَ المعبدِ وخلفَه وداخلَه، والمعبدُ منقسمٌ إلى ثلاثِ ساحاتٍ؛ ساحةٍ مواليةٍ للطَّريقِ، وساحةٍ وسطى، وساحةٍ مملوءةٍ بالأصنامِ، ولم نجدْ في المعبدِ ما يلفتُ النَّظرَ إلَّا أنَّنا حمدْنا اللهَ على نعمةِ العقلِ الَّذي دلَّنا به على توحيدِه، وأحبُّ هُنا أن أُوَضِّحَ أنَّني لم أقصدْ زيارةَ هذا المعبدِ، ولكنَّه كانَ في طريقِ عَودتي إلى الفندقِ فدخلْتُه.

بعدَ ساعتَينِ رَجَعْنا إلى الفندقِ، لنجلسَ في الشُّرفةِ الْمُطِلَّةِ على

البحرِ والخضرةِ الممتدَّةِ امتدادًا يقصرُ النَّظرُ عن إدراكِ نهايتِه، وكان الجوُّ هذا الصَّباحَ مُمْطِرًا وعلى الرَّغمِ من ذلك ترى السُّيَّاحَ يَسْبَحونَ في البحرِ المالحِ والبحيرةِ الحلوةِ، لم يمنعْهم من ذلك شيءٌ.

والسُّيَّاحُ يأتونَ هذا الفندقَ بالمئاتِ ويغادرونَه بالمئاتِ، مع أنَّ في عاصمةِ الجزيرةِ ثلاثةً وعشرينَ فندقًا، تسعةٌ منها من الدَّرجةِ الأولى، والباقي من الدَّرجتَينِ، ولعلَّ السَّببَ في تفضيلِ السُّيَّاحِ لهذا الفندقِ بالذَّاتِ طبيعيٌّ؛ ذلك أنَّ ساحلَهُ محاطٌ بنتوءٍ[١] طبيعيٍّ يُكَوِّنُ بركةً[٢] طبيعيَّةً للسِّباحةِ تمنعُ عن السَّابحِينَ هيجانَ الأمواجِ الَّتي متى وصلتْ إلى هذا السُّورِ تكسَّرتْ، والسَّابحُ في البحرِ وقتَ الْمَدِّ[٣] مرتاحٌ، فإذا جاءَ الْجَزْرُ[٤] تمتَّعَ بالشَّمسِ الطَّبيعيَّةِ على الرِّمالِ الرَّطبةِ.

والسُّيَّاحُ أغلبُهم يأتونَ من أمريكا وأستراليا واليابان وكوريا، وقِيلَ لي: إنَّ أوَّلَ سُيَّاحٍ عربٍ رأيناهم منذُ الاستقلالِ في هذه الجزيرةِ هم أنتم.

---

(١) النُّتوءُ: الشَّيءُ البارزُ. انظر: المعجم الوسيط، لمجمعِ اللُّغةِ العربيَّةِ بالقاهرةِ (٢/ ٨٩٩).

(٢) البِركَةُ: ما وَلِيَ الأرضَ من جِلدِ صدْرِ البعيرِ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٧/ ٦٠).

(٣) المَدُّ: ارتفاعُ ماءِ البحرِ على الشَّاطئِ. انظر: المعجم الوسيط، لمجمعِ اللُّغةِ العربيَّةِ بالقاهرةِ (٢/ ٨٥٨).

(٤) الجَزْرُ: انحسارُ ماءِ البحرِعن الشَّاطئِ بفعلِ الجاذبيَّةِ. انظر: المعجم الوسيط، لمجمعِ اللُّغةِ العربيَّةِ بالقاهرةِ (١/ ١٢٠).

الأربعاء (٢٣/٦/١٩٧٦م):

كانَ الدَّليلُ قد وعدَنا أمسِ أن يذهبَ بنا هذا اليومَ إلى شمالِ الجزيرةِ لرؤيةِ بركانٍ هناك قد يثورُ أحيانًا كما رأيْنا في الخريطةِ، ولزيارةِ بحيرةٍ قريبةٍ منه، والمسافةُ بينَهما وبينَ الفندقِ سبعونَ كيلومترًا، وقد كنتُ أرجو أن أرى بركانًا حيًّا، فسُرِرْتُ بهذا الموعدِ.

وانتظرْنا الدَّليلَ بفارغِ الصَّبرِ حتَّى جاءَ في الوقتِ المحدَّدِ، وسِرْنا في السَّيَّارتَينِ ننتقلُ من قريةٍ إلى قريةٍ، ومررْنا في طريقِنا بمحلَّينِ لصياغةِ الذَّهبِ والفضَّةِ، ورأينا معروضاتِهما، وكانتْ أسعارُ جوكجاكرتا أنسبَ، ثمَّ مررْنا بمصنعٍ لنجارةِ الخشبِ، ورأينا تُحَفًا كثيرةً وتماثيلَ يُصنَعُ بعضُها من فروعِ الشَّجرِ، منها هيكلُ طائرٍ يهجمُ على سمكةٍ، وهيكلُ وحشٍ يفترسُ غزالًا، وبنتٌ تراقِصُ شابًّا، وأشياءُ كثيرةٌ غيرُ ذلك.

وما زلْنا نسيرُ حتَّى وصلْنا مكانَ البركانِ الخامدِ[1] الَّذي يخرجُ منه بخارٌ ودُخَانٌ[2]، وكانَ بينَنا وبينَ البركانِ مسافةٌ تقلُّ عن الخمسِمئةِ مترٍ، وعندَهُ البائعاتُ والبائعونَ يعرضونَ معروضاتِهم المحمولةَ من أساورَ وخواتمَ وتماثيلَ مصنوعةٍ من العظامِ البيضاءِ، ظننتُها من العاجِ، فقيل لي: إنَّك واهمٌ، هي عظامُ بقرٍ.

(١) خَمَدَتِ النَّارُ: إذا طَفِئَ جمرُها البتَّةَ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٨/ ٦٦).
(٢) بعدَ أسبوعٍ تقريبًا قرأْنا في الصُّحُفِ، وسمعْنا في الإذاعاتِ أنَّ البركانَ هذا ثارَ، ودمَّرَ كثيرًا من القُرى المُجاوِرة.

وأسعارُ هذه التَّماثيلِ تتبعُ الصَّنعةَ؛ فقد ترى تمثالَينِ بحجمٍ واحدٍ يكونُ سعرُ أحدِهما ثلاثِينَ ضعفًا لسعرِ الثَّاني، ورأينا عظمَ الكتفِ وقد صُنِعَ مثلَ مروحةٍ يظنُّه الرَّائي أنَّه من العاجِ، ورأينا قلائدَ صُنِعَت من هذه العظامِ أو من عظام السَّمكِ أو من قشرِ جوزِ الهندِ بصورةٍ فنِّيَّةٍ، لكنَّ صورَ التَّماثيلِ كلَّها على شكلِ الأصنامِ الَّتي كأنَّها رؤوسٌ وأوجهُ الشَّياطِينِ، وهم يستعملونَها تعاويذَ أو حجبًا، واشترينا بعضًا من هذه العظامِ.

وعُدنا من طريقٍ أخرى غيرِ الَّتي جئنا منها، ومررْنا بِقُرًى، ورأينا الوجوهَ المغوليَّةَ السَّمراءَ والصَّفراءَ والعيونَ المنحرفةَ والخدودَ البارزةَ، خلقةٌ لا يستسيغُها ذوقُ العربيِّ، ولا تدخلُ في صفاتِ الجمالِ عندَه، بل هي القبحُ والدَّمامةُ[1]، لكنَّ الشَّيءَ الَّذي يلفتُ النَّظرَ هو النَّظافةُ، نراها في الطَّريقِ، والرَّجلِ والمرأةِ، والمكانِ والمعرِضِ والمصنعِ والشَّارعِ، فنظافةُ المظاهرِ جمَّلتْ فيهم كلَّ شيءٍ، أمَّا الباطنُ فَعِلْمُه عندَ اللهِ؛ لأنَّنا لم نُخَالِطْ أحدًا منهم ولم نُعامِلْهُم.

قالَ الدَّليلُ: إنَّنا قريبونَ من مطعمٍ، فهل لكم رغبةٌ في الأكلِ؟

قلنا: نعم.

ووقفْنا عندَ بابِ المطعمِ، واستقبلَنا البوَّابُ بالتَّحيَّاتِ والتَّرحيبِ، ورأينا المطعمَ البسيطَ الَّذي له حَوْشٌ واسعٌ تُظَلِّلُهُ مظلَّتانِ مسقوفتانِ

(١) الدَّمامةُ: القِصَرُ والقُبحُ. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٢/٢٠٨).

من خشبِ البامبو وبوص الرُّزِّ المطيَّنِ بشكلٍ هندسيٍّ لطيفٍ، تتَّسِعُ كلٌّ مظلَّةٍ لمائدةٍ بخمسِينَ كرسيًّا.

وأوَّلُ شيءٍ قُوبِلْنا به أن أعطانا أحدُ صبيةِ المطعمِ مناديلَ مُبلَّلةً بالعطرِ والماءِ الْمُسَخَّنِ؛ لنمسحَ بها وجوهَنا وأيدِيَنا، ثمَّ قادَنا صبيٌّ آخَرُ إلى مائدةٍ بستَّةِ كراسيَّ نظيفةٍ، يشتهي الإنسانُ أن يجلسَ عليها ولو لم يكنْ محتاجًا إلى الجلوسِ، ثمَّ جاءَ صبيٌّ ثالثٌ بأوانِيَ يرى الرَّائي فيها وجهَه من النَّظافةِ، وكانَ طعامًا نظيفًا، طيِّبَ الرَّائحةِ والطَّعمِ، فأكلْنا هنيئًا وشربْنا مريئًا، وطلبتْ حفيدتي الصَّغيرةُ دخولَ الحمَّامِ، فذهبتْ بها أمُّها إليه، وجاءت تُحَدِّثُنا عن نظافةِ الحمَّامِ، فقالت: لم أُصَدِّقْ أنَّ هذا حمَّامٌ في مطعمٍ من الدَّرجةِ الثَّالثةِ في قريةٍ صغيرةٍ.

ورَجَعْنا بعدَ ذلك إلى فندقِنا والسَّاعةُ لم تُجاوِزِ الثَّانيةَ بعدَ الظُّهرِ مسرورِينَ من هذه الرِّحلةِ الَّتي نرجو أن يُعيدَنا اللهُ إلى مثلِها.

الخميس (٢٤/٦/١٩٧٦م):

فضَّلتُ هذا اليومَ التَّجوالَ حولَ الفندقِ وعلى ساحلِه وفي ممرَّاته، ثمَّ كتبتُ رسائلَ للكويتِ والعراقِ، وبعدَ الظُّهرِ خرجَ الأولادُ لمشاهدةِ رقصةٍ دينيَّةٍ بوساطةِ الهندوكيِّينَ، ويسمُّونَها رقصةَ القرود، وهي وحشيَّةٌ كما وصفوها لي، تشبهُ حركاتُهم فيها حركاتِ القرودِ، يُخرِجونَ من حناجرِهم أصواتًا تُشبِهُ أصواتَها، ورَجَعُوا غيرَ مسرورِينَ والصَّغيرانِ يُقلِّدانِ أصواتَ الرَّاقصِينَ وحركاتِهم، ويحمدونَ اللهَ على نعمةِ دينِ الإسلامِ دينِ العقلِ وسلامةِ الشُّعورِ وصحَّةِ التَّفكيرِ.

الجمعة (٢٥/٦/١٩٧٦م):

كانَ صعبًا عليَّ تركُ الصَّلاةِ وإن كنتُ مسافرًا، ولي العذرُ في تركِها.

خرجَ الأولادُ في رحلةٍ قصيرةٍ إلى وسطِ الجزيرةِ؛ إلى مكانٍ يُسمَّى بادوجول، قالوا: إنَّه مرتفعٌ من الأرضِ، باردُ المناخِ، وبقربِه بحيرةٌ، ولن نَصِفَ لكَ جمالَ الطَّبيعةِ هنا حتَّى تراه بعينِك؛ لهذا لا بدَّ لك من زيارةِ المكانِ، فإنَّكَ إذا رأيتَهُ ستسبِّحُ اللهَ الخالقَ المبدعَ، فقلتُ: توكَّلْنا على اللهِ، وبه يُستعانُ.

صلَّيتُ الجمعةَ في المسجدِ القريبِ من الفندقِ الَّذي ذكرتُه يومَ الإثنين، ولم أخرجْ بعدَ العصرِ حتَّى حانَ المغربُ فصلَّيتُ بالمسجدِ، ثمَّ تجوَّلْنا في الملاعبِ القريبةِ من الفندقِ.

السَّبت (٢٦/٦/١٩٦٧م):

بعدَ طعامِ الإفطارِ السَّاعةَ الثَّامنةَ والنِّصفَ تمامًا جاءَ الدَّليلُ ومعَهُ السَّيَّارةُ، وركَبْنا مُتَّجهينَ شمالًا إلى المكانِ الَّذي زاره الأولادُ أمسِ، ويبعدُ من الفندقِ الَّذي نسكنُه نحوَ (٧٠)كم قطعناها في نحوِ (٧٠) دقيقةً.

واسمُ المنطقةِ بانكاساري، وفيها ثلاثُ بحيراتٍ حلوةٍ هي: براتان، وبيدو جال، وتبلنجان، والمنطقةُ جبليَّةٌ شديدةُ الخضرةِ باردةٌ، ترتفعُ عن سطحِ البحرِ نحوَ (١٥٠٠) مترٍ، وكنَّا مرتاحِينَ من جلوسِنا في الشَّمسِ.

وجدْنا هناك قصرًا فخمًا قالَ الدَّليلُ: إنَّه لأحدِ العظماءِ، ثمَّ أحالَهُ[١] ناديًا رياضيًّا مساحتُه معَ الأرضِ المحيطةِ به أكثرُ من مئةِ ألفِ مترٍ مربَّعٍ، ويقعُ بين جبلَينِ يحفَّانِ[٢] حولَه شرقًا وغربًا، والوادي منبسطٌ أخضرُ مُوزَّعٌ على ملاعبَ للجولف، يشتركُ فيها الرِّجالُ والنِّساءُ، وفيه ثلاثُ بحيراتٍ صغيرةٍ لا أدري هل هي طبيعيَّةٌ أم صناعيَّةٌ، مساحاتُها ما بينَ (٣٠٠) أو (٦٠٠) مترٍ مربَّعٍ، ويحتوي القصرُ على خمسِ صالاتٍ؛ إحداها للأكلِ، وأخرى للسَّمَرِ، والثَّالثةُ والرَّابعةُ للمشترِكينَ في اللَّعبِ يحفظونَ بهما حوائجَهم وملابسَ اللَّعبِ، وهي مُخَصَّصةٌ؛ واحدةٌ للرِّجالِ، والثَّانيةُ للنِّساءِ، أمَّا الصَّالةُ الخامسةُ فللاستراحةِ والتَّدخينِ.

وفيه أيضًا إحدى عشرةَ كابينةً[٣]، كلُّ كابينةٍ تحتوي على مكانَينِ منفصلَينِ لِمَن أرادَ الْمَبيتَ، وذلك كشقَّتَينِ، في كلِّ شقَّةٍ مكانٌ لنومِ شخصَينِ وجلوسِ خمسةٍ، وحمَّامٌ، ومُرفَقٌ يَصلُحُ لِمَطبخٍ لطيفٍ.

والحقيقةُ أنَّنا أَنِسْنَا برؤيةِ المكانِ، لكنَّ الشَّيءَ الَّذي ينقصُ هو الكهرباءُ غيرُ الدَّائمِ؛ فهو في تلكَ المنطقةِ للنَّادي فقط، أمَّا القُرى المحيطةُ به فما تزالُ تستعملُ الزَّيتَ للإضاءةِ والخشبَ للمطبخِ.

---

(١) أحالَ الشَّيء: تحوَّلَ من حالٍ إلى حالٍ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٨/ ٣٦٦).

(٢) حَفَّ: استدارَ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٣/ ١٥٣).

(٣) كابينةٌ: حجرةٌ في السَّفينةِ أو الطَّائرةِ أو نحوهما. انظر: معجم اللُّغةِ العربيَّةِ المعاصرةِ، لأحمد مختار عمر (٣/ ١٨٨٩).

كنَّا في رَوَاحِنا ومجيئِنا نتلقَّى من الأهالي البسماتِ وكلماتِ صباح الخير ومساء الخير، وفي رجوعِنا مررْنا بسوقِ إحدى القُرى، ورأينا فيه من الخضرةِ ما نعرفُ وما لا نعرفُ، وأنواعًا من الطُّيورِ أصواتُها تُحاكي[١] بعضَ أصواتِ الطُّيورِ عندَنا، ولكنَّها لا تُشبِهُها في الخِلْقَةِ، أمَّا الباذنجانُ فرأيناه ألوانًا وأشكالًا؛ منه الأحمرُ المكوَّرُ كالتُّفَّاحِ، والطَّويلُ الأصفرُ، والأبيضُ، والأخضرُ الَّذي لا يتغيَّرُ لونُه، ومنه ما هو بقدرِ المشمشةِ الكبيرةِ، ورأينا البصلَ أنواعًا شتَّى، منه الصَّغيرُ بقدرِ البندقةِ إلى مقدارِ ما تزنُ الواحدةُ منه ثلثَ الكيلو.

ثمَّ دخلْنا العاصمةَ، ومررْنا بأحدِ أسواقِها، وقالَ الدَّليلُ: إنَّه سوقٌ للتَّوابلِ فقط.

ورأينا فيه أصنافًا كثيرةً من التَّوابلِ لم نعرفْ منها إلَّا القليلَ، منها الطَّريُّ واليابسُ، والعجيبُ أنَّ أكثرَ الباعةِ من النِّساءِ؛ لأنَّ الرِّجالَ يعملونَ في الأراضي؛ يحرثونَ ويجنونَ ويرعونَ الحيوانَ، ومررْنا بسوقٍ تُباعُ فيه ملابسُ وهدايا، واشترينا منه هدايا بثمنٍ بَخْسٍ[٢].

الأحد (٢٧/٦/١٩٧٦م):

كان الدَّليلُ قد وعدَنا أمسِ أن نُكمِلَ تَجوالَنا في العاصمةِ؛ ليُرينا سوقًا يُسمَّى سوقَ الأحدِ، يُفتَحُ يومَ الأحدِ، ويحضرُ فيه الرِّجالُ والنِّساءُ؛ لأنَّ يومَ الأحدِ عطلةٌ.

---

(١) حاكيتُ فُلانًا: شابهتُه. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٧/ ٤٥٨).

(٢) ثمنٌ بخسٌ: أي ناقصٌ دونَ ثمنِه. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٦/ ٢٤).

وكانَ السُّوقُ ضيِّقًا، والمعروضاتُ فيه كثيرةً جدًّا، ومن كلِّ شيءٍ يخطرُ على البالِ؛ من منسوجٍ ومزروعٍ ومصنوعٍ ونباتٍ وحيوانٍ، حتَّى بيضُ الطُّيورِ والسَّلاحفِ، وسِرْنا في هذا السُّوقِ لنرى كثيرًا من كلِّ شيءٍ، والباعةُ على الجانبَينِ يبتسمونَ لنا، ويقولونَ كلمتَهم المعبِّرةَ عن التَّرحيبِ: سلامات سلامات، وتعني: أهلًا أهلًا.

غدًا إن شاءَ اللهُ نُغادِرُ جزيرةَ بالي إلى جزيرةِ جاوا إلى عاصمةِ الاتِّحادِ الإندونيسيِّ جاكرتا.

الإثنين (٢٨/٦/١٩٧٦م):

غادرْنا الفندقَ السَّاعةَ الخامسةَ صباحًا إلى مطارِ بالي، وكانَ في وداعِنا مديرُ إدارةِ الشُّؤونِ الدِّينيَّةِ في بالي، ومندوبٌ من وزارةِ الخارجيَّةِ، ومندوبٌ من وزارةِ الدَّاخليَّةِ، وسيَّارةٌ فيها شرطيَّانِ، وأقلعتِ الطَّائرةُ السَّاعةَ السَّادسةَ، وبعدَ ساعةٍ ونصفٍ حطَّتْ في مطارِ جاكرتا المُسمَّى مطارَ حليم، وفي جاكرتا مطارانِ أكبرُهما مطارُ حليم، والثَّاني مطارٌ صغيرٌ يُسمَّى (كمايران) يستقبلُ الطَّائراتِ الصَّغيرةَ الَّتي تنتقلُ بينَ المسافاتِ القصيرةِ.

ووجدْنا في المطارِ مرافقَنا من وزارةِ الشُّؤونِ الدِّينيَّةِ، ومندوبَينِ من إدارةِ التَّشريفاتِ في وزارةِ الخارجيَّةِ والدَّاخليَّةِ، وغيرَهما.

بعدَ استراحةٍ قصيرةٍ في الفندقِ أحبْنا أن نزورَ حديقةَ الحيواناتِ، فليس عندَنا في هذا اليومِ برنامَجٌ رسميٌّ، والحديقةُ في غابةٍ تبعدُ من مدينةِ جاكرتا نحوَ (٢٢)كم، وصلْناها السَّاعةَ العاشرةَ، وفيها من الحيواناتِ ما فيها، ولم نرَ في الأقفاصِ سوى الطُّيورِ والحيَّاتِ

والقِرَدَةِ، وأمَّا السِّباعُ فلِكُلِّ نوعٍ منها أرضٌ يحيطُ بها جدولٌ من الماءِ عميقٌ، ولا أدري كيفَ يصلُ إليها الطَّعامُ، وكلُّ صنفٍ مرتاحٌ في مكانِه، يرى النَّاسَ ويرونَهُ، ولا تصلُ إليه أيديهم ولا أذاهم ولا يصلُ إليهم أذاه، ورأينا فيها كثيرًا من أصنافِ الحيَّاتِ والتَّماسيحِ، وعضايةَ الكومودورِ الَّتي يقولونَ عنها إنَّها من حيواناتِ ما قبلَ التَّاريخِ؛ أي مِن بقايا الدَّناصيرِ، وهي من الزَّواحفِ بطولِ مترَينِ تقريبًا، بطيئةُ الحركةِ جدًّا، ولسانُها أبيضُ كبياضِ القِرطاسِ[1]، تتلمَّسُ به كالحيَّةِ تمامًا.

ورأينا القردَ ذكرَهُ وأُنثاهُ، ويسمُّونَه إنسانَ الغابةِ أوران أوتان، ولم يكنْ موضوعًا في القفصِ، وإنَّما في جزيرةٍ محاطةٍ بالماءِ العميقِ كالسِّباعِ، وهو بطيءُ الحركةِ، طويلُ الشَّعرِ، وشعرُ الذَّكرِ أطولُ منه عندَ الأنثى، فقد يصلُ طولُه ما بينَ (٣٥) إلى (٤٠) سم، وهذا الحيوانُ لا يُشبِهُ الَّذي رأيناه في حديقةِ الحيوانِ بالقاهرةِ وقالوا عنه إنَّه إنسانُ الغابةِ؛ لأنَّ ذلك كانَ سريعَ الحركةِ، وقد رأيتُ مثلَه في هذه الحديقةِ.

ورأيْنا حيوانًا بمنقارِ طيرٍ ورأسِه ورجلَيهِ، وحجمُه كالنَّعامةِ الكبيرةِ، وليس له ريشٌ، إنَّما يكسوهُ شعرٌ كشعرِ العنزِ تمامًا، لم أعرفْ اسمَهُ، وصنفًا من القردةِ ليس في وجهِه شعرٌ، وله أنفٌ طويلٌ يُغَطِّي فمَهُ، فإذا أكلَ رفعَهُ بيدِه.

---

(١) القِرطاسُ: الجاريةُ البيضاءُ المديدةُ القامةِ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٦/ ٣٦٥).

وقد تعبْنا ولم نقطعْ من الحديقةِ نصفَها، وكانَ الجوُّ حارًّا والهواءُ ساكنًا، وقد بلغتِ السَّاعةُ الثَّانيةَ بعدَ الظُّهرِ؛ فرَجَعْنا إلى الفندقِ.

(في المساء)

خرجْنا في جولةٍ على الأقدامِ للسَّيرِ حولَ الفندقِ، وقالوا إنَّ هناك بحيرةً فيها سمكتا درفيلٍ[١] ترقصانِ، فقلت: فلنرَهما، فقالوا: إنَّ الوقتَ المحدَّدَ قد انتهى فَرَجَعْنا إلى حيثُ كنَّا إلى الفندقِ؛ لنرتاحَ، فغدًا عندي برنامجٌ حافلٌ بزياراتٍ رسميَّةٍ.

الثُّلاثاء (٢٩/ ٦/ ١٩٧٦م):

أصبحْنا بحمدِ اللهِ بخيرٍ، وفي السَّاعةِ الثَّامنةِ والنِّصفِ حضرَ الموكبُ والمرافقُ، وسرْنا إلى مقرِّ الجامعةِ الإسلاميَّةِ خارجَ جاكرتا، وتبعدُ عن الفندقِ (٣٥)كم تقريبًا، وكانَ مديرُ الجامعةِ الدُّكتورُ هارون ناسوتيون في استقبالِنا معَ الأساتذةِ والأستاذاتِ، ودخلْنا إلى محلٍّ أُعِدَّ للاحتفاءِ، ولم يكن هناك أحدٌ من الطَّلبةِ إلَّا أفرادٌ قليلونَ.

رحَّبَ المديرُ بنا، ثمَّ أمرَ أحدَ الأساتذةِ أن يتكلَّمَ على تاريخِ الجامعةِ، وقالَ: إنَّ فكرةَ الجامعةِ كانت سنةَ (١٩٥٠م)، ولكنَّها لم تُنَفَّذْ إلَّا سنةَ (١٩٥٧م)، وتحتوي على أربعِ كُلِّيَّاتٍ هي:

١) كُلِّيَّةُ أصولِ الدِّينِ والدَّعوةِ، وفيهما تُدَرَّسُ اللُّغةُ العربيَّةُ

(١) درفيل: أي دولفين، حيوان بحريٌّ لبون من رتبة الحوتيَّات. انظر: معجم اللُّغة العربيَّة المعاصرة، لأحمد مختار عمر (١/ ٧١٧).

بوصفِها مادَّةً أساسيَّةً، ومنها يتخرَّجُ الدُّعاةُ والمدرِّسونَ.

٢) كُلِّيَّةُ الشَّريعةِ، ومنها يتخرَّجُ القضاةُ والحُكَّامُ.

٣) كُلِّيَّةُ الآدابِ.

٤) كُلِّيَّةُ التَّربيةِ واللُّغةِ، واللُّغةُ العربيَّةُ فيها أساسيَّةٌ أيضًا.

مدَّةُ الدِّراسةِ في الكُلِّيَّاتِ جميعِها خمسُ سنواتٍ، والْمُجِدُّ من الطَّلبةِ ينالُ هديَّةَ تشريفٍ، وعددُ الطَّلبةِ والطَّالباتِ ألفانِ وثلاثُمئةٍ، وقد شكرتُ للأستاذِ هارونَ حفاوتَهُ، وللأستاذِ الخطيبِ ترحيبَهُ وإيضاحَهُ، وقلتُ كلمتي.



(كلمةٌ في جامعةِ جاكرتا)

باسمِ اللهِ والحمدُ للهِ على المصطفى المبعوثِ لهدايةِ بني الإنسانِ، وأشكرُ الأستاذَ المديرَ والأستاذَ الخطيبَ، وأشكرُ لكم جميعًا استقبالَكم إيَّايَ بهذه الوجوهِ الباسمةِ، فإنَّ بشاشةَ وجهِ المؤمنِ في وجهِ أخيهِ المؤمنِ أبلغُ أثرًا من كلِّ كرمٍ.

وأنتم - والحمدُ للهِ - قد جمعتمْ بينَ البشاشةِ والكرمِ، وإنِّي مسرورٌ جدًّا بزيارةِ هذه الجامعةِ الدِّينيَّةِ الإسلاميَّةِ الَّتي أرجو أن يُخرِجَ اللهُ مِن طلبتِها مَن يحملُ مشعلَ الإسلامِ؛ ليبشِّرَ به وينذرَ، ويُخرِجَ ورثةً لأنبيائِه؛ يأمرونَ بالمعروفِ، وينهَونَ عن المنكرِ، ويهدونَ إلى صراطِ اللهِ المستقيمِ، وهذا ما آملُهُ وأرجو تحقيقَه لا لهذه الجامعةِ فقط، وإنَّما لها ولغيرِها من الجامعاتِ والمعاهدِ الإسلاميَّةِ الَّتي زرتُها في إندونيسيا وماليزيا، والَّتي لم أزرْها، فإنَّها شيءٌ ينشرحُ له صدرُ المسلمِ، وإنَّني واللهِ أَغْبِطُكم[1] عليها.

اللَّهُمَّ وفِّقْهم لِشُكرِكَ، وأعِنْهُم عليه، وحقِّقْ فيهم وعدَكَ الَّذي وعدتَ به عبادَكَ الشَّاكرِينَ ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

(١) غَبَطْتَ الرَّجلَ: إذا اشتهيتَ أن يكون لك مثلُ ما له، وأن لا يزولَ عنه ما هو فيه. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٩/ ٥٠٢).

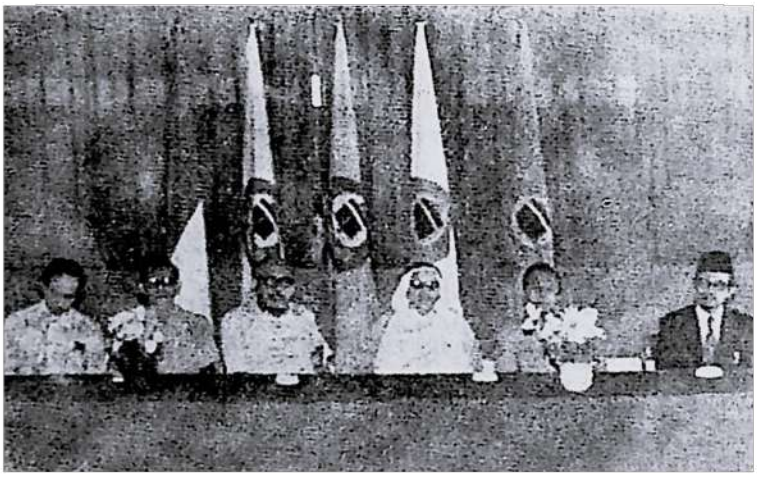
إخوتي الأساتذة والأستاذات:

علمتُ من حديثِكم أنَّ طلبةَ الجامعةِ من الشَّبابِ والشَّوابِّ، وإنِّي أهيبُ[١] بالأساتذةِ والأستاذاتِ أن يُفهِموا الطَّالباتِ أنَّ الوظيفةَ العُظمى الَّتي أرادَها اللهُ للأنثى من بني الإنسانِ هي وظيفةُ الزَّوجيَّةِ والأمومةِ، فإنَّ اللهَ أرادَ للأُنثى الآدميَّةِ أن تكونَ زوجةً وراعيةً للإنسان، وأنا لا أمنعُ الأُنثى من العملِ، ولكنْ لتعمل مربِّيةً أو ممرِّضةً؛ فإنَّ وظيفتَها التَّربيةُ لأنَّها رقيقةٌ ولطيفةٌ، وإذا عملتْ ممرِّضةً فهي رقيقةٌ ولطيفةٌ، ولعلَّ المريضَ يجدُ في قربِها منه راحةً، ولكنَّها متى تزوَّجتْ فقد حصلتْ على وظيفتِها، وهذا ما أردتُ أن أقولَه لبناتِنا المسلماتِ، ولَمَّا لم يُسعِدْني الحظُّ بلقائهنَّ فإنِّي أرجو أن تَصِلَهم من قولي هذا النَّصيحةُ، واللهُ الموفِّقُ ومنه أسألُ العونَ.

(١) أهابَ بالرَّجلِ: إذا دعاهُ لأمرٍ. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١/ ٧٨٩).



يُلقي كلمتَه في مقرِّ هيئةِ كبارِ العلماءِ وعن يسارِه رئيسُ الهيئةِ.



في الجامعةِ الإندونيسيَّةِ بينَ مديرِ الجامعةِ وأحدِ العلماءِ.

بعدَ ذلك كانت الجلسةُ أحاديثَ وأسئلةً، وَوُجِّهَ إليَّ سؤالٌ عن فيلمٍ محمَّدٍ رسولِ اللهِ ﷺ، فقلتُ: إنَّه عُرِضَ في الكويتِ عرضًا خاصًّا، وكنت ممَّن حَضَرَ يومَ العرضِ.

والفيلمُ مجموعةُ آراءٍ شيوعيَّةٍ يهوديَّةٍ دُسَّتْ فيه؛ لأنَّه مجرَّدٌ من ذكرِ أعزِّ أصحابِ الرَّسولِ رضي الله عنهم أبي بكرٍ وعُمَرَ وعثمانَ، ومدسوسٌ فيه دسيسةً شيوعيَّةً أنَّ بدايةَ الرِّسالةِ ثورةُ فقراءٍ ضدَّ أغنياءَ، ومجرَّدٌ من ذكرِ الإسراءِ والمعراجِ موافقةً لليهودِ.

وفيه أشياءُ بعيدةٌ كلَّ البعدِ عن حقيقةِ الإسلامِ وحقيقةِ الرِّسالةِ الَّتي بُعِثَ بها نبيُّ الإسلامِ، من ذلك مقابلةُ جعفرِ بْنِ أبي طالبٍ للنَّجاشيِّ، وسؤالُ النَّجاشيِّ له عن المسيحِ بْنِ مريمَ، وما قالَهُ الإسلامُ فيه، فأجابَ مَن قامَ بدورِ جعفرٍ بقراءةِ الآياتِ الَّتي تبدأُ بقوله تعالى مِن سورةِ مريمَ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾ [مَريَم: ١٦] إلى قولِه: ﴿وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ [مَريَم: ٢١]، ولم يواصلِ القراءةَ كما حقَّقَهُ كُتَّابُ السِّيرةِ الَّذين قالوا: إنَّ جعفرًا رضي الله عنه ختمَ القراءةَ بالآيةِ: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣﴾ [مَريَم: ٣٣]، وحذفوا أيضًا أنَّ النَّجاشيَّ قالَ - وقد أخذَ عودًا من الأرضِ -: «واللهِ ما عدا عيسى بنِ مريمَ ما قُلْتَ هذا العود»[(١)].

ولكنَّ الفيلمَ لم يشأْ أن يُغضِبَ النَّصارى والْمُبَشِّرِينَ، وكانَ الحمزةُ بْنُ عبدِ المطَّلِبِ رضي الله عنه في الفيلمِ كلَّ شيءٍ؛ فهو الآمرُ

(١) انظر: دلائل النُّبوَّة، للبيهقيِّ (٢/ ٣٠٣).

والنَّاهي، وليس لغيرِه أمرٌ أو نهيٌ، فالفيلمُ كلُّه زورٌ وبهتانٌ[١]، وقد قيلَ لنا: إنَّ النُّسخةَ الَّتي صُوِّرَتْ باللُّغةِ الإنجليزيَّةِ لا تخلو من غراميَّاتٍ تُسِيءُ إلى شخصيَّةِ المصطفى ﷺ.

لهذا حاربَ المصلحونَ الفيلمَ، ونسألُ اللهَ أن يوفِّقَ الحكومةَ لسماعِ كلمةِ الحقِّ وإصدارِها الأمرَ بمنعِه.

في السَّاعة التَّاسعةِ وخمسٍ وأربعينَ دقيقةً خرجْنا من الجامعةِ مودَّعِينَ بمثلِ ما استُقبِلْنا به، لنذهبَ إلى المسجدِ الأزهرِ للاجتماعِ بهيئةِ العلماءِ هناك.

وفي العاشرةِ والنِّصفِ كُنَّا في قاعةِ مجلسِ العلماءِ، واستقبلَنا رئيسُ الهيئةِ البروفيسور الحاجُّ عبدُ الملكِ بن عبد الكريمِ أمر الله.

وبعدَ استراحةٍ قصيرةٍ وترحيبٍ كالعادةِ تكلَّمَ سكرتيرُ[٢] الهيئةِ لِيُعَرِّفَني أصحابَ الفضيلةِ الحاضرِينَ، وكانَ فيهم الشَّيخُ عبدُ اللهِ الشَّافعيُّ، وكانت جلسةً علميَّةً تبادلْنا فيها الحديثَ بشتَّى الموضوعاتِ، أذكرُ بعضَها فيما يأتي:

١) سألَني أحدُهم: ما شعورُكَ بهذه الزِّيارةِ؟ وهل كانتْ هي الأُولى؟

قلتُ: كنتُ أرجو أن يُسعِدَني الحظُّ بهذه الزِّيارةِ مِن قبلُ؛ لِأنِّي كنتُ ألتقي بكثيرِينَ من أبناءِ الشَّرقِ الأقصى في المدينتَينِ المقدَّستَينِ

(١) وقد حدَّثَني مَن رأى الفيلمَ معروضًا في إنكلترا في لندن أنَّه نسخةٌ مطابقةٌ للأصلِ العربيِّ الَّذي عُرِضَ في الكويتِ.

(٢) سِكْرِتير: موظَّفٌ كبيرٌ يرأسُ الموظَّفينَ جميعَهم في مؤسَّسةٍ ما. انظر: معجم اللُّغةِ العربيَّة المعاصرة، لأحمد مختار عمر (٢/ ١٠٨٥).

مكَّةَ والمدينةِ، أَمَا وقد مَنَّ اللهُ عليَّ بذلك، فإنَّ شعوري بلقائِكم هنا وفي ماليزيا كشعورِ الأخِ عندَما يلقى أخاه بعدَ طولِ غيابٍ، وهذه هي الزِّيارة الأُولى، وأرجو اللهَ ألَّا يجعلَها الأخيرةَ.

٢) وقالَ أحدُهم: هل عندَكم جمعيَّاتُ تبشيرٍ بالدِّينِ المسيحيِّ كما هي عندَنا؟

أجبتُ: التَّبشيرُ بالدِّينِ المسيحيِّ في كلِّ مكانٍ، وهو عندَنا في الكويتِ منذُ سنةِ (١٩٠٨م)، وبنى مركزَهُ سنةَ (١٩١١م)، ولكنْ والحمدُ للهِ لم يستجبْ له أحدٌ، والمسلمُ لا يكونُ مسيحيًّا أبدًا، ولا يرضى أن يغيِّرَ دينَه.

وأقولُ لكم: المبشِّرونَ المسيحيُّونَ يَئِسوا من أن يجعلوا حتَّى من جهلاءِ المسلمِينَ مسيحيِّينَ، لكنَّهم رَضُوا أن يُشَكِّكُوا المسلمِينَ في دينِهم، وقبِلُوا بهذه النَّتيجةِ.

٣) وقالَ آخَرُ: التَّبشيرُ يلقى المساعداتِ الكثيرةَ من الدُّولِ المسيحيَّةِ، فلماذا لا يهتمُّ المسؤولونَ في البلادِ العربيَّةِ بتقديمِ المساعداتِ المادِّيَّةِ والعلميَّةِ لمقاومةِ المبشِّرِينَ؟

أجبتُ: هذه مسألةٌ سياسيَّةٌ، وأنا لا خبرةَ لي بالسِّياسةِ، إنَّما الَّذي أعرفُ أنَّ المسلمَ لا يتركُ دِينَهُ، والمبشِّرونَ لم ينجحوا بتنصيرِ مُسلِمٍ، والمقاومةُ الوحيدةُ للتَّبشيرِ هي أن يَتَدَرَّعَ المسلمُ بالتَّوحيدِ منذُ صِغَرِه، فمتى شبَّ عارفًا ربَّهُ حقَّ المعرفةِ فلن يَضُرَّهُ شيءٌ، والسِّياسةُ في البلادِ العربيَّةِ كلِّها - كما هي عندَكم - حُرِّيَّةُ الأديانِ وحُرِّيَّةُ الاعتقادِ، والدُّروسُ الدِّينيَّةُ في مدارسِنا لا تكفي لتكونَ درعًا واقيًا من شرِّ الفتنةِ

في الدِّينِ، والخِرِّيجونَ قد تلقَّوا علومَهم منذُ المرحلةِ الابتدائيَّةِ ممَّن جنَّدَهمُ الاستعمارُ أو التَّبشيرُ أو الاستشراقُ؛ للإضلالِ والكفرِ.

وأقولُ: لم يتنصَّر عندَنا أحدٌ، ولكنَّ المنحلِّينَ والإلحاديِّينَ كثيرونَ، وأكثرُ منهم اللَّادينيُّونَ.

٤) وسألَ سائلٌ: هلِ المساجدُ في الكويتِ شعبيَّةٌ أم حكوميَّةٌ؟

أجبتُ: أُسِّسَتِ الأوقافُ بوصفِها دائرةً حكوميَّةً سنةَ (١٩٤٨م)، والمساجدُ قبلَها تُبنَى وتُرَمَّمُ مِنَ الْمُحسِنِينَ مِنَ الشَّعبِ، وبعدَ تأسيسِ دائرةِ الأوقافِ لحظْنا ترميمَ المساجدِ وتجديدَ بناءِ بعضِها، ولم تمنعِ الأوقافُ أحدًا من إنشاءِ مسجدٍ أو ترميمِه أو تجديدِه، حتَّى كانتْ سنة (١٩٥٥م) الَّتي بدأَ فيها نظامُ المناطقِ وإنشاء الأحياءِ.

وبدأتِ الكويتُ تتَّسِعُ رقعتُها، واضطرَّتِ الحكومةُ أن تَبْنِيَ مساجدَ جديدةً في المناطقِ والأحياءِ الجديدةِ، ومنعتِ النَّاسَ من بنائِها؛ لأنَّها ملكُ الدَّولةِ، ولكنْ سنةَ (١٩٦١م) - وفيها أُسِّسَ مجلسُ الأُمَّةِ - اعترضَ بعضُ الأعضاءِ على احتكارِ الحكومةِ بناءَ المساجدِ، فسمحتْ بالبناءِ لِمَنْ أرادَ أن يَبْنِيَ على أن تكونَ الأرضُ من الدَّولةِ مُحَدَّدَةً لمسجدٍ، ويُسَلَّمَ المسجدُ بعدَ بنائِه للدَّولةِ.

في السَّاعةِ الحادية عشرة والنِّصف غادرْنا قاعةَ مجلسِ العلماءِ بعدَ أن أُخِذَتْ لنا صورةٌ تَذكاريَّةٌ، وتوجَّهْنا قاصدِينَ المركزَ الإسلاميَّ بجاكرتا.



المركزُ الإسلاميُّ

أسَّسَهُ المرحومُ الشَّيخُ الحبيبُ عليُّ بنُ عبدِ الرَّحمنِ الحبشيُّ العلويُّ سنةَ (١٢٧٠هـ)[١]، وكانَ عمرُه (١٨) سنةَ، وعاشَ داعيًا إلى اللهِ أكثرَ من (٨٥) سنةً حتَّى توفَّاهُ اللهُ وقد بلغَ (١٠٢) سنةً.

وخَلَفَهُ في رعايةِ المركزِ ابنُه السَّيِّدُ محمَّدُ بْنُ عليٍّ الحبشيُّ المولودُ سنةَ (١٩١٤م)، وكان عونَ أبيهِ في الدَّعوةِ أيَّامَ شيخوختِه حتَّى انتقلَ إلى رحمةِ اللهِ، وهو في الوقتِ نفسِه العُضْوُ الاستشاريُّ للمجلسِ الأعلى الإندونيسيِّ.

لم أجدْ رئيسَ المركزِ؛ لأنَّه كانَ في جولةٍ خارجَ إندونيسيا، ولكنَّنا وجدْنا الأعوانَ والأولادَ، وقد علمتُ:

١) أنَّ المركزَ أُسِّسَ بناؤه في أيَّام الوالدِ المؤسِّسِ المرحومِ الشَّيخِ عليٍّ، ولكنَّه اتَّسع في أيَّامِ خليفتِه الشَّيخِ محمَّدٍ، وجُدِّدَ بناؤه سنةَ (١٩٧١م) بمساعدةٍ من الرَّئيسِ الحاليِّ الجنرال سوهارتو.

٢) أنَّ المركزَ يُقَدِّمُ معوناتٍ وخدماتٍ ومساعداتٍ للمستحقِّينَ كلَّ عامٍ أو كلَّ شهرٍ، ولا فرقَ بينَ ذكرٍ وأنثى.

٣) أنَّ للمركزِ فروعًا كثيرةً في بعضِ بلادِ إندونيسيا، أسَّسَها السَّيِّدُ محمَّدٌ.

---

(١) أي: سنة (١٨٥٤م).

٤) أنَّ للمركزِ إذاعةً تلفزيونيَّةً مرئيَّةً تدفعُ إلى نحو ستِّمئةِ مترٍ، وإذاعةً صوتيَّةً مسموعةً تدفعُ إلى أكثرَ مِن سبعينَ كيلومترًا، يُذاعُ منهما أسبوعيًّا ضُحى كلِّ يومِ أحدٍ حديثٌ دينيٌّ، ويحضرُ هذا الحديثَ في المركزِ مستمعونَ من الرِّجالِ والنِّساءِ يصلُ عددُهم إلى أكثرَ مِن ستِّينَ ألفَ مستمعٍ في قاعاتٍ شَتَّى، وكلُّهم يشاهدُ المتحدِّثَ شخصيًّا أو مِن شاشةِ التِّلِفزيون.

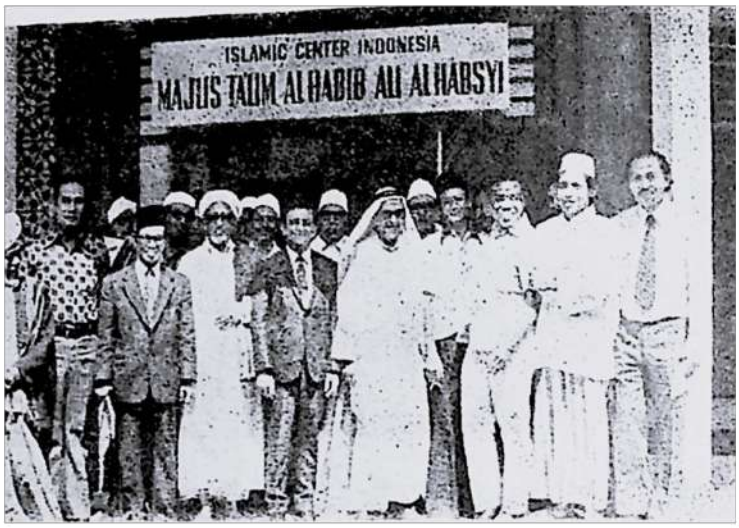
أنَّ الرِّجالَ المتفقِّهِينَ في المركزِ يقرؤونَ «صحيحَ البخاريِّ» براويتِه وأسانيدِه مرَّةً كلَّ ستَّةِ أشهرٍ.

تجوَّلْنا في القاعاتِ الكبرى الَّتي يجتمعُ فيها مستمعو الحديثِ ضحوةَ كلِّ يومِ أحدٍ، وسألتُ المرشدَ: لماذا اختِيرَ يومُ الأحدِ للحديثِ؟

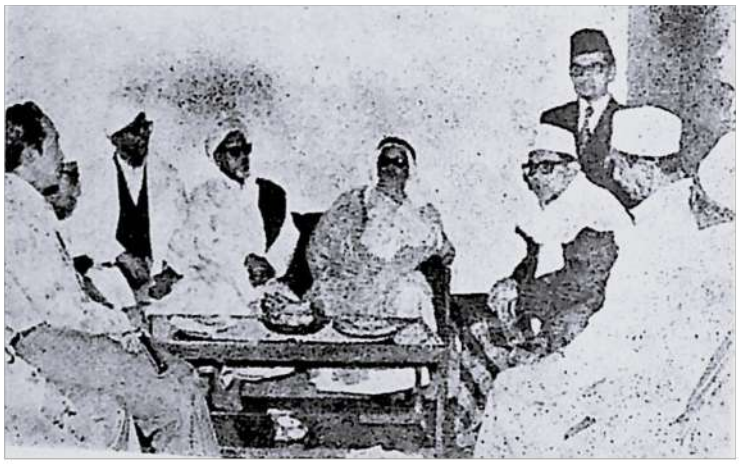
فأجابَني المسؤولُ: لأنَّ يومَ الأحدِ يومُ العطلةِ الأسبوعيَّةِ، ولا عملَ يُشغِلُ عن الاستماعِ أو الحضورِ كلَّ راغبٍ في المنفعةِ.

وخرجْنا نحوَ السَّاعةِ الثَّانيةِ وقد ودَّعْنا بعضَ الأعضاءِ، وأوصيناهم بإبلاغِ سماحةِ الرَّئيسِ - ويسمُّونَه في اصطلاحِهم الحبيبَ - السَّلامَ[1]، وبعدَ العصرِ لم نخرجْ إلَّا في جولةٍ حولَ الفندقِ.

(١) وقد وصلَني من سماحتِه كتابٌ يشكرُ لي فيه الزِّيارةَ ويرجو أن تتكرَّرَ آسِفًا لعدمِ وجودِه.



في المركزِ الإسلاميِّ في جاكرتا، ويحيطُ بي بعضُ المشايخِ والطَّلبة.



بينَ أقطابِ المركزِ الإسلاميِّ في جاكرتا

الأربعاء (١٩٧٦/٦/٣٠م):

في برنامَجِ اليومِ زيارتانِ؛ الأولى: زيارةُ البرلمان، والثَّانية: زيارةُ المؤسَّسةِ الطَّاهريَّةِ.

خرجْنا السَّاعةَ التَّاسعةَ لزيارةِ رئيسِ البرلمانِ سعادةِ السَّيِّدِ أدهم خالد في مبنى البرلمانِ، وكانَ في جلسةٍ لكنَّهُ خرج إلينا، فمكثْنا معَه نحوَ نصفِ ساعةٍ في مكتَبِه الخاصِّ، متبادلِينَ الأحاديثَ الوُدِّيَّةَ والدِّينيَّةَ، وتفسيرَ بعضِ الآياتِ القرآنيَّةِ الكريمةِ والأحاديثِ النَّبويَّةِ الشَّريفةِ، وكانَ يتكلَّمُ العربيَّةَ بطلاقةٍ وفصاحةٍ، تَدُلَّانِ على اطِّلاعٍ واسعٍ.

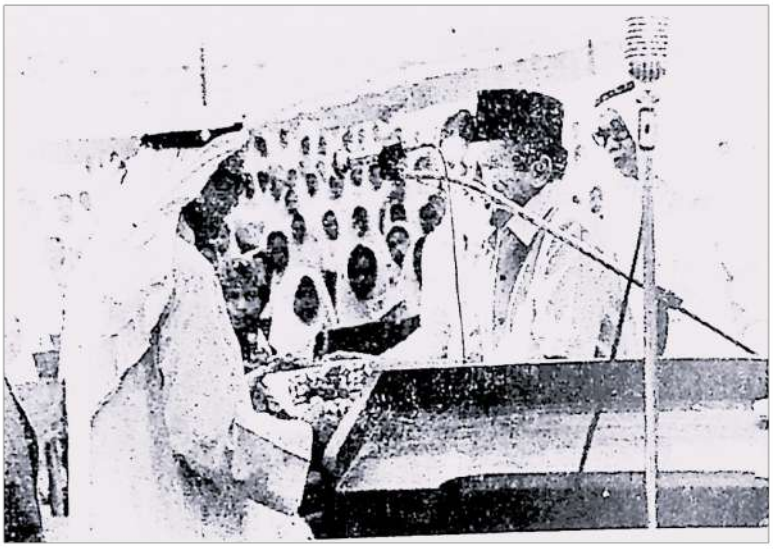
ثمَّ غادرْنا مبنى البرلمانِ في طريقٍ طويلٍ إلى مقرِّ المؤسَّسةِ الطَّاهريَّةِ الَّتي تقعُ في حيٍّ قديمٍ جنوبَ العاصمةِ جاكرتا.



المؤسَّسةُ الطَّاهريَّةُ

مدرسةٌ إسلاميَّةٌ، تضمُّ بينَ أسوارِها روضةً للأطفالِ وأقسامًا لمراحلِ التَّعليمِ الثَّلاثةِ: الابتدائيِّ والإعداديِّ والثَّانويِّ، ومعهدًا للدِّراساتِ الإسلاميَّةِ والعربيَّةِ، وكُلِّيَّةً للآدابِ.

أسَّسَ هذه المؤسَّسةَ الحاجُّ محمَّد طاهر رحيم في مطلعِ سنةِ (١٩٥١م) - وهو عربيٌّ حجازيٌّ بدويُّ الأصلِ من قبيلةِ حربٍ، وُلِدَ في إندونيسيا في جزيرةِ جاوا - فكانت كتابًا لتعليمِ الحروفِ الهجائيَّةِ ومبادئِ الكتابةِ، ولَمَّا حالفتْهُ نيَّتُهُ الصَّالحةُ تطوَّرَتِ المؤسَّسةُ حتَّى بلغتْ ما بلغتْهُ.



في المدرسةِ الطَّاهريَّةِ في جاكرتا.



في ساحةِ المؤسَّسةِ الطَّاهريَّةِ وأنا أخطبُ في الطَّلبةِ والطَّالباتِ والمدرِّسِينَ.

فيها إذاعةٌ تدفعُ إلى مسافةِ (٧٠) كم، تذيعُ يوميًّا أربعَ ساعاتٍ أحاديثَ نافعةً وتعاليمَ إسلاميَّةً ودروسًا تاريخيَّةً وثقافيَّةً، وللمؤسَّسةِ فروعٌ خمسةٌ في مختلفِ القرى التَّابعةِ للعاصمةِ تجمعُ حوالي (٤٥٠٠) طالبٍ وطالبةٍ، (٦٠٪) منهم إناثٌ.

كانَ الطَّلبةُ والمدرِّسونَ في استقبالي بالموسيقا وأناشيدِ التَّحيَّةِ، وبعدَ استراحةٍ قصيرةٍ شربْنا المرطِّباتِ وأكلْنا الحَلْوى.

ثمَّ قامَ عَرِيفُ الحفلِ، فذكرَ سببَ انعقادِ هذه الحفلةِ، ورحَّبَ بي، ثمَّ قرأتْ إحدى الطَّالباتِ آياتٍ من الذِّكْرِ الحكيمِ قراءةً قصيرةً بصوتٍ شجيٍّ[1]، ثمَّ خطبَ أحدُ الأساتذةِ باسمِ المؤسَّسةِ الطَّاهريَّةِ مُرَحِّبًا.

بعدَ ذلك تقدَّمَ مديرُ المدرسةِ الأستاذُ محمَّدٌ الشَّاطريُّ أحمدُ صهرُ رئيسِ المؤسَّسةِ، فألقى كلمةً رحَّبَ فيها، وقال: إنَّ رئيسَ المؤسَّسةِ غائبٌ في المملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ غيابًا لِمصلحةِ المؤسَّسةِ، وتمنَّى لو كانَ حاضرًا في هذا الحفلِ لنسعدَ بوجودِه معَنا.

ثمَّ ذكرَ شيئًا من تاريخِ المؤسَّسةِ، وأخيرًا طلبَ إليَّ أن أُلقِيَ كلمةَ نُصْحٍ للطَّلبةِ والطَّالباتِ، فتقدَّمتُ مُستعينًا باللهِ ناصحًا الطَّلبةَ والطَّالباتِ بالْمُضيِّ قُدُمًا في طلبِ العلمِ، فقلتُ:

قالَ رسولُ الله ﷺ «**طَلَبُ العلمِ فَرِيضَةٌ على كُلِّ مُسلِمٍ**»[2]،

(١) شَجَاهُ: هيَّجَهُ في الحُزْنِ والطَّرَبِ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٨/ ٣٥٢).
(٢) سبقَ تخريجُه.

والمسلمُ كلمةٌ تشمَلُ الذَّكرَ والأُنثى، واللهُ ﷻ عندَما قالَ في نداءاتِه القرآنيَّةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البَقَرَة: ١٠٤] لم يقصدِ الرِّجالَ فقط، وإنَّما كانَ نداءً للذُّكورِ والإناثِ، وليس العلمُ الدِّينيُّ فقط المفروضَ تعملُّه على المسلمِ؛ بل كلُّ علمٍ عَرَفَتْهُ الإنسانيَّةُ تعلُّمُه فرضُ كفايةٍ على كلِّ مجتمعٍ، وفرضُ الكفايةِ معناهُ إذا قامَ به بعضُ النَّاسِ سقطَ الإثمُ عن الباقِينَ، فتعلُّمُ الهندسةِ والطِّبِّ وكُلِّ حرفةٍ عرفَها الإنسانُ أو احتاجَ إليها وكُلِّ اختراعٍ وفنٍّ فرضُ كفايةٍ على كلِّ مجتمعٍ إسلاميٍّ.

إنَّ العلمَ المفروضَ عينيًّا تعلُّمُه على كلِّ إنسانٍ - كما يُسمِّيه الفقهاءُ فرضَ عينٍ - هو العلمُ الَّذي يُوصِلُ المسلمَ إلى معرفةِ اللهِ وكيفيَّةِ عبادتِه، أمَّا بقيَّةُ العلومِ فتعلُّمُها - كما قلتُ ورجالُ الدِّينِ - فرضُ كفايةٍ على كُلِّ مجتمعٍ.

ثمَّ تكلَّمتُ على وجوبِ تعلُّمِ الذَّكرِ والأُنثى، وأكثرُ الحاضرِينَ من الطَّالباتِ والمُدرِّساتِ، وأكثرُ الطَّالباتِ مِن معهدِ الدِّراساتِ وكُلِّيَّةِ الآدابِ، ثُمَّ قلتُ: إنَّ الرَّجُلَ والمرأةَ نصفانِ يُكمِلُ أحدُهما الآخَرَ، فلا غِنًى لأحدِهما عن الثَّاني، ثمَّ إنَّهما شريكانِ في الحياةِ متعاونانِ؛ كاليدَينِ والرِّجلَينِ، فمَن كانَ بيدٍ واحدةٍ فهو أَعْضَبُ، ومَن كان برجلٍ واحدةٍ فهو أعرجُ.

والمرأةُ والرَّجلُ مُلزَمانِ بتعلُّمِ دينِهما، وبعدَ ذلك لكلِّ واحدٍ منهما عملُه، والرَّجُلُ قوَّامٌ، وليست قوامتُه سيطرةً أو استبدادًا، وإنَّما قوامتُه أن يكفي المرأةَ شؤونَها الخارجيَّةَ، حتَّى تقومَ هي بأعباءِ الحياةِ الدَّاخليَّةِ، فتكون للرَّجُلِ سَكَنًا وللأولادِ راعيةً.

كانتْ محاضرةً أخذتْ من الوقتِ خمسِينَ دقيقةً تخلَّلَتْها نُكاتٌ وبسماتٌ وبعضُ الأسئلةِ، ثمَّ تجوَّلْنا في أنحاءِ المؤسَّسةِ وغرفِ القسم الدَّاخليِّ والمسجدِ، وبعدَها تناولْنا الغداءَ الَّذي أعدَّتْهُ لنا المُدرِّساتُ اللَّواتي وقفنَ في خدمةِ الضُّيوفِ.

ثمَّ أهداني مديرُ المدرسةِ درعَ المؤسَّسةِ وقطعةً من قماشٍ من اللِّباسِ الوطنيِّ الإندونيسيِّ، وقدَّمتُ هديَّةً ماليَّةً للمؤسَّسةِ تُقدَّرُ بألفِ دولارٍ أميركيٍّ.

وانتهتِ الزِّيارةُ بعدَ السَّاعةِ الواحدةِ والنِّصفِ ظُهرًا، وزارَنا بعضُ المواطِنِينَ، منهم زوجةُ الشَّيخِ محمَّدٍ الحبشيِّ وبناتُها، ولم نخرجْ من الفندقِ مساءَ هذا اليومِ، ولنا غدًا منهجُ زياراتٍ سنذكرُه في حينِه إن شاءَ اللهُ.

الخميس (١/٧/١٩٧٦م):

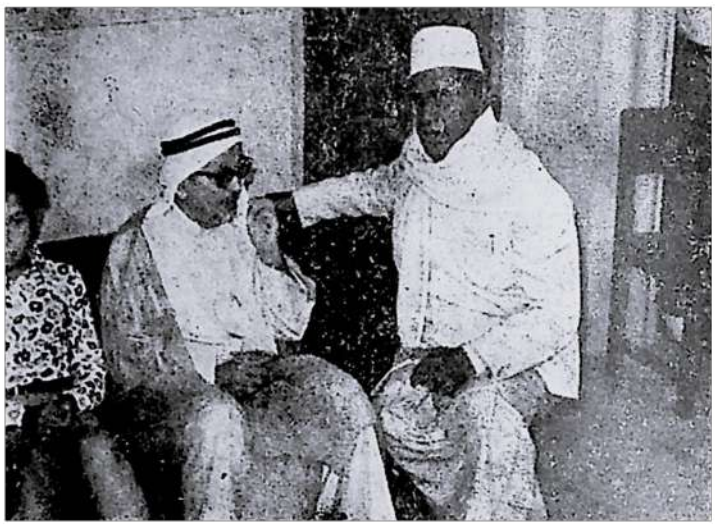
غادرْنا الفندقَ السَّاعةَ التَّاسعةَ صباحًا إلى المؤسَّسةِ الشَّافعيَّةِ في مقرِّها القديمِ في مدينةِ جاكرتا، وقد استقبلَني الطَّالباتُ والطَّلبةُ بالموسيقا.

وبعدَ استراحةٍ قصيرةٍ شربْنا فيها المرطِّباتِ ألقى الشَّيخُ الشَّافعيُّ رئيسُ المؤسَّسةِ كلمةً ترحيبيَّةً قصيرةً ورددتُ عليه بمثلِها، ثمَّ ذهبَ بنا إلى بيتِ بنتِه السَّيِّدةِ علويَّةَ، فشربْنا هناك القهوةَ العربيَّةَ بعدَ أن أكلْنا ما تيسَّرَ مِن حَلْوى، قال الشَّيخُ: إنَّها من صُنعِ يَدِها.

وبعدَ ذلك خرجْنا نمتطي[١] سيَّاراتِنا، ثمَّ سِرْنا - ولا ندري إلى أينَ سائرونَ - في طريقٍ طويلةٍ جدًّا أو بالأحرى في مشروعِ طريقٍ، حتَّى وصلْنا قريةً صغيرةً في منتصفِها الشَّارعُ العامُّ، وهنا نَزَلْنا، فاستقبلَنا طلبةٌ وطالباتٌ.

وقالَ الشَّيخُ الشَّافعيُّ: في هذه الأرضِ مشروعُنا الجديدُ لِمباني معاهدِنا، وما كنَّا فيه من قبلُ هو المقرُّ القديمُ الَّذي ضاقَ بنا.

(١) المطيَّةُ: الدَّابَّةُ تُرْكَبُ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٩/ ٥٤٢).



في بيتِ الشَّيخِ عبدِ اللهِ الشَّافعيِّ وأنا أجلسُ بينَهُ وبينَ حفيدي عبدِ الله.



في بيتِ الشَّيخِ عبدِ اللهِ الشَّافعيِّ مؤسِّسِ المؤسَّسةِ الشَّافعيَّةِ وأمامي حفيداه وحفيدي.

المؤسَّسةُ الشَّافعيَّةُ

أسَّسَها الشَّيخُ عبدُ اللهِ الشَّافعيُّ، وهو من العلماءِ البارزِينَ في إندونيسيا، وهو عضوٌ في هيئةِ العلماءِ، وُلِدَ سنةَ (١٩١٥م).

كانتِ المؤسَّسةُ مدرسةً صغيرةً، وباركَ اللهُ في سعيِ صاحبِها فأصبحتْ مدارسَ، ولكنَّها لا تتجاوزُ جاوا القريبةَ، ومقرُّ المؤسَّسةِ القديمِ في وسطِ المدينةِ ضاقَ بالطَّلبةِ؛ لأنَّ المدرسةَ تشتملُ على أقسامٍ داخليَّةٍ ومشاريعَ أخرى؛ كالإذاعةِ الخاصَّةِ بالطَّلبةِ، وقاعةِ المحاضراتِ، والمختبراتِ، فاشترى الرَّجلُ بهمَّتِه العاليةِ مكانًا تبلغُ مساحتُه نحو (٦٠٠٠٠) مترٍ، وأسَّسَ هناكَ المؤسَّسةَ الَّتي تنقسمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ:

القسمِ الأوَّلِ: ويحتوي على المدرسةِ بفصولِها، وبيوتِ المدرِّسِينَ، ومساكنِ الطَّلبةِ، وقاعتَينِ كبيرتَينِ؛ إحداهما للمحاضراتِ، والثَّانية للتَّمثيلِ والمطابخِ.

القسمِ الثَّاني: مكانٌ لنومِ الطَّالباتِ فقط، ويفصلُ الشَّارعُ بين هذه وتلك.

القسمِ الثَّالثِ: محلٌّ لرعايةِ الأيتامِ حتَّى يبلغَ اليتيمُ الثَّانيةَ عشرةَ من عمرِه، ثمَّ يلحق بجنسِه ذكرًا كانَ أو أنثى.

وممَّا يُؤسَفُ له أنَّ الحاجةَ ظاهرةٌ في العجزِ عن إكمالِ بعضِ المباني، والعجزِ عن فرشِها، حتَّى إنَّني رأيتُ الطَّلبةَ وقد اجتمعوا في تلكَ القاعةِ الفسيحةِ اللَّطيفةِ جالسِينَ معَ ضيفِهم على الأرضِ، وقد خُصِّصَ للضَّيفِ ولرفاقِه حصيرٌ[1].

تبعدُ هذه المدينةُ - وسأُسمِّيها مدينةً - من العاصمةِ أكثرَ من (٣٠) كيلومترًا، ولَمَّا لم يكنْ بالإمكانِ وجودُ كهرباءَ في تلك الأرضِ النَّائيةِ فقد جهَّزَها رئيسُها بجهازٍ خاصٍّ يستعملُه وقتَ الحاجةِ.

والمؤسَّسةُ كلُّها تجمعُ بينَ (٢٧٠٠) طالبٍ وطالبةٍ، أكثرُهم من الإناثِ؛ إذ تبلغُ نسبتُهنَّ (٦٠٪)، وفيها تعليمٌ غيرُ نظاميٍّ، لا يتقيَّدُ بجدولِ دوامٍ ولا تحديدِ سنٍّ، ولا ترتيبِ فصلٍ، يحضرُ طلبةٌ وطالباتٌ من خارجِ المدرسةِ دروسَ تعليمِ تلاوةِ القرآنِ الكريمِ، ودروسًا لمحوِ الأُمِّيَّةِ للذُّكورِ والإناثِ، ودروسَ وعظٍ وإرشادٍ.

وللمؤسَّسةِ إذاعةٌ خاصَّةٌ للإرشادِ تعملُ كلَّ صباحٍ، وهي تُشبِهُ المؤسَّسةَ الَّتي رأيناها في جاوا الوسطى في فابيلان يومَ (٢٠/ ٦/ ١٩٧٦م)، إلَّا أنَّ الطَّالبَ في هذه المؤسَّسةِ مدلَّلٌ؛ يأتي من أيِّ بلدٍ في إندونيسيا ليجدَ غذاءً لبدنِه وغذاءً لروحِه وعقلِه وسكنًا يرتاحُ فيه، بينما هو في تلك يعملُ ويساعدُ في كلِّ شيءٍ.

وقد اقترحتُ على الشَّيخِ الشَّافعيِّ بأن يُشرِكَ الطَّلبةَ في العملِ معَهُ بدنيًّا، فقالَ: فاتَ الأوانُ.

---

(١) الحصيرُ: سفيفةٌ تُصنَعُ من بَرْدِيٍّ وأَسَلٍ، ثُمَّ يُفترَشُ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١١/ ٢٨).



استقبالي أمامَ المؤسَّسةِ الشَّافعيَّةِ والشَّيخُ الشَّافعيُّ بجانبي.

بعدَ أن وصلْنا إلى بابِ الْمَقَرِّ الجديدِ للمؤسَّسةِ نَزَلْنا بينَ صفَّينِ من الطَّلبةِ والطَّالباتِ ينشدونَ النَّشيدَ التَّرحيبيَّ باللُّغةِ العربيَّةِ، وجُلْنا جولةً بسيطةً في الأقسامِ الَّتي تمَّتْ، وهي تمثِّلُ الصُّفوفَ، كُلُّ صفٍّ يتَّسعُ لخمسِينَ طالبًا أو طالبةً، ولا اختلاطَ هناكَ.

ودخلْنا غرفَ النَّومِ، كُلُّ غرفةٍ تتَّسعُ لنومِ (٢٤) طالبًا أو طالبةً، واحتفلتِ المؤسَّسةُ في مقرِّها الجديدِ - رئيسُها وأساتذتُها وطَلَبَتُها - بي وبِمَن كانَ معي من المرافقِينَ الرَّسميِّينَ.

وألقى الخطباءُ من المعلِّمِينَ والتَّلاميذِ كلماتِ التَّرحيبِ، وأخيرًا طلبَ إليَّ الرَّئيسُ أن أُوَجِّه كلمةً للطَّلبةِ والطَّالباتِ ولو موجزةً.

من الكلمة

باسمِ اللهِ أَحمَدُه وأستعينُ به وأوحِّدُه، وأُصَلِّي على نبيِّه المصطفى من خلقِه، المبعوثِ رسولًا منه إليهم ومعلِّمًا لهم وهاديًا إيَّاهم إلى سبيلٍ مستقيمةٍ، وبعدُ:

فإنِّي أشكرُكم جميعًا أساتذةً وطلبةً على حفاوتِكم بي الَّتي تدلُّ على الأُخوَّةِ الإسلاميَّةِ والمحبَّةِ الدِّينيَّةِ والأُلْفَةِ والصَّفاءِ.

سيِّدي الرَّئيس، إخوتي الأساتذة، أبنائي الطَّلبة:

كلُّنا يعرِفُ أنَّ اللهَ ﷻ خلقَ الحيوانَ كما خلقَ الإنسانَ من ترابٍ، ولكنَّه كرَّمَ بني آدمَ على الحيوانِ؛ فأعطاه عقلًا، وإنَّ للحيوانِ هدًى؛ إذا جاعَ أكلَ، وإذا تعبَ نامَ، وإذا لم يجدِ الطَّعامَ سعى إليه، لا يلبسُ ولا يبني ولا يزرعُ ولا يحصدُ ولا يبيعُ ولا يشتري ولا يتعبَّدُ، أمَّا الإنسانُ فقد أعطاه اللهُ عقلًا فضَّلَهُ به على سائرِ الحيوانِ، وسخَّر له به الحيوانَ، فلم نسمعْ يومًا أنَّ أسدًا سخَّرَ فأرًا، ولكنَّ الإنسانَ سخَّر الأسدَ وجعل منه راقصًا في السِّيرك[1]، وسخَّر الفيلَ وجعلَ منه حاملًا للأثقالِ، وبالعقلِ أدركَ الإنسانُ كيف يستخرجُ الكهرباءَ من

(١) السِّيرك: ملعبٌ شعبيٌّ، مسرحٌ مستديرٌ، تجري فيه تمارينُ فروسيَّة، وترويضُ حيواناتٍ، وتوازنٌ. انظر: معجم اللُّغة العربيَّة المعاصرة، لأحمد مختار عمر (٢/ ١١٤٨).

معدنٍ باردٍ، وكيف يجعلُ من الجمادِ لسانًا يتكلَّمُ؛ كالرَّاديو والمسجَّلاتِ، وبه اخترقَ الإنسانُ الأجواءَ، فوصلَ إلى القمرِ، ثمَّ اجتازَه إلى المرِّيخِ. وربَّما إن طالَ بكم عمرٌ ستسمعونَ أنَّ الإنسانَ وصلَ إلى أبعدَ من ذلك.

فالعلمُ يُضِيءُ الطَّريقَ للإنسانِ الَّذي يحتاجُ إلى غذاءَينِ؛ غذاءٍ لجسمٍ به ينمو ويحفظُه من الهلاكِ، وغذاءٍ لعقلِه ليفتحَ به المغاليقَ، وغذاءُ العقلِ هو العلمُ الَّذي جعلَهُ الإسلامُ فريضةً.

وأنتم - أيُّها الأبناءُ والبناتُ يا أولادَ اليومِ ويا آباءَ الغدِ وأُمَّهاتِه - أملُ غَدِنا، تعلَّموا مِنَ العلمِ ما يُحَقِّقُ فيكم أملَنا، وأنتُنَّ - أيَّتُها البناتُ - تعلَّمْنَ العلمَ للعملِ به، للوظيفةِ الَّتي تَلْتَمِسْنَها، ولا أُنْكِرُ على بنتٍ أن تعملَ، ولكنْ متى كانت زوجةً فإنَّ وظيفتَها الَّتي خلقَها اللهُ لها أَولى بها، وأنت أيُّها الابنُ تعلَّمْ لتعملَ بعلمِكَ، فإنَّ شرَّ النَّاسِ مَن خالفَ عَمَلُهُ عِلْمَهُ، تعلَّموا واعملوا، ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]، ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمَّد: ٣٥].

هذه بعضُ الكلمةِ، وقد استغرقتْ من الوقتِ خمسًا وثلاثِينَ دقيقةً، ثمَّ ذهبْنا إلى صالةٍ لتناولِ الطَّعامِ الَّذي جهَّزَتْهُ بعضُ المدرِّساتِ، وهناكَ تشعَّبَ بنا الحديثُ في مختلفِ الموضوعاتِ؛ إذ قالَ أحدُ المدرِّسِينَ: إنَّ الحاجةَ تُهَدِّدُنا بإيقافِ العملِ في مؤسَّستِنا.

فقلتُ له: لا تيأسْ؛ فاللهُ معَ مَن أخلصَ.

قالَ الشَّاعرُ صلاحُ الدِّينِ الصَّفديُّ:

لَا تَـقُـلْ قَـدْ أَذْهَـبَـتْ أَرْبَـابُـهُ كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى الدَّرْبِ وَصَلْ[١]

ثمَّ ضربتُ له مثلًا معهدَ (فابيلان)، وقلتُ له: يا ليتَكم جعلتُمْ من الطَّلبةِ مساعدِينَ.

فَضَحِكَ الشَّيخُ الشَّافعيُّ، وقالَ كلمتَه السَّابقةَ: فاتَ الأوانُ.

فقلتُ: يا سيِّدي الشَّيخ! مَن توكَّلَ على اللهِ أعانَهُ وذلَّلَ له الصِّعابَ، والنَّقصُ لا يكونُ إلَّا بالهمَّةِ، أمَّا مَن كانتْ هِمَّتُه كاملةً فليسعَ واللهُ معَهُ.

وقبلَ أن نُغادِرَ المؤسَّسةَ تبرَّعتُ لها بألفٍ وخمسِمئةِ دولارٍ أميركيٍّ، ثمَّ شربْنا حليبَ النَّارجيلِ، وحمدْنا اللهَ على نعمتِه، وشكرْنا للمضيفِ ضيافتَهُ، وغادرْنا المؤسَّسةَ السَّاعةَ الواحدةَ.

وعندَ البابِ طلبَ إليَّ الشَّيخُ الشَّافعيُّ أن أقرأَ الفاتحةَ تبرُّكًا وتيمُّنًا لتحقيقِ أملِه، فقرأناها، ودعا الشَّيخُ بما تيسَّرَ، وأمَّنَّا[٢] على دُعائِه، ورَجَعْنا من الطَّريقِ نفسِها الَّتي أتينا منها في مدَّةِ ساعةٍ، وبعدَ العصرِ زارَنا بعضُ الضُّيوفِ من الرِّجالِ والنِّساءِ.

الجمعة (٢/٧/١٩٧٦م):

لم يكنْ عندَنا برنامجُ زياراتٍ، فنزلتُ من الغرفةِ إلى الصَّالةِ السَّاعةَ التَّاسعةَ والنِّصفَ، ووجدتُ في انتظاري ممثِّلي الخارجيَّةِ

---

(١) انظر: جواهرُ الأدبِ في أدبيَّاتِ وإنشاءِ لغةِ العربِ، للمصطفى الهاشميِّ (٢/ ٤٣٦).

(٢) أمَّنَ: قالَ آمينَ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٤/ ١٩٤).

والدَّاخليَّةِ والشُّؤونِ الدِّينيَّةِ وبعض الرَّسميِّينَ، وتحدَّثْنا كثيرًا في شؤونٍ شَتَّى، وفي العاشرةِ والنِّصفِ ذهبْنا إلى مسجدِ الاستقلالِ الإندونيسيِّ، وهو أكبرُ مسجدٍ في إندونيسيا إن لم يكنْ في العالَمِ الإسلاميِّ كلِّه بعدَ الحرمِ المكِّيِّ.

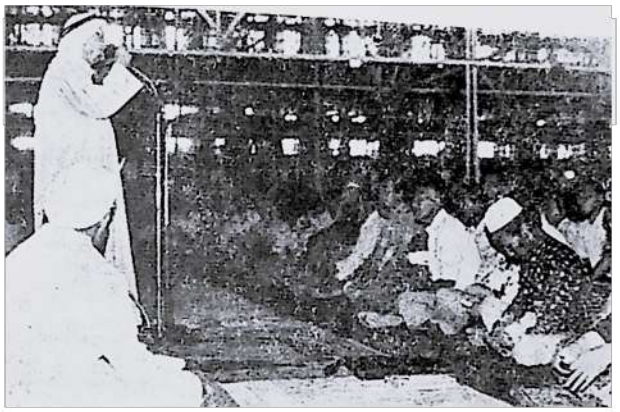
وهو من آياتِ الفنِّ المعماريِّ الجاويِّ، فالمهندسُ والباني والعامل كلُّهم من جاوا أو إندونيسيا، ومساحةُ قاعةِ المسجدِ وحدَها عشرةُ آلافِ مترٍ مربَّعٍ، يحيطُ بها من جهاتِها الثَّلاثِ عدا القبلة مساحاتٌ تابعةٌ لها تُستَعمَلُ لصلاةِ الجمعةِ والعيدَينِ، ومساحتُها (١٥٠٠٠) مترٍ مربَّعٍ.

أمَّا المساحاتُ الملحقةُ بالمسجدِ الَّتي فيها مواقفُ سيَّاراتٍ وبركةُ ماءٍ ومغارسُ أشجارٍ فتبلغُ (٢٥٠٠٠) أيضًا؛ أي: إنَّ مساحةَ المسجدِ بِسُورِه الَّذي يُحيطُ ببنائِه وتوابعِه وبحيرتِه تبلغُ خمسِينَ ألفَ مترٍ مربَّعٍ، ويتَّسعُ لخمسِينَ ألفَ مُصلٍّ، والمنارةُ بُنِيَتْ بِعُلُوِّ تسعةٍ وتسعِينَ مترًا بعددِ أسماءِ اللهِ الحسنى، وحوضُ المنارةِ يرتفعُ عن الأرضِ (٦٦٦٧)سم، وفي المنارةِ حوضٌ واحدٌ، والحقُّ يُقالُ: إنَّها منارةٌ بُنِيَتْ بِفَنٍّ، ويحيطُ بالمسجدِ من جوانبِه الثَّلاثةِ نهرٌ صناعيٌّ، وبركةٌ من الجانبِ الرَّابعِ، وبها نافورةٌ.

بعدَ التَّجوالِ في المسجدِ أعطاني المهندسُ خريطةً تفصيليَّةً له، وأظنُّ أنِّي تركتُها في السَّيَّارةِ الحكوميَّةِ ففُقِدَتْ.

وفي السَّاعةِ الثَّانيةَ عشرةَ صعدَ الخطيبُ المنبرَ فأذَّنَ المؤذِّنُ وخطبَ الخطيبُ خطبتَه مُفتَتِحًا باللُّغةِ العربيَّةِ بحمدِ اللهِ وتوحيدِه

والصَّلاةِ على نبيِّهِ، ثمَّ تكلَّمَ الموعظةَ بلغةِ البلادِ، وبدأَها بقولِ النَّبيِّ ﷺ: «**بَلِّغُوا عَنِّي ولو آيَةً**»(١)، ثمَّ اختتمَها بالآياتِ الخمسِ الأُولى من سورةِ البقرةِ.



في مسجدِ الاستقلالِ الإندونيسيِّ في جاكرتا
أُلقي الكلمةَ الَّتي طُلِبَتْ إليَّ بعدَ الصَّلاةِ.

كان أحدُ موظَّفي الشُّؤونِ الدِّينيَّةِ قد أعلنَ للحاضرِينَ قبلَ الصَّلاةِ عن حضوري إلى الدَّولةِ، وأنِّي بعدَ الصَّلاةِ سأُلقِي كلمةَ موعظةٍ باللُّغةِ العربيَّةِ، وأنَّها ستُتَرجَمُ لكم في أثناءِ إلقائِها.

وبعدَ الفراغِ من الصَّلاةِ قدَّمَني ذلك الموظَّفُ إلى جمهورِ الْمُصَلِّينَ، وكانوا أكثرَ من (١٢٠٠٠)، فقمتُ إلى مكبِّرِ الصَّوتِ، وألقيتُ في الجمهورِ الحاضرِ كلمةً، هذا بعضُها:

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، والحمدُ للهِ وكفى، والصَّلاةُ والسَّلامُ على نبيِّهِ المصطفى، أُحَيِّيكم تحيَّةَ الإسلامِ؛ السَّلامُ عليكم ورحمةُ

(١) رواهُ البخاريُّ، رقم: (٣٤٦١).

اللهِ وبركاتُه، تحيَّةً من عندِ اللهِ طيِّبةً مُبارَكةً، وإنِّي والله لَفَرِحٌ بلقائِكم أكثرَ من فرحِ الشَّقيقِ بلقاءِ شقيقِه، و﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرَات: ١٠]، ولا أُخُوَّةَ أقرب من أُخُوَّةِ الإسلامِ.

أيُّها الإخوةُ! الإسلامُ دينُ دنيا قبلَ أن يكونَ دينَ آخِرَةٍ، وهو دينُ حياةٍ قبلَ أن يكونَ دِينًا لِمَا بعدَ الحياةِ؛ لأنَّ الدُّنيا مزرعةُ الآخِرَةِ، والثَّوابُ والعقابُ لا يكونُ إلَّا في الآخرةِ، والحصادُ لا يكونُ إلَّا بعدَ العملِ؛ الحرثِ والبَذْرِ، إذن فالنَّتيجةُ الكسبُ، والكسبُ في الآخِرَةِ، واللهُ ﷻ يقولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفَال: ٢٤]، ومنها نفهمُ أنَّ محمَّدًا ﷺ جاءَنا بدينٍ يُنَظِّمُ فيه حياتَنا، لكنَّ الاستعمارَ لم يُرِدْ لنا الحياةَ الَّتي أرادَها لنا الإسلامُ، فاتَّخذَ منَّا عُمَلاءَ جَهَلَةً صيَّرَهم علماءَ بقوَّتِه وبطشِه، واتَّخَذَ منَّا عُلَماءَ أضلَّهمُ اللهُ على علمٍ، وقالَ لهم المستعمرُ: قولوا للشَّعبِ إنَّ الدِّينَ والدُّنيا لا يجتمعانِ، وإنَّ الدِّينَ والحياةَ عدوانْ.

فقالوا للنَّاسِ، وقالَ النَّاسُ معَهم: نعم.

أيُّها الإخوةُ! إنَّ اللهَ بعثَ نبيَّهُ محمَّدًا ﷺ لِيُنَظِّمَ الحياةَ، فالمسلمُ أينما كانَ فهو معَ الإسلامِ، لا يفارقُه منذُ وُلِدَ حتَّى مماتِه، فهو منذُ الحَمْلِ هبةُ اللهِ، يولَدُ باسمِ اللهِ، ويسمعُ من والدَيهِ كلمةَ (الحمدُ للهِ)، وإذا عاشَ ففي نعمةِ اللهِ، وزواجُ أبيه وأُمِّه كان على ما في كتابِ اللهِ وسُنَّةِ نبيِّهِ، ويعيشُ معَهما على كلمةِ الله، وهو مُسْلِمٌ في بيتِه وسوقِه ومعملِه، يُطَبِّقُ تعاليمَ الإسلامِ في بيتِه، وفي معاشرتِه لزوجتِه، وفي تربيةِ أولادِه والإنفاقِ عليهم، وفي مُعاملتِه معَ النَّاسِ، وفي بيعِه

وشرائِه وعملِه؛ لأنَّ «**مَنْ غَشَّنَا فليسَ مِنَّا**»(١)، «**التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الأمينُ مع النَّبِيِّينَ، وَالصِّدِّيقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ**»(٢)، والعاملُ إذا أتقنَ عملَه أحبَّهُ اللهُ، أخبرَنا بذلك رسولُ اللهِ ﷺ، فقالَ: «**إنَّ اللهَ جَلَّ وَعَزَّ يُحِبُّ إذا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أنْ يُتْقِنَهُ**»(٣).

والقرآنُ جاءَ لِيُصلِحَ الحياةَ وينظِّمَها، فإلى جانبِ العباداتِ يَذكُرُ المعاملاتِ، اقرؤوا سورتَي البقرةِ والنِّساءِ؛ تجدوا البيعَ والشِّراءَ والدَّينَ والمعاملةَ معَ النَّاسِ في سورةِ البقرةِ، وتجدوا تنظيمَ الأُسرةِ وصلةَ الرَّحمِ والإحسانَ إلى الأهلِ والأقاربِ والجيرانِ وتنظيمَ المواريثِ في سورة النِّساءِ، واقرؤوا سورتَي الأنفالِ والتَّوبةِ تجدوا الحديثَ عن القتالِ ونظامِ الجيوشِ والدَّولةِ، وسورةُ الحُجُراتِ لو اتَّبعْنا أوامرَها لَكُنَّا خيرَ مثالٍ للأُمَّةِ الصَّالحةِ الطَّيِّبةِ الَّتي تعيشُ في مجتمعِها حياةً سعيدةً هانئةً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحُجرَات: ٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ [الحُجرَات: ١١]، ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [الحُجرَات: ١١]، ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾ [الحُجرَات: ١١]، ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ [الحُجرَات: ١٢]، ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ [الحُجرَات: ١٢]، ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ﴾ [الحُجرَات: ١٢]؛ فقد جاءَ القرآنُ بهذه الآياتِ دِينًا، وهي في الوقتِ نفسِه صلاحٌ للدُّنيا ودليلٌ على الأُلْفةِ الَّتي هي قوَّةٌ واطمئنانٌ للنَّفسِ في مجتمعٍ

(١) رواهُ مسلمٌ، رقم: (١٠١).
(٢) رواهُ التِّرمذيُّ، رقم: (١٢٠٩)، وقالَ: هذا حديثٌ حسنٌ.
(٣) رواهُ البيهقيُّ في شعبِ الإيمانِ، رقم: (٤٩٣١).

يسودُه الاستقرارُ والأمنُ والمحبَّةُ، وأيُّ نعمةٍ أكبرُ من نعمةِ الأمنِ؟! ولا تَنسَوا الكلمةَ الشَّائعةَ على ألسنةِ النَّاسِ: نعمتانِ مجهولتانِ: الصِّحَّةُ في الأبدانِ، والأمنُ في الأوطانِ.

أيُّها الإخوةُ! الوقتُ الَّذي قرَّرَهُ لي مندوبُ الشُّؤونِ الدِّينيَّةِ عشرُ دقائقَ، والمترجِمُ يحتاجُ منها نصفَها، لكنْ لا بدَّ أن أقولَ لكم: إنَّ الرَّسولَ ﷺ لم يتركِ الدُّنيا للآخرةِ، فقدْ تزوَّجَ ووُلِدَ له وجاهدَ وباعَ، وقالَ في دعائِه: «**اللَّهُمَّ أَعِنِّي على ديني بالدُّنيا**»[(١)]، والإسلامُ ليسَ عبادةً أو عقيدةً فقط، إنَّ الإسلامَ بُنِيَ على ثلاثِ ركائِزَ:

١) العقيدة: ولا يعلمُ حقيقتَها إلَّا اللهُ، وهي سرٌّ بينَ العبدِ وربِّه، فالعقيدةُ إيمانٌ باللهِ وكتبِه ورُسُلِه واليومِ الآخِرِ والقدرِ.

٢) العبادة: وهي ثاني الرَّكائزِ، والعبادةُ قد يَدخلُها النِّفاقُ، ونحن نعرفُ أُناسًا كثيرينَ نافقوا النَّاسَ بالعبادةِ؛ لينالوا منهم الدُّنيا، وأظهروا للنَّاسِ نسكًا وعلى الدِّينارِ داروا، كما قالَ الشَّاعرُ محمود الورَّاق:

ظْـهَـرُوا لِـلـنَّـاسِ نُـسْـكًـا وَعَـلَـى الْـمَـنْـقُـوْشِ دَارُوا[(٢)]

٣) وثالثُ الرَّكائزِ المعاملةُ: وهي الدِّينُ والمحكُّ الَّذي تُعرَفُ به حقيقةُ الإنسانِ، ولا فرقَ في ذلك بينَ معاملةِ الزَّوجةِ والأولادِ أو الأصهارِ أو الجيرانِ أو رفاقِ السَّفرِ أو الزَّبائنِ في السُّوقِ بيعًا

(١) أوردَهُ العجلونيُّ في كشفِ الخفاءِ، رقم: (٥٤٧).

(٢) انظر: صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال، للمهديِّ (٢/ ٢٤٧).

وشِراءً، إقراضًا واقتراضًا، واستيفاءً ووفاءً، وقد قالَ فقهاؤنا: «**الدِّينُ المعاملةُ**»[١].

وختمتُ كلمتي بالدُّعاءِ للمُسلمِينَ جميعِهم، وخرجتُ من المسجدِ معَ المرافقِينَ، ووصلتُ الفندقَ معَ المرافقِ الخاصِّ السَّاعةَ الثَّانيةَ، ولم أجدِ الأولادَ، ولم أكنْ في حاجةٍ إلى غَدَاءٍ، وبُعَيدَ العصرِ أخبرَني الأولادُ أنَّنا مدعوُّونَ هذا المساءَ إلى العشاءِ عندَ السَّيِّدِ مرتضى محضار عديد الَّذي كانَ يعملُ في سفارةِ إندونيسيا في العراقِ وسينتقلُ إلى سفارتِها في الكويتِ، وبعدَ العشاءِ سنذهبُ بدعوةٍ خاصَّةٍ إلى جنوبِ جاكرتا إلى بلدٍ يُقالُ له بوكور (Bogor)، وهو منطقةٌ جبليَّةٌ، وسنبيتُ هناك.

دعانا السَّيِّدُ مرتضى إلى العشاءِ في بيتِه للتَّعارُفِ؛ لأنَّه سيذهبُ إلى الكويتِ في شهرِ آب من هذا العام، وقد سبقَ لي أن رأيتُه عندَ رئيسِ البرلمانِ في زيارتي له يومَ (٣٠/ ٦/ ١٩٧٦م) وكانَ يتكلَّمُ العربيَّةَ بطلاقةٍ، وما حصلَ أنَّ الدَّاعي بعثَ لنا سيَّارةً السَّاعةَ السَّادسةَ والنِّصفَ، توجَّهَتْ بنا إلى بيتِه، ووجدنا هناك المندوبَ المرافِقَ من وزارةِ الشُّؤونِ الدِّينيَّةِ، والمندوبَ المرافِقَ من وِزارةِ الدَّاخليَّةِ، ثمَّ جاءَ مندوبُ الخارجيَّةِ، وكُنَّا في أثناءِ وجودِنا في بيتِ الدَّاعي نتحدَّثُ الأحاديثَ شتَّى بالعربيَّةِ تارةً وبالإنجليزيَّةِ تارةً أخرى، وحُضِّرَ العشاءُ وكان جَزْلًا[٢] شهيًّا.

---

(١) انظر: التَّحريرُ والتَّنويرُ، لابنِ عاشور التُّونُسيِّ (٣٠/ ٥٨٤).

بعدَ العشاءِ شكرْنا الدَّاعي ودَعَونا اللهَ له بِحُسْنِ المستقبلِ في بلدِنا، ثمَّ خرجْنا من بيتِه فوجدْنا سيَّارةً تنتظرُنا خارجَ الدَّارِ، أرسلَها السَّيِّدُ أحمدُ العطَّاس الَّذي دعانا لنبيتَ معَهُ في المنطقةِ الجبليَّةِ، وهو رجلٌ عربيُّ الأصلِ من بيتِ العطَّاس الحضارمِ، ولكنَّه وُلِدَ في جاوا، وشبَّ وتعلَّمَ في حضرموتَ.

واصلْنا السَّيرَ إلى دارِ العطاسِ، ومنها سِرْنا إلى مدينةِ (بوكور Bogor) الَّتي تبعدُ من جاكرتا نحوَ (٧٠) كيلومترًا، وفيها قريةٌ تبعد منها نحوَ (١٣) كيلومترًا، وصلْناها السَّاعةَ الثَّانيةَ عشرةَ، وبِتْنا في فندقِها التَّابعِ لشركةِ هوليدي إن، وكانَ مبنى الفندقِ يخالفُ بهندستِه مبنى الفنادقِ المعروفةِ عالَمِيًّا، فأرضُهُ جبليَّةٌ، والغرفُ شاليهاتٌ مُدرَّجَةٌ معَ ارتفاعِ الجبلِ، تُشبِهُ الشُّقَقَ، في كلِّ واحدةٍ غرفةٌ أو غرفتانِ بصالةٍ وحمَّامٍ ومُرفَقٍ، ومساحةُ الشَّقَّةِ أو الشَّاليه ما بينَ (٢٥) إلى (٤٠) مترًا مُربَّعًا، ومعَ كُلِّ شَقَّةٍ بيتٌ للسَّيَّارةِ مسقوفٌ، والشُّقَقُ مفروشةٌ ببساطةٍ وذوقٍ، والنَّظافةُ فيها تلفتُ النَّظرَ، وقد نِمْنَا بعدَ تعبٍ في جوٍّ لطيفٍ هادئٍ رائقٍ على صوتٍ موسيقيٍّ لذيذٍ، هو صوتُ خريرِ الماءِ.

واستيقظْنا يومَ السَّبتِ على صوتِ المؤذِّنِ لصلاةِ الفجرِ، فصلَّينا، ثمَّ نمنا حتَّى السَّاعةِ السَّابعةِ بعدَ شروقِ الشَّمسِ.

---

(١) الجَزْلُ: الكثيرُ من الشَّيءِ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٨/ ٢٠٣).



في مرتفعاتِ بولور في الجنَّةِ وأنا وابنتي وأحدُ المرافِقِينَ نقتطفُ أوراقَ الشَّايِ الخضراءَ.

السَّبت (١٩٧٦/٧/٣م):

أصبحْنا بحمدِ اللهِ، وتناولْنا الفطورَ، واليومَ هو موعدُ سفرِنا من جاكرتا وعودتِنا إلى كوالالمبور عاصمةِ اتِّحادِ ماليزيا، وكان الجوُّ رائقًا هنا في الجبلِ، تناولْنا الفطورَ في مطعمٍ مقابلٍ للفندقِ الَّذي بِتْنا فيه، وبعدَها رَكِبْنا السَّيَّاراتِ إلى (بونجاك Ponjak)، ووصلْنا قمَّةَ الجبلِ، ورأَيْنا الجنَّةَ كما وصفتْها الكتبُ السَّماويَّةُ، وكان معَنا مندوبو وِزاراتِ الدَّاخليَّةِ والخارجيَّةِ والشُّؤونِ الدِّينيَّةِ.

هواءٌ نقيٌّ صافٍ، وخضرةٌ زاهرةٌ، ووروِدٌ مِن أبيضَ ناصعٍ إلى أصفرَ فاقعٍ إلى أحمرَ قانٍ إلى أخضرَ زاهٍ، ونباتٌ تختلفُ أَلوانُ أوراقِه؛ منها الأبيضُ، والأصفرُ، والورديُّ، والعريضُ، والطَّويلُ، والأوراقُ الحنطيَّةُ، والمياهُ تتدفَّقُ أنهارًا وشلَّالاتٍ.

وسِرْنا نمشي على الأقدام بينَ أشجارِ الشَّايِ والقهوةِ والقرنفلِ وغيرِها، وهبَّاتُ النَّسيمِ تحملُ لنا في كلِّ هبَّةٍ رائحةً تختلفُ عن الَّتي قبلَها، والثِّمارُ لا نَعْرِفُ أنواعَها ولا أشكالَها، والفلَّاحونَ يمرُّونَ بنا وهم يُشِيرُونَ إلينا بالكلمةِ المعروفةِ لديهم: سلامات. ومعناها أهلًا وسهلًا ومرحبًا.

إنَّه منظرٌ أَنْسَانِي (بنكاساري) في جزيرةِ بالي، وهنا سألتُ اللهَ ألَّا يحرمَني نعيمَ الجنَّةِ، وقلتُ وأنا أستغفرُ اللهَ: اللَّهُمَّ إنْ كانتِ الجنَّةُ هكذا فلا تحرمْني منها، ثمَّ دعوتُ اللهَ أن يرزقَني العودةَ إلى هذا المكانِ البديعِ الَّذي يُلهِمُ الإنسانَ تسبيحَ الواحدِ الأحدِ، والتَّفكيرَ في آلاءِ الْمُنْعِمِ الصَّمَدِ.

أمَّا الطُّيورُ فَحَدِّثْ عن أنواعِها وأصواتِها ولا حرجَ، فقد تحدَّثْتُ إلى أحدِ المرافقِينَ عن أنواعِها وأشكالِها وألوانِها، فقالَ لي: إنَّ في إندونيسيا أنواعًا من الطُّيورِ لا تَقِلُّ عن خمسِمئةِ نوعٍ، وجلسْنا هناكَ في مقهًى ننظرُ إلى هذه اللَّوحةِ البديعةِ من خلقِ اللهِ، ونُسَبِّحُ بحمدِه، ونُقدِّسُ له، سبحانَكَ اللَّهُمَّ إن كنتَ كتبتَ لي حياةً في العامِ القادمِ فمُنَّ عليَّ بالعودةِ إلى هذا المكانِ البديعِ، إنَّك على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأمِّنَ الحاضرانِ على دعائي.

في السَّاعةِ العاشرةِ والرُّبعِ غادرْنا ذلك المكانَ آسفِينَ على فراقِه، وواصلْنا السَّيرَ في زحمةِ الطُّرُقِ ودُخَانِ السَّيَّاراتِ، حتَّى وصلْنا الفندقَ في سفرةٍ استغرقتْ ساعتَينِ ونصفًا، وبعدَ استراحةٍ وغداءٍ وصلاةٍ حضرَ الْمُوَدِّعُونَ والْمُشَيِّعُونَ.

وغادرْنا الفندقَ إلى مطارِ حليم للسَّفرِ إلى ماليزيا مرَّةً أخرى، وهناكَ وجدْنا المودِّعِينَ الَّذينَ لم يحضروا إلى الفندقِ، وكان وزيرُ الشُّؤونِ الدِّينيَّةِ قد غادرَ العاصمةَ قبلَنا إلى جده معَ وفدٍ من تسعةِ أشخاصٍ، منهم الدُّكتورُ حمكا رئيسُ هيئةِ العلماءِ، وبعدَ أن أعلنَتِ الاستعلاماتُ قُربَ إقلاعِ الطَّائرةِ ودَّعُونا، ثمَّ أقلعتِ الطَّائرةُ السَّادسةَ مساءً متوجِّهةً إلى كوالالمبور، ووصلْناها بعدَ ساعةٍ ونصفٍ، ووجدْنا في المطارِ أخانا الشَّيخَ الزَّواويَّ، وموظَّفًا من وزارةِ الخارجيَّةِ، وبعدَ الإجراءاتِ الرَّسميَّةِ والجمارِكِ والجوازاتِ ذهبْنا إلى الفندقِ؛ لنستريحَ ونقضيَ ليلتَنا، والفندقُ هو نفسُه الَّذي كُنَّا فيه من قبلُ، التَّابعُ لشركةِ (هوليدي).



شيءٌ من تاريخِ إندونيسيا

جاوا وجزرُ إندونيسيا قديمةٌ في التَّاريخِ، دخلَها الإسلامُ في القرنِ الثَّالثِ الهجريِّ، وأوَّلُ جزيرةٍ دخلَها الإسلامُ سومطرا، وقِيلَ: إنَّ الإسلامَ دخلَ جزيرةَ جاوا بعدَ سومطرا في القرنِ الثَّامنِ الهجريِّ، وقيلَ قبلَ ذلك.

وعندَما بدأتْ أوروبَّةُ تتوغَّلُ في الشَّرقِ احتلَّ البرتغاليُّونَ الجُزُرَ الإندونيسيَّةَ سنةَ (١٥١١م)، وظلَّتْ في احتلالِهم نحوَ قرنٍ حتَّى طردَهم الهولنديُّونَ سنةَ (١٦٠٢م)، ودامَ استعمارُهم نحوَ (٣٤٠) سنةً، وفي أثناءِ هذه المدَّةِ احتلَّ الإنجليزُ جزيرةَ جاوا نحوَ عشرِ سنينَ.

وفي السَّنةِ الثَّانيةِ من الحربِ الثَّانيةِ؛ أي: سنةَ (١٩٤١م) احتلَّ اليابانُ جُزُرَ الشَّرقِ الأقصى جميعَها، وهي جزرُ إندونيسيا وماليزيا، ودامَ احتلالُهم إلى سنةِ (١٩٤٥م)، حتَّى حصلَ الإندونيسيُّونَ والماليزيُّونَ على استقلالِهم، وكانتِ العاصمةُ في هذه المدَّةِ كلِّها جاكرتا.

وقد قُلنا: إنَّ جاكرتا أسَّسَها في العهدِ البرتغاليِّ الشَّريفُ هدايةُ اللهِ سنةَ (١٥٢٧م)، وهو أوَّلُ مَن بشَّرَ بالإسلامِ في جاوا الغربيَّةِ، ومعنى جاكرتا الفتح المبين، لكنَّ الهولنديِّينَ غيَّروا اسمَها إلى بتافيا؛ وهو

اسمُ القائدِ الفاتحِ الَّذي طردَ البرتغاليِّينَ، فلمَّا استقلَّتِ البلادُ وطَرَدَتِ الْمُحْتَلِّينَ اليابانيِّينَ أعادَ الإندونيسيُّونَ لجاكرتا اسمَها الأوَّلَ.

الأحد (٤/٧/١٩٧٦م):

الحمدُ لله على كلِّ حالٍ، ليسَ عندَنا هذا اليومَ رسميَّاتٌ، وإنَّما كانَ بينَنا وبينَ موظَّفةِ السِّياحةِ موعدٌ للتَّجوالِ في بعضِ رياضِ العاصمةِ، فقلتُ لها: أيَّ رياضٍ تعنِينَ والعاصمةُ كلُّها رياضٌ وبساتينُ؟!

فضحكتْ، وقالتْ: سوفَ ترى.

وبعدَها خرجْنا من الفندقِ السَّاعةَ التَّاسعةَ والنِّصفَ إلى مُتَنَزَّهٍ تحيطُ به بحيرةٌ صناعيَّةٌ، وفي جزءٍ من البحيرةِ بيوتٌ خشبيَّةٌ تطفو على وجهِ الماءِ، قائمةٌ على ركائزَ في قاعِ البحيرةِ، الَّتي تُشَكِّلُ أكثرَ من نصفِ دائرةٍ، ويظهرُ لي أنَّها ليستْ عميقةً، وفيها زوارقُ صغيرةٌ لرياضةِ التَّجديفِ، وعلى مرتفعٍ قريبٍ مقهًى جلسْنا فيه قليلًا لنشربَ القهوةَ، بينما ذهبَ الأولادُ معَ الدَّليلةِ يتفرَّجُونَ، واسمُ هذه المنطقةِ (ميمالنج Memalang).

وبعدَ نصفِ ساعةٍ ذهبْنا إلى مكانٍ قريبٍ من البحيرةِ، يُطلَقُ عليه اسمُ غابةِ الزُّهورِ، وهو في الحقيقةِ غابةٌ منسَّقةٌ، فيها طرقٌ لِمَنْ يُرِيدُ أن يتريَّضَ[1] سيرًا على القدمِ، وعلى أطرافِ الطُّرقِ أماكنُ كثيرةٌ

(١) يتريَّضُ الشَّخصُ: إذا خرجَ قاصدًا المشيَ على سبيل الرِّياضةِ والتَّدريبِ. انظر: معجم اللُّغة العربيَّة المعاصرة، لأحمد مختار عمر (٢/ ٩٥٩).

لجلوسِ النَّاسِ، وكلٌّ مكانٍ منها مُكوَّنٌ من خشبةٍ تُشبِهُ المائدةَ، على جانِبَيها كُرْسِيَّانِ، يَتَّسِعُ كلٌّ كُرْسِيٍّ لثلاثةِ أشخاصٍ أو أربعةٍ، وتحتَ المائدةِ برميلٌ، وكلُّه مُثَبَّتٌ بالأرضِ، وهذهِ الأماكنُ مُعَدَّةٌ لِمَن يريدُ أن يتناولَ غداءَه أو فطورَه في هذا الْمُتَنَزَّهِ، وبعدَ الفراغِ من طعامِه يضعُ النِّفاياتِ في كيسٍ، ثمَّ يرميهِ في البرميلِ؛ حتَّى يبقى المكانُ نظيفًا، وقد ذكرتُ أوَّلَ زيارتي هذه البلادَ أنَّ النَّظافةَ الَّتي رأيتُها هنا لم أشاهدْ مثلَها في أيِّ مكانٍ من الأرض زرتُه، والنَّظافةُ طبيعةٌ فطريَّةٌ في النَّاسِ.

تجوَّلْنا في طرقِ الغابةِ قليلًا، وشاهدْنا كثيرًا من الزُّهورِ؛ منها ما له رائحةٌ، ومنها ما لا رائحةَ له، على اختلافِ الألوانِ والشَّكلِ، وعُدْنا إلى الفندقِ من طريقٍ آخَرَ، على جانبِه الأيمنِ جبلٌ شاهقٌ قيلَ: إنَّ فيه كهفًا قديمًا لِرُهبانٍ هندوكيِّينَ، وهم لم يزالوا يُقَدِّسُونَ هذا الكهفَ، ويُقدِّمُونَ له القرابينَ، ويُشعِلُونَ عندَهُ نارَ القُربانِ[1]، واسمُه بلغةِ الماليزيِّينَ (باتو كيفر Caves Batu)، وهو على مرتفعٍ يُصعَدُ إليه بِسُلَّمٍ، ويعلو عن الأرضِ بـ(٢٧٢) درجةً، ويبعدُ هذا الكهفُ من العاصمةِ نحوَ (١٠) كيلو متراتٍ تقريبًا، ورأيتُ كثيرًا من الهندوكيِّينَ يصعدونَ إليه بأرجلِهم بعدَ أن يُشعلوا النَّارَ عندَ أسفلِ السُّلَّمِ، ورأينا قطارًا صغيرًا يَصعَدُ فيه إلى الكهفِ السُّيَّاحُ الَّذين لا يريدونَ أن يُكلِّفوا أنفسَهم مشقَّةَ الصُّعودِ، وصعدَ الطِّفلانِ وأمُّهُما في

(١) القُربانُ: ما قرَّبتَ إلى اللهِ تبتغي بذلك قربةً ووسيلةً. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١/ ٦٦٤).

القطارِ، أمَّا أنا وأبوهما فلم نصعدْ، وقالتْ لنا الأُمُّ بعدَ عودتِها تُحدِّثُنا عن الكهفِ: إنَّه عميقٌ ومُظلِمٌ وفيه من الخفافيشِ كثيرٌ، والرَّائحةُ فيه كريهةٌ جدًّا، يشعرُ منها الدَّاخلُ إليه بالاختناقِ، والهواءُ فاسدٌ، وأظنُّ أنَّ الخفافيشَ كَثُرَتْ فيه؛ لكثرةِ ما يُقَدَّمُ إليها من طعامٍ.

زُرْنا الشَّيخَ يوسُفَ الزَّواويَّ في دارِه مساءً، وكانَ قد ألحَّ علينا كثيرًا بطلبِ هذه الزِّيارةِ، وقد أَنِسْتُ معَهُ كثيرًا مثلما أَنِسَتِ البنتُ والأولادُ معَ زوجتِه وأولادِه، ودامتِ الزِّيارةُ ساعةً ونصفًا رَجَعْنا بعدَها إلى الفندقِ.

الإثنين (٥/٧/١٩٧٦م):

جاءتْنا مضيفةُ شركةِ السِّياحةِ، وخرجْنا والأولادُ في جولةٍ إلى منطقةٍ تبعدُ من كوالالمبور، قدَّرتُها بنحوِ (١٠٤) كيلومترٍ، وتُسمَّى تل (فريزر) (Frazer Hill)، وهي منطقةٌ جبليَّةٌ، إلى الشَّمالِ من العاصمةِ في ولايةِ (باهانج Bahang)، وسياحيَّةٌ، فيها فندقٌ تابعٌ لشركةِ الفنادقِ (مرلين Merline)، بُنِيَ حديثًا، وبناءُ الفندقِ مُكوَّنٌ من (٤) طوابقَ؛ الطَّابقِ الأرضيِّ لمطعمٍ ومشربٍ ومقهًى، والثَّلاثةِ الأخرى للسَّكنِ، وارتفاعُ البناءِ مُدَرَّجٌ معَ الجبلِ؛ الطَّابقُ الأرضيُّ، ثمَّ الَّذي فوقَه سقفٌ له، أمَّا الثَّالثُ فعلى الجبلِ، وهكذا الرَّابعُ، وهو مُساوٍ معَ ما خلفَه من أرضِ الجبلِ؛ أي: إنَّ السَّيَّارةَ إذا صعدتْ على أرضِ الجبلِ تقفُ عندَ بابِ الطَّابقِ الرَّابعِ.

كانَ الطَّريقُ إلى هذهِ المنطقةِ انحناءاتٍ متتاليةً، والصُّعودُ إليها سهلٌ لولا أنَّ الطَّريقَ ضيِّقٌ لا يتَّسِعُ لسيَّارتَينِ، ومظلمٌ؛ لأنَّه يمرُّ في

غابةٍ مكتظَّةٍ بالشَّجرِ، كُنَّا لا نرى الشَّمسَ إلَّا إذا كانتْ أمامَنا أو خلفَنا، أمَّا عن اليمينِ والشِّمالِ فتحجبُها الأشجارُ.

وقفْنا قليلًا في الطَّريقِ في مكانٍ لطيفٍ مرتفعٍ يطلُّ على الغابةِ، بُنِيَ فيه مطعمٌ جميلٌ شعرتُ أنَّ هذا المطعمَ كان قصرًا لأحدِ الإنجليزِ المستعمرِينَ، وبعدَ الجلاءِ صارَ مطعمًا، وفيه غرفٌ للمَبِيتِ، والبناءُ مُكوَّنٌ من دورينِ فقط، شربْنا القهوةَ فيه، واسترحْنا مُدَّةَ ساعةٍ تقريبًا، ثمَّ واصلْنا السَّيرَ إلى التَّلِّ، وارتفاعُ التَّلِّ أو الجبلِ أو بالأحرى مكان الفندقِ يبلغُ (١٣٠٠) مترٍ عن سطحِ البحرِ، والجوُّ هناك ربيعيٌّ لطيفٌ فلا حرَّ ولا بردَ، وبعدَ أن شَرِبْنا الشَّايَ أخبرتْنا المضيفةُ أنَّ هناك شلَّالاتٍ في منحدرٍ في الغابةِ المجاورةِ للفندقِ، وتبعدُ منه نحو (٤)كيلو من المتراتِ.

وركبْنا السَّيَّارةَ مسافةَ (٣)كم، ثمَّ نَزَلْنا لنمشي على الأقدامِ نحو كيلو مترٍ واحدٍ، وواصلْنا فيه السَّيرَ معَ مجرى نهرٍ صغيرٍ، الماءُ فيه قليلٌ، ولكنَّه يمرُّ بصخورٍ صمَّاءَ كبيرةٍ يحدثُ معَها صوتُ خريرٍ، يكونُ في بعضِ الأحيانِ شديدًا، والشَّلَّالُ الَّذي حدَّثونا ارتفاعُه نحو مترٍ فقط.

كانَ السَّيرُ في الغابةِ مُرِيحًا؛ جمال طقسٍ، وصفاء جوٍّ، وغيومٌ تحجبُ وهجَ الشَّمسِ الاستوائيَّةِ، وموسيقا خفيفةٌ من حفيفِ الشَّجرِ العالي، وخريرُ الماءِ المنحدرِ يُطرِبُ أسماعَنا، مَشَينا في هذا الجوِّ نحوَ ساعةٍ في الذَّهابِ، ومثلُها في الإيابِ، ثمَّ رَجَعْنا إلى الفندقِ، وتحدَّثْنا إلى مديرةِ الفندقِ الَّتي أخبرتْنا أنَّ الفندقَ ما زالَ في شهرِه

الثَّاني، وصعدْنا إلى طوابقِه الثَّلاثةِ، واطَّلَعْنا على غُرَفِه وأسعارِه، وقُلْنا فيما بينَنا: لا بُدَّ أن نقضيَ فيه ليلةً أو ليلتَينِ، فالمكانُ جميلٌ ولكنَّ النَّظرَ لا يمتدُّ فيه؛ لأنَّ الجبالَ المحيطةَ به تحجبُ الرُّؤيةَ، وهو على شفا وادٍ، اتَّخذتْ منه شركاتُ الفنادقِ ملاعبَ للجولفِ ولرياضاتٍ أُخرى؛ استمتاعًا بالهواءِ الطَّلْقِ، وراحةً من تعبِ الحياةِ.

الخضرةُ والماءُ في هذا المكانِ ليس كتلك الجنَّة الغنَّاء في (بونجاك) التَّابعة (لبوكور Bogor) في جزيرة جاوا الغربيَّة في جمهوريَّة إندونيسيا، لكنَّه بالنِّسبة إلى العاصمةِ المكتظَّةِ بالأبنيةِ والسُّكَّانِ مكانٌ رائقٌ جميلٌ، شاعريٌّ، يستطيع المرءُ أن يجلسَ في الشُّرفةِ، ويتأمَّلَ أو يفكِّرَ أو يقرأَ أو يكتبَ، والطُّيور كثيرةٌ على اختلاف أنواعِها وأشكالِها وأصواتِها، ومَن فكَّرَ في اختلافِها قالَ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عِمرَان: ١٩١].

تناولْنا طعامَ الغداءِ، وبعد استراحةٍ شربنا فيها الشَّايَ والقهوةَ عُدنا إلى مكانِنا، إلى الفندقِ بعدَ سيرٍ بالسَّيَّارةِ دامَ ساعتَينِ ونصفًا، ولم أخرجْ من الفندق مساءً؛ لأنَّ البرنامج يُلزِمُني أن أسافرَ غدًا إلى بينانج؛ استجابةً لدعوةِ الأميرِ تنكو عبد الرَّحمن رئيسِ الوزراءِ الأسبقِ الَّذي تمَّ على يديه استقلالُ الاتِّحادِ الماليزيِّ، وسأصحبُ معي في هذه الرِّحلةِ حفيدي عبدَ الله بن حمود الفرحان من بِنتي خولةَ.

ولايةُ باهانج

علينا قبلَ أن نرحلَ إلى بينانج أن نكتبَ ما عرفناه عن ولاية باهانج:

باهانج أكبرُ ولاياتِ ماليزيا الغربيَّةِ مساحةً؛ إذ تبلغُ مساحتُها (٣٥٣٨٠كم٢)، وعددُ سُكَّانِها (٥٠٤٠٠٠) نسمةٍ، وتقعُ في الشَّرقِ من شبهِ جزيرةِ الملايو، وسلطانُها الحاليُّ المستعينُ بالله أحمدُ بْنُ أبي بكر.

أمَّا سُكَّانُ جبل فريزر أو كما يسمُّونه (فريزر هيل Frazer Hill) فعددُهم (٨٠٠) نسمةٍ فقط؛ منهم (٣٠٠) صينيٍّ، و(٣٠٠) هنديٍّ، و(٢٠٠) ماليزيٍّ، كلُّهم موظَّفونَ لدى شركاتِ الفنادقِ أو الشَّركاتِ السِّياحيَّةِ، والوظائفُ الَّتي يعملونَ بها تدريبٌ على الألعاب الرِّياضيَّةِ، أو حراسة ساحاتِ اللَّعبِ، ومنهم موظَّفو نظافةٍ، أو باعةٌ في المحلَّاتِ التِّجاريَّةِ التَّابعةِ للشَّركاتِ.

الثُّلاثاء (٦/٢/١٩٧٦م):

غادرْنا الفندقَ إلى المطارِ السَّاعةَ الخامسةَ والنِّصفَ، وفي السَّادسةِ وخمسٍ وأربعينَ أقلعَتِ الطَّائرةُ من كوالالمبور، وبعدَ (٥٠) دقيقةً كنَّا نسلِّمُ على المستقبِلينَ لنا في مطارِ (بينانج) استقبالًا حارًّا، ومنهم رجلٌ عربيٌّ مندوبٌ من الأمير تنكو عبد الرَّحمن، اسمُه الشَّيخُ

محمَّد حسين رفيع، أصلُه من مكَّةَ، استوطنَ ماليزيا سنةَ (١٩٢٣م)، ومنذُ ذلك الحينِ وهو يجاهدُ في تعليمِ القرآنِ والفقهِ الإسلاميِّ، واستلمَ مشروعًا اسمُه (مدرسة مشهور الإسلاميَّة) بعدَ وفاةِ مؤسِّسِها، وما تزالُ هذه المدرسةُ قائمةً يُدرَّسُ فيها الإسلامُ على المذهبِ الشَّافعيِّ باللُّغةِ العربيَّةِ، وتُدرَّسُ فيها اللُّغةُ العربيَّةُ بقواعدِها معَ دروسٍ أخرى، وخرِّيجُ هذه المدرسةِ يُقبَلُ في الجامعاتِ.

ومن المطارِ توجَّهْنا إلى دارِ الدَّاعي الَّذي استقبلَنا عندَ البابِ، وهيَّأَ لنا مجلسًا أعدَّ فيه الفطورَ، إلَّا أنَّنا كنَّا قد أكلْنا في الطَّائرة، فشربْنا الشَّايَ والقهوةَ، واستأذنتُ سيادتَه في الذَّهابِ إلى الفندقِ؛ لنرتاحَ بعدَ سهرِ البارحةِ، فأَذِنَ لنا، وفي الفندقِ اغتسلْنا بعدَ أن خلعنا ثيابَ السَّفرِ، ثمَّ أخذْنا قسطًا من الرَّاحةِ، وتوجَّهْنا إلى مطعمِ الفندقِ اليابانيِّ، وتناولنا فيه الغداءَ، ثمَّ رَجَعْنا إلى مكانِنا ننتظرُ موعدَ السَّيَّارةِ.

في السَّاعةِ الرَّابعةِ والنِّصفِ هتفَ لنا موظِّفُ الاستعلاماتِ في الفندقِ؛ لِيُخبِرَنا أنَّ السَّيَّارةَ حضرت معَ الشَّيخِ محمَّدٍ، وكنَّا قد أخذْنا موعدًا لنتجوَّلَ في أنحاءِ المدينةِ، فركبْنا السَّيَّارةَ لندخلَ في شوارعَ نظيفةٍ ومحلَّاتٍ مفتوحةٍ، فيها من المعروضاتِ ما فيها، ورأيت أكثرَ الوجوهِ صينيَّةً، فسألتُ الشَّيخَ محمَّدًا، فقالَ: نعم، إنَّ أكثرَ سُكَّانِ بينانج من الصِّينيِّينَ، ولا أبالغُ إذا قلتُ لك: إنَّ الصِّينيِّينَ والهنودَ يشكِّلونَ (٦٠٪) من سُكَّانِ هذه الولايةِ.

ولاية (بينانج)

جزيرةٌ مساحتُها نحو (٤٠٠) ميلٍ مربَّعٍ، أو ما يزيدُ على (١٠٠٠)كم، وهي إحدى ولاياتِ الاتِّحاد الماليزيِّ، وتبعدُ من العاصمة نحو (٤٠٠) كم، وسُكَّانُها نحو (٨٠٠,٠٠٠) نسمةٍ، أكثرُهم صينيُّونَ وهنودٌ وأجناسٌ أخرى يحملونَ الجنسيَّةَ الماليزيَّةَ، أمَّا المسلمونَ في هذه الولايةِ فقلَّةٌ، ونسبتُهم نحو (٤٠٪) أو أقلُّ.

وهي بلدٌ سياحيٌّ جميلٌ، فيها مسابحُ ساحليَّةٌ (بلاجات) نظيفةٌ جميلةٌ، ومعارضُها التِّجاريَّةُ غنيَّةٌ بمختلفِ البضائعِ، وفصولُ العامِ كلُّها في (بينانج) ربيعٌ سياحيٌّ.

العاصمةُ جميلةٌ، والنَّظافةُ فيها كما هي في كلِّ مدنِ ماليزيا لا تُستنكَر، وهي تقعُ في سفحِ جبلٍ يرتفعُ عن سطحِ البحرِ نحو (٨٠٠) مترٍ، والصُّعودُ إليه بوساطةِ سكَّةِ حديدٍ، يتسلَّقُ القطارُ عليها في كلِّ ساعتَينِ مرَّةً، وينزلُ أيضًا في كلِّ ساعتَينِ مرَّةً؛ أي: إنَّه يصعدُ في ساعةٍ وينزلُ في أخرى، وللسَّيَّارةِ طريقٌ بعيدٌ من مكانِ السِّكَّةِ الحديديَّةِ، سهلُ الصُّعودِ إلَّا أنَّه كثيرُ التَّعرُّجِ.

صعدْنا بالسَّيَّارةِ إلى متنزَّهٍ خاصٍّ قريبٍ من القمَّةِ، ينتهي إلى بحيرةٍ صناعيَّةٍ، سمَّوها السَّدَّ، تتجمَّعُ فيها المياهُ محروسةً ومسوَّرَةً، تُستعمَلُ للشُّربِ، وفي المتنزَّهِ هذا ممرَّاتٌ للسَّيرِ فيها على الأقدامِ، فلا

مقاهيَ ولا مشاربَ غيرها، وقد تتسرَّبُ من المتنزَّهِ طرقٌ إلى قُرًى مجاورةٍ، وفي هذا المكانِ تمتَّعنا بالسَّيرِ الهُوَيْنَى[١]، واستنشقْنا الهواءَ اللَّذيذَ النَّقيَّ الَّذي يُضرَبُ به المثلُ في ملءِ الصَّدرِ أو الرِّئتَينِ، وبقِينا هناك أكثرَ من ساعةٍ حتَّى إذا قاربتِ الشَّمسُ الغروبَ رَجَعْنا من طريقٍ غيرِ الَّتي أتينا منها.

وصلْنا الفندقَ بعدَ الغروبِ، وصلَّينا العشاءَينِ جمعًا وقصرًا، وقُبَيلَ الثَّامنةِ مساءً توجَّهْنا إلى قصرِ الأميرِ تنكو عبدِ الرَّحمنِ، وقد استقبلَنا عندَ مدخلِ المضافةِ، وكانت الجلسةُ خارجَ البناءِ تحتَ السَّماءِ، وكانَ الطَّقسُ جميلًا، والهواءُ - كما يقالُ - عليلًا، وقد دعا الأميرُ لهذه الجلسةِ لفيفًا[٢] من علماءِ الولايةِ، كانَ منهم المفتي وبعضُ القضاةِ الشَّرعيِّينَ، وأكثرُهم يتكلَّمُ العربيَّةَ، وقد سمَّاهم لي أحدُ القضاةِ، وحضرَ رجلٌ طَلْقُ اللِّسانِ مُهَذَّبُ الكلامِ، اسمُه عبَّاس الحبشيُّ، وهو يعمل مديرًا للمؤسَّسةِ الماليزيَّةِ للسِّياحةِ، وقد لفتتْ سمعي إليه كلمةُ الحبشيِّ، فأحسَّ بذلك، وقال: نعم، إنِّي ابنُ عمِّ الشَّيخِ عليٍّ الحبشيِّ العلويِّ رئيسِ المركزِ الإسلاميِّ في جاكرتا.

بعدَ جلسةٍ قصيرةٍ غابَ عنَّا المضيفُ، وكانَ معي حفيدي الَّذي راحَ يتجوَّلُ معَ أطفالِ القصرِ الكبيرِ الجامعِ أنواعَ الفواكهِ المعروفةِ في

(١) الهُوَيْنَى: تصغيرُ الهُونَى، تأنيثُ الأهون، التُّؤدَةُ والرِّفقُ والسَّكينةُ والوقارُ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٦/ ٢٩٤).

(٢) اللَّفيفُ: الجمعُ العظيمُ من أخلاطٍ شتَّى. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٤/ ٣٧١).

هذا البلدِ، وقالَ لي: إنِّي وصلتُ المطبخَ ولكنِّي خجلتُ؛ لأنِّي رأيتُ تنكو عبد الرَّحمن معَ الخدمِ وبيدِه المغرفةُ يساعدُ في ملءِ الصُّحونِ وهو يضحكُ معَهم كأحدِهم.

وجاءتِ الأطعمةُ أصنافًا، ووقفَ المضيفُ يُرحِّبُ بالمدعوِّينَ، وأخذ صحنًا وغرف لي فيه، ثمَّ أخذ صحنًا آخرَ وغرفَ لحفيدي، وجلسَ معَنا يأكلُ، لم يطغِهِ غناهُ ولا مركزُه ولا رئاستُه، وقد علمتُ أنَّ كلمتَه لم تزلْ مسموعةً، ويُستشار برأيِه، ويُستنار بخبرتِه، وإن كان بعيدًا من الحكمِ فإنَّه لم يزلِ النِّبراسَ[1] المنيرَ وهو في قَصرِه[2].

(١) النِّبراسُ: المصباحُ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٦/ ٥٣١).
(٢) هكذا قالَ لي عنه بعضُ من اجتمعتُ بهم في كوالالمبور.

(مركزُ الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ)

_ فركيم _ Firkim

كان المقرَّرُ في البرنامجِ أن نلتقي بعدَ تناولِ العشاءِ هيئةَ علماءِ بينانج في اجتماعٍ، ولَمَّا كان الأميرُ قد دعا بعضًا منهم فقد اكتفى بِمَن حضرَ، وبعدَ شربِ الشَّايِ طلبَ إليَّ أن نذهبَ إلى مركزِ الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ الَّتي أنشأَها وسمَّاها (Firkim فركيم)؛ لإلقاءِ كلمةٍ هناك.

ذهبْنا في سيَّارةٍ حكوميَّةٍ إلى مركزِ الجمعيَّةِ، واستقبلَنا عندَ البابِ رجالٌ، منهم مديرُ الجمعيَّةِ، وهو هنديُّ الأصلِ، ودخلْنا القاعةَ، وهناكَ رأينا رجالًا ونساءً مجتمعِينَ، ولا أدري هل كان الاجتماعُ عاديًّا أم من أجلي؟! لأنِّي لم أجدِ استعدادًا، وإنَّما كان المجتمعونَ جالسِينَ لسماعِ درسٍ، هكذا خُيِّلَ إليَّ.

دخلْنا معَ الأميرِ كعامَّةِ النَّاسِ، ولم نرَ غيرَ وقوفِ الرِّجالِ لاستقبالِنا عندَ بابِ الجمعيَّةِ، ولعلَّ الاجتماعَ هذا حَصَلَ بسببِ هاتفٍ تلفونيٍّ؛ لأنَّ الأميرَ ومَن معَه والضَّيفَ جلسْنا في أماكنَ عاديَّةٍ لم تُخصَّصْ لأحدٍ منَّا.

قامَ أحدُ الحاضرِينَ خطيبًا باللُّغةِ الماليزيَّةِ، ورحَّبَ بي وبالأميرِ،

ثمَّ دعاني لإلقاءِ كلمةٍ، فقمتُ حامدًا اللهَ، مصلِّيًا على نبيِّهِ، تاليًا الآيةَ الكريمةَ من سورةِ الأنفالِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، مبيِّنًا أنَّ الإسلامَ دينُ حياةٍ وآخرةٍ وعملٍ وعبادةٍ ودولةٍ ومسجدٍ، وليس دينَ رهبنةٍ.

فالزَّواجُ عبادةٌ متى قصدَ الإنسانُ فيه العفَّةَ، والأكلُ والشُّربُ عبادةٌ متى قصدَ الإنسانُ فيهما حفظَ نفسِه من الهلاكِ، والنَّومُ عبادةٌ متى قصدَ الإنسانُ فيه استعادةَ قوَّتِه، وحفظَ صحَّتِه؛ طاعةً لأمرِ ربِّه، والبيعُ والشِّراءُ عبادةٌ متى قصد الإنسانُ فيهما اتِّباعَ أوامرِ اللهِ، وطلبَ فيهما كسبَ الحلالِ من الرِّزقِ، والعملُ عبادةٌ إذا قصدَ الإنسانُ فيه الغِنى عن النَّاسِ، ثمَّ أتقنَ عملَهُ ولم يغشَّ ولم يدلِّسْ[1]، وحسنُ الجوارِ عبادةٌ؛ لأنَّه محبَّةٌ وألفةٌ وتعاونٌ، والعدلُ في الأحكامِ عبادةٌ، وعدلُ ساعةٍ في الحكمِ خيرٌ من عبادةِ سنينَ.

وكنتُ أتكلَّمُ بالعربيَّةِ، والَّذي يُتَرْجِمُ كلامي إلى الماليزيَّةِ الشَّيخُ محمَّد حسين رفيع، واستغرقتِ الكلمةُ معَ التَّرجمةِ ساعةً تقريبًا، وختمتُها؛ بالدُّعاءِ للحاضرِينَ وللمسلمِينَ جميعِهم، وبالسَّلام، وخرجْنا من مركزِ الجمعيَّةِ وقد ودَّعَنا مديرُ المركزِ ورئيسُه، وقد كُنَّا موعودِينَ أن تحضرَ السَّيَّارةُ صباحَ الغدِ السَّاعةَ (٧:٣٠) لجولةٍ في المدينةِ وساحلِها.

---

(١) التَّدليسُ: عدمُ تبيينِ العَيبِ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٦/ ٨٥).

الأربعاء (١٩٧٦/٧/٧م):

أخلفَ السَّائقُ وعدَهُ، وتدارَكَنا اللهُ برحمتِه، فهتفَ السَّيِّدُ عبَّاسٌ الحبشيُّ للفندقِ تلفونيًّا يسألُ عنِّي، فكلَّمني وأرسل إليَّ سيَّارتَه الخاصَّةَ، وذهبْنا إلى المطارِ حيثُ الأخوةُ المودِّعونَ، ومنهم: الشَّيخُ محمَّد حسين رفيع الَّذي اعتذرَ إليَّ من عدمِ حضورِ السَّائقِ، وأخبرَني أنَّه أخذَ ينتظرُ السَّائقَ كما كنتُ أنتظرُه، وبعضُ القضاةِ، ومندوبٌ من الأميرِ.

وفي السَّاعةِ العاشرةِ والنِّصفِ أقلعتِ الطَّائرةُ، وقبلَ تمامِ الحاديةَ عشرةَ وصلْنا مطارَ كوتابارو عاصمةِ ولايةِ كلنتن بعدَ طيرانٍ استغرقَ (٢٥) دقيقةً.

ولايةُ كلنتن

إحدى ولاياتِ الاتِّحاد الماليزيِّ، وهي عاصمةُ الولايةِ كوتابارو، مدينةٌ جميلةٌ تبعدُ من السَّاحلِ نحو (١٠) كيلومتراتٍ، ومن العاصمةِ كوالالمبور (٤٠٠) ميلٍ، ومساحتُها (١٤٤٠٠)كم تقريبًا، وعددُ سُكَّانِها (٧٠٠,٠٠٠) نسمةٍ، معظمُهم مسلمونَ، وقليلونَ من الصِّينِ والهندِ، وأكثرُ مَن قابلتُهم يتكلَّمونَ العربيَّةَ الفصحى تديُّنًا، وسلطان كلنتن ملكُ الاتِّحادِ الحاليُّ، والَّذي يقومُ مقامَه في السَّلطنةِ ابنُه.

استقبلَنا في المطارِ جماعةٌ، منهم: عليُّ هارون مديرُ المركزِ الإسلاميِّ في كلنتن، الَّذي كان حضوري إلى كلنتن بدعوةٍ من رئيسِه داتو محمَّد عصري وزيرِ الأراضي والمعادنِ للاتِّحادِ الماليزيِّ، ويحيى عثمان نائبُ مديرِ المركزِ، والقاضي داود محمَّد، وكثيرونَ غيرهم.

وبعدَ السَّلامِ والاستراحةِ وجدْنا سيَّارةً رسميَّةً في المطارِ نقلتني وحفيدي عبدَ الله إلى دارِ الضِّيافةِ، وعلمتُ أنَّ الحكومةَ عيَّنتِ القاضي داودَ محمَّدًا مُرافقًا لي في أثناءِ زيارتي.

وفي السَّاعةِ العاشرةِ صباحًا ذهبْنا إلى المركزِ الإسلاميِّ، وهناك وجدنا الطَّلبةَ والطَّالباتِ مُتأهِّبِينَ[1] لاستقبالِنا.

(١) تأهَّبَ: استعدَّ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢/ ٤٠).

(المركزُ الإسلاميُّ في كلنتن في العاصمةِ كوتابارو)

أُسِّسَ سنةَ (١٩٦٥م) لتعليمِ العلومِ الإسلاميَّةِ باللُّغةِ العربيَّةِ، ومُدرِّسو هذا المعهدِ كلُّهم يُتقِنُونَ النُّطقَ باللُّغةِ العربيَّةِ الفصحى، وهم خِرِّيجو جامعاتٍ عربيَّةٍ، في الأزهرِ أو المدينةِ المنوَّرةِ أو سوريا، والطَّلبةُ يتكلَّمونَ اللُّغةَ العربيَّةَ أيضًا، والدَّاخِلُ في سورِ هذا المركزِ يظنُّ أنَّه في عالمٍ عربيٍّ.

يضمُّ المركزُ بينَ جدرانِه (٦٧٨) طالبًا وطالبةً، منهم (٢٠٠) أنثى، يتلقَّى الطُّلَّابُ دروسَهم كاملةً باللُّغةِ العربيَّةِ إلَّا اللُّغةَ الإنجليزيَّةَ؛ لأنَّ دراستَها إجباريَّةٌ في مدارسِ الاتِّحادِ الماليزيِّ جميعِها؛ الحكوميَّةِ والأهليَّةِ، والشَّهادةُ الَّتي يمنحُها المركزُ معترفٌ بها لدى الأزهرِ ولدى كثيرٍ من الجامعاتِ الإسلاميَّةِ في البلادِ العربيَّةِ، ومنذُ أُنشِئَ المركزُ تبرَّعَ الأزهرُ بتزويدِه باثنَينِ من المُدَرِّسِينَ، كُلَّما انتهتْ مُدَّةُ إعارتِهما جدَّدَها، أو زوَّدَهُ بغيرِهما.

وفي المركزِ مكتبةٌ تحتوي على (١٦٠٠٠) كتابٍ في مختلفِ أنواعِ العلومِ والفنونِ الإسلاميَّةِ، وقد قالَ لي نائبُ المديرِ الأستاذُ يَحيى عثمان: إنَّ كثيرًا من هذه الكتبِ والمجلَّاتِ جاءتْ هديَّةً من الشَّقيقةِ الكويتِ المسلمةِ، من الحكومةِ أو من هيئاتٍ شخصيَّةٍ فيها، ولم

تقصِّرِ الحكوماتُ السُّعوديَّةُ والمصريَّةُ والعراقيَّةُ في تزويدِها.

وفيه أيضًا قاعةٌ للمحاضراتِ تُنشأُ، ومكتبةٌ جديدةٌ تُؤَسَّسُ، وقُرِّرَ أن يُطلَقَ اسمُ المرحومِ الملكِ فيصلٍ على المكتبةِ، وتُسمَّى القاعةُ باسمِ ولايةِ جوهور؛ لأنَّ حكومتا ولايةِ جوهور والمملكةِ العربيَّةِ السَّعوديَّةِ تعاونتا على بنائِهما، وسيُحتَفَلُ بافتتاحِهما في أوائل سنة (١٣٩٧هـ)[١].



(١) أي: سنة (١٩٧٧م).



الاحتفال

دخلْنا قاعةَ الاجتماعِ ووجدْنا المدرِّسِينَ جميعَهم، ومعَهم مندوبا الأزهرِ والطَّلبةُ والطَّالباتُ قد جلسوا على كراسيِّ الاستماعِ والاجتماعِ، فسلَّمتُ، وبعدَ ردِّ السَّلامِ أَلقَى عَرِيفُ الحفلِ الأستاذُ يَحيى عثمان كلمةَ ترحيبٍ، وطلبَ إلى أحدِ الطَّلبةِ افتتاحَ الحفلِ بتلاوةِ آياتٍ كريمةٍ من كتابِ اللهِ، ثمَّ قامَ أحدُ الطَّلبةِ خطيبًا، وأظهرَ في كلمتِه نشاطَ المدرِّسِينَ، وشكرَهم، وبيَّن أنَّ توفيقَ الطَّلبةِ في تلقِّي علومِهم كانَ نتيجةً لحسنِ نيَّةِ المدرِّسِينَ وإخلاصِهم، وقالَ في كلمتِه: إنَّ هذا المركزَ منذُ أُسِّسَ وهو يسعى لِمَحْوِ الأُمِّيَّةِ الدِّينيَّةِ[1].

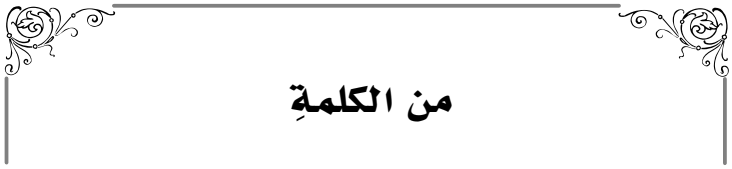
ثمَّ قامَ الأستاذُ عليُّ هارون مديرُ المركزِ، وألقى كلمةَ المركزِ، وبيَّنَ بعضَ نشاطاتِه وجهودِه، وشدَّةَ حاجتِه إلى مدِّ المعونةِ المادِّيَّة إليه، وأثنى على الكويتِ والسُّعوديَّةِ اللَّتَينِ أسهمتا في مديدِ العونِ إليه بناءً وكُتُبًا، وقال في ختامِ كلمتِه: إنَّ هذا المعهدَ المتواضعَ لَيرجو من إخوانِه المسلمِينَ ألَّا يتركوهُ وحيدًا، فإنَّ «**يَدَ اللَّهِ مَعَ الجَمَاعَةِ**»[2] واللهُ ﷻ أمرَ عبادَه المسلمِينَ أن يتعاونوا على البرِّ والتَّقوى.

---

(١) كلمةٌ أعجبتْني كثيرًا، ولم أسمعْها من أحدٍ قبلَه.

(٢) رواهُ التِّرمذيُّ، رقم: (٢١٦٦)، وقال: هذا حديثٌ حَسَنٌ غريبٌ.

ثمَّ ختمَ كلمتَه بالسَّلامِ، وقامَ عريفُ الحفلِ الأستاذُ يَحيى عثمان وقدَّمَني، فقلتُ كلمتي.



من الكلمةِ

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، الحمدُ للهِ ربِّ العالَمِينَ، وأشهدُ أن لا إله إلَّا اللهُ أرحمُ الرَّاحمِينَ، وأُصلِّي على نبيِّهِ الأمينِ المبعوثِ بالعلمِ والتَّعليمِ، وبالهدايةِ إلى الصِّراطِ المستقيمِ، وبعدُ:

فأبدأُ كلمتي هذه مُلتَمِسًا العذرَ من الأُستاذِ مديرِ المعهدِ الَّذي ألقى كلمةَ المركزِ ووصفَهُ بالمعهدِ المتواضعِ، قائلًا له: أنعمْ بهذه الصِّفةِ؛ صفةِ التَّواضعِ، وإنَّها لَبُشرى طيِّبةٌ أن تُمنحَ هذه الصِّفةُ لهذه المؤسَّسةِ، فإنَّ «**مَنْ تواضعَ لله رَفَعَهُ اللهُ**»[1] كما قالَ رسولُ اللهِ ﷺ، وسيرفعُ اللهُ ذكرَ هذا المركزِ تنفيذًا لوعدِ المصطفى ﷺ؛ لأنَّه تواضعٌ من غيرِ مذلَّةٍ ولا منقصةٍ، ثمَّ أشكرُ الأساتذةَ الحاضرِينَ، وأخصُّ بالذِّكرِ مديرَ المدرسةِ ومُساعِدِيهِ والْمُحاضِرِينَ والْمُعِيدِينَ؛ لحسنِ لقائهم وحفاوتِهم بي، وأرجو أن يُحسِنَ اللهُ جزاءهم، فإنَّه لا حولَ لي ولا قوَّةَ على شكرِهم إلَّا بمعونةِ اللهِ.

عتبَ علينا مندوبُ الطَّلبةِ في إعراضِنا عن زيارةِ هذه الدِّيارِ، فكيفَ نزورُها والغربُ يُنظِّمُ الدِّعاياتِ ضدَّها؟

ففي بلادِكم - كما يقولُ الغربُ: كوليرا وتيفوس وتيفوئيد وحمَّى صفراء وملاريا وحشرات - وكلُّها أمراضٌ وبائيَّة يخشاها الإنسانُ؛

(١) رواهُ البيهقيُّ في شعب الإيمان، رقم: (٧٧٩٠).

لأنَّ النَّاجي منها قليلٌ، ومتى أصابت قَتَلَتْ أو أَعطَبَتْ، لهذا لا يستطيع أحدٌ الوصولَ إلى ديارِكم إلَّا بعدَ أن يُقاسِيَ الأمرَّينِ، ويحتاطَ لنفسِه بالحُقنةِ[١] وقايةً من هذه الأمراضِ، ويتزوَّدَ بالحبوبِ الَّتي تساعدُ في الوقايةِ، وهو يظنُّ في نفسِه أن لا نجاةَ، ومن العجيبِ فيكم أنَّكم تصدِّقون كلَّ ما يُقالُ عنكم، فهذا الغربُ الغريبُ يدعو لبلادِه، وليس في بلادِه جزءٌ من بعضِ ما في بلادِكم من مناظرَ طبيعيَّةٍ وخيراتٍ وفواكِهَ طيِّبةٍ ومياهٍ عذْبةٍ، وأنتم عمَّا عندَكم ساكتونَ، فلماذا؟

فقد كنتُ في جزيرةِ جاوا، ورأيتُ منظرًا طبيعيًّا ساحرًا لم يزلْ راسخًا في ذهني وذاكرتي، وسبَّحتُ اللهَ حينَ رأيتُه، وقلتُ في دعائي: اللَّهُمَّ إن كانتِ الجنَّةُ هكذا فلا تحرمْني منها. قلتُ هذه الكلمةَ بلا شعورٍ؛ لأنَّ المنظرَ كان ساحرًا حقًّا؛ الهواءُ والماءُ والجبلُ والوادي والخضرةُ والهدوءُ والصَّفاءُ، نعمْ قلتُ ذلك، وأستغفرُ اللهَ من كلِّ ما يُغضِبُ اللهَ.

وقد رجاني الطَّالبُ النَّجيبُ أن أكونَ وسيطًا بينَ المسؤولِينَ عندَنا والمركز، ولِي الشَّرفُ أن أكونَ عندَ حُسنِ ظنِّ هذا الشَّابِّ، ولكنْ متى كانَ في قلب المسؤولِ ذرَّةٌ من إيمانٍ بالإسلام فلن يُقَصِّرَ عن مدِّ يدِه بالعونِ لِمُسلِم، أمَّا إن كانَ جاحدًا فجحودُه يمنعُه عن فعلِ الخيرِ، وإنِّي أحمَدُ اللهَ تعالى وأشكرُه حيثُ وَفَّقَ الكويتَ لِتُشارِكَ في تجهيزِ المكتبةِ بأُمَّهاتِ الكتبِ الَّتي تفيدُ الْمُراجِعَ والْمُستنبِطَ.

(١) الحُقنةُ: كلُّ دواءٍ يُحقنُ به المريضُ المحتقنُ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٤، ٤٥٠).

وأنتم يا طُلَّابَ كُلِّيَّةِ الدَّعوةِ والإرشادِ! اجتهدوا، فالخيرُ كلُّه أمامَكم، أنتم المكلَّفونَ الآنَ، أو إنَّكم اخترتم أنفسَكم لهذه المهمَّةِ الَّتي كلَّفَ اللهُ بها أنبياءَه، وأنتم الَّذين قالَ الرَّسولُ ﷺ في مثلِهم «**إنَّ العلماءَ وَرَثَةُ الأنبياءِ**»[(١)]، وأنتم الَّذين حثَّهمُ الرَّسولُ ﷺ على الدَّعوةِ إلى اللهِ والدِّلالةِ إلى الخيرِ بقولِه: «**فوالله لَأَنْ يُهْدَى بك رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لك مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ**»[(٢)].

ثمَّ قلت: وإنَّ كلمةً سمعتُها من مندوبِ الطَّلبةِ - هي: إنَّ خرِّيجي كلِّيَّةِ الدَّعوةِ هم الَّذين نحاولُ بمساعدتِهم محوَ الأمِّيَّةِ الدِّينيَّةِ - لَكَلِمَةٌ أحرى أن يوصفَ بها الجاهلُ بدينِه، وما أكثرَ الأمِّيَّةَ الدِّينيَّةَ عندَنا نحن العربَ! فهي في كلِّ بلدٍ من بلادِنا، في شرقيِّ الشَّرقِ الأوسطِ وغربيِّه، وهي في الكبارِ من رجالِنا ونسائِنا، كما هي في الصِّغارِ، وهي في البارزِينَ أَبْرَزُ، وهي في الباديةِ كما هي في الحضرِ، فهل ستُمحى هذه الأُمِّيَّةُ عندَ العربِ، أم إنَّ اللهَ - جلَّ شأنُه - سينفِّذُ وعدَه فيهم؟!

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمَّد: ٣٨]، إنَّ على القائمِينَ بهذه المؤسَّسةِ ألَّا يشكُوا من قِلَّةِ الدَّخلِ؛ فالشَّكوى خيبةٌ، ومتى استولتِ الخيبةُ بدأَ العجزُ وفَتَرَتِ[(٣)] الهمَّةُ وتراخى القصدُ.

---

(١) رواهُ البخاريُّ، (١/ ٢٤) باب: العلم قبل القول والعمل.

(٢) رواهُ البُخاريُّ، رقم: (٢٩٤٢).

(٣) فَتَرَ: سكنَ بعدَ حِدَّةٍ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٣/ ٢٩٣).

ولنضرب لكم مثلًا: المعهدَ الدِّينيَّ الأهليَّ في فابيلان في جوكجاكرتا في جاوا الوسطى في إندونيسيا، أسَّسَ الأُستاذُ الموفَّقُ همام جعفر هذا المعهدَ بمساعدةِ بعضِ أهلِه وزوجتِه، وجعلَ من طلبتِه عمَّالًا وزَّعَ عليهم العملَ إناثًا وذكورًا، وجعلَ لكلِّ فريقٍ منهم عملَه، وقسَّم الوقتَ إلى أربعِ مراحلَ: للدَّرسِ ثماني ساعاتٍ، وللمذاكرةِ أربعٌ، وللعملِ أربعٌ، وللنَّومِ ثمانٍ، والطُّلَّابُ يعملونَ؛ فريقٌ في الزَّرعِ، وفريقٌ في تربيةِ الحيوانِ، وفريقٌ في النِّجارةِ، وفريقٌ في البناءِ، الطُّلَّابُ زرعوا وربُّوا دواجنَ وأسماكًا، وزرعوا الخضرَ، وبنَوا مساكنَهم وأقسامَ دروسِهم، وصنعُوا أسِرَّةَ نومِهم وكراسيَّ تعليمِهم، والطَّالباتُ يعملْنَ في خياطةِ الملابسِ، والطَّبخِ، ونحو ذلك من الأعمالِ الَّتي هي من اختصاصِ النِّساءِ.

فهذا الرَّجلُ صفتُه كاسمِه (همام)، وُفِّقَ في عملِه فلم يكلَّ، وأحبَّهُ طُلَّابُه وأطاعوه الطَّاعةَ العمياءَ، طاعةَ الجنديِّ لضابطِه، وقد زرتُ المؤسَّسةَ ورأيتُ الجنودَ، فكلُّ طالبٍ في المدرسةِ جنديٌّ، ورأيتُ القائدَ وسألتُ له اللهَ أن يُوفِّقَهُ في عملِه، ويوفِّقَ طلبتَه إلى المستقبلِ الحسنِ النَّافعِ، وخَتمتُ الكلمةَ بالدُّعاءِ للجميعِ، وكانتْ مُدَّةُ الخطابِ خمسًا وثلاثينَ دقيقةً، لم تتخلَّلْها أسئلةٌ ولا ترجمةٌ؛ لأنَّ النَّاسَ جميعَهم هُنا يعرفُونَ العربيَّةَ.

وبعدَ أحاديثَ ودِّيَّةٍ قامَ الأستاذُ يَحيى عثمان، وقالَ للطَّلَبةِ: إنَّ الضَّيفَ قد أهدى لمكتبتِنا مجموعةً من مؤلَّفاتِه، فقبلْناها شاكرِينَ، ونرجو أن يقبلَ منَّا هذه الهديَّةَ المتواضعةَ؛ طبقًا من الفضَّةِ كُتِبَ عليه

اسمُ المركزِ ووُضِعَ علمُه.

قبلتُ الهديَّةَ وقلتُ: ستبقى الهديَّةُ ذكرى لهذه الزِّيارةِ ما حَييتُ، وإنِّي أُقَدِّمُ لكم هديَّةً ثانيةً هي ألفٌ وخمسُمئةِ دولارٍ أمريكيٍّ، ولكنَّها ليستْ كهديَّتِكم؛ فهديَّتي فانيةٌ، أمَّا هديَّتُكم فإنَّها باقيةٌ عندي ما حييت.

صفَّقَ الحاضرُونَ شُكرًا، وانتهتِ الحفلةُ السَّاعةَ الواحدةَ ظهرًا، وخرجْنا من المركزِ إلى دارِ الضِّيافةِ لصلاةِ الظُّهرِ، ثمَّ الغداءِ الَّذي أعدَّتْهُ السَّاعةَ الثَّانيةَ بعدَ الظُّهرِ سلطنةُ الولايةِ بدعوةٍ من كبيرِ وزراءِ كلنتن الدَّاتو محمَّد ناصر.

وحضرَ الغداءَ مفتي الولايةِ وجماعةٌ من أساتذةِ المركزِ الإسلاميِّ ومن قضاةِ الولايةِ، وبعدَ ذلك جلسْنا نتحدَّثُ في شتَّى الشُّؤونِ الإسلاميَّةِ والتَّعليميَّةِ، وانفضَّ المجلسُ في الثَّالثةِ تمامًا.

في الرَّابعةِ والنِّصفِ خرجْنا معَ المرافقِ نتجوَّلُ في مدينةِ كوتابارو، فزرْنا المعملَ المهنيَّ لتدريبِ المعوَّقِينَ، ورأينا هناكَ فتياتٍ مُشرَّداتٍ من فيتنام، وشبابًا مشوَّهِينَ، وشبابًا بكمًا، وكلُّهم يعملُ في النِّجارةِ، وفيه قسمٌ للحدادةِ، ويُعطَى لكلِّ معوَّقٍ منهم خمسونَ دولارًا ماليزيًّا، وكسوةٌ، وغذاءٌ، ومَنامٌ، وأهداني المعملُ طبقَينِ؛ أعني: صينيَّتَينِ من الخشبِ، من صنعِ الطَّلبةِ؛ في الأولى شعارُ الاتِّحادِ الماليزيِّ، وفي الثَّانيةِ شعارُ الولايةِ.

وأهدى حفيدي سلَّةً من خُوصِ[١] النَّارجيلِ يستعملونَها في تقديمِ الفواكهِ على الموائدِ، وقد رأينا مثلَها على مائدتِنا اليومَ.

وبعدَ ذلك زرْنا مصنعًا للفضِّيَّاتِ لم نرَ فيه ما يلفتُ النَّظرَ، ثمَّ زُرْنا مصنعًا للنَّسيجِ وجدْنا فيه فتياتٍ ينسجْنَ على الطِّرازِ الأوَّلِ بالنَّولِ[٢] والبَكْرَةِ[٣]، ورأيتُ فيه قطعةَ نسيجٍ من الحريرِ الخالصِ سوداءَ اللَّونِ أعجبتْني كثيرًا، مطرَّزةً بخيوطٍ من الفضَّةِ إلَّا أنَّ لونَ الفضَّةِ كان باهتًا، دفعتُ فيها ثمنًا، ولو أنَّ صاحبَ المصنعِ باعَني لاشتريتُها، ورأيتُ قطعةً أخرى ظننتُها من الحريرِ، لكنَّ صاحبَ المصنعِ قالَ: إنَّها من القطنِ الماليزيِّ.

وتجوَّلْنا في محلَّاتٍ أُخرى لم نرَ فيها ما يلفتُ النَّظرَ، وأخيرًا قالَ المرافقُ فضيلةُ القاضي داود محمَّد: إنَّنا سنذهبُ إلى السَّاحلِ، فهناك جماعةٌ ينتظرونَ تشريفَكم.

يبعدُ السَّاحلُ من المدينةِ ستَّةَ أميالٍ، وهو مملوءٌ بالمقاهي والملاهي اللَّيليَّةَ، وهناك في أحدِ المقاهي رأينا فضيلةَ المفتي وبعضَ القُضاةِ وفريقًا من مسؤولي المركزِ الإسلاميِّ، قُدِّمَتْ لنا ثمرةُ

(١) الخُوصُ: ورقُ النَّخْلِ والمُقْلِ والنَّارَجِيلِ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٧/ ٥٧٠).

(٢) النَّوْلُ: خشبةُ الحائكِ الَّتي يَلُفُّ عليها الثَّوبَ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣١/ ٤٤).

(٣) البَكْرَةُ: اسمٌ للَّتي يُستَقَى عليها، وهي خشبةٌ مستديرةٌ في وسطِها مَحَزٌّ للحبلِ، وفي جوفِها مِحْوَرٌ تدورُ عليه. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٠/ ٢٣٦).

النَّارجيل الخضراء بحجمِها الكبيرِ، وهي مملوءةٌ بشرابِها العذبِ الصَّافي، وشربْنا منها حتَّى ارتوينا، ثمَّ شربْنا القهوةَ الحلوةَ، وأكلْنا ممَّا قُدِّمَ لنا، وبعدَ سيرٍ على الأقدامِ على ذلك السَّاحلِ المسمَّى شاطئَ الغرامِ وتجوالٍ على رمالِه البيضاءِ عُدْنا إلى دارِ الضِّيافةِ.





شاطئُ الغرامِ

لم نرَ على ذلك الشَّاطئِ غرامًا، وسألتُ: لماذا سُمِّيَ شاطئُ الغرام؟ قيلَ لي: إنَّه ليسَ لغرامِ بني الإنسانِ، وإنَّما لغرامِ السَّلاحفِ، فالسَّلاحفُ تأتي في وقتٍ مُعَيَّنٍ من السَّنةِ من سواحلِ أستراليا وجزرِ المحيطِ الهادي لتتجمَّعَ هنا ذكورُها وإناثُها، والإناثُ كلُّها تبيضُ على هذا السَّاحلِ، تضعُ السُّلحفاةُ ما بينَ (٨٠) إلى (٤٠٠) بيضةٍ، ثمَّ تدفنُها، وتعودُ إلى أستراليا، ويخرجُ أهالي المدينةِ فيجمعونَ من بيضِ السَّلاحفِ ما يستطيعونَ حملَهُ وجمعَهُ، ويبيعونَهُ في أسواقِ المدينةِ، وهو طعامٌ شهيٌّ لذيذٌ، قيلَ لي: إنَّ قشرَ البيضِ ليِّنٌ خالٍ من الكلسِ، والبيضةُ مهما طُبِخَتْ تبقى كاللَّحمِ ليِّنةً لا تجمدُ، وطعمُها كطعمِ الجمبريِّ (الرُّوبيان)، وإنَّ الملحَ لا ينفذُ[1] إلى داخلِ البيضةِ، ولكنَّها تُقَشَّرُ ثمَّ تُمَلَّحُ.

إذن: فالغرامُ ليسَ غرامَ بني الإنسانِ، وإنَّما غرام السَّلاحفِ.

عُدْنا بعدَ المغربِ إلى دارِ الضِّيافةِ، فصلَّيتُ المغربَ والعشاءَ جَمْعًا، وجلستُ أكتبُ بعضَ مذكَّراتي هذه.

وفي الثَّامنةِ والنِّصفِ دُعِينا لتناولِ العشاءِ في غرفةِ المائدةِ في دار الضِّيافةِ، وقد أَعَدَّ هذا العشاءَ مركزُ الدِّراساتِ الإسلاميَّةِ، وحضرَ

(١) النَّفاذُ: الجوازُ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٩/ ٤٨٦).

العشاءَ أساتذةُ المركزِ كلُّهم؛ الموظَّفونَ والمحاضِرونَ والمعيدونَ ذكورًا وإناثًا، والبارزونَ من الطَّلبةِ، ونائبُ كبيرِ الوزراءِ السَّيِّدُ وان إسماعيل إبراهيم - وان: كلمةُ تشريفٍ، تعني: أكبرَ من بك، وأقلَّ من باشا - وكانت جلسةً منظَّمةً مُحاطَةً بالرُّوحِ الإسلاميَّةِ والمحبَّةِ الدِّينيَّةِ واللُّغةِ العربيَّةِ.

وفي السَّاعةِ العاشرةِ انفضَّ المجلسُ.

الخميس (٨/٧/١٩٧٦م):

نبَّهنا الخادمُ السَّاعةَ السَّابعةَ والنِّصفَ صباحًا، وكُنَّا قدِ استيقظْنا ولبسْنا، وفي الثَّامنةِ جاءَ مرافقُنا القاضي داود محمَّد ومعَه السَّيِّدُ جعفر الغوَّاص حضرميُّ الأصلِ ماليزيُّ المولدِ، فأفطرْنا معًا.

وفي التَّاسعةِ غادرْنا دارَ الضِّيافةِ إلى مركزٍ إسلاميٍّ، اسمُه مجلس الشُّؤونِ الإسلاميَّةِ والتَّقاليد المالويَّة، وهو أقدمُ مجلسٍ إسلاميٍّ في ماليزيا، أُسِّسَ سنةَ (١٩١٥م).



(مجلسُ الشُّؤونِ الإسلاميَّة والتَّقاليد المالويَّة)

لم يهضمْ سمعي كلمةَ التَّقاليدِ المالويَّةِ، فلماذا لا تكونُ التَّقاليدَ الإسلاميَّةَ والتَّعاليمَ الإسلاميَّةَ، فيكونُ اسمُه مجلس التَّعاليم والشُّؤون الإسلاميَّة؟! أظنُّ أنَّها كلمةٌ كانتْ في عهدِ الاستعمارِ، وجنَّدَها لتكونَ وسيلةَ تفرقةٍ بينَ ماليزيا والبلادِ المجاورةِ لها، لا سيَّما أنَّ هذه الجزيرةَ أو شبهَ الجزيرةِ كانت تُسمَّى في عهدِ الاستعمارِ (ملايو).

رأيتُ هناك رئيسَ المركزِ سعادةَ داتو الحاجِّ محمَّد بن داود، ومديرَ التَّعليمِ والتَّربيةِ الحاجَّ حسن بن إدريس، وهو خِرِّيجُ دارِ العلومِ في مِصرَ، وجماعةً من موظَّفي المركزِ على اختلافِ وظائفِهم، وعلمتُ أنَّ في المركزِ لجنةَ فتوى برئيسٍ وأعضاء، وهو يتولَّى أمورًا كثيرةً في مختلفِ الولاياتِ الماليزيَّةِ، ويحلُّ مشكلاتِها.

تكلَّمَ رئيسُ المركزِ الدَّاتو محمَّدُ بْنُ داودَ كلمةً بالمالويَّةِ رحَّبَ بها، وبيَّنَ أنَّه مسرورٌ بهذه الزِّيارةِ الَّتي كان يترقَّبُها منذُ عَلِمَ بوصولي إلى ماليزيا، ويحمَدُ اللهَ على ذلك، فردَدْتُ على تحيَّتِه بمثلِها، وشكرتُ اللهَ الَّذي أنعمَ عليَّ بزيارةِ هذه البلادِ الإسلاميَّةِ الَّتي أرجو اللهَ أن يحفظَ عليها دِينَها، ويُوَفِّقَ القائمِينَ عليها والمسؤولِينَ عنها

ليَنفُضُوا عنهم آثارَ الكفرِ الاستعماريِّ؛ لتكونَ البلادُ كما هي مسلمةً في شؤونِها الحياتيَّةِ جميعِها.

بعدَ تناولِ القهوةِ والشَّايِ خرجْنا إلى المسجدِ القريبِ من المركزِ، التَّابعِ له، واسمُه المسجدُ المحمَّديُّ، وهو قائمٌ على أرضٍ مساحتُها عشرونَ ألفَ مترٍ مربَّعٍ، وللمسجدِ أجنحةٌ وفضاءٌ يمتلِئُ بالمصلِّينَ أيَّامَ الجمعةِ والأعيادِ، وبناؤُهُ ضخمٌ كسائرِ المساجدِ في هذه البلادِ؛ لكنْ تراءى لي أنَّ هذا المسجدَ بُنِيَ في أوقاتٍ مختلفةٍ؛ لأنَّ الملحقاتِ الدَّاخليَّةَ في حرمِ المسجدِ ليستْ كبنائه، ومنه ذهبْنا إلى المعهدِ المُحَمَّديِّ التَّابعِ للمركزِ، وتجوَّلْنا في حجراتِه الكثيرةِ، وعلمْنا أنَّه يضمُّ أكثرَ من ألفَي طالبٍ وطالبةٍ من شتَّى أنحاءِ البلادِ، ولهم في المعهدِ أماكنُ لنومِ البناتِ، وأماكنُ لنومِ البنِينَ، وهذا المعهدُ الوحيدُ الَّذي رأيتُ فيه صفوفَ البناتِ منفصلةً عن صفوفِ البنِينَ.

أمَّا المعاهدُ والمدارسُ والكُلِّيَّاتُ الَّتي رأيتُها في ماليزيا وإندونيسيا فإنَّ الصُّفوفَ تجمعُ بينَ الذُّكورِ والإناثِ في غرفةٍ واحدةٍ؛ للبنِينَ جهةٌ وللبناتِ جهةٌ، والبناتُ في زِيٍّ[1] محتشمٍ وثيابٍ طويلةٍ فضفاضةٍ تُغطِّي أقدامَهنَّ، ولا يظهرُ من البنتِ شيءٌ غير وجهِها وكفَّيها فقط، مُتَّبِعةً في ذلك تعاليمَ دينِها الَّذي يأمرُ النِّساءَ بأن: ﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾ [النُّور: ٣١]، ومُحَرَّمٌ على كلِّ طالبةٍ أن تستعملَ أيَّ وسيلةٍ من

(١) الزِّيُّ: اللِّباسُ والهيئةُ. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٤/ ٣٦٦).

الزِّينةِ لباسًا أو طلاءً أو حُلِيًّا[١] سوى السَّاعةِ إن ملكتْها.



(١) الحَلْيُ: ما يُزَيَّنُ به من مَصُوغِ المعدنيَّاتِ أو الحجارةِ، وجمعُها: حُلِيٌّ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٧/ ٤٦٩).

العودةُ إلى العاصمةِ

لم نلتقِ في المعهدِ الأساتذةَ والطُّلَّابَ؛ لضيقِ الوقتِ، ومنهُ توجَّهْنا إلى المطارِ، ورافَقَنا إليه الحاجُّ حسن إدريس، وهناك التقَيْنا بالمودِّعِينَ من رجالِ المركزِ المضيفِ؛ مركزِ الدِّراساتِ الإسلاميَّةِ العاليةِ، وفي السَّاعةِ العاشرةِ دُعِيْنا إلى الطَّائرةِ، وودَّعَنا الحاضرُونَ عندَ بابِ المطارِ، ومشى معي إلى سُلَّمِ الطَّائرةِ فضيلةُ القاضي داود بن محمَّد، وفي السَّاعةِ الحاديةَ عشرَ والرُّبعِ أقلعتِ الطَّائرةُ متوجِّهةً إلى العاصمةِ كوالالمبور، وبعدَ (٣٥) دقيقةً هبطتْ في مطارِها الدَّولِيِّ، والحمدُ للهِ على السَّلامةِ، ولم نجدْ في المطارِ مَن يستقبلُنا سوى سائقِ السَّيَّارةِ السِّياحيَّةِ الَّذي أقلَّنا إلى الفندقِ، وفيه التقى الصَّبيُّ بأبوَيهِ، والتقى الأبُ بابنتِه وزوجِها وأولادِهما بعدَ فراقٍ دامَ خمسِينَ ساعةً، ولم نخرجْ من الفندقِ هذا اليومَ، ولم نتَّصلْ بأحدٍ غير السَّيِّدِ يوسُف الزَّواويِّ الَّذي أخبرْناه بوصولِنا هاتفيًّا.

الجمعة (١٩٧٦/٧/٩م):

اشتهَيْنا اليومَ زيارةَ حديقةِ الحيوانِ، وكُنَّا أمسِ قد اتَّفقْنا معَ سائقِ سيَّارةِ أُجرةٍ ليأتيَنا صباحَ اليومِ، والحديقةُ تبعدُ من المدينةِ نحو ثلاثةَ عشرةَ كيلو من المتراتِ، فرأيناها مُغلقةً، وعلمتُ أنَّها لن تفتحَ إلَّا في العاشرةِ، ما عدا يوم الأحد؛ فإنَّها تفتحُ في التَّاسعةِ، واليومُ الجمعةُ، والصَّلاةُ تبدأُ في الثَّانيةَ عشرةَ وخمسٍ وأربعينَ دقيقةً، فليسَ

ثمَّةَ فرصةٌ، إذن: فلنَرْجِعْ ونؤخِّر زيارةَ الحديقةِ إلى يومِ الأحدِ.

في الحاديةَ عشرةَ ذهبتُ وحفيدي لصلاةِ الجمعةِ في المسجدِ الوطنيِّ؛ مسجدِ نيجارا، الَّذي تكلَّمْنا عليه مِن قَبلُ، والتقيتُ هناك السَّيِّدَ الزَّواويَّ، والمفتي، وإمامَ المسجدِ، وشابًّا سنغافوريَّ المولدِ ماليزيَّ الجنسيَّةِ كانَ يتيمًا فقيرًا جاهلًا ولكنَّهُ شقَّ طريقَه في الحياةِ علمًا وعملًا، وكان إمامَ المسجدِ الوطنيِّ عندَ افتتاحِه، لكنَّ أعمالَهُ الحُرَّةَ حالتْ دونَ استمرارِه بوظيفةِ الإمامةِ، وأجبرتْهُ على الاستقالةِ، وعلمتُ من مُحَدِّثي أنَّ الشَّابَّ ما زالَ يعملُ ويتعلَّمُ ويُعَلِّمُ بلا راتبٍ، وقد تفضَّلَ هذا الشَّابُّ الَّذي لم أسألْه عن اسمِه، وحملَني بسيَّارتِه من المسجدِ إلى الفندقِ، وعندَ بابِه ودَّعْتُه مشكورًا.



(من الفقهِ)

بعدَ العصرِ ذهبتُ لزيارةِ فضيلةِ الشَّيخِ الزَّواويِّ بدارِه، ووصلتُ في الخامسةِ، وجلسْتُ معَهُ جلسةً علميَّةً ودِّيَّةً، وبحثْنا في موضوعاتٍ عدَّةٍ:

١) الطَّلاقُ الثَّلاثُ في مجلسٍ واحدٍ، وعدُّهُ طلقةً واحدةً.

٢) الطَّلاقُ بعدَ الطَّلاقِ وقبلَ الرُّجوع، وعدُّه لاغيًا؛ لأنَّه طلَّقَ مَن ليستْ في عصمتِه، فالزَّوجةُ بالطَّلاقِ الأوَّلِ أصبحتْ خارجةً عن عصمةِ الْمُطَلِّقِ.

٣) تحديدُ النَّسلِ واستعمالُ موانعِ الحملِ مُباحٌ، ولكنَّ الشَّيخَ يوسُفَ قالَ: إنَّه مُباحٌ في أثناءِ السَّنتَينِ الأُوليَينِ من الحضانةِ بدليلِ قولِه تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، ولم يوافقْني على مطلقِ الإباحةِ، وقالَ: لا أجيزُها لامرأةٍ إلَّا لمرضٍ يضرُّها يقرِّرُهُ الطَّبيبُ المختصُّ، أو في أثناءِ فصالِ الطِّفلِ، وهي الأشهرُ الأربعةُ والعشرونُ للرَّضاعةِ؛ لأنَّ إرضاعَ الطِّفلِ مِن حليبِ الحاملِ مُضرٌّ بصحَّتِهِ، وهو الَّذي يُسمِّيهِ بدوُ البلادِ العربيَّةِ المهلَ، ثمَّ تحوَّلْنا إلى تفسيرِ بعضِ كلماتِ القرآنِ.

٤) تفسيرُ: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥]، قلتُ:

لماذا لا تكونُ هذه الشَّجرةُ شجرةَ جوزِ الهندِ؟! فإنِّي قد علمتُ أنَّ جذورَها تمتدُّ طوليًّا في الأرضِ ولا تتشعَّبُ، وارتفاعُها في السَّماءِ شاهقٌ، فقدْ تتجاوزُ ستِّينَ مِترًا وثمرتُها لا تنقطعُ. فقالَ الشَّيخُ يوسفُ: واللهِ لقدْ أتيتَ بجديدٍ، وإنِّي أؤيِّدُ هذهِ الفكرةَ.

٥) تكلَّمْنا عَلى وعدِ اللهِ ﷻ لبني إسرائيلَ في سورةِ الإسراءِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الإسراء: ٤] إلى آخرِ الآياتِ، وقلتُ: إنَّ لي في هذهِ الآياتِ مراسلاتٍ معَ الشَّيخِ المرحومِ عبدِ المجيدِ البكريِّ في الموصلِ في العراقِ، وإنِّي أخالفُ المفسِّرينَ في أنَّ العبادَ الَّذين بعثَهم اللهُ عليهم هم قومُ بُخْتُنَصَّرٍ[1] عبدةُ الأوثانِ والنُّجومِ، وأقولُ: إنَّهم أصحابُ محمَّدٍ ﷺ؛ لأنَّ كلمةَ عبدٍ مضافةٌ إلى اللهِ ﷻ لا يُعطيها إلَّا للمتَّقينَ الأوَّابينَ المُختارينَ المُصطفينَ مِن عبادِهِ. وقومُ بُخْتُنَصَّرٍ لا تُناسِبُهم هذه الصِّفةُ. إنَّ العبادَ همُ المسلمونَ بدليلِ قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الإسراء: ٦]، فالضَّميرُ يعودُ في عليهم إلى المسلمينَ الَّذينَ هم خلفُ أولئكَ السَّلفِ، والكثرةُ هي هذهِ الَّتي حدثَتْ في زمانِنا هذا، وفي سنةِ (١٩٤٨م)، والإمدادُ بالأموالِ والبنينَ حاصلٌ في زمانِنا هذا، ونراهُ يأتيهم مِن دولِ الغربِ؛ مِن أوروبَّةَ وأمريكا، وسيأتي وعدُ الآخرةِ متى انتبهَ المسلمونَ وصَحَوا مِن غفوتِهم أو نومتِهم الطَّويلةِ، ومتى

(١) بُخْتُنَصَّر: هو الَّذي كانَ خرَّبَ بيتَ المقدِسِ، وبُوختُ: ابنُ، ونَصَّرُ صنمٌ، وكانَ وُجِدَ عندَ الصَّنمِ، ولم يُعرَفْ لهُ أبٌ، فقيلَ: هو ابنُ الصَّنمِ. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٥/ ٢١٢).

تكونُ هذه الصَّحوةُ؟ علمُ ذلكَ عندَ اللهِ.

وقلتُ: إنَّ الشَّيخَ البكريَّ ألَّف في تفسيرِ هذه الآيةِ رسالةً سمَّاها المعركةَ الحاسمةَ أو وعدَ الآخرةِ، وقدْ وافقني الشَّيخُ يوسفُ على رأيي هذا، لكنِّي لا أدري إنْ كانَتْ موافقتُهُ مجاملةً أم اقتناعًا.

وفي السَّابعةِ رجعتُ إلى الفندقِ.

السَّبت (١٠/٧/١٩٧٦م):

لم أخرجْ هذا اليومَ مِن الفندقِ؛ لأنِّي لم أكتبْ مذكَّراتي يومَي الخميسِ والجمعةِ، وقدْ كتبتُها والحمدُ للهِ.

الأحد (١١/٧/١٩٧٦م):

كنَّا على موعدِ أنْ نزورَ حديقةَ الحيوانِ في كوالالمبور، وفي الثَّامنةِ والنِّصفِ تركْنا الفندقَ، وذهبْنا بسيَّارةٍ أجرةٍ إلى حديقةِ الحيوانِ في الطَّريقِ نفسِهِ الَّذي سِرْنا فيه إليها يومَ الجمعةِ، وهي حديقةٌ كبيرةٌ تجمعُ كثيرًا مِن أنواعِ الحيواناتِ الوحشيَّةِ والأهليَّةِ، ومِن الطُّيورِ، قالوا: إنَّ مساحتَها (٤٣) فدَّانًا؛ أي: أكثرُ مِن (١٥٠,٠٠٠) مترٍ، رأيتُ فيها أكثرَ مِن (١٣) نوعًا مِن الحيَّاتِ، وأربعةَ أصنافٍ مِن إنسانِ الغابةِ، وأنواعًا كثيرةً مِن القردةِ؛ منها الأنيسُ والمتوحِّشُ، ورأيتُ مئاتِ الأنواعِ مِن الطُّيورِ؛ منها المطلقُ والمحبوسُ في القفصِ، وممَّا رأينا قردةٌ لا أذنابَ لها، وقردةٌ بأذنابٍ أطولَ مِن جسمِها، وبعضُها بأذنابٍ قصيرةٍ، أقصرَ من جسمِها، ورأيتُ حيوانًا يشبهُ الفيلَ، ولكنَّهُ أصغرُ منهُ، ولهُ خرطومٌ قصيرٌ، ويخالفُ الفيلَ في أنَّهُ يأكلُ بفمِهِ دونَ الاستعانةِ بالخرطومِ، ورأيتُ النَّعامَ أصنافًا متعدِّدةً، ورأيتُ صنفًا مِن

الطَّائرِ الَّذي رأيتُهُ في حديقةِ جاكرتا، وهو حيوانٌ بخلقةِ طائرٍ، ولهُ شعرٌ كشعرِ العنزِ.

أخذَتْ جولتُنا في الحديقةِ أكثرَ مِن (١٦٠) دقيقةً ولم نكملْها، والعجيبُ أنَّنا لم نرَ في هذهِ الحديقةِ أيَّ حيوانٍ مائيٍّ ولا برمائيٍّ، وأخيرًا تعبْنا ورجعْنا إلى الفندقِ، وكانَت المسافةُ في الإيابِ كما هي في الذَّهابِ، واستغرقتِ العودةُ ثلثَ ساعةٍ، وبعد الظُّهرِ لم أخرجْ؛ لأنِّي كنتُ متعبًا مِن سيري اليومَ في الحديقةِ، وقد زارَنا في الفندقِ شخصٌ اسمُهُ محمَّد عصام، وهو أحدُ موظَّفي وزارةِ الدَّاخليَّةِ، وجلسْنا معهُ جلسةً دامَتْ إلى المغربِ، وعلمْتُ فيما بعدُ أنَّ هذا الإنسانَ ذو رتبةٍ عاليةٍ في الشُّرطةِ الدَّاخليَّةِ.

في السَّاعةِ الثَّامنةِ والنَّصف ذهبْنا إلى دارِ سفيرِ ماليزيا في الكويتِ، وهو في وطنِهِ في إجازةٍ، وكانَ قدْ سبقَ لهُ أنْ دعانا إلى العشاءِ، وصادَفَ الموعدُ هذا اليومَ فذهبْنا، وكانَتْ مائدةٌ دلَّت على كرمِ ربِّ الدَّار وربَّتِها، جلسْنا معهم، وخضْنا في أحاديثَ ودِّيَّةٍ وسياسيَّةٍ ودينيَّةٍ، وكانَ أخو زوجةِ السَّفيرِ مِن خرِّيجي مدارسِ الحجازِ، ثمَّ بعدَ ذلكَ أكملَ تحصيلَهُ في مصرَ كما قالَ لي.

الإثنين (١٢/٧/١٩٧٦م):

كنَّا على اتِّفاقٍ أنْ نعودَ اليومَ إلى جبلِ فريزر؛ لنبيتَ هناكَ في فندقِهِ ليلتينِ نتمتَّعُ بالهواءِ الطَّلقِ النَّقيِّ، وكنتُ قدْ كتبتُ في مذكَّرةِ يوم الإثنينِ (٥/٧/١٩٧٦م) عَن زيارتِنا هذا الفندقَ: المكانُ باردٌ وهادئٌ، نقيُّ الهواءِ، عذبُ الماءِ، والمياهُ في هذهِ الأماكنِ تختلفُ

في كلِّ بقعةٍ عنها في الأُخرى، وعلمتُ أنَّ الملاعبَ الَّتي رأيتُها هناكَ ليسَتْ لشركاتِ الفنادقِ فقطْ، وأنَّ شركاتِ السِّياحةِ والحكومةَ نفسَها شاركَتَا في تهيئتِها؛ لتحصيلِ رسومٍ رمزيَّةٍ ممَّن لا يستطيعونَ الاشتراكَ في النَّوادي السِّياحيَّةِ أو معَ الفنادقِ.

وصلْنا الفندقَ بعدَ مسيرةِ ساعتينِ، واستقبلَتْنا مديرتُهُ، وأخبرَتْنا أنَّها جهَّزتْ لنا ثلاثَ غرفٍ يتَّصلُ بعضُها ببعضٍ، ورأيْنا هناك مصائفَ لبنانَ وسوريا، وبعضَ منتزهاتِ سويسرا وإسبانيا، ولكنَّ الطَّبيعةَ منحَتِ الشَّرقَ الأقصى ما هوَ أجملُ؛ لأنَّ مصائفَ الشَّرقِ الأقصى مِن صنعِ اللهِ، لم تمتدَّ إليها يدُ بشرٍ بالتَّحسينِ الصِّناعيِّ أو كما يقولونَ: بالتَّجميلِ. فالشَّجرُ والجبلُ والنَّهرُ على طبيعتِها، لم تصنعْ يدُ البشرِ في جبلِ فريزر كلِّه إلَّا الملاعبَ.

الثُّلاثاء (١٣/٧/١٩٧٦م):

كانَتْ ليلةَ البارحةِ جميلةً جدًّا، والجوُّ فيها بالنِّسبةِ إلينا كجوِّ العشرِ الأوائلِ مِن شهرِ آذارَ في الكويتِ، الغطاءُ لذيذٌ، والغرفةُ مُقفلةُ النَّوافذِ بلا تكييفٍ.

استيقظْتُ في السَّاعةِ الخامسةِ والنِّصفِ صباحًا لصلاةِ الفجرِ، وبعدها فتحْتُ البابَ الَّذي على الشُّرفةِ، فلم أستطعْ الوقوفَ أكثرَ مِن خمسِ دقائقَ لبرودةِ الجوِّ، فَرَجَعْتُ إلى الغرفةِ، واستحسنْتُ إرخاءَ السِّتارةِ؛ لأنَّي أحببْتُ بقاءَ البابِ مفتوحًا؛ لأستمتعَ بموسيقا أصواتِ مختلفِ الطُّيورِ.

بقي الأولادُ نيامًا إلى الثَّامنةِ - والشَّمسُ هنا تشرقُ في السَّابعةِ -

وبعدَ الإفطارِ نزلْنا إلى الوادي نمشي، وهو قصيرٌ، لا أظنُّ طولَهُ يزيدُ عَن ميلينِ ثمَّ يتفرَّعُ، ويمتدُّ بينَ الشَّمالِ الشَّرقيِّ والجنوبِ الغربيِّ، ويقعُ الفندقُ على غربيِّهِ، ويقابلُ الفندقَ مرتفعٌ مغطًّى بالأشجارِ الملتفَّةِ على بعضِها، وهيَ أشجارٌ غابيَّةٌ، وعلى الجهةِ الجنوبيَّةِ مِن الوادي أبنيةٌ هي مقاهٍ ومساكنُ، يدلُّ بناءُ بعضِها على قِدَمِهِ، وأرضُ الوادي - كما قلْنا - مُعَدَّةٌ لملاعبَ رياضيَّةٍ مختلفةٍ، وكأنَّ هذه المقاهي والمنازلَ مكاتبُ اشتراكِ اللَّاعبينَ.

مشينا الهُوينى على جانبِ الوادي نحو ساعتينِ، ثمَّ جلسْنا في مقهًى لنشربَ الشَّايَ، وأحسستُ في نفسي أنِّي محتاجٌ إلى الرَّاحةِ، فرجعْتُ إلى الفندقِ، والأولادُ وأبوهم يرغبونَ في الانطلاقِ سيرًا.

بعد العصر:

والعصرُ في الرَّابعة والرُّبع، تراكمَتِ الغيومُ وأرعدَتْ مرَّةً واحدةً، ثمَّ نزلَ المطرُ مدرارًا[١]، مطرٌ هو بالنِّسبةِ إلى الكويتِ غزيرٌ وابلٌ[٢]، ولكنَّهُ بالنِّسبةِ إلى أهلِ المنطقةِ طَلٌّ[٣]، واستمرَّ المطرُ ساعةً كاملةً، ورأينا الوادي قدْ سالَ، ولمَّا وقفَ المطرُ جفَّ كلُّ شيءٍ إلَّا العشبُ

(١) دَرَّتِ السَّماءُ بالمطرِ: إذا كَثُرَ مطرُها. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١١/ ٢٨١).

(٢) الوابِلُ: المطرُ الشَّديدُ الضَّخمُ القَطْرِ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣١/ ٦٢).

(٣) الطَّلُّ: المطرُ الضَّعيفُ، أو أخَفُّ المطرِ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٩/ ٣٧٧).

والشَّجرُ، وهما رطبانِ في كلِّ وقتٍ، وبعدَ توقُّفِ المطرِ نزلْنا نتجوَّلُ ونستنشقُ الهواءَ ونطلقُ لأرجلِنا وأجسامِنا الحرِّيَّةَ، ثمَّ رجعْنا إلى حيثُ كنَّا في الفندقِ.



(المُنتزهاتُ المرتفعةُ في شبهِ جزيرةِ الملايو)

ويسمُّونها مَرافِقَ الرَّاحة، ومنها:

(١) جبلُ الكاميرون: يقع في الزَّاوية الشَّماليَّةِ الغربيَّةِ لولاية باهانج، وارتفاعُهُ (٢١٦٠) مترًا تقريبًا، ويُقالُ: إنَّ هذا الجبلَ أبيضُ القمَّةِ دائمًا، ودرجة الحرارةِ فيه ليلًا على طولِ السَّنةِ تحتَ الصِّفرِ.

(٢) جبل بينانج: وقد ذكرناهُ عندَ زيارتِنا بينانج يومَ الثُّلاثاءِ (٦/ ٧/ ١٩٧٦م)، وارتفاعُه كارتفاعِ جبلِ عاليه في لبنانَ، والطَّقسُ هناكَ منذُ المساءِ حتَّى الصَّباحِ كالصَّيفِ في عاليه.

(٣) جبل مكسويل: ويقعُ في ولايةِ بيراك، وارتفاعُه (١٤٥٠) مترًا تقريبًا، لم أرهُ، ويقالُ: إنَّهُ ممتازٌ، ويستطيعُ الإنسانُ أن يرى السَّاحلَ مِن فوقِهِ؛ لأنَّهُ لا يبعدُ منه كثيرًا.

(٤) هناكَ مرتفعٌ قريبٌ مِن العاصمةِ، يبلغُ ارتفاعُهُ (١٨٠٠) مترٍ تقريبًا، والحكومةُ الحاليَّةُ مُهتمَّةٌ بتهيئتِهِ وتنظيمِهِ للسُّيَّاحِ كما قيلَ لي.

(الجزر السِّياحيِّة)

وأهمُّها - كما علمْتُ - جزيرتانِ:

(١) جزيرةُ لانكاواي: تابعةٌ لولايةِ قدح، وتتبعُها جزرٌ كبيرةٌ تكوِّنُ أرخبيلًا[١] غنيًّا بالصَّيدِ، يحمي المتنزَّهَ مِن الأمواجِ، لا سيَّما عشَّاقُ التَّجديفِ، وفي الجزيرةِ الكبيرةِ منها بحيراتٌ حلوةٌ، وعيونٌ حارَّةٌ، وشلَّالاتٌ ساحرةٌ، ومناظرُ خلَّابةٌ، وهذهِ الجزيرةُ كريمةٌ بإشباعِ هواياتِ الهُواة، سواءٌ كانوا مِن هواةِ صيدِ السَّمكِ أم التَّجديفِ أم مِن عُشَّاقِ المُتنزَّهاتِ.

(٢) جزيرة بانكور: تابعةٌ لولايةِ بيراك، ويجدُ فيها عشَّاقُ السِّياحةِ والغطسِ وصيدِ الأسماكِ تسهيلاتٍ سياحيَّةً لممارسةِ هواياتِهم.

وهناكَ جزرٌ كثيرةٌ ذُكِرَتْ لي، بعضُها في الشَّمالِ، وبعضُها في الجنوبِ، وكلُّ جزيرةٍ تمتازُ مِنَ الأُخرى بطابعِها الطَّبيعيِّ والاجتماعيِّ على مختلفِ الهواياتِ.

الأربعاء (١٤/٧/١٩٧٦م):

اليومَ تنتهي رحلتُنا إلى جبلِ فريزر، وسنغادِرُهُ بعدَ الظُّهرِ إلى

(١) أَرْخَبيل: مجموعةٌ من الجزرِ المتقاربةِ في البحرِ. انظر: معجم اللُّغة العربيَّة المعاصرة، لأحمد مختار عمر (١/ ٨٣).

العاصمةِ كوالالمبور، كانَ المطرُ في اللَّيل غِزيرًا، ولا ندري كم كانَ زمنُهُ، وهل كانَ خفيفًا بعدَ الوابلِ، إنَّنا لم نشعرْ بذلكَ، وأصبحْنا والأرضُ جافَّةٌ، والهواءُ لذيذٌ رقيقٌ، والنَّسماتُ تبعثُ في الجسمِ النَّشاطَ والانتعاشَ، وفي النَّفسِ السُّرورَ والارتياحَ.

بعدَ الإفطارِ خرجْنا نمشي في الطَّريقِ المخضرِّ جانباهُ، ولا ندري إلى أينَ نمشي، ولكنَّا كنَّا نتريَّض، ورَجَعْنا قُبيلَ الثَّانيةَ عشرةَ إلى الفندقِ؛ لنستعدَّ للسَّفرِ، وفي السَّاعةِ الثَّانيةِ بعدَ الظُّهر أقلَّتْنا السَّيَّارةُ عائدينَ إلى كوالالمبور عاصمةِ ماليزيا بمدَّةِ ساعتينِ ونصفِ ساعةٍ، كانَ السَّيرُ يصعبُ إلَّا بالهوينى، وبعدَ وصولِنا لم نتركِ الفندقَ؛ لزياراتِ أصدقاءٍ لنا ذكورًا وإناثًا، وما أسرعَ الفوزَ بالصَّديقِ في هذهِ البلادِ!

الخميس (١٥/٧/١٩٧٦م):

كانَ مِن زوَّارِنا مساءَ الأمسِ الموظَّفُ في وزارةِ الدَّاخليَّةِ المدعوُّ السَّيِّدُ محمَّد عصام، ويختصرُهُ الماليزيُّونَ بكلمةِ معصوم، وكانَ قدْ زارَنا بعدَ ظهرِ يومِ الأحدِ (٧/١١)، ومِن حديثِنا مع الحاضرينَ في الأمسِ - والحديثُ ذو شجونٍ - إعجابُنا بمختلفِ أشكالِ الطُّيورِ وأصواتِها، وسألتُ: هل فيها ما يستأنِسُ؟ قيلَ لي: كثيرٌ مِن الطُّيورِ تستأنسُ، لا سيَّما الببَّغاءُ على اختلافِ أشكالِها.

قلتُ: الببَّغاءُ كريهةُ الرَّائحةِ، ولا أرتاحُ لصوتِها.

قال معصومٌ: غدًا آتيكم في السَّاعةِ الثَّامنةِ والنِّصفِ؛ لنذهبَ إلى محلَّينِ كبيرينِ لبيعِ مختلفِ الطُّيورِ، وجاءَ في الوقتِ المحدَّدِ بسيَّارتِهِ،

فذهبْنا إلى المحلَّينِ اللَّذينِ ذكرَهما، وقدْ وجدْنا طيورًا لا نعرفُ منها إلَّا القليلَ، عَرَفْنا منها الحجلَ والقطا وبعضَ أنواعِ الحمامِ البرِّيِّ والببَّغاءِ، وثمَّةَ أنواعٌ كثيرةٌ مِن العصافيرِ لم نعرفْها، ورأينا نوعًا مِن الطُّيورِ جميلَ الصَّوتِ قبيحَ الشَّكلِ غالي الثَّمنِ، ولم نشترِ شيئًا مِن الطُّيورِ، فقد قيلَ لنا: إنَّها تموتُ لاختلافِ الطَّقسِ وعدمِ انسجامِها معهُ.

وعادَ الأولادُ أدراجَهم، أمَّا أنا فذهبتُ إلى المسجدِ الوطنيِّ لمقابلةِ فضيلةِ الشَّيخِ الزَّواويِّ، فجلسْتُ معهُ أكثرَ مِن ساعةٍ، وتحدَّثْنا كثيرًا في مواضيعَ شتَّى؛ منها موضوعُ طلاقِ الغضبانِ والمُكرهِ، وتحدَّثنا في طلاقِ مَن حلفَ عليهِ أبوهُ بالطَّلاقِ أنْ يطلِّقَ زوجتَهُ، هل يُعَدُّ مُكرهًا؟

قلتُ: نعم؛ يُعَدُّ مُكرهًا؛ لأنَّ أباهُ حلفَ عليهِ بطلاقِ أمِّهِ، فإنْ لم ينطقْ بالطَّلاقِ إرضاءً لأبيهِ طُلِّقَتْ أُمُّهُ، فهو في هذه الحالةِ مُكرَهٌ. والشَّيخُ يوسفُ الزَّواويُّ سكتَ، ولا أدري هل كانَ سكوتُهُ استحسانًا أم مجاملةً.

عدْتُ في السَّاعةِ الثَّانيةَ عشرةَ والنِّصفِ إلى الفندق، وإنَّا مساءَ هذا اليومِ سنغادرُ ماليزيا والشَّرقَ الأقصى كلَّه إلى الوطنِ الحبيبِ بعدَ غيابٍ دامَ خمسةً وثلاثينَ يومًا بما فيها يومُ السَّفرِ ويومُ العودةِ، والحمدُ للهِ على كلِّ حالٍ، والسَّاعةُ الآنَ التَّاسعةُ بعدَ صلاةِ العشاءِ، وقدْ هتفَ بنا أحدُ الأصدقاءِ أنَّ الطَّائرةَ تأخَّرتْ إلى ما بعد منتصفِ اللَّيلِ؛ بسببِ تأخُّرِ الطَّائرةِ القادمةِ مِن أستراليا.

الجمعة (١٥/٧/١٩٧٦م):

أكتبُ هذا في الطَّائرةِ، والسَّاعةُ الآنَ (١٢: ٤٥)؛ أي: إنَّنا في الدَّقيقةِ الخامسةِ والأربعينَ مِن يوم الجمعةِ دُعينا إلى الطَّائرةِ قبلَ ربعِ ساعةٍ، وما زلْنا ننتظرُ إقلاعَها، وأمامَنا طريقٌ طويلٌ، واللَّيلُ طويلٌ، سيستغرقُ أربعَ ساعاتٍ ونصفَ السَّاعةِ، واللهُ المُعينُ.

معنا في الطَّائرةِ حاكمُ سلواق، وسلواق ليستْ سلطنةً، وإنَّما ولايةٌ مستقلَّةٌ يحكمُها حاكمٌ، والولاياتُ الَّتي تتمتَّعُ بهذهِ الصَّفةِ باتِّحاد ماليزيا ثلاثُ ولاياتٍ، لا أذكرُ اسمَ هذا الحاكمِ، إنَّهُ رجلٌ مُسِنٌّ ركبَ معنا في طريقِهِ إلى لندنَ؛ لعلاجِ عينيهِ المريضتينِ، وهوَ على كبرِ سنِّهِ نشيطٌ، وأظنُّهُ مِن مواليدِ سنةِ (١٩٠٠) كما يبدو لي، كأنَّهُ في السَّابعةِ والسَّبعينَ مِن العمرِ، أو أكبر.

أقلعَتِ الطَّائرةُ في الواحدةِ تمامًا بتوقيتِ ماليزيا؛ أي: في الثَّامنةِ والنِّصفِ بتوقيتِ الكويتِ، نسألُ اللهَ السَّلامةَ، وقد جلسَ على يميني في الطَّائرةِ رجلٌ قالَ: إنَّهُ أستراليٌّ، ولكنِّي لم أفهمْ منهُ كلمةً قالَها لي سوى جملةٍ واحدةٍ، وهي سؤالُهُ لي: هلْ زرتَ أستراليا؟ وجاءَتْ المضيفةُ بالعشاءِ في التَّاسعةِ، وكانَ عشاءً ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾ [الغَاشِيَة: ٧]؛ نُتَفٌ[1] مِن لحمِ البقرِ والدَّجاجِ، ومن كلِّ صنفٍ مضغةٌ، وشيءٌ مِن البصلِ، رأتْهُ العينُ ولم تحسَّ بهِ الأسنانُ، وأربعُ قطعٍ مِن خيارٍ، لم تتركِ المضيفةُ المجالَ لأكلِها؛ لأنَّها تريدُ مِن

(١) أعطاهُ نُتْفَةً من الطَّعامِ: شيئًا منه، والجمعُ نُتَفٌ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٤/ ٣٨٧).

الرُّكَّابِ أنْ يناموا، ونامَ النَّاسُ، ولكنِّي لم أنمْ؛ لأنَّه ليسَ مِن عادتي أنْ أنامَ في سفرٍ أو وأنا جالسٌ، وطالَ اللَّيلُ وامتدَّ.

وبعدَ ستِّ ساعاتٍ عشناها بينَ السَّماءِ والأرضِ أبصرْنا ساحلَ الجزيرةِ العربيَّةِ، وبعدَ ساعةٍ تبيَّنتِ الكويتُ الحبيبةُ، فضحكَ القلبُ وانشرحَ الصَّدرُ، وابتسمَتِ الوجوهُ؛ لرؤيا الوطنِ الغالي، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، وقلْنا لبعضِنا: الحمدُ للهِ على السَّلامةِ.

ولمَّا هبطَتِ الطَّائرةُ على الأرضِ قلْنا: اللهُ أكبرُ، اللهُ أكبرُ، اللهُ أكبرُ، لا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، آيبونَ، تائبونَ، عابدونَ، ساجدونَ، لربِّنا حامدونَ.

وصلَّينا صلاةَ الفجرِ في وقتِها في الكويتِ، كما صلَّينا العشاءَ في وقتِها في ماليزيا.



(العملة في ماليزيا وإندونيسيا)

غابَ عنِّي أنْ أذكرَ النَّقدَ المتعاملَ بهِ في تلكَ البلادِ، فوحدةُ النَّقدِ في ماليزيا الدُّولارُ الماليزيُّ، وإنَّ كلَّ دولارينِ ونصفٍ ماليزيٍّ تعادلُ دولارًا واحدًا أمريكيًّا، والسِّعرُ تقريبيٌّ، أمَّا الوحدةُ النَّقديَّةُ في بلادِ إندونيسيا فهي الرُّوبيَّةُ الإندونيسيَّةُ، وهي اسمٌ رمزيٌّ لا قيمةَ لوحدتِهِ، فالدُّولارُ الأمريكيُّ الواحدُ يساوي (٤١٥) روبيَّةً إندونيسيَّةً.



ختام

هذا ما سجَّلهُ القلمُ ممَّا وعتْهُ الذَّاكرةُ مِن مشاهداتي في الشَّرقِ الأقصى المسلم، أختمُ هذهِ المذكَّراتِ بإرسالِ تحيَّاتي إلى رجالٍ كرامٍ عرفْتُهم هناكَ، ذكرْتُ أسماءَهُم في مذكَّراتي هذهِ أو لم أذكرْها، علمًا أنِّي لم أتعمَّدْ ذلكَ، ولكنَّ الإنسانَ ينسى، والكريمَ يعفو ويصفحُ، ومهما قلتُ وذكرتُ مِن كلامٍ طيِّبٍ أو وجهٍ بشوشٍ أو كرمٍ حاتميٍّ أو ضيافةٍ كريمةٍ قابلوني بها، ومهما أثنيتُ أو شكرتُ فإنِّي لا أفي الجميعَ حقَّهم، وإنِّي لأكتبُ عن الشَّرقِ الأقصى وجمالِهِ الطَّبيعيِّ وأخلاقِ أهلِهِ، وسأذكرُ ذلكَ ما حييتُ داعيًا المولى جلَّ شأنُه في الختامِ أنْ يَمُنَّ عليَّ بعودةٍ إلى تلكَ البلادِ المسلمونَ أهلُها، ويحفظَها وأهلَها مِن الزَّيغِ والضَّلالِ والفسادِ؛ إنَّهُ سميعٌ مجيبٌ.

١/ ١/ ١٩٧٧م

عبدُ اللهِ النُّوريُّ



الأعمال الكاملة

لفضيلة الشيخ

عبدالله النوري

المتوفى سنة (١٤٠١هـ/١٩٨١م) رحمه الله

حكايات من الكويت

اعتنى به

د. تركي محمد حامد النصر

فكرة وإشراف

د. عبدالمحسن عبدالله الجار الله الخرافي

الإهداء

إلى أولئك الَّذين طابتْ معَهم الحياةُ.

مَن بذلوا المعروفَ؛ لأنَّهم صنعوا المعروفَ.

مَن تسابقوا إلى فعلِ الخير، فأفلحوا وأفلحَ معَهم مَن فعلوا لهمُ الخيرَ.

مَن صفت نيَّاتُهم فطابتْ معيشتُهم.

مَن رَضُوا بالواقعِ فصَلُحَ لهم الواقعُ.

مَن رضوا بالقَدَرِ فصَلُحَ لهم القدرُ.

مَن أَشبَعُوا وكَسَوا وقَضَوا حاجاتِ مَن يحسَبُهمُ الجاهلُ أغنياءَ من التَّعفُّفِ، وهم في الحقيقةِ أغنياءُ من التَّعفُّف.

إلى أولئك الَّذين آثَرُوا على أنفسِهم ولو كان بهم خَصاصَةٌ[1].

إلى أولئك وأحفادِهم ومَن على شاكلتِهم أُقدِّمُ هذه الحكاياتِ عنهم، وأرجو أن يكونَ فيها للنَّاسِ جميعِهم عبرةٌ وذكرى، والذِّكرى تنفعُ أُولِي الألبابِ.

المؤلِّف

---

(١) الخصاصة: الفَقْر. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٧/ ٥٥٣).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أحمَدُ اللهَ مُقِرًّا بوحدانيَّته، وأُصلِّي وأُسلِّمُ على خاتَمِ الرُّسلِ محمَّدٍ، مؤمنًا برسالتِه، وبعدُ:

فهذه حكاياتٌ واقعيَّةٌ عن أهلِ بلدِنا الكويتِ، وليست بأساطيرَ، وإن كانت عندَ بعضِ مَن لم يُدرِكوا زمنَها تُشبِهُ الأساطيرَ، حكاياتٌ عايشتُ بعضَها، وسمعتُ بعضَها ممَّن عايشَها، أو وقعَتْ له، أو حدثَتْ لأحدٍ من أصولِه أو فروعِ أسرتِه، أو كانَ قد رواها عن أحدِهم.

والحكايات عن أهل الكويت كثيرةٌ لا تُعَدُّ بالحسابِ، ولكن اخترتُ هذا العددَ القليلَ منها، الخاليَ من كلِّ غُلُوٍّ أو مبالغةٍ.

إنَّها حكاياتٌ تُبرِزُ للقارئِ الكريمِ حقيقةَ أخلاقِ الكويتيِّينَ، وكريم صفاتِهم، ومحاسن سِيَرِهم، وتضامنهم وعطفهم المتبادَل فيما بينهم.

صفاتٌ رفعتْ بعضَهم إلى صفوف الملائكةِ أو القدِّيسينَ كما يعتقدُ بعضُ الأُمَمِ.

أُقدِّمُ هذه الحكاياتِ إلى أبناء أولئك الصَّفوةِ وأحفادِهم، لعلَّها تكون لهم قَبَسًا[1] يهتدونَ بضوئِه إلى الصَّراطِ الَّذي سلكوه، والخُلقِ

(١) القَبَس: الجَذْوَةُ، وهي النَّارُ الَّتي تأخذُها في طرفِ عودٍ. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٦/ ١٦٧).

الَّذي أَلِفُوه، والتَّضامنِ الَّذي عُرِفُوا به، والأَثَرَةِ[١] الَّتي حالفوها.

ما أشبهَهُم بأولئك الَّذين ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحَشر: ٩].

أيُّها القارئُ الكريمُ: صدِّقْ أو لا تُصَدِّقْ، أقولُها لكَ حقًّا: إنَّ الكويتَ منذُ ظهرتْ على هذا الكوكبِ كريمةٌ، لم يُعرَفْ في تاريخِها أنَّ أحدًا باتَ فيها على الطَّوَى[٢] إلَّا أن يكونَ مريضًا قد عافتْ نفسُه الطَّعامَ، أمَّا إن كان مُعسِرًا لا يملك طعامًا، فلَدَى جارِه حصَّةٌ له في طعامِه، كيف لا والرَّسولُ ﷺ قال: «**طعامُ الواحدِ يكفي الاثنَينِ**»[٣]؟!

فإليكم أيُّها المواطنونَ الكرامُ، هذه الحكاياتِ عن الآباءِ والأجدادِ، أرجو أن يكون فيها الدَّرْسُ، والعبرةُ، والأسوةُ الخيِّرةُ لِمَن أحبَّ فعلَ الخير.

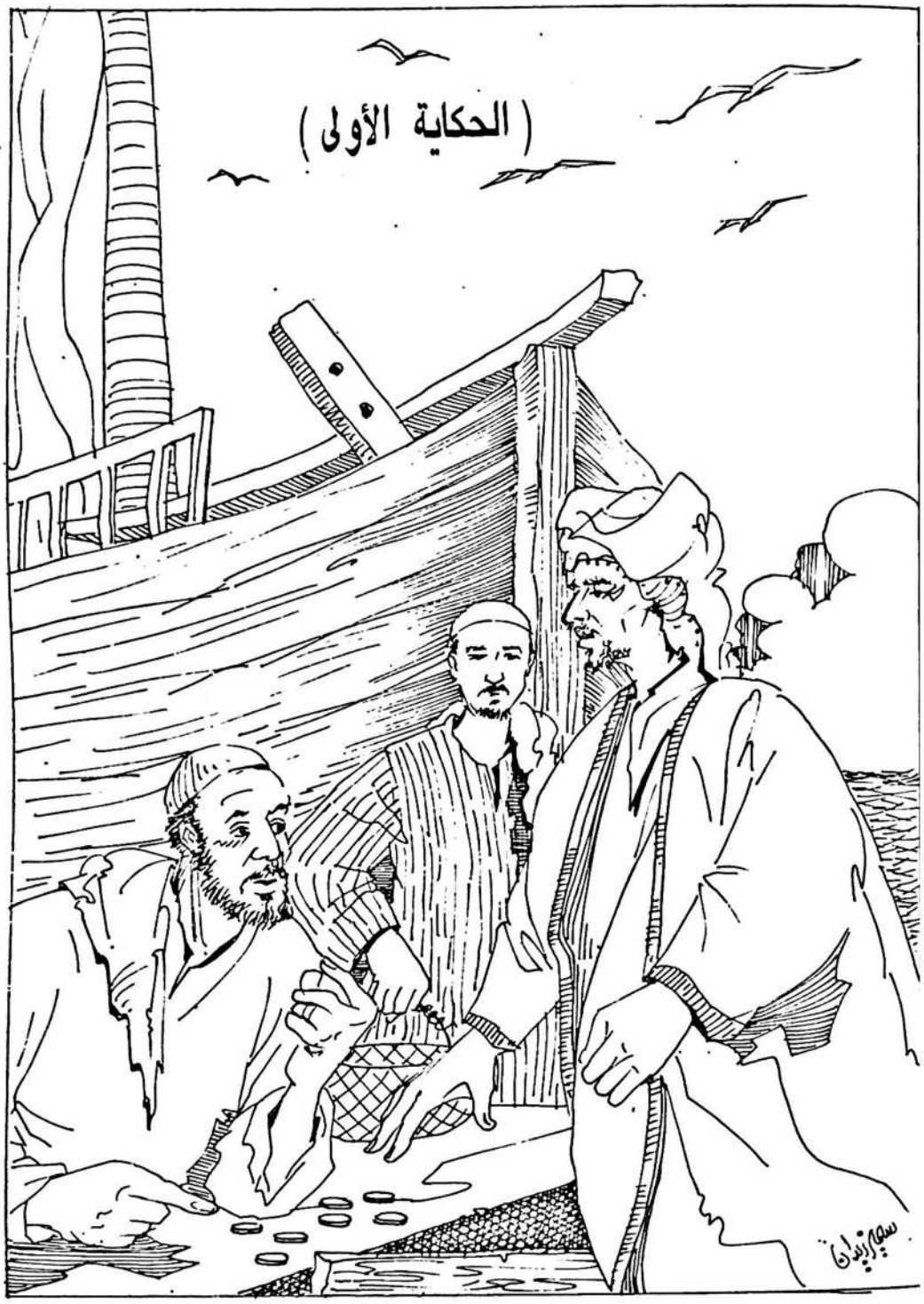
عبد الله النُّوريُّ

---

(١) يُقالُ: قد أخذَه بلا أَثَرَةٍ، وبلا إِثْرَةٍ: أي لم يستأثرْ على غيرِه، ولم يأخذ الأجود. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٠/ ١٧).

(٢) المنطوي: الضَّامرُ البطن. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٥/ ١٩).

(٣) رواه البخاريُّ، رقم: (٥٣٩٢) بلفظ: «**طعام الاثنين كافي الثَّلاثة، وطعام الثَّلاثة كافي الأربعة**»، ومسلمٌ، رقم: (٢٠٥٩).


(الحكاية الأولى)

«ما زالَ جبريلُ يوصيني بالجارِ حتَّى ظننتُ أنَّه سَيُوَرِّثُهُ»[١].

أَذِنَ المؤذِنُ بحلولِ موسمِ الغوصِ، واستعدَّ أهلُه له، التُّجَّارُ والنَّواخذةُ[٢] والبحَّارةُ، كلٌّ بِمَا يُفيدُه ويجبُ عليه.

بدأ التُّجَّارُ يجهِّزونَ النَّواخذةَ بدفعِ النُّقودِ لهم، فالنَّواخذةُ يُسلِفُون البحَّارةَ نقدًا بما يموِّنونَ به أهاليهم وأنفسِهم، والنَّاسُ كلُّهم يجهِّزونَ أنفسَهم بالحبالِ والأحجارِ والدَّيايين، ويستحضرونَ أدواتِ عملِهم للسَّفرِ الطَّويل الشَّاقِّ، وخالدٌ وأولادُه من جملتِهم.

وفيهم الفَيْضُ: وهو الَّذي ينزِلُ إلى قاعِ البحرِ ليصطادَ المَحَارَ[٣]، وفيهم السَّيْبُ؛ وهو الَّذي يُمسِك بحبالِه ليُخرِجَه من قاعِ البحرِ.

والفيضُ له الحجرُ وهو كتلةٌ من الرَّصاص بثقل (٢٥٠٠) غرام، وحبلُهُ الزَّيبلُ، والسَّيْبُ له الدَّيين وهو السَّلَّة، وحبلُه (الأيده).

جاءَ يومُ السَّفرِ (٢٢) أيَّار، اليوم الأوَّل الَّذي يُقلِعُ فيه أهلُ الغوصِ بسُفُنِهم، ويُصادِفُ أوَّلَ برج الجوزاء بحساب أهل البرِّ

(١) رواه البخاريُّ، رقم: (٦٠١٥)، ومسلمٌ، رقم: (٢٦٢٥).
(٢) النَّواخِذَةُ: مُلَّاكُ سُفُنِ البحرِ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٩/ ٤٨٦).
(٣) المَحَار: الصَّدَف. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١١/ ١٠٥).

والبحر من بلادِ ساحلِ الخليجِ.

خرج خالدٌ من بيته ذاهبًا إلى البحر ومعَه أولادُه يحملونَ أدواتِهم دون أن يلتفتَ إلى أمِّه وزوجتِه أمِّ أولادِه وبناتِه، أو أن ينطقَ بكلمةٍ يودِّعُ فيها هذه الأُسرةَ الكبيرةَ.

وصلَ إلى البابِ ومدَّ يدَه ليفتحَه، فسَمِعَ خطواتٍ تتبعُه، فالتفتَ فرأى أُمَّه، واغرورقتْ عيناه بالدُّموع، وقال لها بصوتٍ مبحوحٍ: ادعِي اللهَ لنا يا أمَّ خالدٍ.

قالتْ له: يا خالدُ! ما أعطيتنا شيئًا للنَّفَقَةِ، تذكَّرْ أنَّك ستغيبُ عنَّا أربعةَ أشهرٍ، فمِن أين نعيشُ هذه المدَّة؟ مِئةً وعشرِينَ يومًا لا أنت ولا أحدَ من أولادِك معَنا، ونحن نساءٌ لا حولَ لنا ولا قوَّةَ، فمَن يُعِيْلُنا يا خالد؟

قال خالدٌ: يا أمِّي! أنا مَدِينٌ، ولم أُرِدْ أن آخُذَ سلفًا من النَّواخذةِ حتَّى لا يَثْقُلَ عليَّ الدَّينُ، ويتحمَّلَ عبئَه هؤلاءِ الأولادُ من بعدي.

قالت له: فمن أين نعيشُ إذن؟ هل نأكل من تراب الدَّارِ؟ وترابُ الدَّار لا يسدُّ جوعةً، ولا يُطفِئ ظمأً.

قالَ: يا أمِّي! لكمُ اللهُ، ثمَّ جارُنا حَمَدٌ، فإذا مسَّكم الضُّرُّ فاسألوا اللهَ، وإذا احتجتُمْ فعليكم بجارِنا حَمَدٍ، وهو تاجرٌ ميسورُ الحال يُكرِمُ الجارَ ويقضي الحاجةَ.

خرج خالدٌ وأولادُه إلى البحر تاركًا الأُسرةَ بلا نفقةٍ ولا مُنفِقٍ ولا مؤونةٍ، ولم يعلمْ حمدٌ بسفر خالدٍ وأولادِه، وبما قالَه خالدٌ لأمِّه،

لكنَّه افتقد خالدًا وأولادَه الثَّلاثةَ ثلاثةَ أيَّامٍ، لم يرَ أحدَهم داخلًا أو خارجًا، فسألَ عن خالدٍ خشيةَ أن يكون مريضًا، فقيل له: إنَّه سافرَ إلى الغوصِ معَ أولادِه.

أرسلَ حَمَدٌ مَن يسألُ أمَّ خالدٍ عمَّا تركَه خالدٌ لأهلِه مدَّةَ غيابِ المسافرِينَ إلى الغوص، فأجابت الأمُّ: ترك خالدٌ لنا اللهَ ثمَّ حمدًا.

فقال حمدٌ للرَّسول: ارجِعْ إلى أمِّ خالدٍ، وقلْ لها: أنا عندَ حُسْنِ ظنِّه إن شاءَ اللهُ، وأنا جارٌ، والرَّسولُ ﷺ أوصى أُمَّتَه بالجارِ في قوله ﷺ: «**ما زالَ جِبْرِيلُ يوصيني بالجار حَتَّى ظَنَنْت أَنَّه سيوَرِّثُهُ**»(١).

خرج حمدٌ إلى السُّوق، ورَجَعَ بتموينِ بيتِ خالدٍ كاملًا مدَّةَ غيابِه.

وحلَّ عيدُ الأضحى وخالدٌ في غيبتِه، فبعثَ حمدٌ بنفقةِ العيدِ نَقْدًا إلى أُمِّ خالدٍ.

ووفَّقَ اللهُ خالدًا وأولادَه في سفرتِهم تلك، وعادوا إلى الوطن بعدَ غيبةِ أربعةِ أشهرٍ فرِحِينَ مسرورِينَ سالِمِينَ غانِمِينَ(٢)، وفرحَ الأهلُ بهم.

قالَ خالدٌ لأمِّه: كيف كنتم؟

قالتِ الأمُّ: عشنا يا خالدُ في بحبوحةٍ من إحسان حمدٍ، وقصَّتْ عليه كيف أنَّ حمدًا بعث مَن يسأل، وماذا قال حمدٌ للرَّسول، وكيف

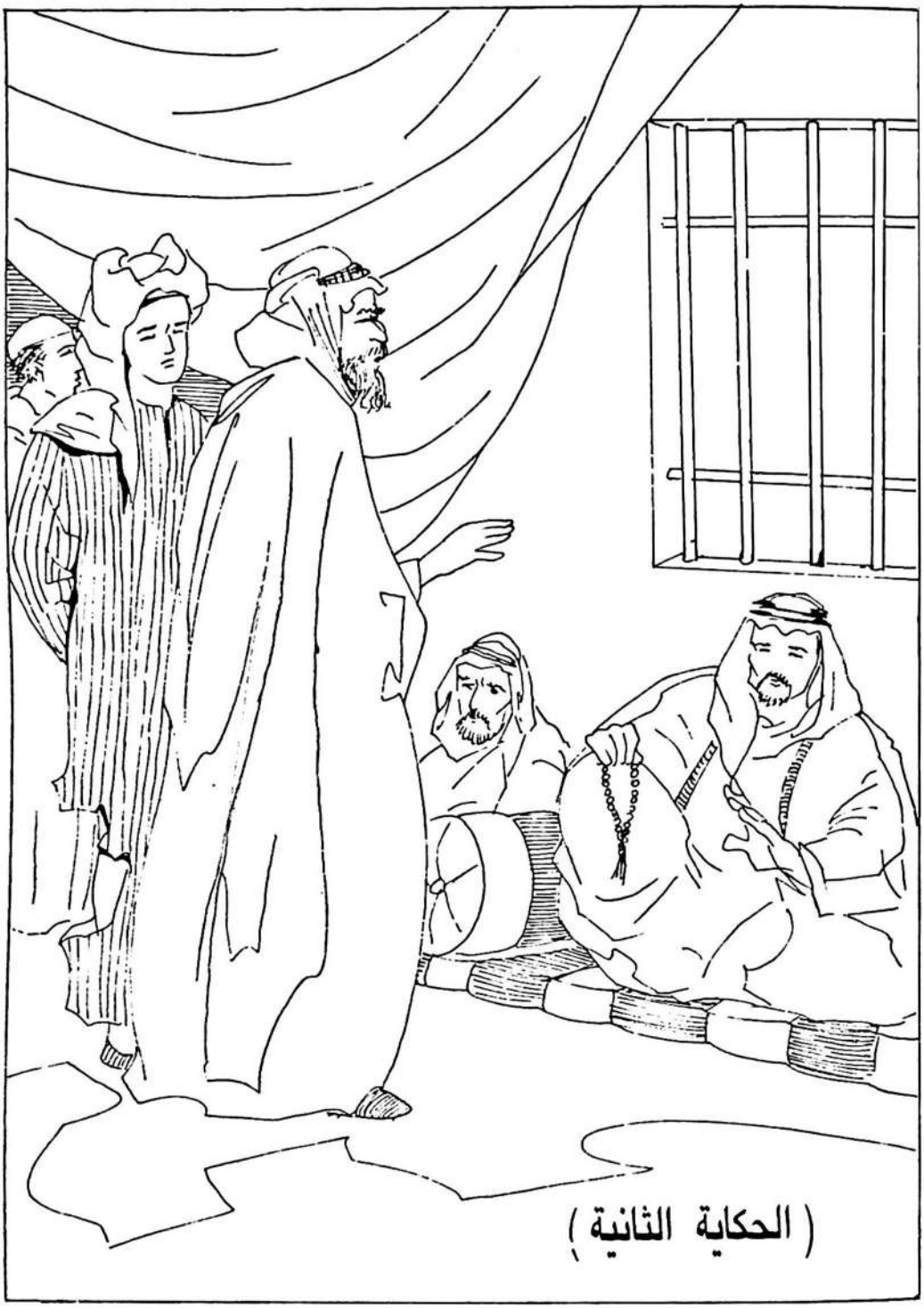
(١) رواه البخاريُّ، رقم: (٦٠١٤)، ومسلمٌ، رقم: (٢٦٢٥).
(٢) الغُنْمُ: الزِّيادة والنَماء. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٢/ ٤٤٥).

أنَّه تفقَّدَهُنَّ أيَّامَ العيدِ.

قال خالدٌ: يا أُمِّي! ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطّلَاق: ٣]، والحمدُ لله على نعمتِه، أحسنَّا الظَّنَّ بالله فكان اللهُ عندَ ظنِّنا، وأحسنَّا الظَّنَّ بحمدٍ جارِنا فكان عندَ حُسنِ ظنِّنا به.

عاش خالدٌ بعد ذلك يذكرُ حمدًا بالخير، وظلَّا جارَينِ حبيبَينِ حتَّى فرَّقَ الدَّهرُ بينَهما بالأجلِ المحتومِ(١).

(١) جاورتُ أشخاصَ هذه القصَّةِ، فكان خالدٌ جاري الملاصق، وحمدٌ جاري المقابل، ووقَعَتْ حوادثُها سنةَ (١٣٤٤هـ) الموافق (١٩٢٥م).



(الحكاية الثانية)

﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]

«ألا أُخبِرُكُمْ بأفضلَ مِن درجةِ الصِّيامِ والزَّكاةِ والصَّدَقَةِ؟ قالوا: بلى، قال: إصلاحُ ذاتِ البَيْنِ، فإنَّ فسادَ البَينِ هي الحالِقةُ»(١).

اتَّخذَ الأميرُ مجلسًا لأمورٍ ثلاثةٍ مُهِمَّةٍ في نظر الشَّعبِ:

الأوَّل: أن يستمعَ لكلِّ ما يدور في الإمارة، فيكون بهذا عالِمًا بما يجري فيها من صغيرةٍ وكبيرةٍ، ويعلم أخبارَ القادم والمسافر والآيِبِ(٢) والمولود والمفقود.

والثَّاني: أن يتلقَّى شكاوى مَن لا يستطيعُ الوصولَ إليه مكتوبةً أو غيرَ مكتوبةٍ، فيفصِل فيها بنفسِه، أو يحيلها إلى مَن يثقُ به.

والثَّالث: أن يكون اتِّصالُه بالشَّعب مباشرًا دون واسطةٍ أو حجابٍ.

جلسَ الأميرُ في مجلسِه، وحولَه حاشيتُه والمقرَّبونَ من رجالِ إمارته، وكان مجلسُه بعدَ العصرِ على دكَّةٍ(٣) في وسط البلد في مكانٍ معيَّنٍ يُعرَفُ بالقهوة، وبينما هو كذلك إذ وقف أمامَه شابَّانِ، عليهما

(١) رواه أحمد، رقم: (٢٧٥٠٨).
(٢) الآيب: الرَّاجِع. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢/ ٣٣).
(٣) الدَّكُّ: المستوي من المكان. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٧/ ١٥٠).

آثارُ نزاعٍ تنازعاه، فشكا أحدُهما للأميرِ قائلًا: أطالَ اللهُ بقاءَكَ، إنَّ هذا اعتدى عليَّ فضربَني وأدماني، وقال الثَّاني: إنَّه شتمَني ثمَّ مزَّقَ ثيابي.

فسأل الأميرُ الشَّابَّ المشتكي: مَن تكونُ؟ فسمَّى للأميرِ نفسَه، وسألَه عن خصمِه، فسمَّاه أيضًا، وهو بهما عارفٌ.

قال الأميرُ: وأين تسكنانِ؟

فأجابا بأنَّهما جارانِ يسكنانِ في المحلَّةِ المعيَّنةِ وفي وسط البلدِ.

قال الأميرُ: مَن كبيرُ محلَّتِكم؟ قالها وهو بالمسؤولِ عنه أعرفُ.

قالوا: هو عبدُ العزيز. وعبدُ العزيزِ رجلٌ ذو شخصيَّةٍ وشعبيَّةٍ، عندئذٍ أمرَهما الأميرُ بالجلوس، وأرسلَ إلى عبدِ العزيز مَن يدعوه إليه، ومجلسُ الأميرِ يبعُدُ عن المحلَّةِ خطواتٍ لا تتجاوز مئةَ خطوةٍ.

جاءَ عبدُ العزيزِ وهو شيخٌ قد بلغ السَّبعِينَ من عمرِه أو جاوزها قليلًا، وسلَّمَ على الأمير، فلم يردَّ عليه التَّحيَّةَ، أو لعلَّه ردَّها في نفسِه، وجاءت القهوةُ ولكنَّها لم تبلغْه، وإنَّها لَإهانةٌ كبيرةٌ؛ أن يُمنَعَ القادمُ من فنجان القهوة، ولا سيَّما في مجلسٍ كمجلس الأمير!

أثَّرَ ذلك في عبد العزيز تأثيرًا كبيرًا، وحزَّ في نفسِه أن يُهانَ وهو كبيرُ محلَّتِه، ومثالُ العدلِ والإنصافِ في المجتمعِ، فوقف قائلًا: يا طويلَ العمرِ ما ذنبي؟ أرجو ألَّا أكونَ قد اعتديتُ على عرض جاري - وللجارِ حرمتُه - أو أنِّي هتكتُ شرفَ أُسرتي! قُلْ لي ما ذنبي؟!

فقالَ الأميرُ: يا عبدَ العزيز! ذنبُك أعظمُ من هذا وذاك، يتنازع في محلَّتِك هذانِ الشَّابَّان ولا تُصلِحُ بينهما حتَّى يصلا إلى الشُّيوخِ!

وكلمةُ شيوخ: مجرَّدةٌ مِن كلِّ صفةٍ تُطلَقُ على الأميرِ نفسِه.

فقال عبدُ العزيز: وهل أعلمُ الغيبَ يا طويلَ العمرِ؟ وما يُدريني أنَّهما تنازعا؟! ولا يعلمُ الغيبَ إلَّا اللهُ وحدَهُ، إنَّهما تنازعا في الطَّريقِ وأنا في وسط بيتي، ولو علمتُ بما جرى بينهما لأوجعتُهما تعزيرًا[1] ولأشبعتُهما إهانةً.

عندها تهلَّلَ وجهُ الأميرِ، وقالَ: بارك الله فيك، هذا ما أعرفُه عنك، وأرجو أن تبقى موصوفًا فيه ما حَيِيْتَ.

ثمَّ طردَ الشَّابَّينِ، وقال لهما: اذهبا واصطَلِحا ولا تعودا إلى مثلِ هذا، فإنَّنا لم نُخلَقْ للعداءِ والنِّزاع، وليس ذلك من صفتِنا.

ثمَّ أمرَ بالقهوةِ، وبدأَ ساقيها بعبدِ العزيز، ثمَّ بقيَّة الحاضرِينَ، والتفت الأميرُ إلى الجالسين قائلًا لهم: إنِّي لم أفعلْ ما فعلتُ إلَّا تنبيهًا لكم؛ أنَّنا أسرةٌ واحدةٌ، وأنَّنا محسودونَ على هذه النِّعمة، نشكرُ اللهَ الَّذي أنعمَ علينا بالتَّوفيق لها، وألَّا نتركَ للعداءِ طريقًا أو سبيلًا تُكدِّرُ صَفْوَ هذه الأخوَّةِ أو هذا التَّآلُفِ، فإنَّني سمعتُ أحدَ الوُعَّاظِ يومًا يقولُ عن الرَّسولِ ﷺ: «**دَبَّ إِلَيكُمْ دَاءُ الأُمم قَبلَكُم: الحَسَدُ وَالبَغضَاءُ، هي الحَالِقَةُ، لا أَقُولُ تَحلِقُ الشَّعَرَ وَلَكِن تَحلِقُ الدِّينَ، وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لَا تَدخُلُوا الجَنَّةَ حتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤمِنُوا حتَّى تَحَابُّوا، أَفَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِمَا يُثَبِّتُ ذَلِكَ لَكُم؟ أَفْشُوا السَّلامَ بَينَكُم**»[2].

---

(١) التَّعزيرُ: التَّأديبُ الَّذي دون الحدِّ؛ لأنَّه يمنعُ الجانيَ أن يعاود الذَّنبَ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٣/ ٢٤).

(٢) رواهُ التِّرمذيُّ، رقم: (٢٥١٠)، وقال: هذا حديثٌ قد اختلفوا في روايتِه عن =

والله ﷻ أراد منَّا ذلك في كتابه العزيز: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المَائدة: ٢].

إنِّي أعرفُ فيكم عبدَ العزيز هذا، وأمثالُه كثيرونَ مِنَ المخلصِينَ، الَّذين يأمرُهم إخلاصُهم بالإصلاحِ، وعبدُ العزيزِ شيخٌ صالحٌ، له مكانتُه في مجتمعِه، يحترمُه النَّاسُ كلُّهم، وهو قادرٌ على أن يَقِفَ دائمًا إلى صفِّ المظلومِ، فيَقوَى به على أخذِ حقِّه، ولهذا فإنِّي أَهِيبُ به وبأمثالِه أن يُراعوا بالإصلاحِ مكانتَهم بينَنا وفي وطنِنا، حتَّى تبقى المودَّةُ بيننا والأُلْفَةُ فينا، ونحافظَ على هذه الأسرةِ كما حافظ عليها الأسلافُ.

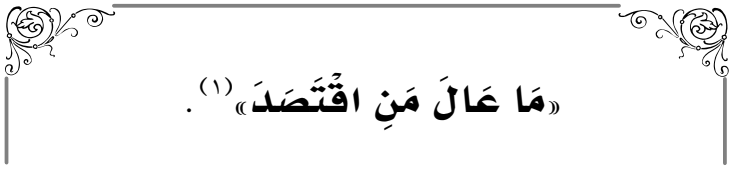
ثمَّ التفتَ إلى عبد العزيز وقال له: يا أبا عبد الله! إن شئتَ فاذهب عزيزًا، وإن شئت فعُدْ إلينا مكرَّمًا، فقام عبدُ العزيز، وشكرَ للأميرِ نصيحتَه وحُبَّه لرعيَّتِه، وصافحَه، وخَرَجَ[1].



= يَحْيَى بْنِ أبي كَثيرٍ.

(١) قصَّ عليَّ حوادثَ هذه القصَّةِ (صالحٌ) ابنُ بطل هذه القصَّة عبد العزيز بن دعيج، وكانت في عهد المرحوم الأمير الشَّيخ سالم بن مُبارك الصُّباح.


(الحكاية الثالثة)



«مَا عَالَ مَنِ اقْتَصَدَ»[١].

كان محمَّد بنُ فرجٍ من الأثرياء، وله في الكويت مَيدانُ عملٍ، وله في الهندِ ميادينُ أعمالٍ، وقد غزا[٢] عملُه التِّجاريُّ كثيرًا من البلاد، واجتمعت لديه مبالغُ من الأموال ضربتِ الرَّقْمَ القياسيَّ.

وكان ابنُه الوحيدُ عبدُ اللهِ مِن خيرةِ شبابِ عصرِه ذكاءً وفطنةً، لكنَّه لا يميلُ إلى العملِ، وليس له في التِّجارةِ نصيبٌ، وليس لها منه ميلٌ، كريمًا، بل مُتلِفًا للمال، عدوًّا لإمساكه، لا يردُّ طلبَ سائلٍ، ولم يَخِبْ من نَيلِهِ قاصدٌ، أديبًا شاعرًا، وفنَّانًا مرموقًا، له في الغناء شهرتُه، وفي الموسيقا إبداعُه وإنتاجُه.

ولَمَّا بلغَ مرحلةَ الشَّبابِ انتقلَ والدُه إلى رحمة الله، وتركَ له الثَّروةَ الضَّخمةَ الَّتي جمعَها، ولم يَرِثْها بعدَ والدِه سواه، وبدأتْ يدُ عبدِ الله تُنفِقُ هذه الثَّروةَ ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمال، فالمادحُ له فيها عطاءٌ، والسَّائلُ له منها منالٌ، والأصدقاء يشربونَ منها وينهلونَ، وكلٌّ له منها مَغنَمٌ ونصيبٌ.

مضتْ مدَّةٌ رجَعَ فيها إلى الكويتِ بعد أن أتلفَ مالَه في الهندِ وفي غيرها، وسكنَ بيتًا صغيرًا ممَّا تركَه له والدُه، فأحسَّ أنَّ ذاتَ يدِه قليلةٌ،

---

(١) رواه أحمد، رقم: (٤٢٦٩).

(٢) غزا: قصدَ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٩/ ١٥٨).

فقرَّرَ أن يحتفظَ بالبقيَّة الباقية، ولكن مَنِ اعتادَ عادةً صَعُبَ عليه تركُها.

ذاتَ يومٍ علمَ أنَّ جارًا له مرضَ، فعادَه مع العُوَّاد، وهو يعرِفَ أنَّ جارَه مُمْلِقٌ[١]، وأنَّ له أطفالًا جياعًا، فأعطاه من غير سؤالٍ، وبهذا العطاءِ سهَّلَ للمريضِ طريقَ الشِّفاء.

سُرَّ عبدُ الله بذلك، ولكنَّهُ أملقَ، فاحتجبَ في بيتِه ولم يرَهُ بعدَ الإملاقِ أحدٌ، ولم يفتقدْه فاقدٌ؛ لأنَّه غنيٌّ افتقرَ، وقديمًا قالوا: مَن ضاعَ مالُه ضاعَ حظُّه.

اعتزلَ عبدُ الله النَّاسَ ولم يعدْ يخرجُ من دارِه.

وذاتَ يومٍ دخلَ المدينةَ بدويٌّ يسألُ عن عبدِ الله بنِ محمَّدٍ الَّذي تُوفِّيَ منذُ أعوامٍ، وهل هو حيٌّ! وأكثرَ السُّؤالَ حتَّى دُلَّ على مَن يعرِف عبدَ الله، فقادَ البدويَّ إلى بيتِه.

طرقَ البدويُّ البابَ، فانفتحَ، وأطلَّ منه هَرِمٌ أَشْعَثُ[٢] معروقُ الوجهِ سقيمٌ مِن علَّةٍ، غائرُ العينَينِ، وقال: أُريدُ عبدَ الله بنَ محمَّدٍ.

أجابَه الكَهْلُ[٣]: أنا هو، فماذا تريدُ منِّي؟

قال: أريد الجلوسَ إليك لأتحدَّثَ معَك.

---

(١) المُملِق: الَّذي لا شيءَ له. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٦/ ٤٠٦).

(٢) الأشعثُ: المُغبَرُّ الرَّأسِ، المُنتَتَفُ الشَّعْرِ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٥/ ٢٧٩).

(٣) الكَهْلُ: مَن وَخَطَهُ الشَّيبُ، وزادَ على ثلاثينَ سنةً إلى الأربعين. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٠/ ٣٦٠).

ففتحَ له بابَه وأدخلَه دارَه الخاليةَ من كلِّ متاعٍ إلَّا مِن حصيرٍ بالٍ، عليه قَطِيفةٌ[١] باليةٌ هي فراشُه ومَرقَدُه، وفيها دِثارُه[٢].

قال البدويُّ: أَوْدَعَ أبوك عندَ أبي غَنَمًا نَمَتْ حتَّى بلغت ثلاثمئة رأسٍ، ولم أكن أعلم أنَّها وديعةٌ، وفي العام الماضي وقد حضرَ أبي الموتُ، أوصاني بأن أوصلَها إليك، وها هي الأكْبُشُ[٣] في طرف البلد في الصَّفاة، فأرجو أن تأخذ أمانتَك، وقد علمتُ من أبي أنْ لا وارث لمحمَّدٍ غيرك.

وكان عبد الله مُطرِقًا[٤] يستمعُ إلى البدويِّ حتَّى أتمَّ كلامَه، وسكتَ هُنَيْهَةً[٥]، ثمَّ رفع إليه طَرْفَه[٦]، وقال: دخلتَ يا أخا العربِ داري، وليس لديَّ ما أُضيِّفُك به، ولا خادمٌ يُهَيِّئُ لك ما أُضيِّفُك به، وقد قَدِمْتَ من بعيدٍ وللقادمِ حقٌّ كبيرٌ على مَن قَدِمَ عليه، لهذا كان لك عليَّ حقٌّ لا بُدَّ من الوفاء به، وقد أتيتَ بمالٍ هو لي، تركَه والدي وائتمنكَ وأباكَ عليه، وقد أدَّيتَ ووالدُك حقَّ الأمانةِ مشكورًا، وإنَّني أَشهدُ أنَّه حقٌّ لك، وهو حقُّ الضِّيافة الواجبة لك عليَّ، وحقُّ الأمانة الَّتي

---

(١) القطيفة: كساءٌ مربَّعٌ غليظٌ، له خَمْلٌ ووبرٌ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٤/ ٢٧٠).

(٢) الدِّثَار: ما يُتدثَّر به، وهو الثَّوبُ الَّذي يُستدفَأُ به من فوق الشِّعار. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١١/ ٢٧٢).

(٣) الأكبُش: جمع كَبْش، وهو فحْلُ الضَّأنِ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٧/ ٣٤٥).

(٤) أطرقَ الرَّجُلُ: سكتَ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٦/ ٧٦).

(٥) هُنَيْهَة: شيءٌ يسيرٌ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٤٠/ ٣١٥).

(٦) الطَّرْف: تحريك الجفون في النَّظر. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٤/ ٧٥).

حفظتَها حتَّى أدَّيتَها لِمَنِ ائتمنَكَ عليها، فاذهبْ يا أخي بالغَنَم، ومباركٌ لكَ فيها، فقد قبلتُها منكَ شاكرًا، ووهبتُكَها مكافئًا، ومضيفًا، وأنا - يا أخا العرب - رجلٌ كبيرٌ في السِّنِّ، عليلُ[١] الصِّحَّة، معدومُ الأهلِ والولدِ، وأنتَ ما زالَ لك في الحياةِ مطمعٌ[٢]، فاقبلْها منِّي مشكورًا.

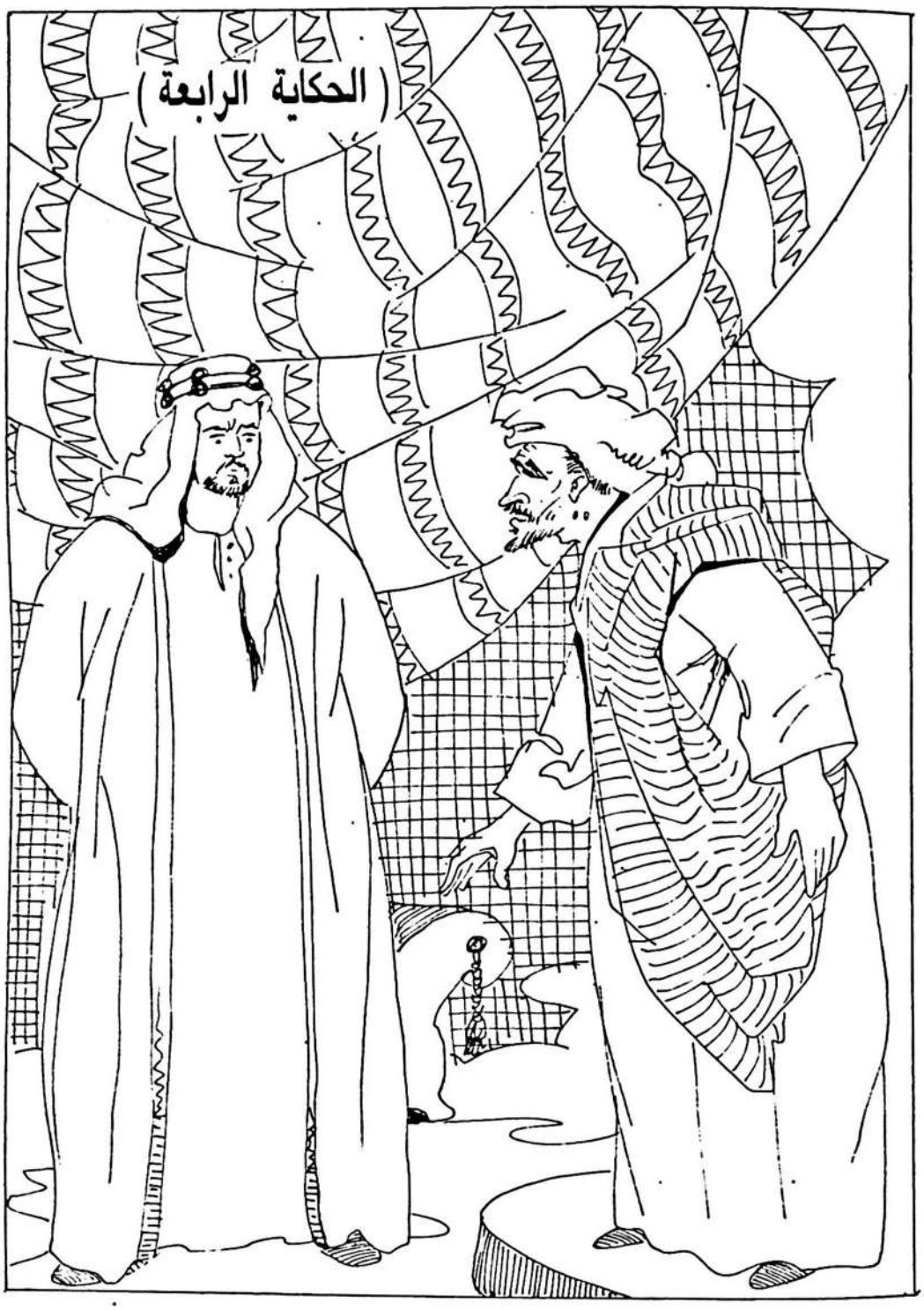
حاول البدويُّ وقد رأى فقرَ عبدِ الله ومَتْرَبَتَه[٣] أن يردَّ عليه ولو شيئًا يسيرًا من الغنم أو من ثمنِها؛ ليُشبعَ جَوعتَه، ويكسوَ عُريتَه، ولكنَّ عبدَ الله أبى إلَّاَ أن تكونَ هذه الأغنامُ كلُّها ضيافةً للبدويِّ.

خرجَ البدويُّ إلى باديتِه يسوقُ ثلاثمئة رأسٍ من الغنم كان قد أحضرَها لعبدِ الله بن محمَّدٍ، فوهبَها له عبدُ الله وهو في أشدِّ حاجتِه؛ إكرامًا للأمانة، وأداءً لحقِّ الضِّيافة.

ولم يلبثْ عبدُ الله بعدَ هذه الحادثة أن تُوفِّيَ، وقد خلَّدَ التَّاريخُ اسمَه في سجلِّ الخالدِينَ، وأثبتَ شعرَه مع الشُّعراءِ البارزِينَ، وأكسبَه شهرةً لم يكتسبْها الأثرياءُ، وأبقى له ذِكْرًا لم يَنَلْهُ التُّجَّارُ والأغنياءُ[٤].



(١) عليلٌ: مريضٌ. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١١/ ٤٧١).
(٢) مطمع: حرصٌ على الشَّيءِ ورجاؤه. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢١/ ٤٥٩).
(٣) أتْرَبَ: افتقرَ بعد الغنى. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢/ ٦٣).
(٤) سمعتُ هذه القصَّةَ من بطلِها عبدِ الله، وهو من أهل الفضل العبد الرَّزَّاق، وبطلها هو الشَّاعر المعروف عبد الله الفرج.


(الحكاية الرابعة)

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هُـود: ١١٧].

«إنَّ النَّاسَ إذا رأَوا الظَّالمَ فلم يأخذوا على يديه أوشكَ أن يَعُمَّهُمُ اللهُ بعقابٍ منه، ثمَّ يدعونه فلا يُستجابُ لهم»(١).

خرجَ النَّاسُ إلى أعمالِهم والشَّمسُ لَمَّا تشرقْ؛ لأنَّ مِن عادةِ أهلِ هذا البلدِ أن يخرجوا مبكِّرينَ، والبركةُ في البكورِ، هكذا قالَ قائلُهم أنَّه سمعَها من واعظ الأمَّة رسولِ الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ بارك لأمَّتي في بُكورِها**»(٢)، وأنَّه قال: «**باكِروا في طلب الرِّزْقِ والحوائجِ، فإنَّ الغَدْوَ بركةٌ ونجاحٌ**»(٣)؛ والغدوةُ: هو الوقت الَّذي يكونُ ما بينَ الفجر وطلوعِ الشَّمس.

وبِبُزوغِ الشَّمسِ عمرتِ الأسواقُ، وبدأ نشاط التَّاجر والعامل والصَّانع، كلٌّ منهمكٌ في عملِه، إلَّا رجلٌ غريبٌ كان يعملُ حدَّادًا، فقد قَبَعَ(٤) على باب دكَّانه، ولم يوقِدْ كُوْرَهُ(٥)، ولم يُسمَعْ لمطرقتِه

(١) رواه التِّرمذيُّ، رقم: (٣٠٥٧)، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.
(٢) رواه التِّرمذيُّ، رقم: (١٢١٢).
(٣) أوردَه العجلونيُّ في كشفِ الخفاء، رقم: (٨٧٩).
(٤) قبعَ: أدخل رأسَه في قميصِه. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢١/ ٥١٦).
(٥) الكُور: مِجمَرَةُ الحدَّاد المَبنِيَّةُ من الطِّين الَّتي تُوقَدُ فيها النَّار. انظر: تاج =

صوتٌ ذلك اليوم.

رآه جارُه على حالتِه، فسألَه: ما بالُكَ يا عبدَ اللهِ فاترًا هذا النَّهارَ؟ هل أنت مريضٌ؟ عسى ألَّا يكونَ بك شرٌّ، وتكونَ محمومًا[1]، فإنَّ الوقتَ خريفٌ، وهواءُ الخريفِ يُضِرُّ الأبدانَ، قال أحدُ الشُّعراءِ:

وَلِيْ صَاحِبٌ كَهَوَاءِ الْخَرِيْفِ يُضِرُّ وَإِنْ كَانَ يُسْتَعْذَبُ[2]

فقالَ عبدُ الله: لا بأس عليَّ في صحَّتي يا صاحبي، ولكنْ كلُّ الشَّرِّ بي، فليس عندي ما أشتري به الحديدَ؛ لأعملَ.

فقالَ جارُه: خيرٌ إن شاءَ اللهُ، وأبعدَ اللهُ عنَّا وعنك الشَّرَّ.

فقال عبدُ الله: أنتَ تعلمُ يا أخي أنَّني منذ ثلاثِ سنين تركتُ بلدي الأحساء؛ فرارًا من ظلم الأتراك وظلم مشايخ القبائل، وأتيت إلى هذا البلد الآمن المطمئنِّ، فنمت لياليَ ذوات عددٍ آمِنًا على نفسي، مطمئنًّا على أهلي وأولادي، أنامُ بعدَ العِشاءِ، وأصحو حينَ أسمعُ أذانَ الفجرِ، حتَّى إذا شبعت نومًا خرجتُ إلى السُّوق، وعرَفتُك وأمثالَكَ مِن أهل الخيرِ، وكلٌّ منكم مدَّ لي يدَ المساعدةِ حينَ علمَ أنِّي حدَّادٌ، فزوَّدَني بالمطارق والسِّندان والملاقط وغيرها ممَّا يحتاجُ إليه مثلي.

= العروس، للزَّبيديِّ (١٤/ ٧٤).

(١) محمومٌ: أصابته الحُمَّى. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٢/ ١٨).

(٢) لم أقفْ عليه، ولم أجده فيما توفَّر لي من مصادر، ويُنسَبُ إلى صفيِّ الدِين الحلِّيِّ.

وافتتحتُ هذا الدُّكَّانَ أشتري الحديدَ من هذا وذاك فأصنعُه وأبيعُه، آكلُ أنا وأولادي ربحَه، وأدفعُ رأسَ المالِ إلى البائعِ، فشبعتُ أنا وأولادي السِّتَّةُ وزوجتي، واكتسينا الثِّيابَ، وافترشنا الفراشَ، بعدَ أن كُنَّا لا نعرفُ من الدِّثارِ إلَّا التُّرابَ، والتحفْنا وقد كان لحافُنا قبلَ أن نستوطِنَ الكويتَ السَّماءَ.

وقبلَ أيَّامٍ جاءني رجلٌ عرَّفَني نفسَه، بأنَّه فلانٌ من الشُّيوخ، فاشترى منِّي مبلغًا من المسامير لبناء سفينةٍ، ودفعَ الثَّمنَ آجِلًا[1]، وبعدَها جاء واشترى كمِّيَّةً أكثرَ من الأولى استدعتْ أن يَفْرَغَ كلُّ ما لديَّ من حديدٍ، وأنا لم أتعوَّدِ المماطلةَ وإنِّي بانتظار الثَّمن الَّذي لم يدفعْه، وقد وعدَ أن يدفعَه، وإنَّني لأستحيِي أن أذهبَ إلى التَّاجرِ؛ خوفًا من أن يأكلَ عليَّ ثمنَ الحديدِ، فأكونَ كالمستجيرِ من الرَّمضاء[2] بالنَّارِ، وها أنا فَرَرْتُ من ظلمٍ لأقعَ في ظلمٍ مثلِه!

قال جارُه: هل طالبتَه بالثَّمن؟

قال: لا.

قال الجارُ: اذهبْ فطالبْه.

فقال الرَّجلُ: لا أَقْدِرُ؛ لأنِّي جبانٌ، والظُّلم الَّذي تعوَّدتُ في وطني أذهبَ منِّي الجرأةَ، حتَّى إنِّي لا أُبالغ إذا قلتُ لك: أخافُ من ظلِّي.

قال الجارُ: دعْني أرافقْكَ إلى محلِّ صاحبِك حتَّى إذا وصلنا إليه

(١) آجِل: تأخَّر، فهو نقيضُ العاجل. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٧/ ٤٣٥).
(٢) الرَّمضاء: الحَرُّ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٨/ ٣٦١).

قفْ أمامَه ولا تَقُلْ شيئًا، فلعلَّه يذكرُك ويوفِّيكَ حقَّكَ.

قال: نِعمَ ما أشرتَ به.

ذهبا، ولكنَّ الشَّيخ تظاهرَ أمامَ الحدَّادِ بعدم الاكتراثِ، ولَمَّا طالَ وقوفُه صرفَه، ورجعَ الحدَّادُ وجارُه إلى محلَّيهما صامتَينِ، ثمَّ التفت الجارُ إلى جارِه قائلًا له: يا عبدَ الله! إذا صلَّيتَ العصرَ اليومَ اِرفعْ شكواكَ إلى الأميرِ على قريبِه، فإنَّه لا سبيل لكَ إلى أخذِ حقِّك إلَّا بالشَّكوى، وهذا قريبُ الأميرِ قد تعوَّدَ على ظلم الغرباءِ؛ لأنَّه يعلم أنَّهم لا يجرؤونَ على رفعِ الدَّعوى ضدَّه.

فقال الحدَّادُ: وهل يسمعُ الأميرُ شكوى شاكٍ ضدَّ أخيه؟

قال الجارُ: نعم؛ لأنَّ الأميرَ عندَنا واحدٌ والإمارة لا تتجزَّأُ، فأخو الأمير وأبناؤه وآله ورعيَّته سواءٌ، وأميرُنا - ولله الحمدُ - عادلٌ يكرهُ الظُّلمَ، ويردُّ الظَّالِمَ، وهو دائمًا مع المظلوم حتَّى يأخذَ الحقَّ له من ظالمه.

قال الحدَّادُ: وكيف العملُ إذن؟

قال: اذهبْ بعدَ العصرِ إلى مجلسِ الأميرِ المعروفِ في وسطِ البلدِ، واجلسْ على مرأًى منه فسيراكَ، فيأمر لك بالقهوةِ، ثمَّ يُناديك مُستفهِمًا منكَ أمرَك، فقلْ له: إنَّ فلانًا اشترى منِّي مساميرَ ولم يدفعْ لي الثَّمنَ، وجئتُ أستعينُ بطويلِ العمر - كنيةٌ يُخاطَب بها الأميرُ - على استيفاء حقِّي.

فعلَ الحدَّادُ ما أشارَ عليه جارُه ووقفَ أمامَ الأمير، وهو يرجف من شدَّة الخوف، وجفَّ ريقُه ونشف لسانُه ولم ينطق، فابتسمَ له

الأميرُ ورَقَّ وأمرَهُ بالجلوسِ، وقالَ له: كأنَّكَ يا أخا العربِ غريبٌ!

قالَ: نعم أيُّها الأمير.

قال: من أيِّ البلادِ أنتَ؟

قال: من الأحساءِ.

قال: من أيِّ بلادها؟

قال: من الهفوف.

قال: ومتى قَدِمْتَ إلينا؟

قال: منذ ثلاثِ سنينَ.

قال: وأين تسكنُ؟

قال: في محلَّة كذا.

قال: كأنِّي بِكَ رغبتَ في البلادِ!

قال: نعم يا طويل العمر.

ولَمَّا أَمِنَ واطمأنَّ الرَّجلُ وراقتْ نفسُه، قال له: وماذا تعملُ؟

قال: أنا حدَّادٌ أيُّها الأمير.

قال: وهل اشترى أحدٌ منك بضاعةً ولم يدفع ثمنَها؟

قال: نعم، أطالَ اللهُ عمرَ الأميرِ، فلانٌ الشَّيخُ أخذَ منِّي حديدًا ولم يدفع الثَّمنَ. قالَها بصعوبةٍ وخوفٍ.

قال الأميرُ: وكم ثمنُ الحديد؟ فأخبره الحدَّادُ بالثَّمن.

قال الأميرُ: إذا كان الغدُ فتعالَ بعدَ العصرِ لتقبضَ الثَّمنَ كاملًا.

وخرج يرجفُ فؤادُه لا يدري أخوفًا كان قد اعتراهُ أم فَرَحًا.

اجتمعَ الأميرُ بقريبِه وسألَه عمَّا فعلَ معَ الحدَّاد، فلم يُنكِر، فقالَ له: يا أخي! هذا من ناسٍ شرَّدَهُم الظُّلمُ من بلادِهم إلى بلدِك، جاؤوا إلينا فاستراحوا، وطابَ لهم الْمقامُ فَنَعِمُوا بالدِّفءِ، وكسبوا الحلال، وشبعوا من جوعٍ، واكتسَوا من عُرْيٍ، وأَمِنُوا على أنفسِهم من هلاكٍ وخوفٍ، وعلى كرامتِهم مِن أن تُهانَ، وعلى رزقِهم مِن أن يُغتصَبَ، فدَعَوا لنا بالخيرِ؛ حُبًّا بنا، ونسألُ اللهَ أن يستجيبَ منهم دعاءَهم لنا، ثمَّ تأتي أنتَ يا أخي لتظلمَ!

أَمَا تعلمُ أنَّ البغيَ يصرعُ أهلَه، وأنَّ الظُّلمَ وخيمُ[1] العاقبةِ؟! قُم الآنَ واذهبْ إلى الرَّجلِ وأوفِه حقَّه واطلبْ منه العفوَ والمغفرةَ، وإلَّا فسأجعلُك اليومَ تقفُ معَه موقفَ الخصومةِ، وهي إهانةٌ لك وإهدارٌ لكرامتك، واعلمْ - يا أخي - أنَّ مَن لا يُكرِم نفسَه يَهُنْ.

وجاء الحدَّادُ في الموعد الَّذي ضربَهُ له الأميرُ داعيًا وشاكرًا، لا شاكيًا؛ لأنَّ حقَّه وصلَه صباحًا، أتاه به المدِينُ نفسُه يعتذرُ إليه من التَّأخير.

ونَعِمَ الحدَّادُ بعدَ ذلك في الكويت حتَّى آخر أيَّام حياتِه، وعاش أولادُه ثمَّ أحفادُه مِن بعدِه مواطنِينَ صالحِينَ[2].



(١) وخيمُ العاقبة: ثقيلٌ رديءٌ. انظر: تاج العروي، للزَّبيديِّ (٣٤/ ٣٤).

(٢) جرت حوادثُ هذه القصَّة في عهد الأمير المرحوم الشَّيخِ عبد الله بن صُباح بن جابرٍ.


(الحكاية الخامسة)

«العدلُ حَسَنٌ، ولكنَّهُ في الأُمراءِ أَحْسَنُ»[١].

«إنَّ أقواكم عندي الضَّعيفُ حتَّى آخُذَ له بحقِّه، وإنَّ أضعفَكم عندي القويُّ حتَّى آخُذَ منه الحقَّ»[٢].

كان العملُ الرَّئيسُ في الكويتِ قائمًا على البحرِ، وله أربعةُ أنوعٍ:

أهمُّها الغوصُ: ويُوزَّعُ العملُ فيه على أربعةِ أصنافٍ من الرِّجالِ؛ أوَّلهم النُّوخذا: وهو ربَّانُ السَّفينة وقائدُها، ثمَّ الغَيَاصَةُ: ويقومُ بها الفَيْضُ الَّذي ينزلُ إلى الأعماقِ يصطادُ الْمَحَارَ، ثمَّ السَّوابةُ: وهي خاصَّةٌ بالسَّيْبِ الَّذي يتولَّى مساعدةَ الغائصِ في النُّزول إلى الأعماق والخروج منها، ويقف دائمًا على حاشية السَّفينة متنبِّهًا بكلِّيَّته على الغائصِ؛ لأنَّ حياةَ الغائص بيدِه وحدَهُ، ثمَّ الرَّضيف: وعملُه لا يتعدَّى خدمةَ السَّيْبِ، ولا يكون إلَّا صبيًّا لم يبلغِ الحِلمَ، أو قاربَهُ.

والعملُ الثَّاني في البحرِ السَّفرُ، وأهلُ السَّفرِ هم الَّذينَ يقطعونَ ظلماتِ البحرِ ما بينَ خليجِ العربِ وإفريقيَّةَ أو الهندِ أو إلى أبعدَ مِن ذلك، يظلُّون في البحرِ الأشهرَ الطِّوالَ منقطعِينَ عن العالَمِ، لا يرونَ

(١) أوردَه العجلونيُّ في كشفِ الخفاء، رقم: (١٧٢٢).
(٢) أوردَه المتَّقي الهندي في كنز العمَّال، رقم: (١٤٠٧٣).

تحتَهم غيرَ الماءِ، ولا ينظرونَ فوقَهم إلَّا السَّماءَ، يذهبونَ ببضائعِ العراق والخليج، ويعودونَ بغيرِها من الهند وإفريقيَّة أو جزر الهند؛ ليوزِّعوها على بلاد الخليج، وقد تستغرقُ سفرتُهم أكثرَ من عامٍ.

والعملُ الثَّالثُ القطاعةُ، وهو السَّفر في البحرِ داخلَ الخليجِ بينَ ساحِلَيهِ، وعملُ القطَّاعِ التِّجارةُ بينَ بلدانِ الخليجِ شرقًا وغربًا.

أمَّا العملُ الرَّابعُ في البحرِ فصيدُ السَّمكِ، ولا يُجَاوِزُ هذا العملُ مياهَ الكويتِ.

كانَ عبدُ الله أحدَ البحَّارةِ مِن عمَّال الغوصِ، وهو من سكَّان جزيرة فليكا التَّابعةِ لإمارةِ الكويتِ، يعملُ سَيْبًا في سُفُنِ النُّوخذا ناصرٍ الحاكم بأمرِه في بحَّارته الَّذين جاوزَ عددُهم الأربعَمئة، وتوزَّعوا على سُفنِه البالغةِ أكثرَ من عشرينَ سفينةً، ولا يجرؤُ أحدٌ أن يَرُدَّ له قولًا أو يخالِفَ له أمرًا، استُفتِيَ فطَغَى، وأُطِيعَ أمرُه فبَغَى.

عَلِمَ البحَّارُ عبدُ اللهِ أنَّ سفرتَهم تلك قد رَبِحَتْ؛ لأنَّهم باعوا لؤلؤًا كثيرًا، حالفَهم في تحصيلِه وتصريفِه، وقد تحرَّر كثيرٌ من البحَّارة من دَين النُّوخذا التَّاجرِ ناصرٍ.

وبعدَ القُفُولِ - وهو أوبةُ[1] الغوصِ إلى الدِّيارِ - الَّذي وافقَ أوَّلَ يومٍ من برج الميزان (٢٤) أيلول طلبَ عبدُ اللهِ إلى ناصرٍ حسابَه؛ ليعرفَ هل لا يزال مَدِينًا أم تخلَّص من الدَّين.

فقال ناصرٌ: إنَّك ما تزال مَدِينًا، إذا أردتَ دراهمَ أعطيناكَ على

(١) آب الغائب: رجع. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢/ ٣٣).

الحسابِ. ذلك لأنَّ عبدَ اللهِ بحَّارٌ نشيطٌ، ولا يريد النُّوخذا ناصرٌ أن يتخلَّصَ عبدُ الله منه.

وفي العام الَّذي يليه، ربحتِ السَّفرةُ أكثرَ ممَّا ربحته في العام السَّابق، وبعدَ العودةِ سألَ عبدُ اللهِ ناصرًا النَّظرَ في حسابِه.

فقال ناصرٌ: إنَّك ما تزال مدينًا.

قال البحَّار: يا نوخذا! أرجو النَّظرَ في حسابي؛ لأنِّي أعرفُ مقدارَ ما عليَّ، ومقدارَ ما يُصِيبُني من العملِ؛ قُطْعَانِي.

فزجَرَهُ النُّوخذا قائلًا له: هذا هو شغلُكَ.

شكا عبدُ اللهِ لأصدقائه ظلمَ ناصرٍ، وسألَهم: بِكَم حاسبَكم؟

فأجابوه بما أكَّدَ في ظنِّه أنَّ له فضلَ[1] حسابٍ، وأنَّ الفضل كبيرٌ يستطيعُ به أن يشتريَ زورقًا للصَّيد، ودارًا للسَّكن.

عادَ عبدُ الله إلى النُّوخذا ناصرٍ يَلِحُّ عليه طالبًا النَّظرَ في الحسابِ؛ لأنَّه فَهِمَ من زملائِهِ مِنَ السُّيوبِ أنَّه يُفضِلُ له المبلغَ المرقومَ؛ ومعناه مبلغٌ كبيرٌ.

أجاب النُّوخذا: إن كنتَ محتاجًا فاطلبْ ما تشاءُ على حسابِك.

لكنَّ عبد الله قد ملَّ العملَ في البحر، وأراد العملَ الحُرَّ والإقامةَ بينَ أهلِه وأولادِه، فهو يريدُ أن يشتري زورقًا صغيرًا يصطادُ السَّمك به معَ زوجتِه وولدِه الكبيرِ، إلَّا أنَّ ناصرًا نهرَه وقالَ له: ليس لك

(١) الفَضْلُ: الزِّيادة. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٠/ ١٧١).

عندي حسابٌ، وفي وقت التَّسقام تعالَ وخذْ ما تشاءُ، والتَّسقامُ: هو ما يُعطَى لبحَّارة الغوصِ في الشِّتاءِ معونةً لهم على مصاريفِه أواخِرَ كانون الأوَّل غالبًا.

خرجَ عبدُ اللهِ من عندِ النُّوخذا دامعَ العينَينِ، لا يدري كيف يتخلَّصُ من رِقِّ[1] النُّوخذا ناصرٍ، فَلَقِيَه في الطَّريقِ أحدُ أصدقائِه، فسألَهُ عن حالِه، فأجاب: إنِّي بخيرٍ لولا أنِّي ما زلت رفيقًا لناصرٍ.

قال رفيقُه: إنَّك رابحٌ هذا العامَ والعامَ الَّذي قبلَه، فكم عليك؟

قال عبدُ الله: إنِّي أعلم بربحي وتحصيلي خيرًا، ولكنَّ النُّوخذا ناصرًا لا يريد أن يحاسبَني، أو يعطيني فضيلتي، والفضيلةُ: ما يبقى للبحَّار بعد الحساب.

قال صديقُه: اشكِهِ إلى الشُّيوخ، وكلمةُ شيوخ تُطلق على الأميرِ وحدَه؛ أميرِ البلاد.

عبدُ الله لم يرَ الأميرَ ولم يعرفْ حتَّى ملامحَه، فقال لرفيقه: وكيف أشكو النُّوخذا لسموِّ الأمير، والنُّوخذا رجلٌ كبيرٌ وهو أميرٌ علينا، وأخاف أن يؤذيني.

فقال الرَّفيقُ لعبدِ اللهِ: ما مِن أحدٍ أكبر من الأمير يا عبدَ الله، وأنت وناصرٌ عندَ الأميرِ بدرجةٍ واحدةٍ، بل إنَّك أقوى من ناصرٍ حتَّى تأخذَ حقَّكَ منه، فاكتبَ ورقةً أوضِحْ فيها قضيَّتَكَ، واخرجْ بعدَ

(١) الرِّقُّ: العبودة، وسُمِّيَ العبيدُ رقيقًا؛ لأنَّهم يَرِقُّونَ لمالِكهم، ويَذِلُّونَ ويخضعون. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٥/ ٣٥٧).

العصرِ، وقِفْ في ذلك المكانِ المعيَّنِ، وارفعْ يدَكَ بالكتابِ، فيأمر الأمير مَن يأخذُ الكتابَ منك حتَّى إذا قرأَه ناداك، فلا تخفْ، سيسألُك فأجبْه على سؤالِه، ولا تقلْ غيرَ الصِّدقِ، فإنَّ الصَّادق ناجٍ، واعلم - يا عبد الله - أنَّ السُّلطان ظلُّ اللهِ في أرضِه يلجأُ إليه المظلومُ، ويأمنُ فيه الخائفُ، وأنت رجلٌ مظلومٌ.

وقفَ عبدُ الله في طريقِ الأمير رافعًا يدَه برسالتِه، وبعدَ أن أخذَ الأميرُ الرِّسالةَ، أمرَ أحدَ أتباعِه أن يقولَ لعبدِ اللهِ: اذهبْ وحسابُكَ سيأتيك.

ذهبَ عبدُ اللهِ إلى دارِه يائسًا؛ لأنَّ الأميرَ لم يطلبْه أو يكلِّمْه، وقد خسرَ عطفَ النُّوخذا، وبقي في بيتِه والحزنُ قد طوَّقَهُ[1] من جهاتِه جميعِها.

وفي اليومِ الثَّالثِ جاءَه رسولٌ من النُّوخذا يحملُ معَه قائمةَ حسابٍ، فَهِمَ منها أنَّ له عندَ النُّوخذا مبلغًا كبيرًا يكفيه لشراء دارٍ يسكنُها معَ أهلِه، وزورقٍ كبيرٍ لصيد السَّمك، ولِلعَيشِ بعدَ ذلك في بحبوحةٍ ما بقي حيًّا.

ذهبَ في غدِه إلى النُّوخذا، واستلمَ المبلغَ الباقي مِن حسابِه، وظلَّ النُّوخذا أمامَه يرجوه ألَّا ينقطعَ عن العملِ معه، وسيكونُ عزيزًا كريمًا.

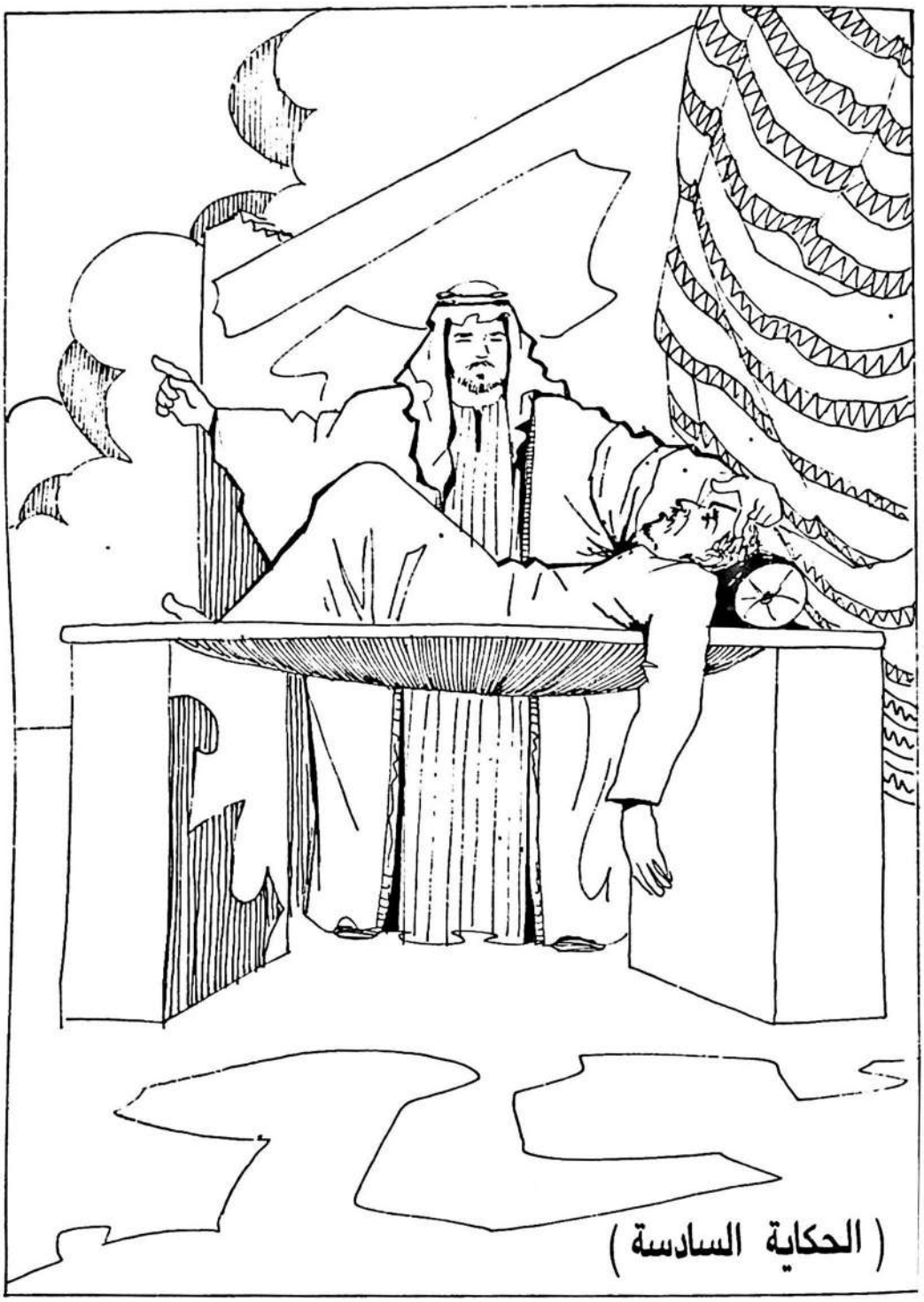
ولكنَّ عبدَ الله قرَّر أن يعيشَ حُرًّا ما بقي حيًّا، شاكرًا اللهَ نعمتَه،

(١) طَوَّقَهُ: استدارَ به. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٠/ ٢٣١).

متلمِّسًا منه المزيدَ من فضله، سائلًا للأميرِ طولَ الحياةِ والتَّوفيقَ إلى الرَّشاد، ودوامَ نعمتَي الأمنِ والعدلِ في البلادِ[١].



(١) سمعتُ هذه القصَّةَ من المرحوم عبد الرَّحمن بن سالم فيلكا، وجرت حوادثُها في بداية عهد المرحوم الشَّيخ مبارك بن صُباحٍ، وتركْنا معرفة عبد الله وإيضاح شخصيَّته حتَّى لا يعرف النُّوخذا.



(الحكاية السادسة)

﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [النِّسَاء: ١١٤].

وقِيل: الصُّلح سيِّدُ الأحكام.

جَمَعَتِ الكويتُ في عهدِها الأوَّلِ جالياتٍ[1] من كثيرٍ من البلادِ العربيَّة، كلُّ جاليةٍ تُنسَبُ إلى اسمِ بلدِها مضافًا إليه كلمةُ أهل.

وفي نجدٍ بلادٌ كثيرةٌ، منها الحوطة، وأهلُ الحوطةِ في الكويت كثيرونَ، يعملونَ في البناءِ والعتالةِ، فإذا أدبرَ النَّهارُ رجعوا إلى دورِهم أو دواوينِهم يجتمعونَ فيها ويتذاكرونَ شؤونَهم وأخبارَ بلادهم، ويتفقَّدون مَن غابَ منهم أو مَرِضَ أو حالَ بينَه وبينَ العملِ مانعٌ.

وقديمًا كانت الكويت مَيدانًا للاكتسابِ وما تزالُ، يَأْتِيها الأجنبيُّ ليكتسبَ مِن بَرِّها أو بَحرِها، وبابُ العملِ فيها لم يُغلَق منذُ وُجِدت على سطح هذا الكوكب.

ومن أهل الكويت قومٌ سمَّوا أنفسَهم البحارنةَ، وهم شيعةٌ إماميَّةٌ

(١) الجاليةُ: الَّذين جَلَوا عن أوطانِهم. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٤/ ١٤٩).

إخباريَّةٌ، قيلَ هم في الأصلِ من البحرين وما قَرُبَ منها، قَدِموا إلى الكويتِ منذُ وُجِدَتْ، وفيهم بيوتٌ توالدَ أبناؤها في الكويت أبًا عن جَدٍّ، وكان عملُهم بناءَ السُّفن، وفيهم مَن وَرِثَ هذه المهنةَ كابرًا عن كابرٍ[١]، وعُرِفوا بالقلاليفِ، والمهنةُ القلافةُ، والقُلْفَةُ بناءُ السَّفينة، والجلافةُ تصليحُها أو صيانتُها.

ذاتَ يومٍ اختصمَ حوطيٌّ وبحرانيٌّ وتدافعا، واستنصر كلٌّ واحدٍ منهما بجماعتِه، فأهلُ الحوطةِ اجتمعوا لينصروا صاحبَهم، والبحارنةُ قاموا وتجمَّعوا كذلك لنصرةِ رفيقِهم.

رفعَ بحرانيٌّ فأسًا بيدِه، فضربَ واحدًا من أهل الحوطة فشَدَخَهُ[٢]، فنقلَ أهلُ الحوطة جريحَهم في نعشٍ ودمُه يسيلُ، ليرفعوا أمرَهم بالبيِّنة الواضحةِ إلى الأميرِ جابرِ بنِ صُباحٍ المعروفِ بجابرِ العيش، وجاء البحارنةُ أيضًا بمظاهرةٍ يشكونَ اعتداءَ أهلِ الحوطةِ عليهم، والمعروفُ أنَّ البحارنةَ لا يعتدونَ على أحدٍ، وإنَّما يدافعونَ عن أنفسِهم إذا اعتُدِيَ عليهم، ولا يرضون بالشَّرِّ، وإنَّما يجزُونَ بالشَّرِّ شرًّا.

كشفَ جابرٌ عن وجهِ الجريحِ، ووضعَ إصبَعَه على الجرحِ، فإذا الدَّمُ قد تخثَّرَ[٣]، وتوقَّفَ النَّزيفُ، ولم يتجاوزِ الجرحُ جلدةَ الرَّأس،

(١) كابرًا عن كابرٍ: أي كبيرًا عن كبيرٍ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٤/ ٥).
(٢) الشَّدْخُ: كَسْرُ يابسٍ وكلِّ أجوفَ كالرَّأسِ ونحوه. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٧/ ٢٧٧).
(٣) تخثَّر الدَّمُ: تجمَّدت كرَيَّاته بانفصال المصل عن قسمها الأحمر. انظر: معجم اللُّغة العربيَّة المعاصرة، لأحمد مختار عمر (١/ ٦١٥).

والعظمُ سليمٌ.

فوقفَ بينَ البحارنةِ وأهلِ الحوطةِ قائلًا لهم: يا أهلَ الحوطةِ - ملتفتًا إليهم -، ويا بحارنة - ملتفتًا ناحيتهم أيضًا - سأفصلُ في قضيَّتِكم بِرِضَاكُمْ، فهل ترضونَني حَكَمًا، أم أُحِيلُكم إلى المحكمةِ؛ إلى شرعِ اللهِ؟

ولم يكن يومئذٍ مُحاكمٌ سوى قاضٍ شرعيٍّ يحكمُ بينَ النَّاسِ في نواحي القضاءِ كلِّها تجاريًّا كان أو مدنيًّا أو جنائيًّا أو شخصيًّا، والقانونُ هو الشَّرع الإسلاميُّ.

فقالَ أهلُ الحوطةِ: حيَّا اللهُ الشَّرعَ، ولكنْ نحنُ راضونَ بحكمِكَ.

فالتفتَ إلى البحارنةِ فقالَ: وأنتم؟!

فقالوا: رضينا بحكمك.

فقال لهم جابرٌ: أُشهِدُ اللهَ والجماعةَ والحاضرينَ، حُكمي أنَّ هذه الفلعةَ - وهي الشَّجَّة بالرَّأس - لا تساوي أكثرَ من ريال - والرِّيالُ عملةٌ متداولةٌ في ذلك الزَّمان، وزنها (٣٠) غرامًا من الفضَّة تقريبًا - فخذوا صاحبَكم يا أهلَ الحوطةِ واعلموا أنَّ دكَّ الفلعةِ تمرةٌ وملحةٌ.

ومعنى الدَّكِّ: الحشوُ، والكلمة كنايةٌ عن العلاجِ؛ يُرشِدُهم إلى أنَّ التَّمرَ والملحَ علاجٌ للجرحِ الَّذي يكون في الرَّأس، فليقبضوا الرِّيال، وليعالجوا صاحبهم بالتَّمرة والملح، وليحمدوا اللهَ على السَّلامةِ.

ثمَّ التفتَ إليهم يأمرُهم بالتزامِ الهدوءِ والسَّكينةِ، وألَّا يُسيءَ

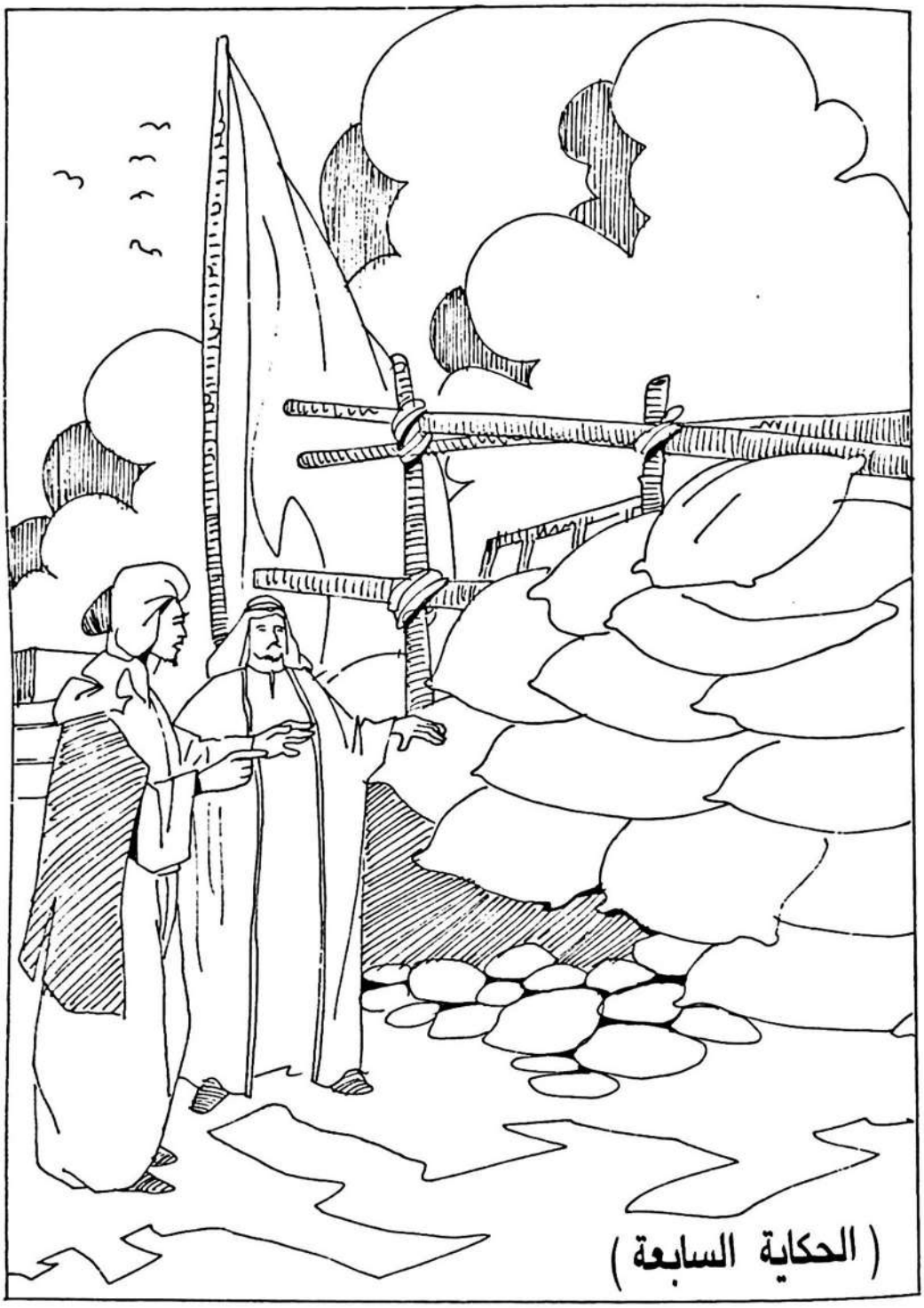
بعضُهم إلى بعضٍ؛ فالإساءةُ سببُ الشِّقاق، والشِّقاقُ يذهب بالاستقرارِ، وإذا ذهب الاستقرارُ حلَّت محلَّه الفوضى، والفوضى خوفٌ وانقطاعُ رزقٍ.

ثمَّ قالَ: هذا حُكمي، فإذا رضيتُم فخذوا صاحبَكم يا أهلَ الحوطةِ، وإلَّا فإنَّنا نبحثُ عن المعتدي الأوَّل - وهو يعلمُ أنَّه منهم - فنأخذُه بالقوَّة ونكافِئُه بالإساءةِ.

سكتَ النَّاسُ رضًا بالحكمِ، وبعدَ أن شكروا الأميرَ ذهبَ كلٌّ إلى حالِ سبيلِه[1].



(١) قصَّ عليَّ حوادثَ القصَّةِ الحاجُّ أحمدُ بنُ يعقوب المحيميد، وكانت حوادثُها في عهد المرحوم الشَّيخ جابرٍ الأوَّل المشهور بجابر العيش، وهو الحاكم الثَّالث ابن عبد الله بن صُباح الأوَّل، حكمَ فيما بينَ سنتي (١٢٢٩-١٢٧٦هـ) الموافق (١٨١٤/ ١٨٥٩م)؛ أي إنَّ حُكمَهُ دامَ ستًّا وأربعينَ سنةً.



(الحكاية السابعة)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾ [البقرة: ١٧٢].

«طُوبى لِمَنْ طابَ كَسْبُه وصَلُحَتْ سريرتُه، وحَسُنَتْ علانيتُه»(١).

كانَ للثِّقة بينَ النَّاسِ مكانٌ، وكانت الأمانةُ صفةً للنَّاس جميعِهم، ومرَّ الزَّمنُ بجديدَيهِ على النَّاسِ وهُم كما هم؛ يبيعونَ ويبتاعون بالثِّقة، كان كلٌّ واحدٍ منهم **«سَمْحًا إذا باعَ، سَمْحًا إذا اشترى، سَمْحًا إذا اقتضى»**(٢).

لا يرضون بغير الحلال كسبًا مهما بلغَ حسابُه، ولا بغير الطَّيِّبات، يطعمونَ بها، وبها يتصدَّقونَ، كلٌّ واثقٌ من أخيه ثقتَه بنفسِه، يحبُّ لأخيه ما يحبُّ لنفسِه؛ إذ قال النَّبيُّ ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم، حتَّى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه»**(٣)، والمجتمعُ كالبنيانِ يشدُّ أفرادُه بعضَهم إلى كلِّهم، كما قال النَّبيُّ ﷺ: **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا»**(٤).

(١) أوردَه المتَّقي الهندي في كنز العمَّال، رقم: (٤٤١٥٠).
(٢) رواهُ ابنُ ماجه، رقم: (٢٢٠٣).
(٣) رواه البخاريُّ، رقم: (١٣)، ومسلمٌ، رقم: (٤٥).
(٤) رواه البخاريُّ، رقم: (٤٨١)، ومسلمٌ، رقم: (٢٥٨٥).

ومِن تُجَّار هذا البلدِ فَرَجٌ، المشهورُ بِوَفْرَةِ ماله وسَعةِ عملِه وحبِّه للخير ومساعدةِ الغَيرِ، يحبُّ النَّشيطَ من الشَّبابِ، ولا يبخلُ بمدِّ يدِه إلى محتاجٍ، وبذلِ مساعدةٍ لِمُعسِرٍ.

من الشَّبابِ النَّشيطِ المتحمِّسِ للعمل مُفلحٌ، قليلُ ذاتِ اليَدِ، هِمَّتُه أكبرُ ممَّا يملِكُ، عَلِمَ أنَّ الشَّعير قلَّ في البلدِ، وأنَّه لو أتى بكمِّيَّةٍ كبيرةٍ لَنَفِدَتْ[1] في السُّوقِ، ولكنْ مِن أين له المالُ يشتري به الشَّعيرَ؟!

تحدَّثَ لأحدِ أصدقائِه عن أُمنيَّته هذه، فقال له الصَّديق: اذهب إلى الشَّيخ فَرَجٍ، فسترى عنده الفرجَ.

قال مفلحٌ: وهل يعرفُني الشَّيخ فرجٌ؟

قال الصَّديق: عندَ فرجٍ فراسةٌ يعرِفُ بها الإنسانَ، ويقرأُ أخلاقَه في وجهِه، وكأنَّه يقرأُ في كتابٍ، فتوكَّلْ على اللهِ واذهبْ إليه، واعرِفْ نفسَك ومكانتَك في المجتمعِ عندَه.

لم يتردَّدْ مفلحٌ في الأمرِ، وتوجَّهَ إلى مجلسِ الشَّيخِ فرجٍ، العامرِ بالضُّيوفِ الَّذين يسمرونَ ويتذاكرونَ، فأطالَ الشَّيخُ فرجٌ النَّظَرَ إلى وجهِ مُفلِحٍ، ولَمَّا انفضَّ المجلسُ التفتَ الشَّيخُ إلى زائرِه قائلًا له: كأنَّ لك عندَنا حاجةً؟

قال مفلحٌ: نعم.

قال: وما هي؟

---

(١) نَفِدَ الشَّيءُ: فَنِيَ وذهبَ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٩/ ٢٢٨).

قال مفلحٌ: يعلمُ عمِّي الشَّيخُ فَرَجٌ أنَّ الشَّعيرَ قليلٌ في الكويت، ولو أنَّني وُفِّقْتُ فحصلتُ على مبلغٍ أُضارِبُ به لَرَبِحْتُ، ولقد رأيتُ أن أعرضَ أمري عليك، فلعلَّ اللهَ يوفِّقني إلى كسبِ ثقتِك.

قال الشَّيخُ فرجٌ: إنَّني أعرِفُ أنَّك ثقةٌ وعلى صدقٍ من أمرِك، هكذا ظهرَ لي على ملامحِك، وأرجو أن تُوفَّق، فكم تريدُ؟

قال مفلحٌ: ألفَي بضاعةٍ.

والبضاعةُ مبلغٌ من النَّقدِ يُعطيه التَّاجرُ الكبير لتاجرٍ صغيرٍ ويُسهِم في المصلحة، وليس عليه من الخسارة شيءٌ، بل تكون الخسارة على التَّاجر الكبير المموِّل، فهذا يشاركُ بمالِه وذاك يشاركُ ببدنِه وله نصفُ الرِّبح، وإن ربحَ العملُ فليسَ عليه من خسارةِ المالِ شيءٌ، بل يخسرُ تعبَه.

قالَ الشَّيخُ: أتشتري بها شعيرًا؟

قال: نعم.

قال: أتبيعُه في الكويت؟

قال: نعم.

فأعطاه الألفَين، وسافرَ مفلحٌ إلى هنديانَ؛ وهو بلدٌ في إيرانَ.

دخلَ مفلحٌ السُّوقَ، وسألَ عن الشَّعير، فرأى أنَّ الرِّبح فيه قليلٌ، ولو اشترى بُرًّا[1] لَرَبِحَ المثلَ مثلَينِ، فاشترى القمحَ، ووصلَ إلى

(١) البُرُّ: القمح. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٧/ ٦١).

سوقِ الكويتِ، ولم يلبثْ أن باعَه بضعفِ الثَّمنِ، وأعادَ الكرَّةَ، وسهَّلَ اللهُ له السَّفرَ في الذَّهابِ والإيَابِ[١]، ورَبِحَ كما رَبِحَ في الأولى.

وبعدَ أن صفَّى حسابَه، وجمعَ ما لديه عندَ النَّاسِ، ذهبَ بقائمةِ حسابِه إلى الشَّيخ فرجٍ ليوفِّيَه دَينَه ويسلِّمَه نصيبَه من الرِّبح، ولكنَّ الشَّيخَ فرجًا قد استكثرَ الرِّبحَ قائلًا له: ما هذا يا بُنَيَّ؟

قال مفلحٌ: يا عمُّ! جزاكَ اللهُ خيرًا ويسَّرَ لك الأمرَ، عندَما سافرتُ إلى هنديانَ وجدتُ القمحَ أيسرَ والتِّجارةَ به أربحَ، فعَدِلْتُ عن[٢] الشَّعيرِ، وابتعتُ قمحًا أربحَني المثلَ مثلَينِ.

قال الشَّيخُ: إنَّني أعطيتُك الدَّراهمَ على أن تُتاجِرَ بالشَّعيرِ وقد خالفتَ، فأعطني دراهمي، وقمْ بالباقي.

قال مفلحٌ: إنَّك يا عمُّ أعطيتَني لأتاجرَ فقط، وقد اجتهدتُ وربحتِ التِّجارةُ، وهذا نصيبُك في الرِّبح.

قال الشَّيخ: لا نصيبَ لي في ربحِكَ؛ لأنَّ اتِّفاقَنا كان على التِّجارةِ في الشَّعير دونَ سِواه، ولو أنَّ الحنطةَ غرقتْ لطالبتُك بِدَيني كلِّه، وليس عليَّ من الخسارة شيءٌ؛ لأنَّك خالفتَ شَرطي.

حاولَ مُفلحٌ أن يُقنِعَ الشَّيخَ بسلامة عملِه، لكنَّ الشَّيخَ أرادَ أن يساعدَ مفلحًا دون أن يَشْعُرَ بذلك؛ لأنَّه نشيطٌ وصاحبُ همَّةٍ ونباهةٍ،

(١) الإياب: الرُّجوع. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١/ ١١٨).
(٢) عَدَلَ عن الشَّيءِ: حادَ. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١١/ ٤٣٤).

ويجبُ أن يُكافأَ على ذلك.

وأخيرًا رَضِيَ مُفلِحٌ ورَجَعَ بالرِّبح كلِّه، ولم يستلمْ منه الشَّيخُ شيئًا، وقد أفاض الشَّيخُ على مفلحٍ بفضلٍ دون أن يشعرَ مفلحٌ؛ ذلك لأنَّ الشَّيخ استلم دينَه كاملًا، ولو غَرِقَ المالُ لَمَا طالبَه برأسِ المالِ[1].



(١) سمعتُ هذه القصَّةَ مِن غيرِ واحدٍ، وممَّن قصَّها عليَّ أحمدُ بْنُ يعقوب المحيميد، وبطلُ هذه القصَّةِ الشَّيخُ فرجٌ جدُّ أُسرة الفرج المعروفِينَ، وجدُّ الشَّاعرِ عبدِ اللهِ بْنِ محمَّدِ بْنِ فرجٍ.


(الحكاية الثامنة)

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾

[الإسـرَاء: ٢٣]

«رِضَى الرَّبِّ فِي رِضَى الوَالِدِ، وَسَخَطُ الرَّبِّ فِي سَخَطِ الْوَالِدِ»(١).

كان الوالدُ في الأُسرةِ الآمرَ النَّاهي الْمُطاعَ في أمرِه ونهيِه، لا يُرَدُّ قولُه، ولا يُعارَض في كلِّ شأنٍ من شؤونِها، مُحترَمًا إن حضر وإن غاب، وإذا قالَ الولدُ: أمرَ أبي بكذا صدَقَ؛ لأنَّ الولدَ لا يستطيعُ أن يكذِبَ على والدِه، ففي الكذبِ على الوالدِ غضبُ الله.

كان محمَّدٌ أبًا لأولادٍ، منهم عبد اللَّطيف الشَّابُّ النَّشيطُ قويُّ العزمِ، كَسِبَ الثِّقةَ من أبيه، فاعتمدَ عليه، وعرَفَ النَّاسُ ثقةَ الوالدِ بابنِه، فاحترموه ووَثِقُوا به، فكانَ يشتري ويبيعُ ويراسلُ ويستوردُ ويُصدِّر باسمِ أبيه محمَّدٍ.

استثمرَ إخوةُ عبدِ اللَّطيف هذه الثِّقةَ مِن أبيهم في أخيهم، فوسَّطوه في كثيرٍ من أمورِهم عندَ أبيهم، فهو مقبولُ الشَّفاعةِ منفذُ الوساطةِ عندَ الأبِ، إلَّا واحدًا من الإخوةِ كانَ الحسدُ قد دبَّ إلى قلبِه كما

(١) رواه التِّرمذيُّ، رقم: (١٨٩٩).

حسدَ إخوةُ يوسُفَ أخاهم.

فقد كَرِهَ أن يكونَ أخوه أقربَ إلى قلبِ أبيه منه، فقالَ في نفسِه: لا بدَّ من عملٍ أعملُه؛ لأصرفَ قلبَ أبي عن عبد اللَّطيف، ودبَّرَ بعد أن فكَّرَ، وكادَ[١] حتَّى استطاعَ أن يصرِفَ الأبَ عن ابنِه.

وذاتَ يومٍ وقد أصبحَ عبدُ اللَّطيف كعادتِه منصرفًا إلى حيثُ يجلسُ أبوه في بَهْوِ[٢] الدَّار، قدَّمَ له تحيَّةَ الصَّباحِ، ولكنَّ الأبَ عبسَ في وجه الابنِ البارِّ قائلًا له: اقلبْ وجهَك عنِّي يا قاطعَ الرَّحِمِ.

لم يشأْ عبدُ اللَّطيفِ أن يستفهمَ مِن أبيه عن سببِ هذا الطَّردِ؛ لأنَّه اعتادَ الصَّبرَ، ولم يقفْ؛ لأنَّ أباه أمرَه بالانصرافِ وعليه أن يُطِيعَه.

صبرَ يومًا فيومَينِ فثلاثةً ينتظرُ أن يُرسِلَ إليه الأبُ لعلَّه يسألُ عن حاجةٍ، فقد كان عبد اللَّطيف كلَّ شيءٍ في حياةِ أبيه، ولكنَّ الأبَ أصرَّ على ألَّا يسألَ عن ماضٍ كان عبدُ اللَّطيف فيه التَّاجرَ الحاضرَ.

وضاقَ الأمرُ بعبدِ اللَّطيفِ؛ وضاقتْ عليه الأرضُ بما رَحُبَتْ[٣]، وتشفَّعَ بأخيه الأكبرِ فأبى أن يشفعَ له؛ لأنَّه يخشى أن تكونَ هذه الشَّفاعةُ سببًا في غضبِ الوالدِ عليه، وفي غضبِ الوالدِ غضبُ اللهِ.

ذهبَ إلى أصدقاء والدِه يرجوهم أن يشفعوا له عندَ أبيه، فسألوه عن السَّبب، فلم يدرِ ما هو حتَّى يخبرَهم به، فظنُّوا ذلك عنادًا منه

(١) الكَيدُ: الحِيلَة. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٩/ ١٢٣).
(٢) البَهْو: الواسع من الأرض. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٧/ ٢٣٨).
(٣) رَحُبَتْ: اتَّسعت. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢/ ٤٨٨).

وعقوقًا، فأبَوا أن يستجيبوا لطلبِه.

وضاقَ على عبد اللَّطيف الرِّزقُ، وملَّ البطالةَ، وهو الشَّابُّ القويُّ النَّشيطُ الَّذي لا يُقعِدُه عن العملِ أقوى الموانع، فقالَ في نفسِه: سأقترضُ المالَ وأعملُ، وسيوفِّقُني اللهُ؛ لأنِّي لم أجنِ ذنبًا، وغضبُ والدي عليَّ بلا سببٍ، ولو عليَّ ذنبٌ لأخبرَني به، ولعلَّ غضبَه ظنٌّ، وأنا بريءٌ من هذا الظَّنِّ، قال تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحُجرَات: ١٢].

ثمَّ رفع يدَه إلى السَّماء، وقالَ: اللَّهمَّ اغفرْ لأبي.

ولَمَّا أصبحَ نزلَ إلى السُّوقِ، وذهب إلى فهدٍ التَّاجرِ الثَّريِّ، فحدَّثَه في الأمر، وطلب إليه مبلغًا من المالِ يُعطيه إيَّاه على سبيلِ البضاعة؛ أي: المضاربة، ومعنى ذلك أن يعملَ بهذا المال، وللتَّاجرِ نصفُ الرِّبح، ولا خسارةَ على العاملِ إذا خَسِرتِ الصَّفْقةُ.

قال فهدٌ لعبد اللَّطيف: يا ولدي! لقد حدَّثتني الآنَ أنَّ أباك غاضبٌ عليك، وأخشى إذا أعطيتُك أن أقوِّيَكَ على عقوقِ والدِك، فأكونَ شريكَك في الإثمِ، اذهبْ يا بُنيَّ إلى أبيك، واطلبْ رضاه، فأبوكَ رجلٌ غنيٌّ، وسيرضى اللهُ عنكَ والنَّاسُ أجمعِينَ.

قال عبدُ اللَّطيف للتَّاجر فهدٍ: يا سيِّدي! أنا لا أعرف سببًا لغضبِ والدي عليَّ، ولم يخبرْني لِمَ غَضِبَ عليَّ.

قال فهدٌ: إنَّ أباك يا عبدَ اللَّطيف نِعم الأبُ، وهو لم يُخطِئْ بأحدٍ من قبلُ، وأحرى به ألَّا يخطئَ بأولادِه، فاذهبْ إليه واسترضِه.

يَئِسَ عبدُ اللَّطيف من فهدٍ، وذهب إلى غيرِه، وكان الأمرُ معَه كما كانَ معَ فهدٍ، ثمَّ ذهب إلى ثالثٍ ورابعٍ وعاشرٍ، وكلُّهم أجابوا عبدَ اللَّطيف: لا نستطيعُ مساعدتَك ما دام أبوك غاضبًا عليك؛ لأنَّنا نخشى أن نُعِينَ عاقًّا فنُغضِبَ اللهَ.

سُدَّتِ الأبوابُ في وجهِ عبد اللَّطيفِ، فذهبَ إلى أبيه، وقال: يا أبي! انقطعَ رزقي منك، فذهبتُ أطلبُه إلى النَّاس، ولكنَّ النَّاسَ قطعوني؛ لأنَّهم ظنُّوا بي العقوقَ، وأنا واللهِ يا أبي ما عَقَقْتُكَ يومًا ولا خُنتُكَ، فارضَ عنِّي رضي اللهُ عنكَ، أو أخبرْني ما جريمتي؛ حتَّى أستغفرَ اللهَ منها وأستغفرَك.

أحسَّ الأبُ بخطئِه تجاهَ ولدِه، وقال: اذهبْ يا عبدَ اللَّطيف فقد رضيتُ عنك.

خرجَ عبدُ اللَّطيف من البيت بعد أن قبَّلَ أباه فرحًا بنعمةِ الله عليهِ؛ نعمةِ رضا الوالدَينِ.

وبعدَ صلاةِ العصرِ خرجَ إلى السُّوق؛ ليخبرَ فهدًا وغيرَ فهدٍ بأنَّ أباه قد رضي عنه، ولكنَّ فهدًا والآخَرِينَ قالوا لا بدَّ مِن شاهدٍ يشهدُ لكَ بهذا الادِّعاءِ.

التفتَ عبدُ اللَّطيفِ فرأى أباه يمشي خلفَه، يخبرُ النَّاسَ بأنَّه رَضِيَ عنه، فَسُرَّ فهدٌ والتُّجَّارُ بهذا الرِّضا، واتَّفقوا معَ عبدِ اللَّطيفِ على شركاتٍ يعقدونَها معَهُ يُضارِبُ بها لهم فيربحُ.

اتَّسع عملُ عبد اللَّطيف وهو الشَّابُّ النَّشيطُ الثِّقةُ، ولا يزالُ إلى

اليوم حيًّا يحكي للنَّاس قصَّتَه معَ أبيه والنَّاسِ في الزَّمنِ الغابرِ[١]، يحكي الفرقَ في الأخلاق والثِّقة وصدق المعاملة والتَّقاليدِ الَّتي كان النَّاسُ يتمسَّكون بها وكأنَّها فروضٌ، أوجبتْها العاداتُ على النَّاسِ، بل أوجبَها النَّاسُ وفرضوها[٢].



(١) الغابر: الماضي. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٣/ ١٨٧).

(٢) أبطال هذه القصَّة من أسرة المطوِّع، وكانت حوادثُها في عهد الشَّيخ مباركٍ الصُّباح.


(الحكاية التاسعة)

«إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّاتِ»[١].

هكذا كان الأمرُ عندَما وقفَ الحاجُّ تقيٌّ على محلِّ عبد العزيز يسألُه عن كمِّيَّةٍ كبيرةٍ من القهوة عندَه.

قال تقيٌّ: هل تبيعُني القهوةَ يا أبا محمَّدٍ؟

قال عبد العزيز: بِكَم؟

فعرضَ تقيٌّ على عبد العزيز سعرًا لها، كان يكسبُ عبدُ العزيزِ ربحًا أكثرَ منه، ولم يُجِب عبدُ العزيز، بسبب موضوعٍ آخرَ شغلَهما، وتشعَّبَ[٢] بينهما الحديثُ، وتركا موضوعَ القهوةِ.

قام تقيٌّ إلى محلِّه، وكان عبدُ العزيزِ قد نوى البيعَ على تقيٍّ وأضمرَه في نفسِه، وتقيٌّ لا يعلمُ بهذه النِّيَّةِ؛ لأنَّها كانت بعد فراقِهما، والعادةُ أن يقولَ البائعُ للمشتري: اللهُ يفتحُ عليك، ولم يقلْها عبدُ العزيز.

كان النَّاسُ يذهبونَ إلى أعمالِهم مُبكِّرِينَ، والبركةُ في البُكُورِ، ويخرجُ الإنسانُ من بيتِه بعدَ طلوع الشَّمسِ مباشرةً، وتعلو الشَّمسُ قدرَ رمحٍ فتعمرُ الأسواقُ بالنَّاسِ، ويعودُ النَّاسُ إلى منازلِهم قُبَيلَ

(١) رواه البخاريُّ، رقم: (١)، ومسلمٌ، رقم: (١٩٠٧).
(٢) تشعَّبَ: صار ذا شُعبٍ؛ أي فِرَق. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١/ ٤٩٩).

الظُّهرِ أو قبلَه بساعةٍ إذا كان الوقتُ صيفًا، وفي الشِّتاء يعودون من السُّوق إلى المساجد لصلاة الظُّهر، ومنها إلى البيوت، أمَّا العملُ مساءً فتوقيتُه بينَ صلاتَي العصر والمغرب، يخرج النَّاسُ إلى المسجد لصلاة العصر ومنها إلى الأسواق، وقُبيل المغرب يذهبونَ إلى المساجد استعدادًا لصلاتها، ثمَّ إلى البيوتِ، وذلك صيفًا وشتاءً.

نَسِيَ تقيٌّ القهوةَ، وبعد مُضيِّ أيَّامٍ ارتفعَ سعرُ القهوةِ، ثمَّ ازدادَ السِّعرُ، وعبدُ العزيز لم يتصرَّفْ بها، وراجعَه تُجَّارٌ فقالَ لهم: ليس عندي قهوةٌ.

أرسلَ إلى تقيٍّ ليأتيَه، فجاءَهُ، فقال عبدُ العزيز: شيل قهوتَك يا تقيُّ، ومعنى شيل: اُنْقُلْ.

فتحَ تقيٌّ عينَيهِ وقال: أيُّ قهوةٍ؟

قالَ: الَّتي اشتريتَها منِّي قبلَ أسبوعَين.

تذكَّرَ تقيٌّ الأمرَ، وقالَ: نعم، طلبتُ إليكَ القهوةَ فلم تبعْني، ولم تقلْ لي: الله يفتح عليك.

قال عبدُ العزيز: ولكنَّني نويتُ البيعَ عليك.

قال تقيٌّ: ولكنَّني لم أنوِ الشَّراءَ منك.

قال عبدُ العزيز: شيل قهوتَك يا رجل.

قال تقيٌّ: ليس لي عندَك قهوةٌ.

وطال بينَهما الجدلُ، وذهب تقيٌّ إلى محلِّه، وتَبِعَهُ عبدُ العزيز يسألُه بالله أن يأخذَ القهوةَ خوفًا أن يجرَّهُ بقاؤها إلى الحرامِ، ولم يرضَ تقيٌّ

بذلك؛ لأنَّه لا يرضى بالحرامِ أن يدخلَ في رزقِه فيمحقَ[1] بركتَه.

قال عبد العزيز: سأرفعُ ضدَّك دعوى إلى الشُّيوخ. وكلمة الشُّيوخ تُطلَقُ عُرفًا على أميرِ البلادِ وحدَه.

قالَ تقيٌّ: وهل الشُّيوخُ أو مَن هم أكبرُ من الشُّيوخِ يُجبِرُونَ النَّاسَ على أكلِ الحرامِ؟!

ولَّى عبدُ العزيز مسرعًا ليرفعَ إلى الشَّيخ عبدِ الله الصُّباح شكوى ضدَّ تقيٍّ.

ضَحِكَ الشَّيخُ فرحًا بما فُطِرَ عليه شعبُه من تمسُّكٍ بالشَّريعة، وتَحَرٍّ للطَّيِّباتِ من الحلالِ، وبُعدٍ عن الطَّمعِ الَّذي جرَّ النَّاسَ إلى الحرام، ومن الحرام إلى الشُّحِّ الَّذي أهلكَ الأممَ الماضيةَ بما جلبَ لها من فسادٍ، وقال لهما: كلاكما صادقٌ، وقضيَّتكما لا أريدُ إحالتَها إلى المحكمةِ؛ لأنِّي سأفصلُ بها صلحًا؛ امتثالًا للأمر الرَّبَّانيِّ الكريم ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الحُجرَات: ١٠]، والصُّلحُ خيرٌ ونسألُ اللهَ للنَّاسِ جميعِهمُ الرَّحمةَ، فهل ترضون بالصُّلحِ؟

قالا: الصُّلحُ خيرٌ، ولكنْ نخافُ من الحرامِ، فأبعِدْنا عنه وُفِّقتَ للخيرِ.

قال عبدُ العزيز: أنا نويتُ البيعَ، وكأنِّي بعتُ، ولكنْ لم أقلْ له بِعْتُكَ.

---

(١) الإمحاق: أن يهلكَ المالُ أو الشَّيء. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٦/ ٣٧٩).

وقال تقيٌّ: أنا لم أشترِ يا شيخُ، وهو أقرَّ الآنَ بأنَّه لم يَبعْ.

قال الشَّيخُ: هل ترضونَ بحكمي؟ سألتُكما فأجيباني.

قال عبدُ العزيز: قد أتيناكَ راضِينَ ولأمرِكَ طائِعِينَ.

قال الشَّيخُ الأمير: حكمتُ صُلحًا بأن يأخذَ تقيٌّ نصفَ القهوةِ بالثَّمنِ الَّذي نويتَ يا عبدَ العزيزِ به البيعَ عليه، وأن يُبقِيَ لك نصفَ القهوةِ تبيعها لمن تشاءُ بسعر الوقت الحاضر، وقُومَا راشِدَينِ إن شاءَ اللهُ.

رضي عبدُ العزيز بهذا، وحاول تقيٌّ أن يتخلَّصَ، لكنَّ الأميرَ قال: لقد حكمتُ ورضيتَ بحكمي وبشرطي عليك، والصُّلحُ سيِّدُ الأحكامِ، والمؤمنونَ عند شروطِهم.

وأطاعا الأمرَ ورَبِحَ كلٌّ من نصيبِه خيرًا كثيرًا، وشَرِبَ النَّاسُ القهوةَ، واستأذنَ المتخاصمانِ المصطلحان بالخروجِ، وقد أخذَ كلٌّ واحدٍ منهما بِيَدِ الآخَرِ، وبكى الأميرُ، فاستنكرَ الحاضرونَ منه بكاءَه وسألوه ما يبكيه، فقالَ: تذكَّرتُ الكلمةَ المأثورةَ الَّتي قالها الحسنُ البصريُّ رَحِمَهُ اللهُ: «**كلَّ عامٍ ترذلون**[1]»[2].

أما واللهِ إنِّي لأخافُ أشدَّ الخوفِ من زمانٍ سيأتي لا يعرفُ فيه النَّاسُ حلالًا ولا حرامًا، يعرفون المنكرَ ويُنكِرون المعروفَ.

---

(١) الأرذل: الدُّون من النَّاسِ في منظرِه وحالاته. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٩/ ٦٧).

(٢) أورده العجلونيُّ في كشفِ الخفاء، رقم: (١٩٧٩).

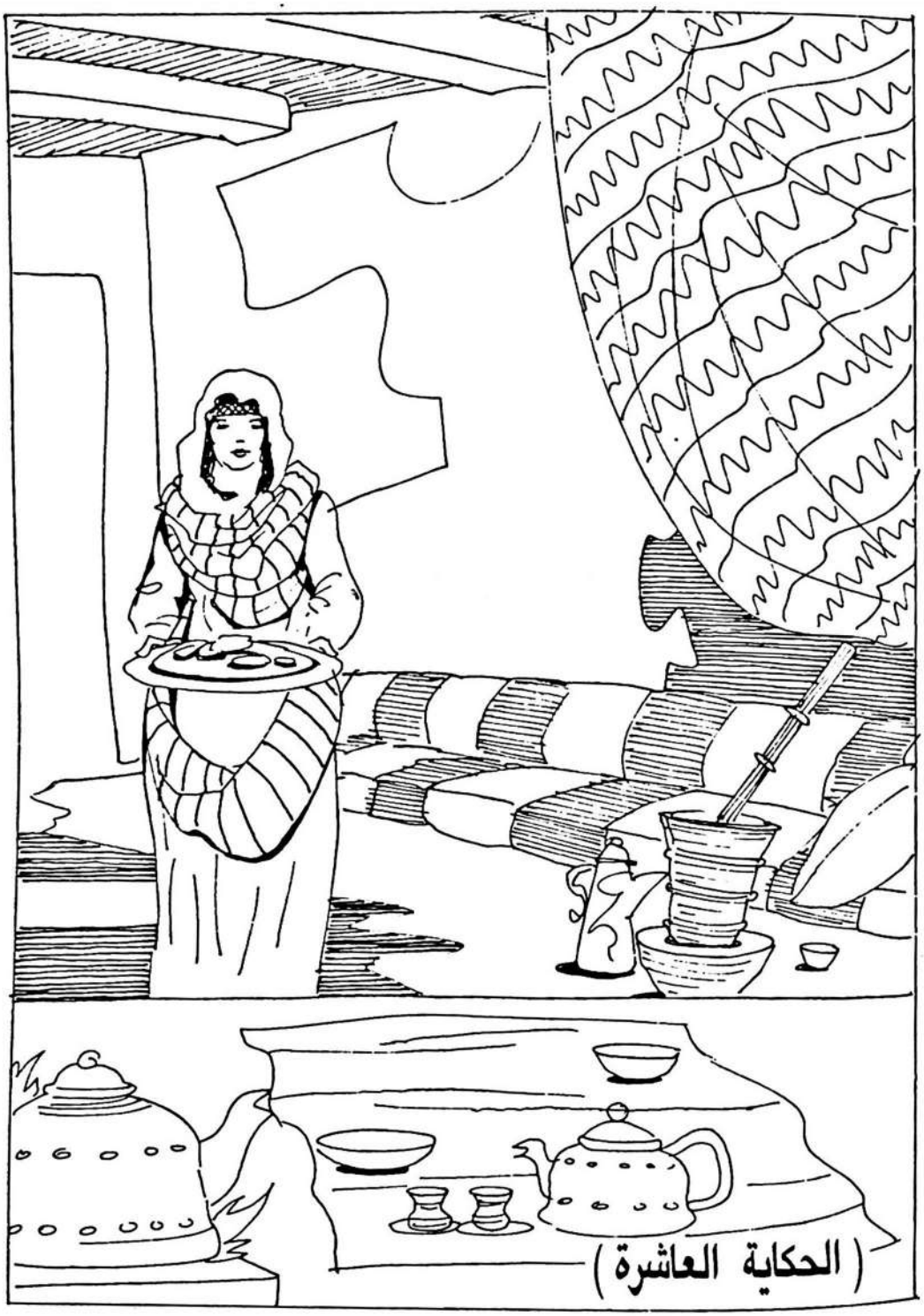
قال القومُ: نعوذُ باللهِ مِن ذلك يا طويلَ العمر.

انتهتِ الجلسةُ، وذهب المالُ والرِّجالُ، وبَقِيَ الفراغُ، ولكنَّهُ فراغٌ مملوءٌ بذكرٍ حسنٍ تتحدَّثُ به الأجيالُ، يقصُّ الأبُ على ابنِه حديثَ الماضي، لعلَّ الابنَ يتحلَّى بتلك المكارمِ، ويتجمَّل بتلك الفضائل الَّتي ورثها الآباءُ عن الأجدادِ.

أخلاقُ عربٍ مسلمينَ أدَّبَهُمْ دِينُ اللهِ الحقُّ، وكان أدبَهم القرآنُ[1].



(١) قصَّ عليَّ هذه القصَّةَ أحمدُ بنُ يعقوب المحيميد، وكانت حوادثُها في عهد الشَّيخ عبدِ الله بن صُباحٍ، وبطلُها عبدُ العزيز المطوِّع، جَدُّ الأسرة المعروفة من القناعات، والحاجُّ تقيٌّ المشهورُ بأبي صالحٍ.


(الحكاية العاشرة)

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الرُّوم: ٢١].

لم يكنِ الزَّواجُ متعةً أو لِذَّةً، أو قضاءَ وقتٍ، أو إتيانَ شهوةٍ، وإنَّما يتزوَّجُ الرَّجلُ ليسكنَ إلى أهلٍ، وليُشَيِّدَ[1] أسرةً، ويحفظَ اسمَه بأولادِه، يُذكَرُ بهم متى حانَ أجلُه.

ولم يكن الزَّواجُ سهلًا بالنِّسبة إلى البحث عن الزَّوجة كما هو الآن؛ لأنَّ الرَّجلَ يلتمسُ في البحثِ عن الزَّوجةِ خلقَها، ونشاطَها، وتقواها، والدِّينُ أمرَ بذلك، وطاعةُ اللهِ فرضٌ، قالَ رسولُ الله ﷺ: «**إيَّاكم وخضراء الدِّمَن، قيلَ: يا رسولَ الله وما ذاكَ؟ قال: المرأة الحَسْنَى في المَنْبَتِ السُّوءِ**»[2].

فكما تنبتُ النَّبتةُ في الْمَزبلةِ تكونُ خضراءَ جميلةً لكثرةِ ما تتغذَّى به من سمادٍ، والمزبلةُ منبتٌ سيِّئٌ، ولا يبعدُ أن تحملَ هذه النَّبتةُ الأوبئةَ من الجراثيم الَّتي عاشت فيها ما قد تقتلُ آكِلَها أو لامِسَها، فالمرأةُ كذلك تتَّصفُ بصفات البيئة الَّتي عاشت فيها، وتحملُ معَها أخلاقَها وعاداتِها.

(١) التَّشييد: الإحكام والرَّفع. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٣/ ٢٤٣).
(٢) أوردَه المتَّقي الهندي في كنز العمَّال، رقم: (٤٥٦١٥).

فالرَّسول ﷺ يُعلِّمُ أمَّتَه كيف يلتمسونَ زوجاتِهم؛ لأنَّ الحياةَ المقبلةَ عليهم ليستْ بالأمر السَّهل، والزَّوجةُ - كما قيل - شريكةُ الحياة، فليلتمسْ طالبُ الزَّواجِ إذن مَن تحفظُه، حتَّى إذا خرجَ إلى عملِه تركَ بيتَه وهو آمنٌ، وإذا عادَ إلى بيتِه كان واثقًا.

والسَّعادةُ أن يكونَ للرَّجلِ امرأةٌ صالحةٌ تُعجِبُه إذا رآها، وإذا غابَ عنها أَمِنَها على نفسِها ومالِه، قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**ثلاثةٌ من السَّعادةِ، وثلاثةٌ من الشَّقاوةِ، فمن السَّعادةِ: المرأةُ الصَّالحةُ تراها فتُعجِبك وتغيبُ عنها فتأمنُها على نفسِها ومالِكَ، والدَّابَّةُ تكونُ وطيئةً فتلحقُك بأصحابِك، والدَّارُ تكونُ واسعةً كثيرةَ المرافقِ**»[(١)]، وقال ﷺ: «**مَنْ رزَقَهُ اللهُ امرأةً صالحةً، فقد أعانَهُ على شطرِ دِينِه، فليتَّقِ اللهَ في الشَّطرِ الثَّاني**»[(٢)]، وقال ﷺ: «**الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ**»[(٣)]؛ إذ يتزوَّجُها الرَّجلُ فتُعِينُه على الحياةِ ويُعِينُها؛ تُعينه بتهيئةِ مكانِه وطعامِه وبيئتِه وأمورِه وتنظيفِ ثيابِه، ويُعينُها بتهيئةِ الحياةِ والمعيشةِ لها، لهذا كان الرَّجلُ الَّذي لا زوجةَ له مسكينٌ، وكذلك المرأةُ الَّتي لا زوجَ لها.

والزَّواجُ من سُننِ الإسلام، حثَّ عليه نبيُّنا ﷺ وقال للشَّبابِ: «**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ**»[(٤)]، والباءةُ هي المادَّةُ أو العملُ الَّذي يستطيعُ الإنسانُ به تهيئةَ

(١) أوردَه المتَّقي الهندي في كنز العمَّال، رقم: (٤٣٢٤٨).
(٢) رواهُ الحاكمُ في المستدرَك على الصَّحيحَيْنِ، رقم: (٢٦٨١).
(٣) رواهُ مسلمٌ، رقم: (١٤٦٧).
(٤) رواهُ البُخاريُّ، رقم: (٥٠٦٦)، ومسلمٌ، رقم: (١٤٠٠).

المسكنِ الَّذي يبوءُ إليه الإنسانُ عندَ فراغِه من عملِه، وتكاليف المعيشة.

وتجنَّبَ النَّاسُ يومئذٍ اللَّعوبَ والكَسِلَة والمعجبةَ، فمن كانت مثلَهنَّ، فإنَّها لا تستطيعُ القيامَ بواجباتِ الزَّوج والأولاد، والخاطبُ إذا خطبَ سألَ قبلَ كلِّ شيءٍ عن أمِّ المخطوبةِ وخالتِها وأخواتِها؛ لأنَّ البنتَ تقلِّد مَن هُنَّ أكبرُ منها، والنَّاسُ كلُّهم تمسَّكوا بالحديث الشَّريف: «**تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَلِجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ، تَرِبَتْ يَدَاكَ**»(١).

كان الشَّيخُ محمَّدٌ من رجال الدِّين، وقد بلغَ من العمرِ خمسًا وثلاثينَ سنةً، قضاها يتنقَّلُ في بلادِ الله سعيًا وراءَ تفقُّهِه في الدِّين واللُّغة.

وبعد أن آبَ واستقرَّ به المقامُ في وطنِه، فكَّرَ في رفيقةٍ يسكنُ إليها ويُنجِبُ منها، وتكونُ بينَها وبينَه المودَّةُ والرَّحمةُ اللَّتان أرادَ اللهُ أن تكونَا بينَ الزَّوجَينِ.

جلسَ إلى إحدى قريباتِه يستشيرُها فيما فكَّرَ فيه، والنِّساءُ يعرفْنَ النِّساءَ، فذَكَرَتْ له مَن تعرِفُها كُفُؤًا(٢) لمثلِه، ولكنْ قيلَ له: إنَّ في إحدى عينَيها وَضَحًا(٣).

---

(١) رواهُ البُخاريُّ، رقم: (٥٠٩٠)، ومسلمٌ، رقم: (١٤٦٦).

(٢) الكُفء: النَّظير والمساوي. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١/ ٣٩١).

(٣) الوَضَحُ: بياضُ القمرِ وضوؤُه، ويُكَنَّى به عن البَرَصِ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٧/ ٢١٠).

سكتتِ المرأةُ الْمُشيرةُ، وفي الغدِ وقتَ الغَداءِ أحضرتْ له خبزًا وزِنبيلًا[١] فيه أقمشةٌ مخيَّطةٌ، وقالت له: يا شيخُ خطبتُ لكَ، وهذا من عملِها، وأنتَ رجلٌ مضيافٌ تحتاجُ إلى مَن تُهَيِّئُ لكَ ولضيوفك الطَّعامَ، وسيكونُ لكَ أولادٌ تربِّيهم وتُهَيِّئُ لهم حاجاتِهم.

نعم، إنَّها خطبتْ له مَن تعرِفُ فيها التَّقوى؛ مَن ستقومُ بخدمةِ رجلٍ أوقفَ نفسَهُ على خدمةِ النَّاسِ، مَن ستكفيه القيامَ بشؤونِه وشؤونِ مضافتِه الَّتي قلَّ أن تخلوَ يومًا من ضيوفٍ، وتكفيه تربيةَ أولادِه متى قُدِّرَ له أن يُنجِبَ.

قالَ الشَّيخُ: رَضِيتُ، وتزوَّجَ، وعاشَ بعدَ ذلك خمسًا وخمسينَ سنةً سعيدًا في بيتِه وبينَ أهلِه وأولاده؛ لأنَّ السَّعادةَ - كما قال الإسلامُ - هي الزَّوجة الصَّالحة.

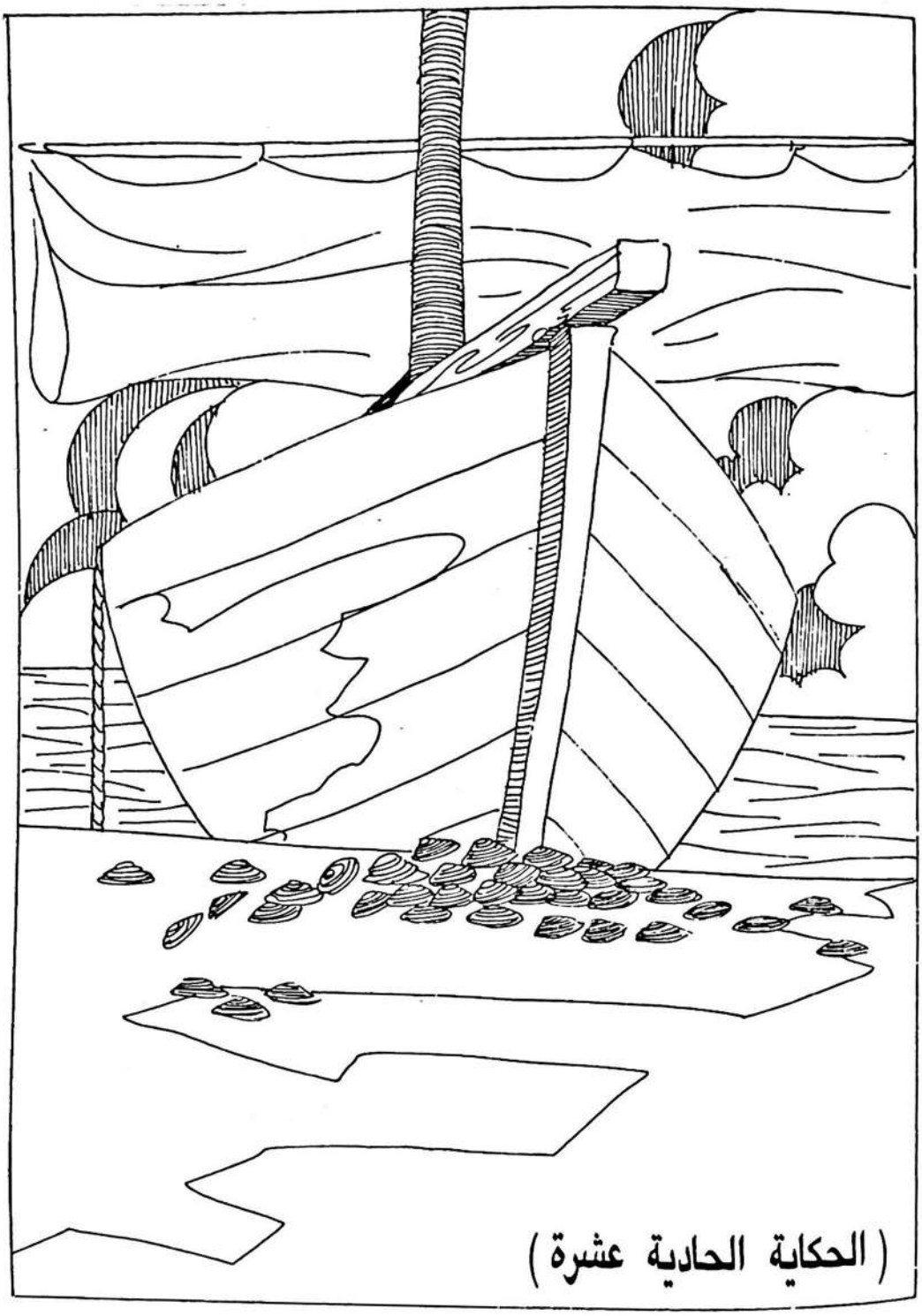
ماتَ الشَّيخُ محمَّدٌ المزيديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عامَ (١٣٢٧هـ)[٢]، وقد بلغَ من العمر تسعِينَ عامًا قمريًّا، ولم يتزوَّجْ غيرَ تلك الزَّوجة[٣].



(١) الزِّنبيلُ: القُفَّة: تجعلُ فيه المرأةُ قُطْنَها. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٤/ ٢٧٦).

(٢) أي: سنة (١٩٠٩م).

(٣) بطل هذه القصَّة المرحومُ الشَّيخُ محمَّدٌ المزيديُّ كما ذكرْنا في ختامها، قصَّها عليَّ الأخُ أحمد يعقوب المحيميد، وأكَّدَ لي روايتَها حفيدُ الشَّيخ حبيب بن إبراهيم بن محمَّد المزيديّ.



(الحكاية الحادية عشرة)

يقول أبو العلاء المعرِّيُّ:

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يُعْدَمْ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللهِ وَالنَّاسِ(١)

كانتِ الكويتُ تعتمدُ في دخلِها القوميِّ على عملَينِ أساسيَّينِ:

أوَّلهما البحر، وأهمُّ العملِ فيه الغوصُ والسَّفرُ كما ذكرْنا في بعض القصص السَّابقة.

والعمل الثَّاني التِّجارة، وتجارة اللُّؤلؤ أهمُّ التِّجارات، وقد برزَ في الكويتِ كثيرٌ من التُّجَّارِ النَّشيطينَ، سافروا فيما اشترَوهُ من لآلئَ إلى الهندِ وأوروبَّة.

مِن تجَّارِ اللُّؤلؤ البارزِينَ: عبدُ اللَّطيف العبد الرَّزَّاق الَّذي اختارَ الهندَ محلًّا لإقامته وتجارته، يبيعُ ويشتري، أو يبيعُ بالواسطة، فيأخذُ على ما يبيعُه السَّعيَ المعتادَ، ولأمانتِه وتواضعِه وصدقِه وعفَّتِه اختارَه مواطنوه الكويتيُّونَ، وفضَّلوه على كثيرٍ ممَّن يبيعون أو يبتاعون بالسَّعي.

وكان هذا الرَّجلُ مشهورًا في وفائه لِخَدَمِهِ مِن بني جنسِه العربِ وبني وطنِه الكويتيِّينَ، وقد نفعَ كثيرينَ ممَّنِ استخدمَهم، فأخلصوا له الخدمةَ.

---

(١) انظر: رسالة الغفران، لأبي العلاء المعرِّيِّ (١/ ٨٤).

وهذا الوفاءُ بلغَ غيرَ العربِ والكويتيِّينَ؛ فقد عرَفَ النَّاسُ في متجرِ عبد اللَّطيفِ العبد الرَّزَّاق هنديًّا يُدعى هيرا، يعملُ دلَّالًا لبيعِ اللُّؤلؤ، فيأخذُ بالواسطةِ شيئًا من المال بنسبةٍ مئويَّةٍ فرضتْها العادةُ له ولأمثالِه، واصطلحَ عليها أهلُ الفنِّ وصارتْ شرعةً بين تجَّارِ اللُّؤلؤِ، يتَّبعونَها في بيعِهم وابتياعِهم.

خدمَ هيرا في متجر الشَّيخِ عبدِ اللَّطيفِ سنينَ طويلةً، كان فيها موضعَ ثقةِ العاملين كلِّهم، لم يُعرَفْ عنه كذبٌ ولا خانَ يومًا أمانتَه.

جاءَ أَجَلُ هيرا وانتقلَ إلى حيثُ ينتقلُ النَّاسُ، فإنَّ مَن عاشَ ماتَ، وكلُّ نفسٍ لا بدَّ أن تَصِلَ إلى النِّهايةِ.

أقبلَ الدَّلَّالونَ يعرضونَ أنفسَهم وخدماتِهم على عبدِ اللَّطيف، كلٌّ يريدُ أن يخدمَه حتَّى يحلَّ محلَّ هيرا، ولكنَّ الشَّيخَ عبدَ اللَّطيف اختارَ واحدًا وعرضَ عليه شرطَه، وهو أن يكون أبناءُ هيرا القاصرونَ شركاءَ له في الكسبِ بلا عملٍ حتَّى يبلغَ أصغرُهم رشدَه.

رأى الدَّلَّالُ الجديدُ، أحقِّيَّةَ هذا الشَّرطِ، وأنَّ فيه وفاءً من السَّيِّد لخادمِه، وفكَّرَ فيه، ثمَّ رَضِيَ وعملَ معَ صاحبِ المحلِّ، وظلَّ مدَّةً يعملُ ويربحُ ويفيدُ غيرَه.

بلغَ أبناءُ هيرا الثَّلاثةُ سنَّ الرُّشْدِ، وهم يعيشونَ في كنفِ[1] عبدِ اللَّطيفِ يُنفِقُ عليهم من سَعةٍ، ولَمَّا بلغَ أصغرُهم سنَّ الرُّشدِ، أوقفَ الشَّيخُ عبدُ اللَّطيف الشِّركةَ، وقطعَها بينَهم وبينَ الدَّلَّالِ خلَفِ

(١) الكَنَف: الحِرْزُ والسِّتْرُ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٤/ ٣٣٣).

أبيهم، وحاسبَهم فكانَ نصيبُهم أربعِينَ ألفِ روبيَّةٍ.

شعرَ الأولادُ بالإحسانِ الَّذي أسداه إليهم سيِّدُهم عبدُ اللَّطيف، والإحسانُ يستعيدُ الْمُحسَنَ إليه إن كان كريمًا.

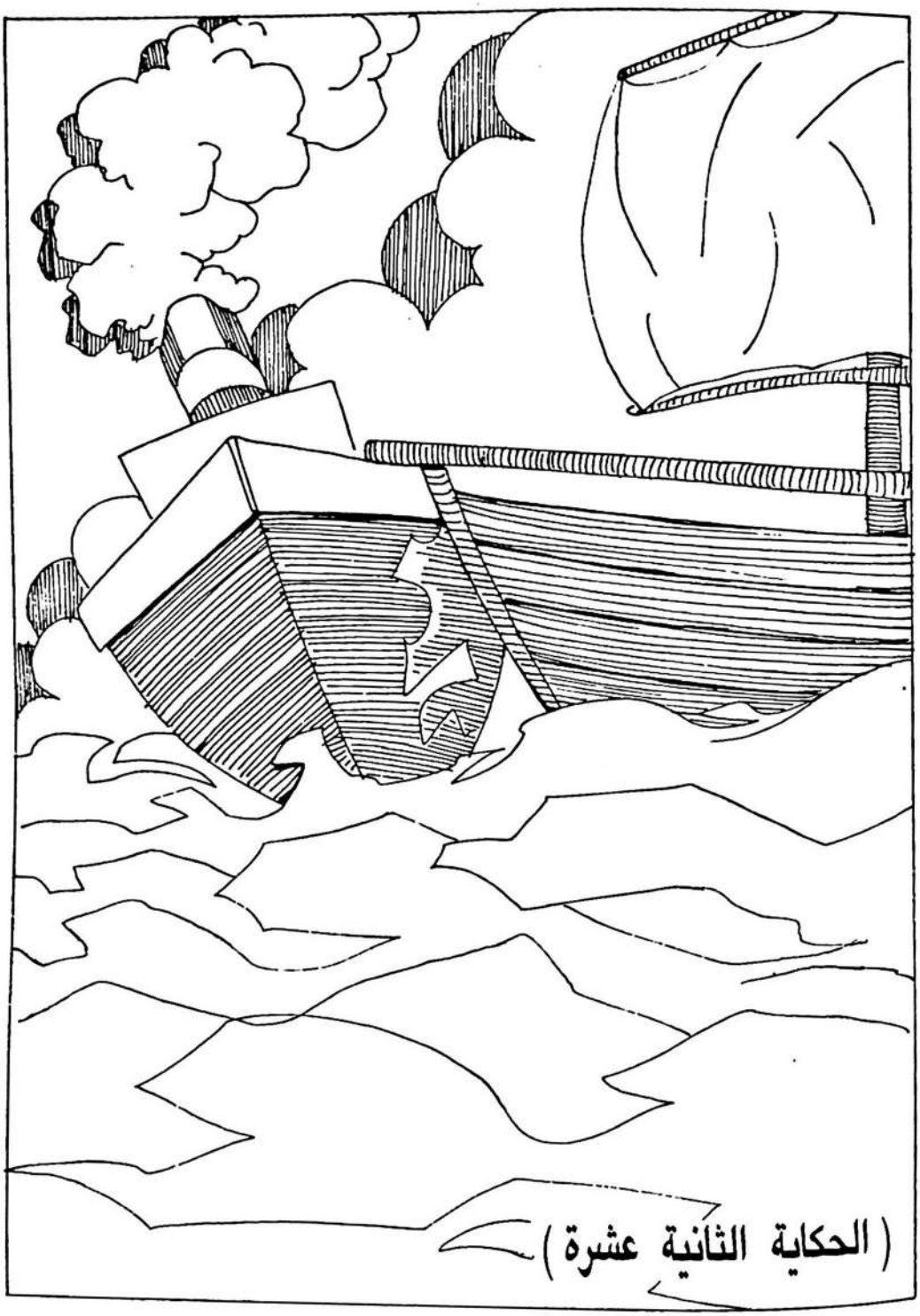
قال لهم: الفضلُ ليس لي ولكنَّه لأبيكم، فقد كان أمينًا صادقًا نشيطًا، أفادني واستفاد، ووجب عليَّ أن أفيَ له بالإحسانِ إلى أولاده، وأُشعِرَ هؤلاءِ الأولادَ بما كانَ عليه أبوهم، فلعلَّهم يتحلَّونَ بأخلاقِ أبيهم، ويتَّصفون بصفاتِه.

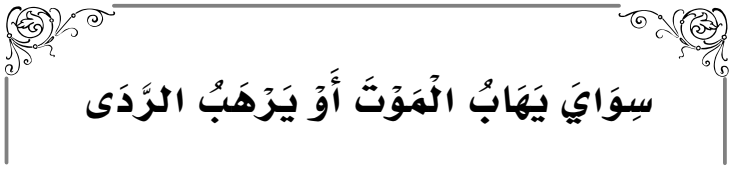
وصدقَ الأولادُ الثَّلاثةُ؛ أولادُ هيرا في الوفاءِ لسيِّدِهم، وفي خدمتِه ومحبَّتِه، وصدقوا قولَ الشَّاعر العربيِّ أبي الفتحِ البُسْتِيِّ[1]:

أَحْسِنْ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدْ قُلُوْبَهُمُ فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الْإِنْسَانَ إِحْسَانُ[2]

(١) انظر: جواهر الأدب في أدبيَّات وإنشاء لغة العرب، للمصطفى الهاشميِّ (٢/ ٤٣٠).

(٢) بطل هذه القصَّة الشَّيخُ عبدُ اللَّطيف العبد الرَّزاق، وقصَّ عليَّ حوادثَها الأخُ أحمد يعقوب المحيميد.


(الحكاية الثانية عشرة)



سِوَايَ يَهَابُ الْمَوْتَ أَوْ يَرْهَبُ الرَّدَى

قالَ الشَّاعرُ ابنُ سناء الملكُ:

سِوَايَ يَهَابُ الْمَوْتَ أَوْ يَرْهَبُ الرَّدَى وَغَيْرِيَ يَهْوَى أَنْ يَعِيْشَ مُخَلَّدَا

وَلَكِنَّنِيْ لَا أَرْهَبُ الدَّهْرَ إِنْ سَطَا وَلَا أَحْذَرُ الْمَوْتَ الزُّؤَامَ إِذَا عَدَا[1]

سبقَ أن ذكرْنا في حكايةٍ أنواعَ العملِ في البحرِ، وقلنا: إنَّ الأسفارَ في البحرِ أنواعٌ ثلاثةٌ: الغوصُ والقطاعةُ والسَّفرُ.

فالغوصُ له ثلاثُ مراحِلَ، أوَّلها الخانكيَّة، وتبدأ قبلَ موسمِ الغوصِ بشهرٍ، ثمَّ غوص الموسم، ويُطلَق عليه اسم الغوص، أو الغوص الكبير، يبدأُ موعدُه أوَّلَ يومِ برج الجوزاء (٢١/ ٥) أيَّار، وينتهي آخرَ يومِ برج السُّنبلة (٢٣) أيلول، ثمَّ تأتي بعدَه سفرةُ الرَّدَّةِ، ووقتُها غيرُ محدودٍ، فقد تستمرُّ حتَّى نهاية تشرين الأوَّل وهو برج الميزان.

والقطاعة لا وقتَ لها؛ لأنَّها أسفارٌ في بلدان الخليج، والخليجُ لا موسِمَ له، وليس فيه رياحٌ موسميَّةٌ تمنع المسافرَ أو تُقفِلَ عليه الطَّريقَ.

---

(١) انظر: جواهر الأدب في أدبيَّات وإنشاء لغة العرب، للمصطفى الهاشميِّ (٢/ ٢٦٥).

وأمَّا السَّفرُ فهو رحلةٌ في سفنٍ كبيرةٍ ذاتِ أشرعةٍ متعدِّدةٍ ومخازنَ قد يحملُ بعضُها ثلاثَمئة طنٍّ أو أكثرَ، وهي أنواعٌ، منها: البومُ، والبغلةُ، تختلفُ أسماؤها باختلافِ هياكلِ السُّفنِ.

ويبدأُ موسمُ السَّفرِ عندَ نضوجِ البلحِ في الشَّهرِ التَّاسعِ؛ أيلول، وتُطلَق كلمةُ السُّفَّار على السَّفينةِ بما فيها من نواخذةٍ ربَّانٍ، وملَّاحينَ بحَّارةٍ، يسافرون إلى البصرة ويشحنون سفنَهم تمرًا، ثمَّ يسنُّونَ؛ والكلمةُ هذه تُصرَفُ فيُقال سَنَّ يسنُّ فهو سنَّانٌ أو سانٌّ، ومعناه سافرَ في البحر إلى الجنوب؛ إلى الهند أو إفريقيَّة، وضدُّها مُعَلَّى، وهي مِن عَلَّى بعينٍ مفتوحةٍ، بعدَها لامٌ مشدَّدةٌ مفتوحةٌ، تليها ألفٌ مقصورةٌ، يُعَلَّى فهو مُعَلَّى، معناه: توجَّهَ مِن الهند في آسيا أو من سواحل إفريقيَّة الشَّرقيَّةِ إلى الشَّمالِ قاصدًا الخليجَ العربيَّ.

فإذا وصلَ إلى الهندِ أو إلى سواحلِه الجنوبيَّة - كساحل الملبار أو إلى كلكتا أو إلى سواحل إفريقيَّة الشَّرقيَّةِ - باعَ التَّمرَ وفرَّغَ الشُّحنةَ، واستبدلَها ببضائعَ من تلك البلادِ - كالأخشابِ أو الحبوبِ أو نحوها - وتوجَّهَ بها إلى الشَّمال؛ إلى السَّواحل الَّتي يمرُّ بها، فيبيعُ ويبتاعُ حتَّى يصلَ إلى الوطنِ.

وربَّما لا تطولُ السَّفرةُ؛ فتستغرقُ زمنًا قد يكونُ أربعةَ أشهرٍ، وقد تطولُ إلى عامٍ كاملٍ؛ فتحلُّ الرِّياحُ الموسميَّةُ وهو في غيبتِه في الهند أو إفريقيَّة، فلا يستطيع حينئذٍ اجتيازَ المحيط الهنديِّ، والرِّياحُ الموسميَّةُ تهبُّ في الشَّهر الخامس وتنتهي في أثناء الشَّهر الثَّامن.

وممَّن اعتادَ السَّفرَ وولعَ به ثمَّ اتَّخذَه مهنةً له: أبو بدرٍ أحمدُ، وله سفنٌ كثيرةٌ، كلُّها تُسافر إلى الهند في موسم السَّفر، فتُسَنُّ محمَّلةً وتُعَلَّى محمَّلةً، وفي موسم السَّفر يختارُ أحدَها فيسافر فيها، وقد يختار غيرَها في الإيابِ، وهو بطبيعة الحال نوخذا السَّفينة الَّتي يكونُ فيها، وبحَّارتُها لا تخضعُ لأوامرِ غيره إذا كان فيها.

وفي السَّفرةِ الثَّانيةِ من هذه السَّفرات بكَّرَ في العودة، ومتى بكَّرَ المسافرُ عائدًا حُقَّ له أن يُسافِرَ مرَّةً أخرى، ويومئذٍ جرتِ الرِّياحُ بما تشتهي السَّفينةُ ومَن فيها، واطمأنَّ النَّاسُ للرِّيح وأخذتْهم نِشوةُ طيبِ المسيرِ، فناموا إلَّا السُّكونيُّ؛ وهو صاحبُ السُّكَّانِ أو مُوجِّهُ السَّفينة، فقد كان جالسًا نائمًا، وإذا بهزَّةٍ قويَّةٍ هزَّتِ السَّفينةَ هزَّةً انتبهَ إليها النَّاسُ جميعُهم، فرأوا مركبًا بخاريًّا متوجِّهًا إلى الشَّمالِ صدمَ مقدِّمةَ السَّفينةِ، فكسرَ ألواحًا من أعلاها، ولطفَ اللهُ بالنَّاسِ.

رأى أبو بدرٍ وجوهَ البحَّارةِ قد غيَّرتْها المفاجأةُ، وأصابها الخوفُ الشَّديدُ، فقالَ: لا خوفٌ عليكم، لا تقلقوا؛ فالأمرُ بسيطٌ، ثمَّ قال كلمتَه المشهورةَ: مُرَيْكِبٌ دَعَمَ مَرْكَبًا؛ ومعنى دعمَ: صَدَمَ؛ وصغَّرَ السَّفينةَ البخاريَّةَ وسمَّاها مُرَيْكِبًا، ثمَّ أمرَ بمواصلةِ السَّيرِ وكأنَّ شيئًا لم يكنْ.

وجَّهَ ربَّانُ الباخرةِ الكابتن إلى أبي بدرٍ مَن يمدُّ له يدَ المساعدة، وأراد أن ينزلَ لمقابلة أبي بدرٍ الَّذي رفض المساعدةَ؛ لأنَّ الاستعداداتِ معه كافيةٌ، وفي كلِّ سفينةٍ من سفنِه استعدادٌ كاملٌ للطَّوارئ، شأنُه في ذلك شأنُ الكويتيِّينَ جميعِهم، الَّذينَ اعتادوا

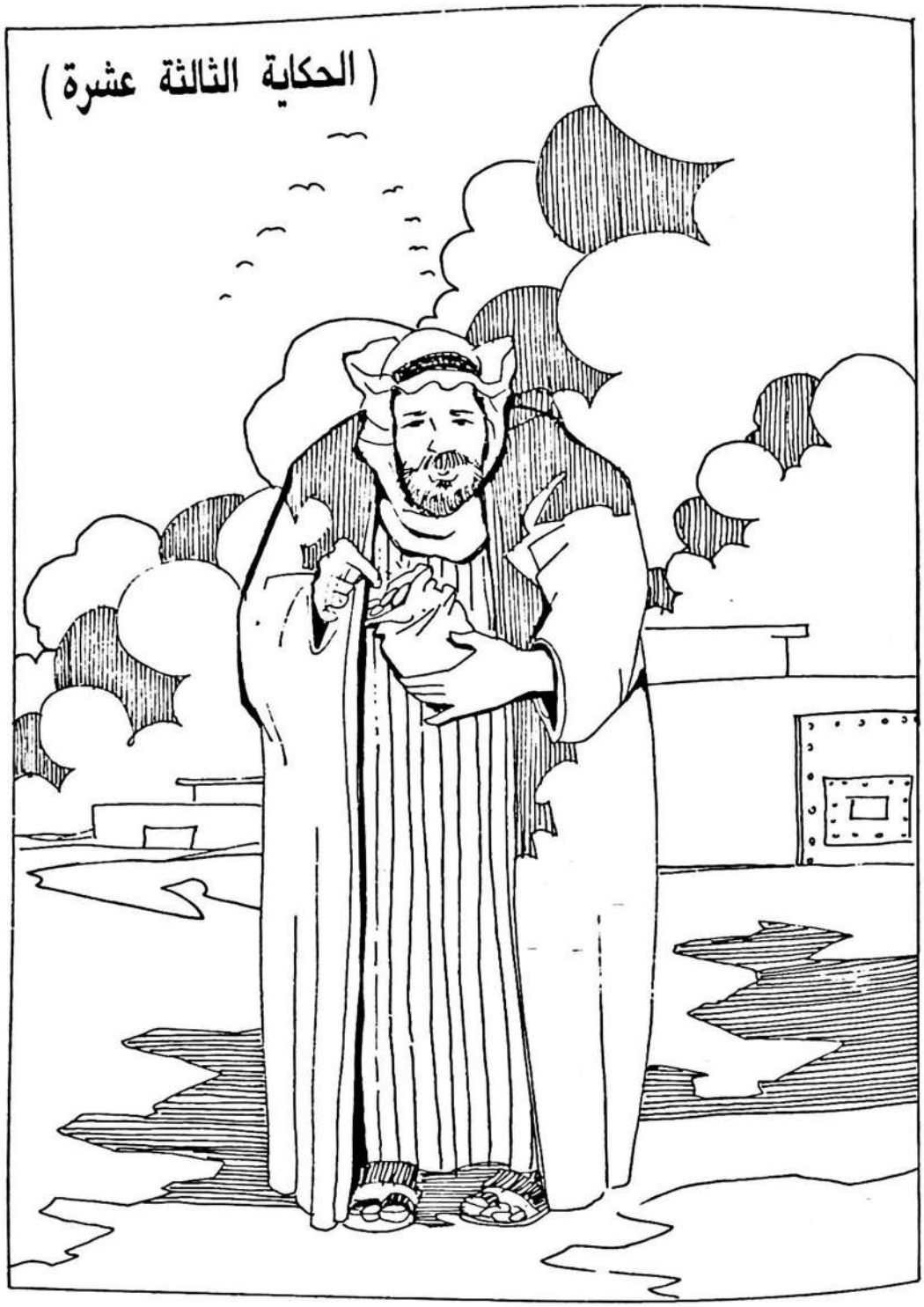
السَّفرَ وامتهنوا مهنتَه وأعدُّوا له عُدَّتَه[١]، وسارَ في طريقِه لم يُعِقْهُ ما أصابَه، وشمَّرَ عن ساعدِ الجِدِّ.

رأى البحَّارةُ رئيسَهم لم يثنِهِ[٢] عن العزمِ شيءٌ فقلَّدوه، وفي ثلاثةِ أيَّامٍ صَلُحَتِ السَّفينةُ، وهي في سيرِها ماضيةٌ ووصلتْ سالمةً، ثمَّ عادت إلى الوطن غانمةً.

حدَّثَ البحَّارةُ مُستقبِلِيهم بما كانَ، وجرتْ كلمةُ أبي بدرٍ على ألسنة النَّاسِ مجرى الْمَثَلِ؛ مُرَيْكِبٌ دعم مَركَبًا، وبقي مثلًا يُضرَبُ للاستهانةِ بالمصائبِ ما دام البدنُ سالِمًا[٣].



(١) أعددْتُ للأمرِ عُدَّتَه: هيَّأتُ له. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٨/ ٣٥٨).
(٢) ثناهُ عن حاجتِه: صرفه، وكفَّه. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٧/ ٣٠١).
(٣) بطل هذه الحكاية أحمدُ الخرافيُّ، وهو المعروفُ بجلَدِه وقوَّتِه في مقاومتِه أهوالَ البحر، جرتْ حوادثُ هذه القصَّة في سنين الحرب الأولى، والأرجح أنَّها كانت سنةَ (١٩١٧م).


(الحكاية الثالثة عشرة)

«نِيَّةُ الْمَرْءِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ»[١].

ضاقتِ الحالُ بسليمانَ، الَّذي لم يكنْ مِن أهلِ الكويتِ، ولكنَّه ممَّنْ تردَّدَ عليها، يجلبُ إليها ما يستوردُ من العراق أو من بلدان الخليج، ويَخرُجُ منها ببضائعَ يصدِّرُها إلى الشَّمالِ والجنوبِ وبلدان الخليج.

خَسِرَ في عملِه هذا ولم يجدْ مخرجًا من هذه الخسارةِ، وخافَ على مستقبلِه ومستقبلِ مَن يقوتُهم[٢] مِن عيالِه، وفكَّرَ وقدَّرَ.

عرفَ النَّاسُ آنَذاكَ رجلًا أمينًا كان مُستودِعَ أماناتٍ يُقالُ له عبدُ الله بنُ خالدٍ.

جاءَ سليمانُ إلى عبدِ الله بن خالدٍ قائلًا له: تذكَّرْ يا أخي أنِّي منذُ سنتَينِ أودعتُكَ خمسينَ ليرةً عثمانيَّةً ذهبيَّةً، والآنَ أنا في حاجةٍ إليها، فأَعِدْ إليَّ وديعتي، حفظ اللهُ عليكَ صحَّتَكَ ومستقبلَكَ.

نظرَ عبدُ الله إلى وجه الرَّجُلِ فلم يعرفْه ولم يذكرْ أنَّه رأى هذا الوجهَ مِن قبلُ! ودخل عبدُ اللهِ دارَه، فأتى بخمسينَ قطعةً ذهبيَّةً عثمانيَّةً سلَّمَها إلى الرَّجُلِ.

---

(١) رواهُ البيهقيُّ في شعب الإيمان، رقم: (٦٤٤٦).

(٢) يقوت: يُعِيلُ بالرِّزق. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٥/ ٤٩).

ذهبَ سليمانُ بما استلم وتاجرَ وسافرَ وعادَ مكرِّرًا السَّفرَ، ورَبِحَ كثيرًا.

وبعدَ عامٍ جاءَ إلى مجلسِ عبدِ اللهِ بنِ خالدٍ، وقد امتلأَ المجلسُ بِمَنْ فيه من رجالٍ، فوقفَ سليمانُ وفي كفِّهِ خمسونَ قطعةً ذهبيَّةً قائلًا: يا عبدَ اللهِ بْنَ خالدٍ! أتيتُكَ العامَ الماضي مُدَّعيًا بأنِّي أَوْدَعْتُ عندَك ذهبًا، ولم تسألْني عن موعدِ الإيداعِ ولا عن شهودٍ ولا بيِّنةٍ، وإنَّما سلَّمتَ إليَّ المبلغَ مِن غيرِ أن تسألَ كيفَ ومتى، والحقُّ أنِّي لم أكن صادقًا فيما أَودعتُ، ولكنِّي كنتُ تاجرًا فخسرتُ، ونويتُ أن أعملَ، وأردَّ إليك ما أخذتُ منكَ، واطَّلَعَ اللهُ على صدقِ نيَّتي، فأنعمَ عليَّ بخيرٍ وفيرٍ وربحٍ كثيرٍ، وهأنا وقد حالَ الحولُ[1] أُعِيدُ المبلغَ إليكَ مُعتذرًا وشاكرًا، وهذا مالُكَ في يدي؛ خمسونَ قطعةً ذهبيَّةً عثمانيَّةً، أرجو أن تقبلَها وتغفِرَ لي كذبي، وتقبلَ منِّي عذري وشكري.

قالَ عبدُ الله بنُ خالدٍ إلى جلسائه: جاءني هذا الرَّجلُ في العام الماضي وفي مثل هذا اليوم، وادَّعى أنَّه أودعَ عندي خمسينَ قطعةً ذهبيَّةً، ونظرتُ إلى وجهه وقرأتُ ملامحَه، وعلمتُ أنَّه تاجرٌ على أبواب الإفلاس، ويخشى على مستقبلِه، وأنَّه مُعِيلٌ، فأعطيتُه المبلغَ الَّذي طلبَه، وأنا ناوٍ في نفسي أنَّه لله؛ لِأُنقِذَ به مستقبلَ شابٍّ وأُسرتِه، وكان اللهُ عندَ حُسنِ ظنِّي، والحمدُ لله فقد كنتُ واثقًا بالحديث الشَّريف القُدسيِّ الَّذي يقولُ فيه رسولُ الله ﷺ عن ربِّه: «**أَنَا**

(١) الحَوْلُ: السَّنة. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٨/ ٣٦٥).

عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»[(١)]، وقد وفَّقَ اللهُ هذا الرَّجُلَ فرَبِحَ، وأسألُ اللهَ له التَّوفيقَ.

ثمَّ التفتَ إلى سليمانَ وقالَ له: إنَّ المبلغَ الَّذي استلمتَه منِّي العامَ الماضي كان لله، وليس لكَ، فاذهبْ مُباركًا لكَ فيه إن شاءَ اللهُ[(٢)].

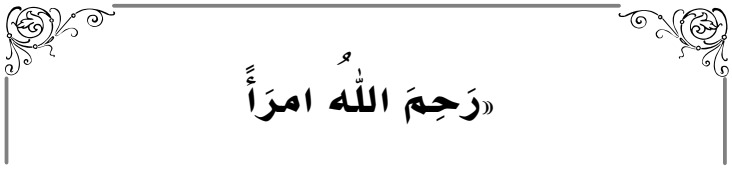


(١) رواهُ البُخاريُّ، رقم: (٧٥٠٥)، ومسلمٌ، رقم: (٢٦٧٥).

(٢) بطل هذه القصَّة عبدُ الله بنُ خالدٍ الخضير، أحدُ أفراد أسرة الخالد المشهورين، وتُوفِّيَ عبدُ الله هذا دونَ عقبٍ رَحِمَه الله.



(الحكاية الرابعة عشرة)



«رَحِمَ اللهُ امرَأً جَبَّ[1] الغيبةَ عن نفسِه»[2].

اعتادَ أمراءُ الكويتِ منذُ دخلوا بابَ التَّاريخِ وسجَّلَ اسمَهم في سجلِّه أن يتَّخذوا مجلسًا عصرَ كلِّ يومٍ يستقبلُ الأميرُ فيه النَّاسَ فيستشير ويُستشار، ويسألُ عن الأخبارِ، ويتحدَّثُ إلى الجالسِينَ فيما يُفيد الشَّعبَ، أو الإمارةَ أو يدفعُ عنها شرًّا.

جلسَ عبدُ اللهِ الثَّاني يومًا في مجلسِ أسلافِه المملوءِ بالجالسِينَ، وفيه وجيهٌ عرَفَه القومُ بأبي حمُّودٍ، تجاذبَ النَّاسُ فيه الأحاديثَ شتَّى، وأسكتَهم بدويٌّ دخلَ فسلَّمَ، ثمَّ وجَّه وِجهتَهُ إلى أبي حمُّودٍ قائلًا له: يا رجلُ! مضى عليَّ زمانٌ وأنا أبحثُ عنكَ؛ فقدْ تركتَ دُكَّانَكَ ولم تُخبِرْ أحدًا بمكانِك الجديدِ، فأعطِني أمانتي الَّتي أودعتُكَ إيَّاها في العامِ الماضي.

وكان أهلُ الباديةِ يدعونَ نقودَهم من الذَّهبِ والفضَّةِ عندَ أهلِ الحضرِ؛ لأنَّها في الباديةِ مُعرَّضةٌ للاعتداءِ والسَّلْبِ والضَّياع.

قال أبو حمُّود للبدويِّ: وكم هي أمانتُكَ؟

---

(١) الجَبُّ: القطْعُ. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١/ ٢٤٩).

(٢) أوردَه العجلونيُّ في كشفِ الخفاء، رقم: (١٣٦٧).

قالَ: خمسُمئة ريالٍ.

قالَ: وما وعاؤُها؟

قال: كيسٌ أبيضُ من قطنٍ، مربوطٌ بخيطٍ من شعرٍ أسودَ.

قال أبو حمُّود: غدًا إن شاء اللهُ في مثلِ هذا الوقتِ تجدُني هنا وهي معي.

ذهبَ البدويُّ إلى شأنِه وانفضَّ[1] مجلسُ الأميرِ، وكانَ أبو حمُّود ممَّن انفضَّ منهم، وعادَ في الغدِ إلى مكانِه في مجلس الأمير، وحضرَ البدويُّ، ومدَّ له أبو حمُّودٍ يدَه بكيسٍ أبيضَ يحتوي على خمسمئةِ ريالٍ، مربوطٍ بخيطٍ أسودَ من الشَّعرِ.

فنظرَ البدويُّ إليه، وقال: ليس هذا كيسي.

قال أبو حمُّود: إنَّ كيسَكَ قد بَلِيَ، وخَشِيتُ ضياعَ الدَّراهمِ، فاستبدلتُه بهذا الكيسِ، وهو خيرٌ لك من كيسِك؛ لأنَّه جديدٌ.

سكتَ البدويُّ وأخذَ ينظرُ إلى الكيسِ والخيطِ تارةً، وإلى وجهِ أبي حمُّود تارةً أخرى، وطال جلوسُه حتَّى حملَ الكيسَ وخرجَ يحرِّكُ شفتَيهِ بكلامٍ غيرِ مسموعٍ.

انتهى اليومُ واليومُ الَّذي يليه، وفي اليوم الثَّالثِ وقد جلس أبو حمُّود في مكانِه من مجلسِ الأميرِ، وامتلأَ المكانُ كالعادة بالرِّجال، إذا بالبدويِّ نفسِه جاءَ يلهثُ وسلَّمَ على الحاضرينَ، ووقف مُقابِلًا أبا حمُّود، وقال له: يا ابنَ الحلالِ! اعذرْني، أرجو السَّماحَ

(١) انفضَّ القومُ: تفرَّقوا. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٨/ ٤٩٤).

من الله ثمَّ منك؛ لأنِّي أخطأتُ بحقِّكَ، ولا أدري كيف أفعلُ، فقد وجدتُ وديعي، وسلَّمَ لي وديعتي، وهذا مالُكَ جزاكَ اللهُ خيرًا، لقد أخطأتُ الشَّبَهَ واللهِ.

فقالَ له الأميرُ: كيفَ؟

قالَ: إنَّ وديعي فلانٌ، سمَّاه باسمِه، وهو كثيرُ الشَّبه بأبي حمُّود، وكنتُ في العامِ الماضي أودعتُه هذا المبلغَ، ولكنَّه تركَ دكَّانَه، وفي صباحِ هذا اليومِ حيثُ كنتُ أقضي بعضَ حوائجي في السُّوق، أحسستُ بيدٍ ثقلَتْ على كتفي، فالتفتُّ فإذا به يقولُ: ما بالُكَ يا أخي؟ فلي أيَّامٌ وأنا أبحثُ عنكَ، فتعالَ معي وخذْ أمانتَك، وقد استلمتُ دراهمي بجِرَابِهَا[1] كاملةً غيرَ منقوصةٍ، وأنا واللهِ خَجِلٌ من أبي حمُّودٍ، والتفتَ إليه وقال: سامحْني سامحَك اللهُ.

أجابَه أبو حمُّود: لا تثريبَ[2] عليك، يغفرُ اللهُ لنا ولكَ.

سألَ الأميرُ أبا حمُّود: لماذا لم تُنكِرْ وأنتَ تعلمُ أنَّ الأمانةَ ليستْ عندَك؟ ألم تكنْ يومًا أمينَ بُداةٍ؟

قال أبو حمُّود: لم أذكرْ في حياتي أنَّ بدويًّا استأمنَني على وديعةٍ مثلِ هذه، ولكنَّ هذا الرَّجُلَ قصدَني دونَ أحدٍ من الجالسِينَ، فلو أنكرتُه فلن يصدِّقَني أحدٌ منكم، وستقولون: استضعفَ البدويَّ فأنكرَه، ثمَّ أَفْقِدُ مكانتي بينَكم، وشعبيَّتي بين النَّاس، وخيرٌ لي في

(١) جِرَابُها: اتِّساعُها. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢/ ١٥٠).
(٢) لا تثريب عليكم: لا إفساد عليكم، لا تُذكَرُ ذنوبُكم. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١/ ٢٣٥).

حاضري ومستقبلي ولأولادي أن أحتفظَ بعزَّتي ومكانتي ما دمتُ قادرًا على بذل هذا المبلغ، أَمَا وقد وضحَ الحقُّ، واستبانَ لكم، فقد كسبتُ ما هو أعظمُ ممَّا أمَّلتُ، والحمدُ لله ربِّ العالمينَ، ولقد صدقَ رسولُ الله ﷺ إذْ قالَ: «**نيَّةُ المرءِ خيرٌ مِن عملِه**»(١).

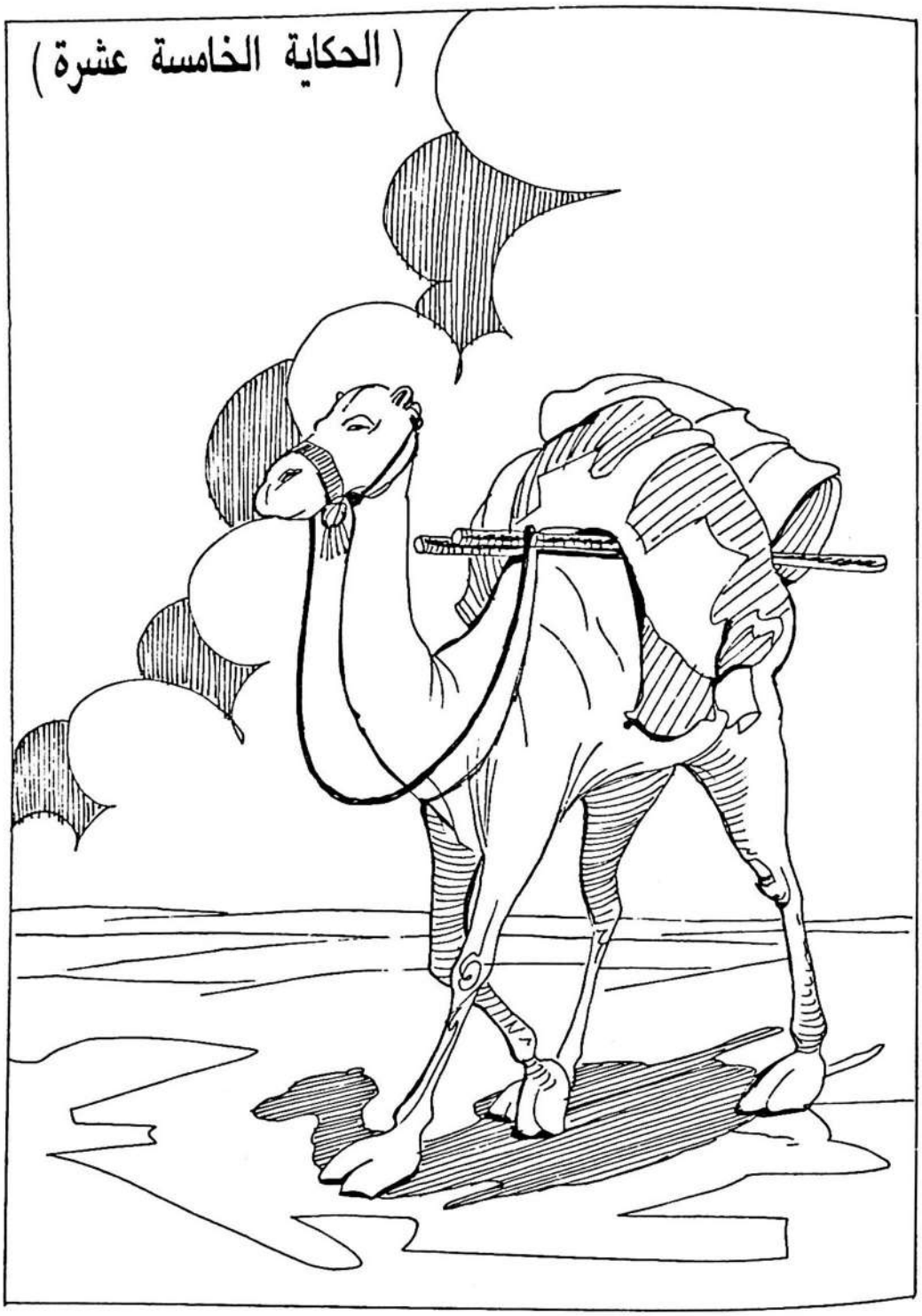
خرجَ البدويُّ يَعْجَبُ من أمانةِ الوديعِ وصدقِه وتفكيرِه وبُعدِ نظرِه! وممَّا جُبِلَ عليه الكويتيُّونَ مِن خلقٍ كريمٍ ونُبلٍ وعزَّةِ نفسٍ واحتفاظٍ بالفضائلِ وتمسُّكٍ بالمكانة!

وانفضَّ المجلسُ بعدَها، وكانت أحاديثُ النَّاسِ في مجالسِهم تلكَ اللَّيلةَ عن أبي حمُّودٍ والبدويِّ(٢).



(١) سبقَ تخريجُه.

(٢) جرتْ حوادثُ هذه القصَّة في عهد المرحوم الشَّيخ عبد الله الثَّاني بن صُباحٍ، وبطلُها روضان بن حمُّود روضان، وقيل إنَّ بطلَها محمَّدٌ الرَّوضان، وهو من أسرة الرَّوضان نفسِها، وابنُ عمِّ الرَّوضان بن حمُّودٍ، رَحِمَهمُ اللهُ جميعًا.


(الحكاية الخامسة عشرة)



«إن الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»(١)

جاءتِ الأخبارُ بأنَّ قافلةً تجاريَّةً قادمةً من الشَّمال، تُعَدُّ بمئاتِ الإبلِ تحملُ العَباءَ، والعباءُ معروفٌ بأنَّه نسيجٌ من الصُّوفِ مفتوحٌ من الأمامِ يلبسُه الرِّجالُ في البلاد العربيَّةِ، واحِدُه عَباءةٌ، أو بشت، وستصلُ هذه القافلةُ غدًا عندَ مطلعِ الشَّمسِ.

يتفاءلُ المسافرونَ والقادمونَ بالبكور، وفي البكور بركةٌ، يدخلُ القادمُ بلدَه عندَ مطلعِ الشَّمسِ أو بعدَها بقليلٍ، فيستقبلُ النَّاسَ نشيطًا، فيبيعُ ويبتاعُ إن كان تاجرًا، ويزور ويُزار، وهكذا كانَ القومُ مقتدِينَ في أعمالِهم كلِّها بالسُّنَّةِ النَّبويَّةِ وسيرةِ السَّلَفِ الصَّالح، متَّبِعِينَ قولَ الشَّاعرِ النَّاصحِ عبدِ الله بنِ معاوية:

نَـبْـنِـيْ كَـمَـا كَـانَـتْ أَوَائِـلُـنَـا تَـبْـنِـيْ وَنَـفْـعَـلُ مِـثْـلَ مَـا فَـعَـلُـوا(٢)

وممَّن علمَ بوصولِ القافلةِ مُفلحٌ، وكانَ ذا مَتربَةٍ(٣)، يتطلَّعُ إلى الأعمال، ويرجو ملكَ رأسِ مالٍ يُتاجرُ به.

---

(١) رواه مسلم، رقم: (٢٦٩٩).

(٢) انظر: العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسيِّ (٢/ ١٤٨).

(٣) متربة: فقر. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢/ ٦٣).

زارَ مفلحٌ مساءَ ذلك اليومِ موسى التَّاجرَ الثَّريَّ، الَّذي له مَضافةٌ عامرةٌ ليلًا ونهارًا يُقدِّمُ لزوَّارِه فيها القهوةَ، ومجلسُه فيها بين المغربِ والعشاءِ، وقد يواصِلُ الجلوسَ بعدَ العشاءِ إن زارَه أحدٌ.

قال مفلحٌ للشَّيخ موسى الثَّريِّ: يا عمُّ! تعرفُ أنَّني ذو عُسْرَةٍ[١]، وأرجو أن أبيعَ وأشتري، غيرَ أنَّ اليدَ قصيرةٌ، فلو مددتَ لي يدَ المساعدةِ لفعلتَ معي خيرًا، وربحتُ وأربحتُ، فساعدْني يا عمُّ بخمسِمئةِ ريالٍ أُضارِبُ بها، وسأربحُ إن شاءَ اللهُ، وستربحُ معي نصيبَك في المضاربةِ.

ضَحِكَ الشَّيخُ موسى، واستبشرَ مفلحٌ، وتغيَّرَ مجرى الحديثِ، وأذَّنَ المؤذِّنُ لصلاة العِشاء، وقامَ النَّاسُ إلى المسجدِ يصلُّونَها جماعةً، وفي المسجدِ أشارَ الشَّيخُ موسى إلى مفلحٍ أَنِ اتْبَعْنِيْ بعدَ انصرافي من المسجد.

رَجَعَ مفلحٌ إلى بيتِه يحملُ كيسًا مختومًا فيه خمسُمئةِ ريالٍ، وبعدَ صلاةِ الفجرِ ذهبَ معَ مَن ذهبَ لاستقبالِ القافلةِ المثقلةِ بأحمالِها؛ إذ دخلتْ سوقَ المدينةِ، وانقضَّ[٢] النَّاسُ عليها يشترونَ ويَشْرُونَ[٣]، يربحونَ ويخسرونَ، وهذا شأنُ الأسواقِ في بلادِ اللهِ كلِّها، واشترى مفلحٌ وباعَ كغيرِه مرَّتَينِ وثلاثًا وأربعًا، ورَبِحَ خمسَمئةٍ.

أمسى المساءُ وتركَ النَّاسُ أسواقَهم إلى بيوتِهم ومجالسِهم، وبعدَ

(١) العُسرة: قلَّةُ ذاتِ اليدِ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٣/ ٢٩).
(٢) انقضَّ: أسرع. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٩/ ٢٥).
(٣) يَشْرِي: يبيع. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٨/ ٣٦٣).

المغربِ ذهبَ مفلحٌ إلى مجلسِ الشَّيخِ موسى وهو فَرِحٌ فخورٌ بأنَّه أصبحَ ذا رأسِ مالٍ، وسيُتاجِرُ ويربحُ كما رَبِحَ غيرُه من تجارتِه.

دخلَ المجلسَ ومعَه صُرَّتانِ[1]؛ كبيرةٌ وصغيرةٌ، فالتفتَ الشَّيخُ موسى إليه يسألُه: كيفَ أنتَ يا مُفلح؟

أجابَ: الحمدُ لله، ودعا للشَّيخِ وشكرَ له أفضالَه قائلًا: لقد أَعَنْتَنِي - أعانَكَ اللهُ - فاشتريتُ وبعتُ، فربحتُ خيرًا كثيرًا، والحمدُ لله على أن أطعمَني حلالًا، وأوسعَ عليَّ فضلًا، وأسألُ اللهَ أن يُجزيَكَ عنِّي خيرًا ويزيدَك نعمةً، ثمَّ مدَّ يدَه إلى الصُّرَّةِ الكبيرةِ قائلًا: هذا رأسُ المالِ وهو لكم، ثمَّ تناولَ الصُّرَّةَ الصَّغيرةَ وقالَ: وهذا نصفُ الرِّبحِ الَّذي كسبتُه اليومَ وهو حظُّكم.

ثمَّ رفعَ رأسَه إلى السَّماءِ قائلًا: لك الحمدُ يا ربُّ، اللَّهُمَّ زِدْنا من فضلِكَ كما وعدتَ مَن شَكرَك.

مدَّ الشَّيخُ موسى يدَه إلى الصُّرَّةِ الكبيرةِ وقال: يا مفلحُ! الكيسُ ما زال مختومًا بختمِنا لم يُفتَح!

قالَ مفلحٌ: نعم، إنَّه لم يُفتَح.

قال موسى: إذن لا نصيبَ لنا في الرِّبحِ ما دمتَ لم تستعملْ دراهمَنا.

قال مفلحٌ: ولكنْ يا عمُّ! دراهمُكم بَعَثَتِ الثِّقةَ في نفسي، وملأتْني شجاعةً أثارتْ فيَّ إقدامًا، ولولاها ما ابتعتُ ولا بِعتُ.

---

(١) الصُّرَّة: شَرْجُ الدَّراهمِ ونحوها. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٢/ ٣٠٢).

قال موسى: لا يا ولدي، لا أستطيعُ أن آخُذَ هذا المبلغَ - وأشارَ إلى الصُّرَّةِ الصَّغيرةِ - لأنِّي أخشى أن تكون حرامًا.

قال مفلحٌ: ولكنهَّا لا تحلُّ لي، فهي ملكٌ لكَ؛ لأنِّي أعلم يقينًا في نفسي أنَّ دراهمَكم هي الَّتي دفعتْني إلى السُّوق، فَخُذْ حلالَكَ يا عمُّ.

قال موسى: حلالي هو هذا الكيسُ فقط - وأشارَ إلى الكيسِ الكبيرِ - وقال لغلامِه: خُذْهُ يا ولدُ إلى الخزنةِ.

غَضِبَ مُفلِحٌ وأغضبَ معَه الشَّيخَ موسى، وطالَ بينهما الجدلُ، فكلٌّ واحدٍ منهما يبتعدُ عن نصفِ الرِّبحِ؛ موسى لا يريدُه لأنَّه ليس من حقِّه فهو عليه حرامٌ، ومفلحٌ لا يريدُه لأنَّه ليس من حقِّه وهو عليه حرامٌ؛ وموسى يقولُ: إنَّ الدَّراهم الَّتي سلَّمتُها إلى مفلحٍ لم يُفَضَّ[1] ختمُها، ومفلحٌ لم يستعملْها، وإنَّما استعملَ اجتهادَه فرَبِحَ، وهو يقول: لولا الدَّراهمُ الَّتي أخذتُها منكَ وكانتْ لي ظهيرًا[2]، ما غامرتُ ولا دخلتُ السُّوقَ معَ الدَّاخلِينَ.

قالَ الحاضرونَ لموسى سرًّا: يا شيخُ! خُذْ هذه الدَّراهمَ، وإذا أمسى المساءُ غدًا فأرسلْ إلى مفلحٍ، وقل له: إنِّي سُرِرْتُ كثيرًا من عملِك، ووَجَبَتْ عليَّ مكافأتُكَ، وقد رأيتُ تشجيعًا لكَ على جِدِّكَ واجتهادِك أن أهبَ لك هذا المبلغَ؛ مكافأةً لك، وحثًّا على السَّعيِ وراءَ المصلحةِ.

---

(١) الفَضُّ: فكُّ خاتم الكتاب. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٨/ ٤٨٩).
(٢) الظَّهيرُ: المُعِين. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٢/ ٤٨٩).

ضَحِكَ الشَّيخُ موسى وقال للمُشِيْرِينَ عليه: هذه نيَّتي وقد أردتُ مكافأتَه بلا مَنٍّ[١] منِّي عليه، فأبى.

وفعلَ الشَّيخُ موسى ما أشارَ به عليه ضيوفُه، فقد أمسى اليومُ الثَّاني ولم يحضر مفلحٌ، فبعثَ الشَّيخُ موسى إليه وقال له: يا مفلحُ! إنَّكَ شابٌّ نشيطٌ، وقد فعلتَ ما لم يفعلْه أمثالُك، وأحببتُ نشاطَك وهمَّتَك، وأردتُ أن أُكافِئَك بلا منٍّ منِّي عليك، فأبيتَ، وأنا أثقُ بحِلِّيَّةِ المبلغِ الَّذي أتيتَ به لي وتجاهلتُ، ولم تقبلْ تجاهُلي، والآنَ خُذْ هذا النَّصيبَ الَّذي أعطانيهِ ربِّي؛ هديَّةً منِّي لكَ مُضافةً إلى رأسِ مالِكَ، واجتهدْ باركَ اللهُ لكَ في سعيِك.

قال مفلحٌ: الآنَ يا عمُّ صحَّ الأمرُ وأنا شاكرٌ[٢].



(١) مَنَّ عليه: أنعمَ وأحسنَ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٦/ ١٩٤).

(٢) سمعتُ هذه القصَّةَ من المرحوم الملَّا زكريَّا بن محمَّدٍ الأنصاريِّ، وبطلُها المرحومُ الشَّيخُ موسى العبد الرَّزَّاق، ومُفلِحٌ بطلُها الثَّاني هو غيرُ مفلحٍ بطلِ القصَّة السَّابعة رفيقِ الشَّيخ فرجٍ، فإنَّ الاسمَينِ مُستعاران في الحكايتَينِ.

(الحكاية السادسة عشرة)



«الْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ»(١).

بقيتِ العصبيَّةُ للعروبةِ حتَّى بعدَ مقاومةِ الإسلامِ لها، وظلَّ العربُ يحتفظونَ ببناتِهم لئلَّا يتزوَّجَهُنَّ غيرُ عربيٍّ، وظلَّتْ كلمةُ العِلْجِ تُطلَقُ على الأعجميِّ أو شبهِ الأعجميِّ حتَّى في القرونِ الأخيرةِ، إلى أنْ تدنَّتِ العصبيَّةُ في هذه القرونِ إلى تقسيمِ النَّاسِ إلى فريقَينِ؛ أَصيلٍ وبَيسرٍ، والبيسرُ هو مَن لا أصلَ له، وأصلُ الكلمةِ البياسرةُ، وهي كما جاءَ في القاموسِ: جيلٌ بالسَّندِ تستأجرُهم النَّواخذةُ لمحاربةِ العدوِّ، والواحدُ بيسريٌّ، ثمَّ أُطلِقَتْ هذه الكلمةُ على كلِّ مَن لا يحتفظُ بأصلِه أو يُصاهِرُ مَن لا أصلَ له، حتَّى اتَّسعتْ مداركُ النَّاسِ، وانتشرت المعرفةُ، وأدرك النَّاسُ أنَّ قيمة الإنسانِ فيما يعملُه، وأنَّ المالَ ذاهبٌ زائلٌ، والأصلُ لا يرفعُ مِن قيمةِ السَّاقط الذَّليل الجاهل، وأنَّ شرفَ الإنسانِ في شخصيَّتِه وثقافتِه، وفي ذلك قال النَّبيُّ ﷺ: «**إذا خَطَبَ إِلَيكُم مَن تَرضَونَ دينَهُ وَخُلُقَهُ فزَوِّجوهُ**»(٢).

ظهرتِ الكويتُ على ساحلِ الخليجِ العربيِّ، يُعَمِّرُ أهلُها بيوتَهم في الطَّرفِ الشَّرقيِّ من جزيرة العرب على رأسٍ من الأرض يبرزُ في الخليج، عُرِفَ في الماضي باسم القرين، ومِمَّنِ استوطنَ هذه الأرضَ

(١) رواهُ أحمدُ، رقم: (١٨٤٤٩).
(٢) رواهُ التِّرمذيُّ، رقم: (١٠٨٤).

الجديدةَ أُسرةٌ عُرِفَتْ بعراقتِها في قبيلةِ عنزة العدنانيَّةِ، اختارَ النَّاسُ كبيرَها صُباحًا رئيسًا لهم، يقضي في خصوماتِهم، ويحلُّ مشكلاتِهم، ويتزعَّمُ وفودَهم[١]، ومنحوه لقبَ شيخٍ، ونُسِبَتِ الأُسرةُ بعدَ ذلك إليه، فكانت أُسرةَ الصُّباحِ.

ماتَ هذا الشَّيخُ سنةَ ألفٍ ومئةٍ وثلاثينَ هجريَّةً (١١٣٠هـ)[٢]، فاستخلفوا بعدَه ابنَه عبدَ اللهِ، وكان نِعْمَ الخلفِ لوالدِه، ولِهذا الابنِ بنتٌ اسمُها مريمُ، جميلةُ الوجهِ، حلوةُ التَّقاطيعِ، بهيَّةُ الطَّلْعَةِ، خفيفةُ الرُّوحِ، اشتُهِرَتْ بالجمالِ، وعَلِمَ بها العربُ والعجمُ، فتقدَّمَ أحدُ أُمراءِ بني كعبٍ لخطبتِها، وبنو كعبٍ من سكَّانِ عربستان في إيران، لم يحتفظوا بأصلِهم؛ لأنَّهم صاهروا العجمَ؛ زوَّجوهم وتزوَّجوا منهم، لهذا كانت التَّقاليد تفرضُ على عبد الله بن صباحٍ أبي مريم أن يرفضَ خطبةَ الكعبيِّ، فأظهرَ وجماعتُه أشدَّ الإباءِ والامتناعِ، وقال له قومُه: إذا استجبتَ لهذا العلجِ وزوجتِه سترى منَّا أشدَّ الإهانةِ، ولا يكفينا منك إلَّا الإبعاد.

وقد رأى أميرُ بني كعبٍ في رفضِ عبدِ اللهِ إهانةً له، وهو الجَلْدُ[٣] الشُّجاعُ، والآمِرُ الْمُطاعُ، فنادى في قومِه - وهم أكثرُ عددًا وعُدَّةً - أن يأخذوا للحربِ أُهْبَتَها[٤]، وجهَّزَ لذلكَ سُفُنًا ملأَها بالرِّجالِ

(١) وفودٌ: اسمٌ للجمعِ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٩/ ٣١٣).
(٢) أي: سنة (١٧١٨م).
(٣) الجلَدُ: الشِّدَّة والقوَّة والصَّبر والصَّلابة. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٧/ ٥٠٩).
(٤) أخذَ للأمرِ أُهْبَتَهُ: عُدَّتَه. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢/ ٤٠).

والعتادِ، موجِّهًا وِجهتَها إلى الكويتِ.

عَلِمَ أهلُ الكويتِ بذلكَ، فخرجوا إلى البحر في سفنٍ أَودَعوا فيها المستضعفِينَ من الرِّجالِ والنِّساء والأولاد والأموال، وسارَ الْمُقاتِلةُ بِسُفُنٍ أُخرى لِمُقابلةِ عدوِّهم؛ معتمدِينَ على اللهِ لا على عددِهم ولا عُدَّتِهم، إلَّا أنَّ عبدَ اللهِ نَدِمَ وقالَ في نفسِه: لو أنَّنا دافعْنا عن البلدِ فيهِ، متحصِّنينَ في البيوتِ والأبراجِ لكان خيرًا من أن نَخرُجَ بالرِّجالِ.

وبعثَ مَن يُرجِعُهم قبلَ أن يشتبكوا معَ العدوِّ في قتالٍ، فذهبَ الرَّسولُ وقابلَ الْمُقاتِلَةَ، فرأى في وجوهِهم العزمَ والإقدامَ، وكلُّهم يقولُ: الموتُ ولا المذلَّةُ، وعَلِمَ هذا الرَّسولُ أنَّ مِن وصايا الْمُقاتِلَةِ إلى النِّساءِ أن يُغرِقْنَ سُفُنَهُنَّ متى عَلِمْنَ بغلبةِ العدوِّ؛ حتَّى لا يَصِرْنَ غنيمةً للأعادي، ولم يُبلِّغِ الرَّسولُ القومَ رسالةَ الأميرِ، بل إنَّه وقفَ في المقاتلةِ يخطُبُ فيهم قائلًا:

ما بالُكم حتَّى الآنَ لم تُناجِزُوا[1] العدوَّ؟ لماذا لم تكونوا عندَ حُسنِ ظنِّ أميرِكم بكم؟ ما هذا التَّراخي؟ أتظنُّونَ أنَّ المرءَ يموتُ قبلَ يومِه؟ كلَّا واللهِ، إنَّها موتةٌ واحدةٌ، ولكنَّها في العزِّ خيرٌ منها في الذُّلِّ، وفي الشَّهادةِ خيرٌ منها في الفراشِ.

أيُّها الرِّجالُ! لا تتركوا النِّساءَ والأطفالَ والشُّيوخَ وآباءَكم وأُمَّهاتِكم سَلْبًا ونَهْبًا لعدوِّكم، فاعتصموا بالله واسألوه النَّصرَ

(١) المناجَزَة في القتال: المُبارزة والمقاتلة. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٥/ ٣٤٣).

ينصرْكم، ولا تنسَوا قولَ اللهِ: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٩]، سِيروا على بركةِ اللهِ، وقاتِلوا عدوَّكم باسمِ اللهِ، واللهُ أكبرُ.

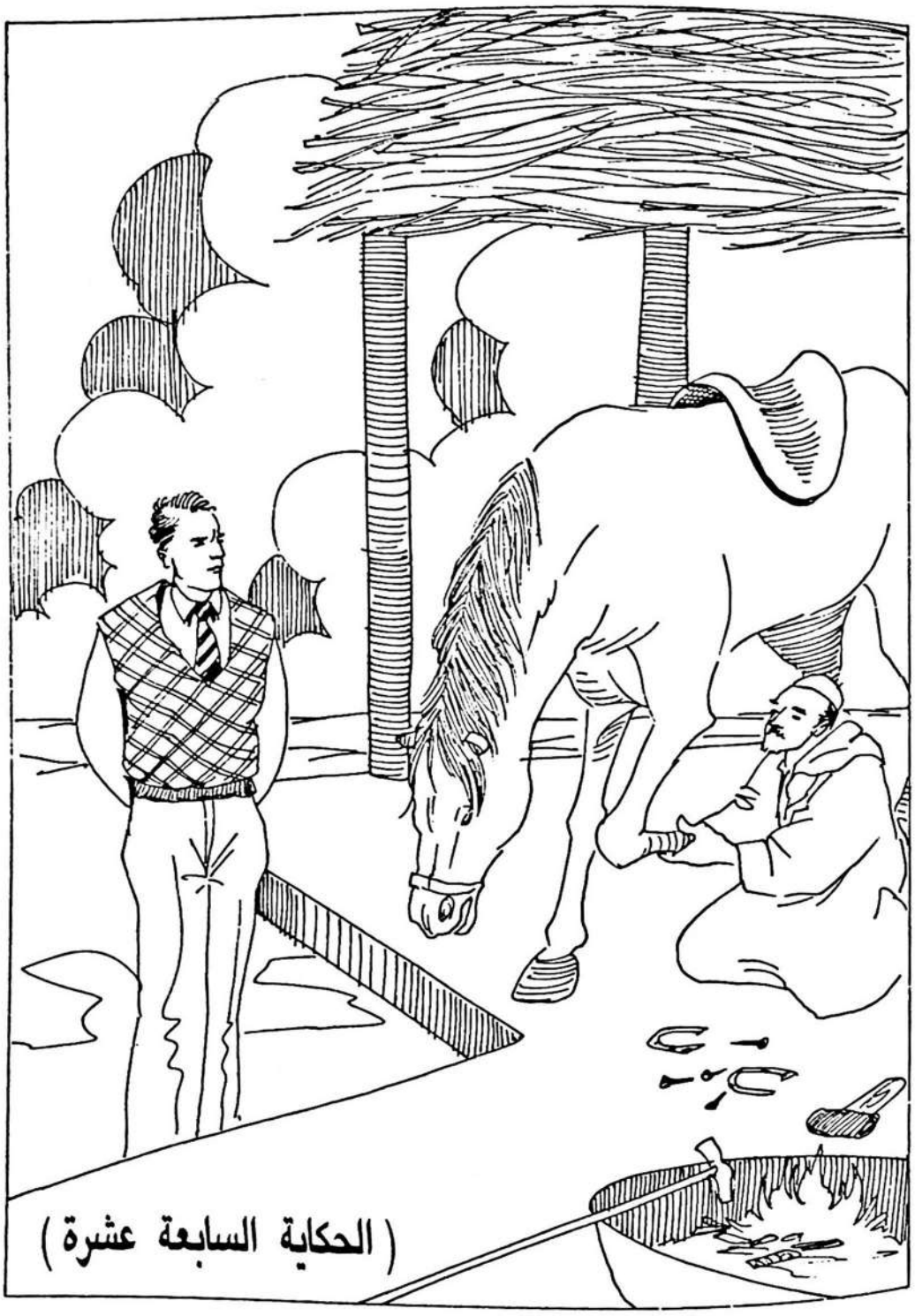
حرَّكَ كلامُه هذا الرِّجالَ، وأشعلَ فيهم وَقْدَةَ الشَّجاعةِ، وتقدَّموا إلى العدوِّ بكلِّ جرأةٍ، وجرتْ وقعةٌ هائلةٌ بينَ فريقَينِ متباينَينِ في العددِ والعتادِ؛ فريقِ القلَّةِ من الكويتيِّينَ، وفريقِ الكَثرةِ من الكعبيِّينَ، وكان النَّصرُ حليفَ القلَّةِ، واللهُ معَ الصَّابرينَ كما وعدَ.

قتلَ الكويتيُّونَ زعماءَ الأعداءِ الْمُعتدِينَ، وأثخنوا[١] القتلَ في الجندِ، ولم يسلمْ منهم إلَّا مَن ركنَ[٢] إلى الفِرارِ، ورَجَعَ الكويتيُّونَ إلى بلدِهم ظافرِينَ غانمِينَ يعتزُّونَ بالنَّصرِ ويؤمنونَ أنَّه من عندِ الله.

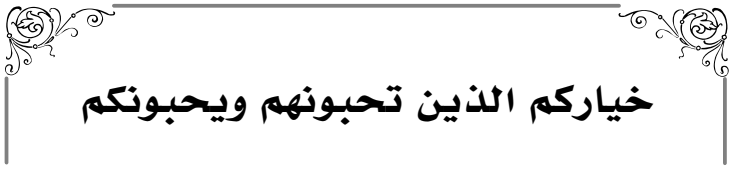
ومنذُ تلك الوقعةِ اتَّخذَ آلُ صُباح والكويتيُّونَ كلمةَ (أخو مريم) نخوةً لهم واعتزازًا بالنَّصرِ العظيمِ الَّذي كَسِبُوه ذلك اليومَ دفاعًا عن شرف الأُسرةِ والعربِ، وعن مريمَ بنتِ عبدِ الله بن صُباحٍ الَّتي لم يَرْضَ النَّاسُ لها أن تكونَ زوجةَ عِلْجٍ[٣].



(١) أثخنوا: بالغوا. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٤/ ٣٢٧).
(٢) ركَنَ: مالَ وسكنَ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٥/ ١٠٨).
(٣) أثبتَ هذه القصَّةَ المرحومُ الشَّيخُ عبدُ العزيزِ الرَّشيد في كتابه تاريخ الكويت، وكانتْ حوادثُها قد جرتْ في عهد المرحوم عبد الله الصَّباح الَّذي حكمَ ما بينَ سنتي (١١٩٠و١٢٢٩هـ).



(الحكاية السابعة عشرة)



خياركم الذين تحبونهم ويحبونكم

«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخِيَارِ أُمَرَائِكُمْ وَشِرَارِهِمْ؟ خِيَارُهُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ وَتَدْعُونَ لَهُمْ وَيَدْعُونَ لَكُمْ، وَشِرَارُ أُمَرَائِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ»[(١)].

في الكويتِ جماعةٌ يُقالُ لهم الصُّنَّاعُ؛ نسبةً إلى الصِّناعة، وأحدُهم يُقال له الصَّانعُ، وهم لا ينتسبونَ إلى فخذٍ[(٢)] واحدٍ من العرب، بل إلى أفخاذٍ عديدةٍ، وقد انتسبَ بعضُهم إلى شمر، ومطير، والعوازم، فيُقالُ: فلانٌ من صُنَّاعِ حربٍ، أو صُنَّاعِ العوازم، أو صُنَّاعِ شمر.

وكلمةُ الصَّانعِ تعني الصَّنعةَ الَّتي كان يعملُها الجدُّ؛ كالحدادةِ أو النِّجارة أو الحياكة، فلا يقولونَ: حدَّادٌ أو نجَّارٌ أو حائكٌ، وإنَّما يقولونَ: صانعٌ.

ومِن هؤلاءِ الصُّنَّاعِ: أبو مزعلٍ السَّميريُّ، الحدَّادُ الَّذي يَحْذِي الخيلَ، يصنعُها ويصنعُ السَّكاكينَ، وفي يومٍ من الأيَّامِ أرسلَ إليه القنصلُ ليبدِّلَ حذاءَ حصانِه، وفيما هو يقلِّمُ حوافرَ الحصانِ، حرَّكَ

(١) رواه التِّرمذيُّ، رقم: (٢٢٦٤)، وقال: هذا حديثٌ غريبٌ.
(٢) الفخِذُ: الحَيُّ والقبيلة. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٩/ ٤٥٠).

الحصانُ يدَه، فظنَّ القنصلُ - وكان واقفًا يتفرَّجُ - أنَّ السَّميريَّ أوجعَ الحصانَ، وكانت بيدِه عصًا ضربَ بها السَّميريَّ على يدِه وشتمَه.

لم يلتفتِ السَّميريُّ إلى القنصلِ، بل واصلَ عملَه حتَّى انتهى، وذهبَ إلى بيتِ الأميرِ يشكو فعلةَ القنصل معه، فأرسلَ الأميرُ إلى القنصلِ يلومُه على ما فعلَ معَ السَّميريِّ، ويأمرُه بأنْ لا بُدَّ من إرضائِه؛ لأنَّ السَّميريَّ فقيرٌ، ومِمَّنْ إذا عملَ عملًا أتقنَه، والواجبُ يَقضي أن يُكافَأَ أمثالُ هؤلاءِ، لا أن يُهانوا، وقال له: إِنِ اسْتَجَبْتُمْ إلى ما أقولُ شكرتُكم، وإلَّا فأنا مُضطَرٌّ لِأَنْ أَعْقِدَ جلسةً تتحاكمانِ فيها، فتقِف فيها موقفَ المدافعِ عن نفسِه.

خافَ القنصلُ وبعثَ إلى السَّميريِّ يسترضيه، وعدَّ السَّميريُّ استرضاءَ القنصلِ مَكْرُمَةً، فتنازلَ عن حقِّه الواجبِ.

عَلِمَ الأميرُ بما فعلَ السَّميريُّ ولامَه على تنازُلِه، ولكنَّ السَّميريَّ قال: لقدْ سبقَ السَّيفُ العَذَلَ[1]، ولم أُفكِّرْ أنَّ تنازُلِي هذا يُغضِبُ الأميرَ.

وحدَّثَ السَّميريُّ النَّاسَ بما كانَ، وشكرَ النَّاسُ الأميرَ على ما فعلَ، وقال قائلُهم: نِعْمَ الأميرُ أميرُنا، فهو الوالدُ والوالي.

عاشَ السَّميريُّ بعدَ ذلك عمرًا طويلًا يُحَدِّثُ النَّاسَ في جيلَينِ؛ ليعرفَ الجيلُ الجديدُ ما كانَ عليه سلفُه، وليعلمَ النَّاسُ أنَّ أمراءَ الكويتِ هُم كما قال الشَّاعرُ السَّموءَلُ بْنُ عادياءَ[2]:

---

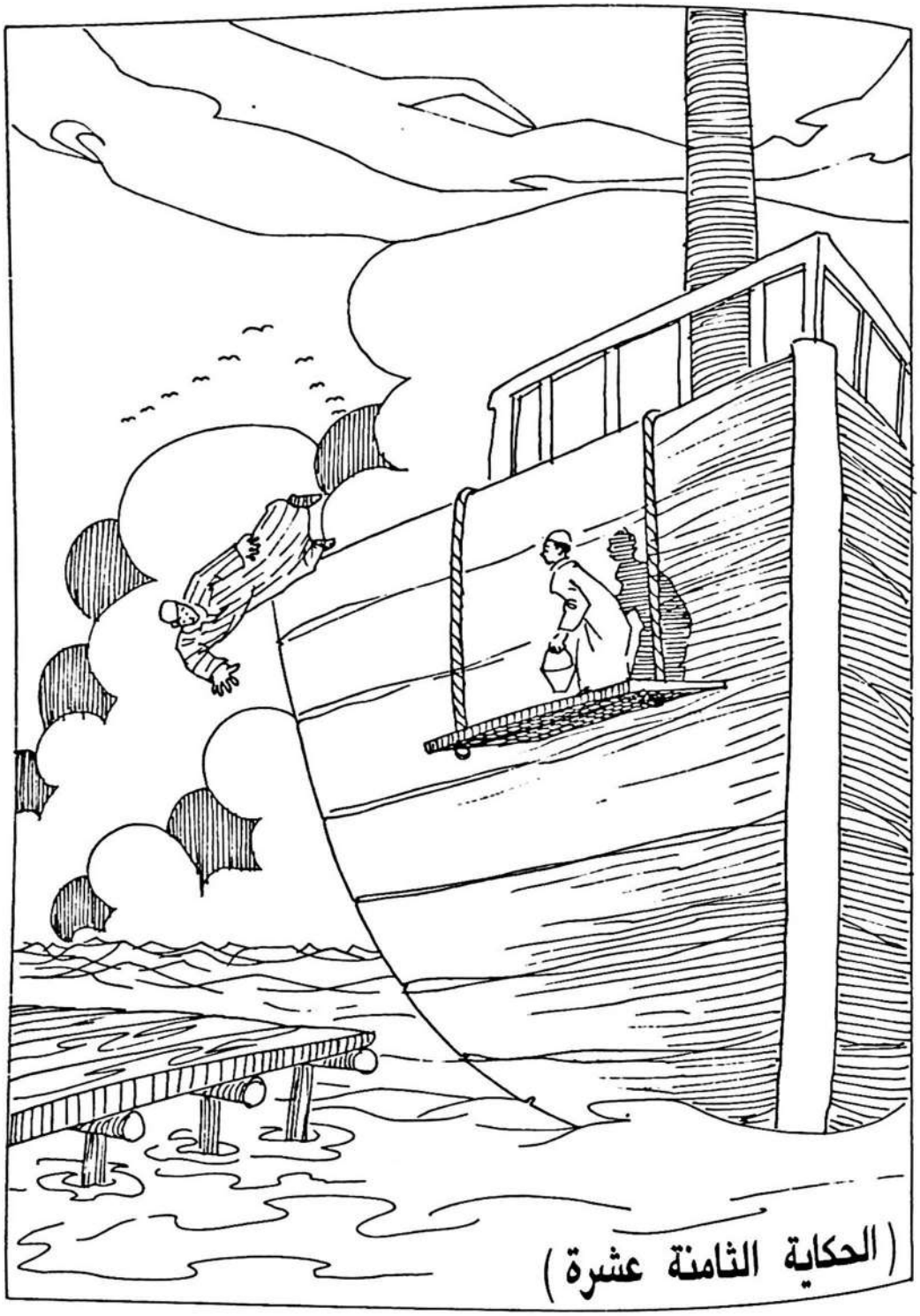
(١) مَثَلٌ يُضرَبُ لِمَا قد فاتَ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٩/ ٤٥٩).

(٢) انظر: جواهر الأدب في أدبيَّات وإنشاء لغة العرب، للمصطفى الهاشميِّ (٢/ ٢٦٠).

إِذَا سَـيِّـدٌ مِـنَّـا خَـلَا قَـامَ سَـيِّـدٌ قَؤُوْلٌ لِـمَـا قَـالَ الْكِـرَامُ فَـعُـوْلُ[١].



(١) حكى لي هذه القصَّةَ مزعلٌ السَّميريُّ ابنُ بطلِها، وجرتْ حوادثُها في عهد المرحوم الشَّيخ مُباركٍ الصُّباح.



(الحكاية الثامنة عشرة)

«كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[١].

اشتُهِرَتِ الكويتُ ببناءِ السُّفُنِ بأنواعِها جميعِها صغيرةً كانت أو كبيرةً، وامتازَ بُناةُ السُّفُنِ بإتقانِ الصَّغيرةِ منها، الَّتي تُتَّخَذُ للنُّزهةِ ولِمُتعةِ الْمُترَفِينَ بصيدِ السَّمكِ، وبُناةُ السُّفُنِ من طائفةِ البحارنةِ الَّذين وَرِثُوا هذه الصَّنعةَ عن الآباءِ والأجدادِ، وأصبحتْ تُعرَفُ بهم ويُعرفونَ بها.

وقِيلَ: إنَّ أحدَ موظَّفي الدَّولة الحليفةِ اتَّفقَ معَ أحدِ هؤلاءِ البحارنةِ على تصليحِ زورقٍ له أو صيانتِه، فجاء بِعُمَّالِه وبدؤوا يعملونَ كلَّ يومٍ من الشُّروقِ إلى الغروبِ؛ إذ إنَّ تحديدَ عملِ العاملِ مُقَيَّدٌ بضوءِ النَّهارِ أو بالشَّمسِ بينَ شروقِها وغروبِها، لا فرقَ في ذلك بين صيفٍ وشتاءٍ.

أشرقتِ الشَّمسُ وبدأ العملُ، وانكبَّ[٢] كلٌّ واحدٍ على ما خُصِّصَ له؛ فشرَّاحُ الخشبِ ينشرُ بمنشارِه، ومُثبِّتُ الدَّسْرِ[٣] يطرقُ

(١) رواهُ البخاريُّ، رقم: (٨٩٣).
(٢) أكبَّ على الشَّيءِ وانكبَّ: أقبلَ يَعْمَلُهُ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٤/ ٩٤).
(٣) الدَّسْرُ: إصلاحُ السَّفينةِ بالمسمار. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١١/ ٢٩٠).

بمطرقتِه، وثالثٌ يُصْلِحُ الفتيلَ[١]، يبدِّلُ التَّالِفَ بجديدٍ قد أغرقَهُ بالوَدكِ[٢] أو بدُهنِ السَّمَكِ.

جاءَ صاحبُ السَّفينةِ يتفرَّجُ على العُمَّالِ، واطمأنَّ إلى أنَّ كلَّ واحدٍ منهم جادَ فيما وُكِّلَ إليه من عملٍ، ولهذا لم يتنبَّهوا عليه.

أبصرَ جانِبًا فرأى أحدَهم جالسًا على سطحِ السَّفينةِ، وقد أمسكَ بيدِه خشبةً يُقشِّرُها بِقَدُومِه[٣]، وقد بالغَ بما أخذَه منها، فنهاه فلم يتنبَّه عليه، وقال في نفسِه: هذا عملي، أريدُ أن أصوغَ الخشبةَ.

ظنَّ موظَّفُ الحليفةِ أنَّ عاملًا بسيطًا لا يستطيعُ أن يَرُدَّ عليه، وفكَّرَ أنَّ مثلَ هذا العاملِ سيعدُّ وقوفَ القنصلِ عليه شرفًا له، وأنَّ تواضعَ القنصل الكبير في التَّحدُّثِ إليه مَكْرُمَةٌ تَرفَعُ مِن مقامِه، ولكنَّ القنصلَ خابَ ظنُّه؛ لأنَّ العامِلَ لم يرفعْ رأسَه ولم يقفْ له، ولا توقَّفَ عن عملِه.

شقَّ ذلك على القنصلِ المتعجرفِ[٤]، ودفعَ بالعاملِ إلى أسفلِ السَّفينةِ، فشُجَّ رأسُه وسالَ دمُه، وأسعفَ العُمَّالُ رفيقَهم، وعَصَبُوا[٥]

(١) الفتيل: حبلٌ دقيقٌ من خَزَمٍ أو ليفٍ أو عِرْقٍ أو قَدٍّ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٠/ ١٤٤).
(٢) الودَك: دسمُ اللَّحمِ ودُهنُه الَّذي يُستخرج منه. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٧/ ٣٨٢).
(٣) القَدُوم: آلةٌ للنَّجْرِ والنَّحْتِ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٣/ ٢٤٣).
(٤) التَّعجرُفُ: جفوةٌ من الكلام. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٤/ ١٢٢).
(٥) العصْبُ: الشَّدُّ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣/ ٣٧٥).

رأسَه، ورجَعَ إلى عملِه؛ لأنَّ الشَّجَّةَ طفيفةٌ[١].

عَلِمَ الأميرُ مُباركٌ السَّاهرُ على حمايةِ شعبِه بما حصلَ، وأرسلَ مَن يُوعِزُ[٢] إلى العاملِ أن يرفعَ شكوى ضدَّ القنصل، وشكا العاملُ القنصلَ إلى الأميرِ، فأرسلَ الأميرُ إلى القنصلِ يستفهمُ منه عمَّا حصلَ، فقالَ: إنَّها مسألةٌ لا تحتاجُ إلى اهتمامِ سموِّ الأميرِ؛ لأنَّها شجَّةٌ بسيطةٌ وقد اندَمَلَتْ[٣]، ولكنَّ الأميرَ لم يقتنعْ، وقالَ للقنصلِ: غدًا سأحضرُ وأرى بعيني ما حصلَ.

حضرَ الأميرُ بنفسِه، وأوقفَ القنصلَ بمكانِه الَّذي كان به يومَ الحادث، وأجلسَ العامِلَ النَّجَّارَ في مكانِه وبيدِه خشبةٌ وقَدُومٌ، ثمَّ رأى أين وقعَ لَمَّا دفعَه القنصلُ بِكِلْتَا يَدَيْهِ، فالتفتَ إلى القنصلِ قائلًا له: شريعتُنا تحكمُ بالقِصاصِ[٤]، وتقاليدُنا تؤكِّدُه، وأرى أن تسترضيَ المجنيَّ عليه ليعفوَ عنكَ، وإلَّا فسأضطرُّ إلى أن أحكمَ له بأن يفعلَ لك مثلما فعلتَ معه، وأنت وحظُّكَ؛ فإن سَلِمْتَ كانت نعمةً من الله أنعمَ بها عليك، وإن هلكتَ فذاكَ جزاؤك.

وهنا رأى القنصلُ أنَّ الأميرَ جادٌّ في قولِه، فبدأ يُساوِمُ المجنيَّ

(١) الطَّفيف: الشَّيءُ القليل، غيرُ التَّامِّ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٤/ ٩١).
(٢) أوعَزْتَ إلى رجلٍ: إذا تقدَّمتَ إليه بأمرٍ، أو أمرتَه به. انظر: جمهرة اللغة، لابن دريد (٢/ ٨١٨).
(٣) الاندمال: الذَّهاب. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١١/ ٢٥٠).
(٤) أقصَّ الأميرُ فلانًا من فلانٍ: اقتصَّ له منه، فجرحَه مثلَ جرحِه. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٨/ ١٠٥).

عليه حتَّى أرضاه بمبلغٍ من المالِ يُقَدَّرُ بثلثِ دِيَةٍ[١].

فَرِحَ مباركٌ بالنَّتيجةِ؛ لأنَّها حمايةٌ للشَّعبِ ودفاعٌ عنه، أمَّا القنصلُ فإنَّه أحسَّ بأنَّ هناك عينًا ساهرةً على مصلحةِ الأمَّةِ وحِفْظِها من كلِّ شرٍّ يصيبُها، فكفَّ شرَّهُ عن كلِّ أحدٍ؛ لأنَّ الشَّرَّ لا يأتيه إلَّا بِشَرٍّ مثلِه أو أعظمَ منه.

وشاعتْ هذه القصَّةُ بينَ النَّاسِ، وعرَفوا أنَّ مُباركًا كأسلافِه لا يرضونَ بالذِّلَّةِ[٢] لهم ولِمَنْ عاشوا في رعايتِهم، وأنَّ العزَّةَ في أن يلتفُّوا حولَ أميرِهم، ويُخلِصُوا لراعِيهم؛ فهو المسؤولُ عنهم في الرِّعاية، وهم مسؤولونَ عنه في الإخلاصِ والولاءِ[٣].



(١) الدِّيَةُ: حَقُّ القتيل. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٤٠/ ١٧٨).
(٢) الذِّلَّةُ: الفضيحةُ والهَوَانُ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢/ ٣٤١).
(٣) جرت حوادثُ هذه القصَّة في عهد المرحوم الشَّيخ مُباركٍ الصُّباح.


(الحكاية التاسعة عشرة)

«الخَلقُ عِيَالُ اللّٰهِ، وأحبُّ العباد إلى اللّٰهِ أَنفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ»[١].

«المُؤمِنُ لِلمُؤْمِنِ كَالبُنيَانِ يَشُدُّ بَعضُهُ بَعضًا»[٢].

الحربُ قائمةٌ بينَ روسيا ودولةِ الخلافةِ أواخرَ القرنِ الثَّالثَ عشرَ الهجريِّ، ودولةُ الخلافةِ تحتاج إلى معوناتٍ تمدُّها بها أقاليمُ الدَّولة من كلِّ جهةٍ، وهي تَئِنُّ[٣] من الأثقالِ الَّتي كلَّفها بها مَن تقلَّدُوا الخلافةَ أو قلَّدوها، وليس الغدُ خيرًا من أمسِه، وإنَّما الحالُ يجري من سيِّءٍ إلى أسوأَ دائمًا، ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾ [الرّعد: ١١].

في يومٍ من أيَّامِ سنةِ (١٢٩٥هـ)[٤]، استلمَ الأميرُ الشَّيخُ عبدُ الله بْنُ صُباحٍ رسالةً من رئيسِ وزراء الخليفةِ الْمُسمَّى يومئذٍ بالصَّدر الأعظم، يطلبُ بأمرٍ من الخليفةِ عبدِ الحميدِ الثَّاني معونةً من أميرِ الكويتِ، مقدارُها أربعةُ آلافِ ليرةٍ عثمانيَّةٍ؛ لتجهيزِ جيوشِ السَّلطنةِ

(١) رواهُ البيهقيُّ في شعب الإيمان، رقم: (٧٠٤٥).
(٢) سبق تخريجه.
(٣) تئنُّ: تتوجَّع وتتأوَّه. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٤/ ١٩٥).
(٤) أي: سنة (١٨٧٨م).

الْمُقاتلةِ في سبيل الله، ودفاعًا عن كلمة الله، وعن كيان الدَّولة، وطاعةُ الخليفةِ طاعةٌ لله.

اهتمَّ الأميرُ بهذه الرِّسالةِ، ولم يستطعْ إغفالَها؛ لأنَّها تكليفٌ من أميرِ المؤمنِينَ سلطانِ البرَّينِ وخاقانِ البحرينِ وحامي الحرمَينِ الشَّريفَينِ؛ هكذا كان يُلقَّبُ السُّلطانُ على المنابرِ في أيَّام الجمعِ.

بعثَ الأميرُ يجمعُ مجلسَ شُورَاهُ لِيُشِيروا عليه؛ لأنَّ الأميرَ لا يملكُ هذا المبلغَ ولا أقلَّ من نصفِه، وكان الأهالي في تلك السَّنةِ قَدِ ابْتُلُوا بنَقصٍ في الأموالِ؛ بعواصِفَ أَغرقَتْ كثيرًا من سُفُنِهِمُ الْمُحَمَّلَةِ ببضائعَ وأموالٍ أخسرتْ كثيرينَ، وأفقرتْهم.

ولكنَّ يوسُفَ الإبراهيم الَّذي كان من الأثرياءِ البارزِينَ في الإمارةِ تعهَّدَ بجمعِ هذا المبلغِ وتكملتِه إن نَقُصَ، وافتتحَ قائمةَ الاكتتابِ بألفِ ليرةٍ ذهبيَّةٍ عثمانيَّةٍ، ثمَّ أخذَها متوجِّهًا بها إلى يوسُفَ البدرِ الوجيهِ الحسيبِ الغنيِّ الكريمِ التَّقيِّ.

عرَفَهُ قومُه بهذه الصِّفاتِ، وهو جديرٌ بأكثرَ منها؛ لأنَّ صدقاتِه الخفيَّةَ لم تُعرَفْ إلَّا بعدَ موتِه.

لقد كان يوسُفُ هذا وافرَ الغِنى، ولم يَعرِفْ صفةَ الكبرياء، متواضعًا جوادًا[1]، ولم يَطلُبْ لِجُوْدِهِ الذِّكْرَ، فإذا أعطى أعطى مستحقًّا، وربَّما أخفى العطاءَ، بحيث لا يَعرفُ الْمُعطَى مَن أعطاه،

(١) الجواد: السَّخِيُّ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٧/ ٥٢٧).

ويُنفق كثيرًا ويحتسبُ[١] هذا الإنفاقَ، ويجتهدُ بإخفاءِ صدقاتِه «**حَتَّى لَا تَعلَمَ شِمَالُهُ مَا أَنْفَقَتْ يَمِينُهُ**»[٢]، وكم من بيتٍ عمَّرَهُ يوسُفُ! وكم من شابٍّ أنهضَه وأحيا فيه مواهبَه!

جلسَ يوسُفُ الإبراهيم إلى يوسُفُ البدر يحدِّثُه حديثَ الرِّسالة بأمرٍ من الأميرِ ومن أهل شوراه، ولكنَّ يوسُفَ البدرَ لم يستحسنْ فكرةَ الاكتتابِ، وقال لِمُحَدِّثِه: يا ابنَ إبراهيمَ! إنَّ أهلَ الكويتِ قد أضرَّتْهم العواصفُ، والأَولى بي وبك ألَّا نُكَلِّفَهم بقليل هذا الأمر دونَ كثيرِه، بل ننهضُ به وحدَنا، وأنتَ يا أخي قد تبرَّعْتَ بألفٍ جزاكَ اللهُ خيرًا.

ثمَّ أخذَ الورقةَ وكتبَ فيها ألفَينِ، وقالَ: وهذان ألفانِ منِّي، فَقُمْ إلى ابنِ صُباحٍ ليُكمِلَ عن الكويتيِّينَ الباقي، وقد كان الأَولى بنا أن نُعطِيَ هذه المساعدةَ للمنكوبينَ من أبناء بلدنا، لكنَّها وإن ذهبت إلى غيرِهم فقد ذهبت في سبيل الله، وثوابُها ثابتٌ إن شاء اللهُ وصدقتْ نيَّتُنا معَ اللهِ.

فَرِحَ عبدُ الله الصُّباح بما قاله ابنُ بدرٍ وبما فعلَه بعدَ أن حدَّثَهُ يوسُفُ بْنُ إبراهيمَ بما كان بينَهما، وقال: لقد صدقَ واللهِ ابنُ بدرٍ، والأقربونَ أَولى بالمعروفِ، ولكنْ لا حيلةَ لنا في هذا الأمر.

أكملَ الأميرُ المبلغَ المطلوبَ، وبعثَ به إلى الدَّولةِ في عاصمتها،

---

(١) الاحتساب في الأعمال الصَّالحات: هو البدارُ إلى طلبِ الأجرِ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢/ ٢٧٩).

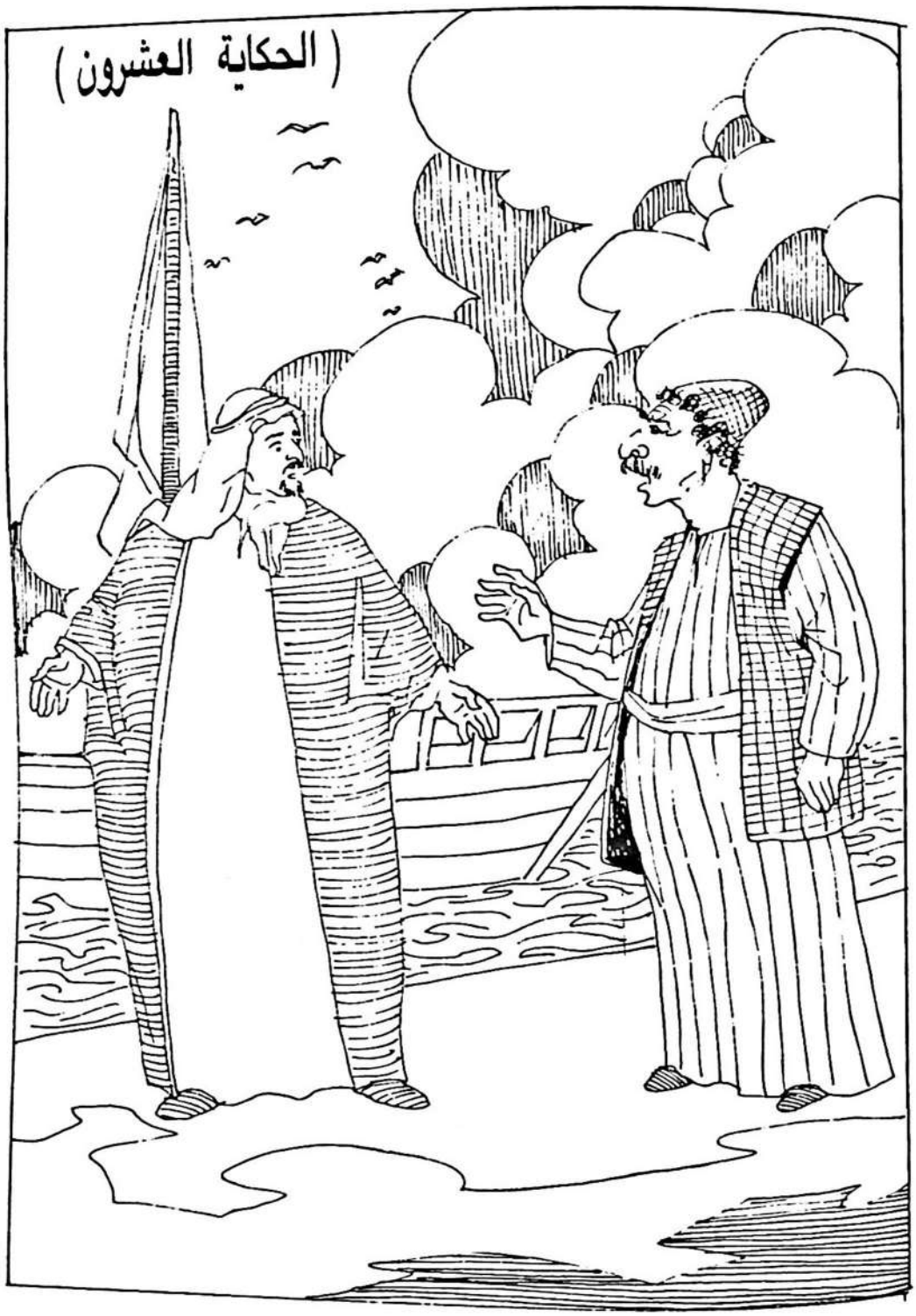
(٢) رواهُ البيهقيُّ في شُعبِ الإيمان، رقم: (٣١٦٥).

وعَلِمَ الكويتيُّونَ بما قاله يوسُفُ البدرُ وبما فعله، وظلُّوا يشكرونَه شهورًا، وأثبتَ التَّاريخُ فعلتَه هذه دهورًا.

وما زالَ التَّاريخُ يتحدَّثُ عن أعمالِ يوسُفَ البدرِ، وأثبتَ ذلك شاعرُ الحدباءِ عبدُ الغفَّارِ بْنُ عبدِ الواحدِ الأخرسُ في بيتِه المشهورِ:

إِنَّ الْكُوَيْتَ حَمَاهَا اللهُ قَدْ بَلَغَتْ بِالْيُوْسُفَيْنِ مَكَانَ الْأَنْجُمِ الشُّهُبِ

يَقصِدُ الشَّاعرُ باليوسُفَينِ: يوسُفَ البدر، ويوسُفَ الصُّبيح، والأوَّلُ جدُّ أُسرةِ البدرِ المعروفة، والثَّاني جَدُّ أُسرةِ الصُّبيح المعروفة، وكلاهما جوادٌ، له في سجلِّ الأجوادِ حسناتٌ.


(الحكاية العشرون)

«إِنَّ اللَّهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ، أَحَفِظَ ذَلِكَ أَمْ ضَيَّعَ؟ حَتَّى يُسْأَلَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ»[1].

قبيلةُ العوازم من القبائل الَّتي استوطنَ الكويتَ بعضُ أفخاذِها، وعمَّروا ساحلَها، يعتاشُونَ بصيدِ الأسماكِ، ويحتالونَ على هذه المهنةِ تارةً بالشِّباكِ، وأخرى بما يسمُّونه الحُظُورَ؛ جمعُ حظرةٍ، وهي حظيرةٌ من قصبٍ لها مدخلٌ واحدٌ لا مخرجَ منه، تدخلُه السَّمكةُ، وسَعَةُ الحظرةِ نحو خمسينَ مترًا مربَّعًا، وارتفاعُها كطول القصبِ مترَينِ تقريبًا.

وكان يعملُ بعضُهم بتجارةِ المواشي أو الحبوب وما يزالُ، وتاجرَ بعضُهم في الخليجِ ذهابًا وإيابًا وفي الغوصِ، ولهم سفنٌ وبحَّارةٌ منهم ومِن غيرهم، وهم متعصِّبُونَ لقبيلتِهم، فلا يتزوَّجُ العازميُّ بغيرِ بنتِ قبيلتِه، ولا يُزوِّجُ ابنتَهُ غيرَ ابنِها، وندرَ أن زوَّجوا أبناءَهم من غير قبيلتِهم، أو تزوَّجوا من غيرها، وكانوا يُكَنُّونَ أنفسَهم: أولاد عطا، وهي الكُنْيَةُ الَّتي يتعارفونَ بها.

منهم سعودٌ تاجرُ الحبوب، يذهبُ أيَّامَ الحصادِ إلى ساحلِ إيرانَ،

(١) رواهُ النَّسائيُّ، رقم: (٩١٢٩).

فيشتري منه ما تيسَّرَ، ويشحنُه في سفنٍ يَكْتَرِيْهَا[١] لهذا الأمرِ، ثمَّ يأتي بها إلى الكويتِ، ويبيعُها معبَّأَةً أو بلا تعبئةٍ، بالجملةِ أو بالمفردِ.

واقتضى لهذا الأمرِ أن يتعرَّفَ كثيرًا من زُرَّاعِ الحبوب الإيرانيِّين الَّذين يأتونَ في الخريفِ إلى الكويت ويستلفونَ من سعودٍ وغيرِه مبالغَ كبيرةً؛ استعدادًا للزَّرعِ، وعَرْبُونًا[٢] للبيعِ بعد الحصاد.

ودام الأمرُ على ذلك سنِينَ، ربحَ فيها سعودٌ وأربحَ، واتَّسعت معاملُته في استيرادِه، وفي سنةٍ ما ساءتْ نيَّةُ معامِليه، وعزموا على التَّنكُّرِ له بعد أن قبضوا ما اعتادوا مِن قبضِه منه في الخريف، ولم يكن سعودٌ يعلمُ بنيَّتِهم هذه.

فلمَّا حلَّ موعدُ الحصاد ارتحلَ كعادتِه إلى هنديان، وحينَ وصولِه لم يستقبلْه مَن كانوا يستقبلونَه، ولم يرَ الوجوهَ الَّتي اعتادَ رؤيتَها؛ لأنَّ النَّاسَ قد تنكَّرُوا وأضمروا شرًّا، فقال في نفسِه: - وكانَ حَسَنَ الظَّنِّ - لعلَّ القومَ قد أُصيبُوا بمكروهٍ ففقَدوا عزيزًا.

ومضى يومانِ وثلاثةٌ واتَّصلَ ببعضِهم فصارحوه في الأمر، وأظهروا الشَّرَّ الَّذي أضمروه، وقالوا: ليس لك عندَنا حبوبٌ، فلا حنطةَ ولا شعيرَ، وإذا أردتَ السَّلامةَ فارتحلْ بِجِلْدِكَ.

---

(١) الكِروَةُ والكِرَاء: أجرُ المستأجَر. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٥/ ٢١٩).

(٢) العَرْبون: السُّلْفَة. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١/ ٤٠٥).

والنَّاسُ مهما خَبُثُوا[1] فليس يَخلونَ من خِيَارٍ، والخيرُ في طبيعة البشر فطرةٌ، لهذا كان من واجب البشريَّةِ مراعاةُ هذه الفطرة وتنميتُها؛ لكي تنمو، والأديانُ السَّماويَّةُ نَزَلَتْ وبُعِثَ بها الأنبياءُ لتنميةِ غريزةِ الخيرِ في البشريَّة، وإذا أُهمِلَتْ ولم تُرَاعَ، ظَلَّتْ مكبوتةً؛ حتَّى يبعثَها باعثٌ أو تبقى خفيَّةً إلى أن ينتهي الأجلُ، وإذا أُمِيتَتْ غريزةُ الخير في الإنسان كان وحشًا لا يُطاقُ.

وبينما سعودٌ في وَحدتِه ليلًا يُفَكِّرُ في غَدِهِ، طرقَ عليه طارقٌ يستأذِنُ بالدُّخول، قال له سعودٌ: ادخلْ. وكان الدَّاخِلُ يتلفَّتُ خوفًا أن يراه أحدٌ، ثمَّ جلسَ إلى سعودٍ، وقال له: إنَّ القوم قد اتَّفقوا على إنكارِ دَينِك الَّذي في ذمَّتِهم، وإخراجِكَ من البلدِ، ولو أظهرتُ نيَّتي لَأغضبتُ جماعتي، ولهذا عندي رأيٌ إذا فعلتَه استوفيتَ حقَّكَ، ولا يستطيع أحدٌ بعد ذلك أن يَمَسَّكَ بسوءٍ.

إنَّ أميرَكم اليومَ في بلدِنا، في ضيافة شيخنا، فزرْهُ وسلِّمْ عليه، واطلبِ العونَ منه على تحصيل حقوقِك، ومتى فعلتَ فلن تخيبَ بعدَها أبدًا؛ لأنَّ جماعتَنا يخافونَ القويَّ، فافعل ما أقولُه لك، ولا تخفْ؛ فاللهُ معَ العاملِينَ، وتوكَّلْ على اللهِ إنَّه مع المتوكِّلِينَ.

تردَّدَ سعودٌ أوَّلَ الأمرِ، وباتَ يُقَلِّبُ المشورةَ في فكرِه، لعلَّها تكونُ حيلةً نصبَها القومُ له، ولَمَّا تأكَّدَ من وجودِ أميرِه في البلاد

(١) خَبُثَ الرَّجلُ فهو خبيثٌ: وهو الرَّديءُ الخَبُّ الماكر الخادع. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٥/ ٢٣٢).

اطمأنَّ قلبُه، ورَكِبَ فرسَه، وذهبَ إلى الأهوازِ يزورُ الأميرَ ويستعينُ به، وهو يعرفُ حبَّ الأميرِ للشَّعبِ، وحُبَّ الشَّعبِ للأميرِ.

وصلَ سعودٌ بيتَ الضِّيافةِ، وأمامَه سُرَادِقٌ[1] عظيمٌ من شعرٍ أسودَ، يقومُ على سبعةِ أعمدةٍ.

جلسَ الأميرُ الضَّيفُ المباركُ، والأميرُ المضيفُ خزعلٌ في صدر البيتِ، والخدمُ والغلمانُ محيطونَ بهما، ودخلَ سعودٌ السُّرادِقَ فلمحَهُ مباركٌ، وقال: كأنَّه ابنُ دهامٍ قادمٌ من الكويت، عسى أن يكون بشيرَ خيرٍ.

وعندما وصلَ مدخلَ السُّرادقِ، قامَ الأميرُ الضَّيفُ مُرَحِّبًا به، مادًّا يدَه لمصافحِته، مستدنيًا إيَّاه وسائلًا عمَّنْ قَدِمَ معَهُ من أفراد الأُسرة ووجوه البلد، ثمَّ التفتَ الضَّيفُ إلى المضيفِ قائلًا له: هذا سعودُ بنُ دهامٍ من وجوه العوازم في بلدنا ومن خيرةِ رجالِنا، ولو نابَنا أمرٌ فليسَ لنا عنه غنًى، ولو وقفَ في سوق الكويت مُناديًا: أولاد عطا - وهي الكلمةُ الَّتي يستعملونَها للتَّعارُفِ فيما بينَهم - لَلَبَّاهُ ألفٌ من العوازم.

ثمَّ التفتَ إلى سعودٍ قائلًا له: خيرًا قَدِمْتَ له يا سعودُ! قالها مستفهمًا.

فقال: واللهِ - يا طويلَ العمرِ - جئتُ كالعادةِ أستحصلُ ديوني من

(١) السُّرادِقُ: الَّذي يُمَدُّ فوق صحْنِ البيت، وهو كلُّ ما أحاط بشيءٍ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٥/ ٤٤١).

أهلِ هنديانَ، ولَمَّا علمتُ بقدومكم جئتُ للسَّلامِ عليكم.

عَلِمَ مباركٌ أنَّ في الأمرِ خديعةً أرادَها أهلُ هنديانَ لسعودٍ، والتفتَ إلى خزعلٍ وقال: إنَّ سعودًا رجلٌ واسعُ العملِ، ووقته ثمينٌ، وما دام وصل إلينا وجبَ علينا أن نبعثَ معَهُ مَن يُساعِدُه في إنجاز مهمَّتِه وتحصيل ديونه.

ثمَّ التفتَ إلى سعودٍ وقال: شاركْنَا الغداءَ وبعدَ ذلك نرخِّصُ لكَ السَّفرَ إلى عملِك.

وتلطَّفَ الأميرانِ معه، وطارحاه الحديثَ والنُّكتَ؛ ما جعلَ سعودًا يُنكِرُ نفسَه؛ لأنَّه لم يرَ هذا اللُّطفَ من أميرِه في كويتِه.

ورَجَعَ سعودٌ إلى هنديانَ ومعَهُ اثنانِ من رجالِ خزعلٍ، ساعداه في تحصيلِ ديونِه القديمةِ والجديدةِ، ورَجَعَ بعدَها إلى الكويت، ورجعَ رفيقاه إلى الأهواز.

عادَ الأميرُ مباركٌ إلى الكويتِ، فذهبَ سعودٌ ليسلِّمَ عليه ويشكرَه على ما كان قد أسداه له من عونٍ في الغربة، ولكنَّ الأميرَ ردَّ السَّلامَ بكبرياءَ، ولم يرَ منه ذلك الوجهَ الَّذي رآه في الأهواز.

عَلِمَ سعودٌ بعدَ ذلك أنَّ الأميرَ كان في غربةٍ، وأحبَّ أن يُظهِرَ رعاياه أمامَ الأجانبِ بمظهر الكبارِ؛ ليحترمَ النَّاسُ في الغربةِ رعاياه، فلا تضيع لهم حقوقٌ، ولا تُهان لهم حرمةٌ، ولا يُخفَر[1] لهم ذِمامٌ.

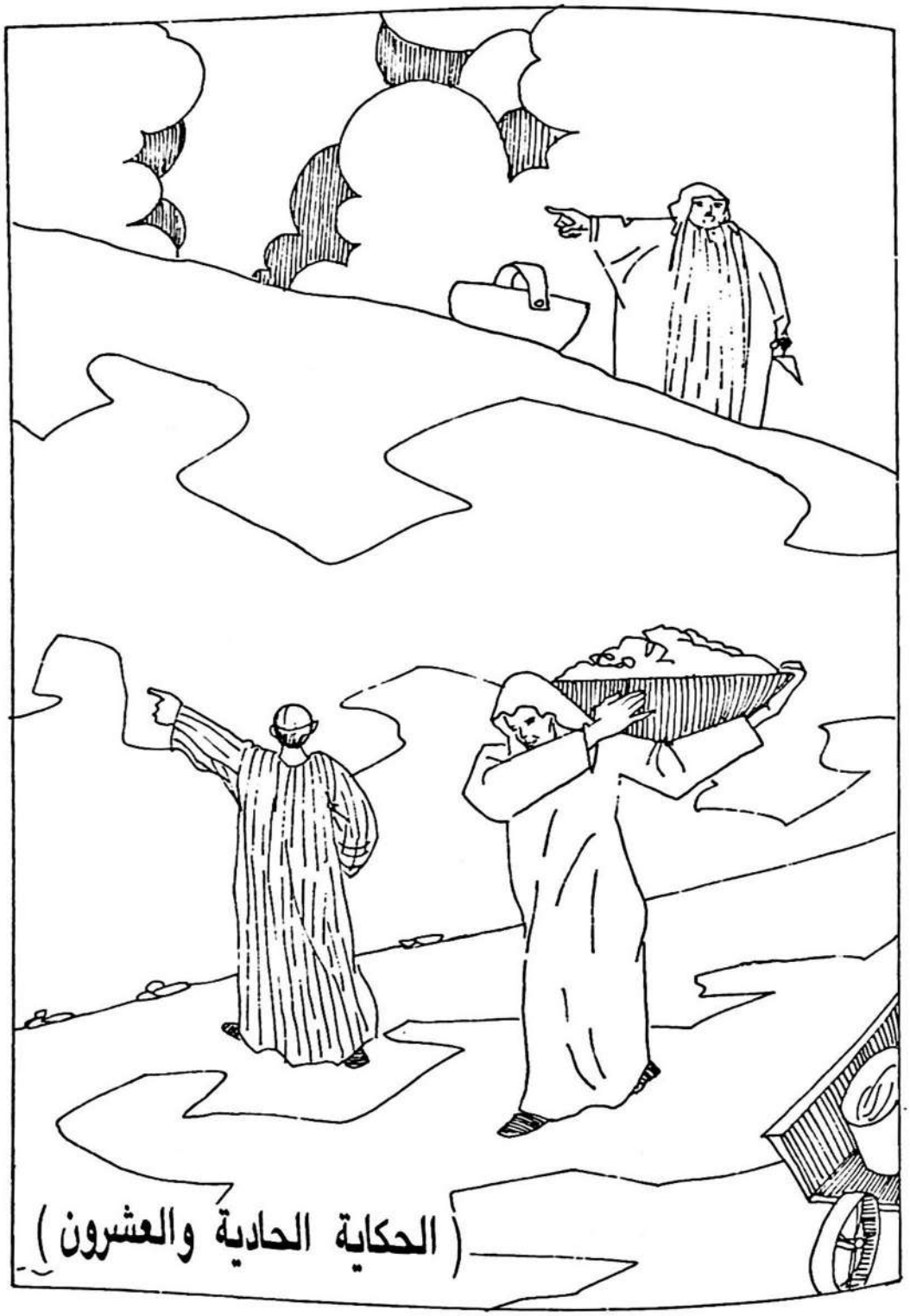
(١) خفرَ به: نقضَ عهدَه وخاسَ به وغدرَه. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١١/ ٢٠٦).

وحدَّثَ أصحابه بما كان بينَه وبينَ مباركٍ، وترحَّمَ على روحِه وهو يقول: رَحِمَ اللهُ مُباركًا، فقد كانَ لنا نِعم الرَّاعي إذا حضرْنا، ونعم العون إذا سافرْنا، وبسببِ رعايتِه لنا كُنَّا في الغربة محترمِينَ.

ثمَّ رفعَ رأسَه إلى السَّماءِ وقال: اللَّهُمَّ ارحمْ مباركًا، وباركْ لنا في ذُرِّيَّتِه[1].



(١) سمعت هذه القصَّةَ من بطلِها المرحومِ سعود بن دهامٍ العازميِّ، وجرتْ حوادثُها في عهد المرحوم الشَّيخ مُبارك بن صُباحٍ.


(الحكاية الحادية والعشرون)

﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾

[المَائدة: ٢]

«يَدُ اللَّهِ مَعَ الجَمَاعَةِ»(١).

انتصفَ شهرُ شعبانَ، وأقبلَ البُداةُ إلى المدينةِ يجهِّزونَ لشهرِ رمضانَ، وكَثُرَتِ الحركةُ، وعَمِرَتِ الأسواقُ، وباعَ التُّجَّارُ وابتاعَ غيرهم، ولكنَّ خبرًا أقلقَ راحةَ الأهالي، قالَه واحدٌ من البادية، أشغلَ به قلوبَ النَّاسِ وأخافَهم.

قال القائل: إنَّ العدوَّ يُعِدُّ العُدَّةَ لِغَزْوِكُمْ وعلى غفلةٍ منكم.

قال السَّامعونَ: أيُّها النَّاسُ! خذوا حذرَكم وأَعِدُّوا لعدوِّكم ما استطعتم من قوَّةٍ؛ فإنَّ العدوَّ لا يرحمُ، وإنَّ اللهَ معَكم؛ لأنَّه لا يحبُّ المعتدِينَ.

واجتمعَ وجوهُ الأهالي بأميرِهم وتباحثوا في الأمر، وتبادلوا الرَّأيَ، وقال قائلٌ منهم: نبني على مداخل القرية جدارًا يمنعُ الْمُهاجمَ، ونستعملُ البيوتَ حصونًا نردُّ بها عنَّا العَدُوَّ.

وقال آخَرُ: إذا فعلْنا ذلك ضيَّقْنا على أنفسِنا مدينتَنا، وأزعجْنا

(١) رواهُ التِّرمذيُّ، رقم: (٢١٦٦)، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

نساءَنا وصغارَنا.

وقال آخَرُ: إنَّنا رجالُ حربٍ، والعدوُّ اعتدى وسيعتدي، ولا نُبالي أن نَخرُجَ إليه كما خرجَ إلينا.

فأُجِيبَ هذا القائلُ: بأنَّ العدوَّ ذو عددٍ وعُدَّةٍ، ولا نستطيع أن ندفع بعددِنا وعُدَّتِنا، وقد قيل: الكثرةُ تغلبُ الشَّجاعةَ، وقال آخرونَ غيرَ هذا، وكلُّها آراءٌ رُدَّتْ والأميرُ ساكتٌ يسمعُ ما يُقال في الاقتراحِ والرَّدِّ.

وأخيرًا قال الأميرُ: سمعتُ ما قلتم، وعندي رأيٌ لا أدري هل يُستحسَنُ أم لا، ما قولُكم في بناءِ سُورٍ يُحِيطُ بالمدينة؟ أليسَ ذلك خيرًا لنا وأكثرَ نفعًا؟

قال قائلُهم: المدينةُ كبيرةٌ والسُّورُ طويلٌ، سيأخذ منَّا الوقتَ والجهدَ، وقد أقبلَ علينا رمضانُ.

فقال الأميرُ: التَّعاونُ يُهَوِّنُ المصاعبَ، «**وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ**»(١).

وانفضَّ المجلسُ وأجمعُوا على بناءِ السُّورِ، وبدؤوا يستعدُّونَ، كلٌّ واحدٍ منهم بما يخصُّه أو يستطيعُ عملَه، جامعُ التُّرابِ، وراوي الماء، وباذلُ النَّفقة، والعاملُ، ومُطعِمُ الطَّعام والمُشجِّع، واشتركَ العمومُ في البناءِ، وبذلَ النَّاسُ كلُّهم همَّةً نَدَرَ أن بذلت أُمَّةٌ مثلَها في بناءٍ.

(١) سبق تخريجه.

كان بَدْءُ العمل في رمضانَ، والفراغُ منه فيه؛ أسابيعُ أربعةٌ بذلَها الكويتيُّونَ في بناء سورٍ طولُه نحو ثمانية آلاف مترٍ، وارتفاعُه نحو ستَّة أمتارٍ في سمْك مترَينِ، يحيطُ ببلدِهم من جوانبِها الثَّلاثةِ، وأبراجُه شاهقةٌ.

همَّةٌ بذلَها النَّاسُ هانتْ عندَها هيبةُ العدوِّ، وصُدَّتْ هجماتُه، وانطفأتْ جمرتُه، وانكسرتْ شوكتُه، وخُفِّفَتِ الوساوسُ الَّتي ساورتْ[1] قلوبَ المستضعَفِينَ من النِّساءِ والرِّجالِ والوِلْدانِ الَّذين أزعجَهم إرجافُ الْمُرجِفِينَ، وأرجفَ قلوبَهم قولُ القائلِينَ.

وبعدَ بناءِ السُّورِ نامتِ الجفونُ وهدأتِ القلوبُ، وقال النَّاسُ: الحمدُ للهِ ربِّ العالَمِين[2].



(١) ساورَ فلانًا: واثبَهُ وقاتلَه. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٢/ ١٠٠).

(٢) كان أبطال هذه القصَّة أهلَ الكويتِ كلَّهم، وجرتْ حوادثُها في عهد المرحوم الشَّيخ سالمٍ المبارك الصُّباح موقظِ همَّةِ النَّاسِ جميعِهم.


« الحكاية الثانية والعشرون »

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرات: ١٠]

«المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ»(١).

الحربُ قائمةٌ في السِّنين (١٩١٤-١٩١٨م) بينَ بريطانيا وحلفائها، وألمانيا وحلفائها، والحصارُ مضروبٌ على تركيَّا، وكلِّ من يتَّصلُ بها، وقد حصلت مجاعاتٌ شديدةٌ في كثيرٍ من البلادِ الَّتي يُظَنُّ أنَّها تتَّصِلُ بدولةِ بني عثمانَ.

ولكنَّ الكويتَ لم يحلَّ بها بأسٌ ولا يأسٌ، ولم يَجُعْ فيها أحدٌ، وكان النَّاسُ حَدِيثِي عهدٍ بفراقِ تركيَّا ودولة الخلافة يومئذٍ، والخلافةُ إمامةٌ، وطاعةُ الإمامِ واجبةٌ، ونصرتُه حَتْمٌ، وفي النَّاسِ مَن يدعو إلى الجهادِ في سبيل اللهِ وقتالِ أعداء الله؛ دعاةٌ من علماء الدِّينِ ومن الرِّجال المدنيِّينَ.

والقتالُ يكون بالنَّفْسِ والمالِ؛ لأنَّ اللهَ قال ذلك في مواضعَ عدَّةٍ من كتابه الكريم، منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ

(١) رواهُ البُخاريُّ، رقم: (٦٩٥١)، ومسلمٌ، رقم: (٢٥٦٤).

وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ [الصَّف: ١٠-١٣].

إذن: فالجهادُ واجبٌ بالنَّفسِ أو المالِ، وهو سببٌ لاكتسابِ رضوان الله، ونصرٌ وفوزٌ في الدُّنيا والآخرة.

كان عثمانُ من التُّجَّارِ البارزينَ في الكويت، نشطًا، يُعامِلُ أهلَ الباديةِ وقراها في نجدٍ والعراق، وتَرِدُ القوافلُ إليه من هنا وهناك، محمَّلةً بالبضائعِ واردةً أو صادرةً.

وفي يومٍ من الأيَّامِ جاءَ مَن أخبرَ الأميرَ بأنَّ عثمانَ يجمعُ السِّلاحَ في بيتِه؛ لِيُعِينَ به المجاهدِينَ الَّذين يقاتلون حلفاءَ بريطانيا، وتخرجُ به الجِمالُ في حقائبَ مخبَّأةٍ في الزَّكائبِ[1] بينَ الحبوب والأمتعة، وتذهبُ إلى سوريَّةَ وغيرها من البلاد الَّتي لا تزالُ تحتَ حكمِ تركيَّا.

عَلِمَ الأميرُ بهذا من القنصلِ المقيمِ في الكويت يومئذٍ، وكان حليفًا، فكذَّبَ الخبرَ وقال لِمُحَدِّثِه: لاَ أُصَدِّقُ أنَّ في الكويت مَن يُخالِفُ رأيي أو يفعلُ ضدَّ رغبتي، وأعرفُ أنَّ عثمانَ رجلٌ من خيرة الرَّعِيَّة، وأحبِّها لأميرِها، ولكنْ سنقطعُ الشَّكَّ باليقينِ، وغدًا نُباغِتُه[2] في بيتِه مفتِّشِينَ، وسأكون المفتِّشَ بنفسي.

والأميرُ لا شكَّ يعرفُ مَن هو عثمانُ، وهو مسلمٌ يحبُّ المسلمِينَ أينما كانوا، ويريدُ لهم النَّصرَ، ولن يَكرَهَ عملَ عثمانَ إن صحَّ ما قِيلَ عنه.

---

(١) الزَّكْبُ: شِبْهُ الجوالِق، وهو الوعاء. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣/ ٢٤).
(٢) نُباغِتُه: نُفاجِئُه. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٤/ ٤٤٥).

أمسى المساءُ، واعتاد الكويتيُّونَ يومئذٍ أن يبكِّروا بالنَّوم واليقظة، وبعد غروبِ الشَّمسِ بثلاثِ ساعاتٍ قلَّ أن تجدَ مَن يمشي بالطَّريقِ؛ لأنَّ الشَّوارعَ مُظلِمَةٌ، فلا كهرباء ولا سُرُجَ[1] زيتيَّةً تشجِّعُ السَّائِرَ في العتمةِ، والعلامةُ الفارقةُ بينَ يقظةِ البلدِ ونومِها الفراغُ من صلاةِ العشاءِ، اللَّهُمَّ إلَّا من شبابٍ يجتمعونَ في دواوينَ يَسْمُرُونَ قليلًا ويتحدَّثونَ، ثمَّ متى كانت السَّاعةُ الرَّابعةَ ليلًا أَوَوا إلى بيوتِهم.

وكان التَّوقيتُ يومئذٍ يبدأُ بالغروبِ، كما أنَّ اليومَ ينتهي بغروبِ شمسِ نهارِه، ويبدأُ اليومُ الجديدُ بأوَّلِ ساعةٍ من اللَّيلِ.

بعدَ أن أيقنَ الأميرُ الهدوءَ، بعثَ رسولًا تنكَّرَ إلى عثمانَ يقول له: إنَّنا سنُباغِتُكَ قُبَيلَ الفجرِ؛ لنفتِّشَ الدِّيوانَ والبيتَ، فاحذرْ؛ فإنَّنا إن وجدْنا عندَكَ أثرًا من سلاحٍ فربَّما نضطرُّ أن نقتُلَكَ به، فإيَّاكَ إيَّاكَ، سنقلِّبُ البيتَ تفتيشًا، والأثاثَ نثرًا، ونبحثُ في الفراشِ، وفي مخادعِ النِّساء، وقد أخبرتُكَ بذلك لتستعدَّ لهذا التَّفتيشِ، وقد أَعذَرَ مَن أَنذَرَ[2]، ومتى أتيناكَ فاظهرْ لنا بلباسِ النَّومِ، ومَثِّلْ دورَ مَن بُوغِتَ.

وقُبيلَ أذانِ الفجرِ الأوَّلُ كانَ الأميرُ وحاشيتُه برفقةِ مندوبِ الدَّولةِ الحليفةِ، يَقِفُونَ عندَ بابِ عثمانَ يضربونَه بشدَّةٍ، وعثمانُ لا يعلمُ

(١) السِّراج: يستضيئونَ به في الظُّلَم. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٦/ ٣٥).
(٢) أعذر من أنذر: أي مَن أعلمَكَ أنَّه يُعاقِبُك على المكروهِ منك فيما يستقبلُه، ثمَّ أتيتَ المكروهَ فعاقبَكَ، فقد جعل لنفسِه عذرًا يكفُّ به لائمةَ النَّاسِ عنه. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٤/ ٢٠٣).

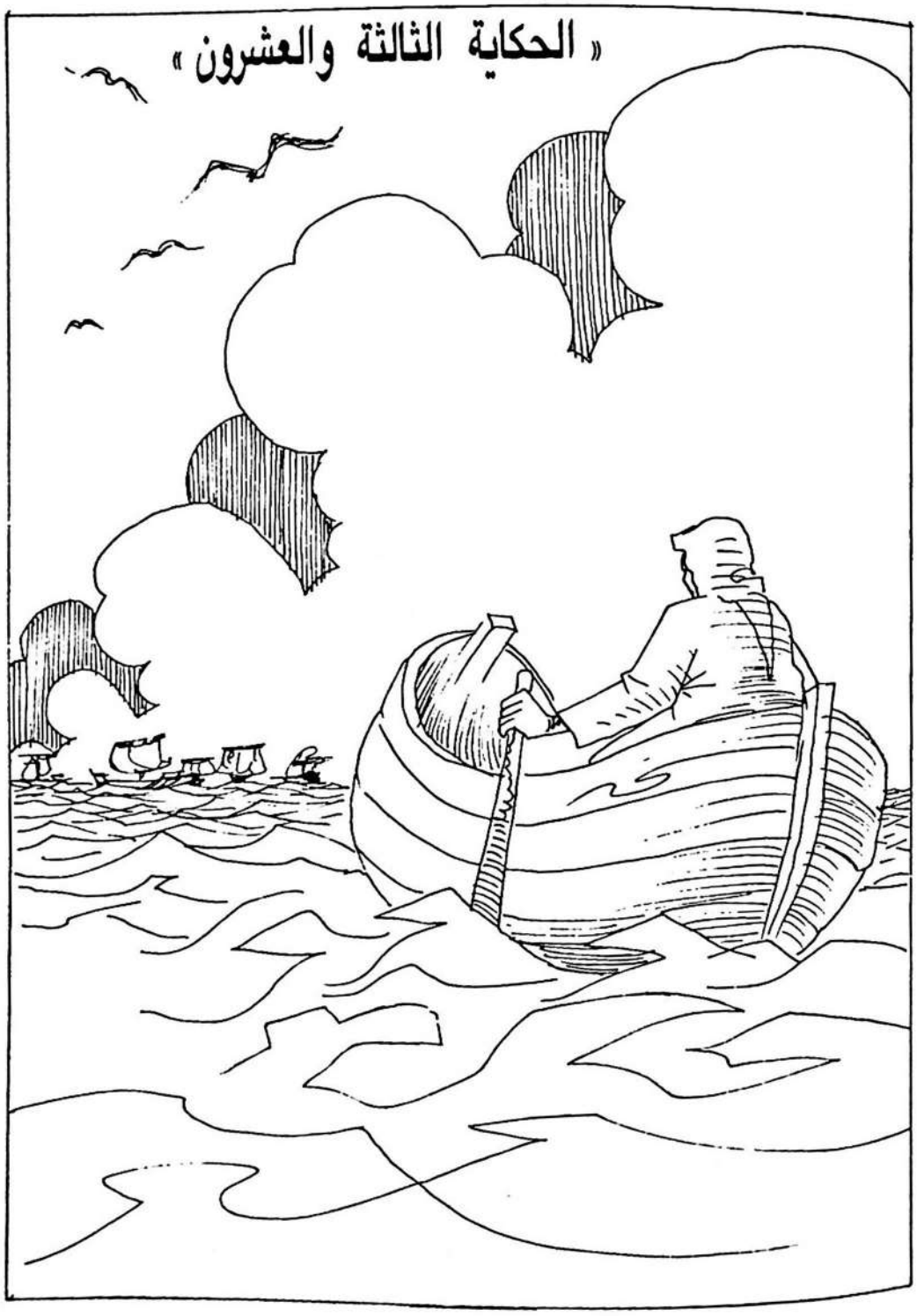
بالأمرِ، وأخيرًا خلعوا البابَ ودخلُوا، وخرجَ إليهم عثمانُ يُمَثِّلُ دورَ مَن لا عِلْمَ له بالأمرِ أحسنَ تمثيلٍ، والأميرُ بنفسِه يتقدَّمُ المفتِّشِينَ ويشتمُ كلَّ خائنٍ، ويعلمُ اللهُ أنَّ الأميرَ لا يقصدُ بهذا الشَّتمِ عثمانَ، وإنَّما يقصِدُ مَن نقلَ خبرَ عثمانَ إلى هذا العدوِّ اللَّابسِ لباسَ الصَّداقةِ، فتَّشَ البيتَ كلَّهُ والدِّيوانَ ومخابِئَ النِّساءِ، واستغرقَ التَّفتيشُ وقتًا طويلًا حتَّى أشرقتِ الشَّمسُ، ولم يجدِ المفتِّشونَ ما يُؤخَذُ به على عثمانَ.

فخابَ فألُ مَن دسَّ[1] لعثمانَ، وسُرَّ الأميرُ بنجاحِ عثمانَ، وأصرَّ على أن يعرفَ النَّاقلَ لهذا الخبر، ولم يستطع ممثِّلُ الخليفةِ إلَّا أن يُخبِرَ الأميرَ باسمهِ، وبعد مدَّةٍ اختفى ذلك الرَّجلُ الخائنُ، ولم يعرفِ النَّاسُ بعدَ ذلك له خبرًا، ولم يَرَوا في الأحياءِ له أثرًا[2].



(١) الدَّسِيس: إخفاءُ المكر. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٦/ ٨٢).

(٢) جرتْ حوادثُ هذه القصَّة في عهد المرحوم الشَّيخ سالمٍ المبارك الصُّباح.


« الحكاية الثالثة والعشرون »

﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]

قِيلَ: «يأتي من ألطافِ اللهِ ما لا يكونُ في البالِ»(١).

مِنَ الآثارِ الَّتي أثبتَها المسلمونَ ونسبَها بعضُهم إلى رسول اللهِ ﷺ كلمةُ: «**حبُّ الوطنِ مِنَ الإيمانِ**»(٢).

منذُ نشأتِ الكويتُ وعرَفَها التَّاريخُ قريةً، فبلدةً، فمدينةً، كان كلُّ فردٍ من أبنائها جنديًّا لا يحتاجُ إلى أن يقفَ في صفوفِ الجنودِ إلَّا أن يُثارَ بكلمةٍ يقولُها الرَّئيسُ الَّذي هو الأمير: إلى الجهادِ، إلى المعركةِ، فمتى نابت نائبةٌ أو طرأَ حادثٌ، كان النَّاسُ كلُّهم مدافعِينَ أو مُهاجمِينَ، ومتى صرخَ صارخٌ كانوا له مُجيبِينَ.

وقد يحدث فرحٌ، والفرحُ له مواسِمُ كالأعياد، أو له بواعثُ كنصرٍ في غزوةٍ أو عرسٍ في محلَّةٍ، وإذا حصلَ تساوَوا بالفرحةِ واشتركوا بالأُنسِ، وقد يموتُ أحدٌ أو يُصابُ، فترى أهلَ المحلَّةِ مشترِكِينَ؛ يطعمونَ الطَّعامَ ويُعَزُّونَ ويُواسُونَ.

صفاتٌ عُرِفَتْ في هذا البلدِ منذُ كُتِبَ اسمُه في البلاد العربيَّةِ،

(١) انظر: صمت النُّجوم العوالي في أنباء الأوائل والتَّوالي، للعصاميِّ المكِّيِّ (٤/ ٣٩٣).

(٢) أوردَه العجلونيُّ في كشفِ الخفاء، رقم: (١١٠٢)، وقال الصَّغانيُّ: موضوعٌ.

وظهرَ رسمُه على شاطئِ الجزيرة الشَّرقيِّ.

تتكوَّنُ الكويت في الماضي من ثلاثةِ أحياءٍ، لكلِّ حيٍّ محلَّاتٌ يموِّنُها الفرقانُ، ومفردُها فريقٌ؛ حيِّ الشَّرقِ: ويفصلُ بينَه وبينَ حيِّ القبلةِ السُّوقُ، وحيِّ المرقابِ: وتفصلُ بينَهما الصَّفاةُ.

لقد أثبتَ أهلُ الكويتِ فيما أثبتُوا مِن وقائعَ كانوا فيها الجنودَ المجهولِينَ أو الفدائيِّينَ، دَفَعُوا بأنفسِهم إلى الفناءِ؛ دفاعًا عن الوطنِ الغالي والحِمَى العزيزِ، وليحيا الشَّعبُ عزيزًا مدفوعًا عنه البلاء، وكلُّ شعبٍ يَطْلُبُ أفرادُه الموتَ تُوهَبُ له الحياةُ.

ومن هؤلاءِ الجنودِ عليٌّ، وما أدراك مَن عليٌّ! مِن أهل الكويتِ، نشأَ في أسرةٍ معروفةٍ، نُسِبَتْ إلى كحيل، وكان من أهل القبلة.

خرجَ ذاتَ يومٍ إلى البحرِ في زورقِ صيدٍ كعادةِ كثيرينَ مِن هُوَاةِ صيد السَّمكِ، وأبصرَ وهو في عرضِ البحرِ أشرعةً وقلاعًا مِن تحتِها أربعَ عشرةَ سفينةً، اقتربَ منها؛ ليتبيَّنَها، فإذا هي لِعَدُوٍّ مُغِيرٍ، والكويتُ نائمةٌ غافلةٌ لا تعلمُ بما يخبِّئُه القدرُ لها، والويلُ لها إن لم تُدرِكْها رحمةُ اللهِ القويِّ العزيزِ.

أسرعَ عليٌّ إلى الوطنِ الغالي ليُخبرَ أهلَه ليستنفروا، لكنَّ العدوَّ رأى القاربَ فوجَّهَ إليه مَن قَبضَ عليه وعلى صاحبِه، وأخذوا ما فيه من ماءٍ وطعامٍ، وقيَّدوا مَن فيه بعدَ أن عذَّبوهم وأوجعوهم ضربًا، ثمَّ تركوهم في زورقِهم في عرضِ البحرِ تتقاذفُهم[1] الأمواجُ.

(١) القَذْفُ: الرَّميُ بالسَّهمِ والحصى والكلامِ وكلِّ شيءٍ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٤/ ٢٤١).

رفعَ عليٌّ رأسَه إلى السَّماءِ متوجِّهًا بقلبِه إلى العليِّ الأعلى يسألُ اللهَ لوطنِه السَّلامةَ، ولقومِه النَّصرَ المبينَ، وأن يقوِّيَه ليخدمَ الوطنَ ويُخَلِّصَ الشَّعبَ مِن كيدِ الكائدِينَ، ثمَّ ليمتْ بعدَ ذلك.

كانَ الهواءُ ساكنًا لا يملأُ شراعًا، والقيدُ وثيقًا لا يملك عليٌّ له فكاكًا، فأسندَ ظهرَه إلى حديدةٍ في السَّفينةِ يحكُّ بها حبلَ القَيدِ؛ فالوطنُ في خطرٍ، والشَّعبُ والحاكمُ لا يدرونَ من أمرِ العدوِّ الغادرِ[١] شيئًا، والنَّاسُ غافلونَ، وهو وحدَه الَّذي يدري.

رفعَ طَرْفَه[٢] مرَّةً أخرى إلى القادرِ في سمائِه يسألُه الخلاصَ ليخلِّصَ الوطنَ من خطرٍ مُحْدِقٍ به[٣]، وجاءَ مِن لُطفِ اللهِ ما لا يخطرُ على بالٍ؛ إذِ انقطعَ الحبلُ وانفكَّ القيدُ، واستطاع عليٌّ أن يُدِيرَ دفَّةَ السَّفينةِ الصَّغيرةِ ويرفعَ الشِّراعَ، فتحرَّكَ الهواءُ، وأخذتِ السَّفينةُ الصَّغيرةُ تَمْخُرُ[٤] اليمَّ، لا تُبالي بالعدوِّ ولا بعددِه وعُدَّتِه.

ووصلَ عليٌّ إلى السَّاحلِ ظُهرًا، وأهلُ السَّاحلِ لا يعلمونَ من العدوِّ وأسطولِه شيئًا، قد أغفى الأمنُ أجفانَهم، حتَّى حاكمُ الكويتِ قد نامَ، ولكنَّ عليًّا لم يطلبِ الرَّاحةَ وهو المحتاجُ إليها، وذهب

(١) غادِر: لا عهدَ له. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٥/ ٨).
(٢) الطَّرْفُ: العَينُ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٤/ ٦٩).
(٣) محدق: كُلُّ شيءٍ استدارَ بشيءٍ وأحاطَ به فقد أحدقَ به. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٠/ ٣٨).
(٤) مَخَرَتِ السَّفينة: جرتْ تشقُّ الماءَ معَ صوتٍ، أو استقبلت الرِّيحَ في جريِها. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٤/ ٩١).

يُسرِعُ الخُطا إلى قصر الأميرِ وهو الجائعُ الظَّامِئُ، فاستأذنَ عليه فلمْ يُؤذَنْ له؛ لأنَّ الوقتَ وقتُ راحةٍ، ولكنَّه ألحَّ ورفعَ صوتَه، فسمعَه مُباركٌ، فاستيقظَ من نومِه، وعرفَ صوتَ عليٍّ، وعليٌّ غيرُ مجهولٍ، فأَذِنَ له بالدُّخول، وقصَّ عليه القصَّةَ، وضَحِكَ مباركٌ من غفلتِه الَّتي كادتْ تمحو أثرَ الكويتِ وتقضي عليه وعلى آله.

وبعد أن فَرَغَ عليٌّ أُغمِيَ عليه مِن تعبٍ وجوعٍ وعطشٍ، فأسعفَه مبارَكٌ بنفسِه، ولَمَّا استيقظَ مِن غشيتِه قالَ مباركٌ: يا عليُّ! أرِني الدَّليلَ على صدقِ قولِك، إنَّه لم تداخلْني فيكَ ريبةٌ، لكن ليس ثمَّةَ ما يُشعرُني أو يُظهِرُ لي خبرَ مثلِ هذا الغزوِ لا من قريبٍ ولا من بعيدٍ!

فكَشَفَ عليٌّ عن ظهرِه وبعضِ أجزاءِ بدنِه، وإذا عليه أثرُ الضَّربِ والتَّعذيب، وبعثَ به إلى أهلِه عزيزًا مكرَّمًا.

أصبحَ اليومُ التَّالي، وأقبل العدوُّ بأسطولِه وعددِه وعُدَّتِه، فأبصرَ السَّاحلَ يموجُ بالرِّجالِ، وعلم أنَّ أمرَه قد انفضحَ، وهجومَه على هذا العددِ من الرِّجال الْمُدافعِينَ لا يُعِزُّهُ، بل سيعودُ عليه بالنَّقصِ والإخفاق، وعضَّ أصابعَه ندمًا على أن تركَ عليًّا يعودُ إلى الكويتِ وهو يعرفُ أنَّ الكويتيَّ يُفَضِّلُ وطنَه على نفسِه وولدِه والنَّاسِ أجمعِينَ.

وخابَ العدوُّ، وسَلِمَ الوطنُ والحاكمُ والمحكوم من الخطرِ، وأخذوا حذرَهم، وحزمُوا أمرَهم.

وعاش عليٌّ بعدَ هذا الحادثِ أكثرَ من أربعِينَ عامًا حتَّى انحنى ظهرُه وابيضَّ شعرُه، وضَعُفَتْ قواه، ورأى الكويتَ آمِنَةً مطمئنَّةً يأتيها

رزقُها رَغَدًا[١]، وأنَّ ذلك كلَّهُ يعودُ إلى تلك المنَّةِ الَّتي أسداها لهذا الوطنِ الصَّغيرِ بأرضِه الكبيرةِ، وبمكانتِه في قلوبِ بَنِيهِ.

وعليٌّ يقولُ في نفسِه: إنَّها ليست منَّةً، وإنَّما حقُّ الوطنِ على ابنِه، وحمدَ اللهَ وأثنى عليه، وماتَ بعد ذلك قريرَ العينِ مطمئنًّا إلى أنَّ اللهَ جلَّ جلالُه أنعمَ عليه بالقوَّةِ وأيَّدَه بالنَّصرِ وأمدَّه بالتَّوفيقِ، وبقي أبناؤه وأحفاده يتناقلُونَ قصَّةَ هذا الجنديِّ المجهولِ، قصَّةَ جَدِّهِمْ جيلًا بعدَ جيلٍ، وهم يفخرونَ بما كان عليه الْجَدُّ، ويتواصَونَ أن يسيرَ الابنُ على نهجِ أبيه[٢].



(١) رغدًا: واسعًا طيِّبًا. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٨/ ١٠٦).

(٢) بطل هذه القصَّة عليُّ بن سليمان بو كحيلٍ، جدُّ الأُسرة المعروفة بـ: (بو كحيل)، وكانت حوادثُها في عهد المرحوم الشَّيخ مباركٍ الصُّباح، وقد ذكرَها الشَّيخُ عبدُ العزيز الرشيد في كتابه تاريخ الكويت، وما كتبَه هُنا روايتُه عن المرحوم أحمد الفهد الخالد.


« الحكاية الرابعة والعشرون »

﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المَائدة: ٧٩]

وُجِدَ اليهودُ في الكويتِ منذُ بدأتْ تعمرُ أسواقُها، وهم طُلَّابُ مادَّةٍ لا يتورَّعُونَ[1] في سبيل استحصالِها عن دناءةٍ، بل ربَّما بذلوا في سبيل نيلِها العِرضَ.

وكان فيهم التَّاجرُ والصَّرَّاف والعاملُ والصَّانعُ والصَّائغ، واختلفتْ تجارتُهم؛ فتاجروا بالأقمشةِ والحبوبِ والأخشابِ وحتَّى الخضار، وبرزَ فيهم المغنِّي والعوَّاد، ولهم في كلِّ مكسبٍ كاسبٌ، وانفردوا في تقطير الخمور، وفيما يرغبُ به الشَّبابُ من رذائلَ، وكانت هذه المهنةُ سرِّيَّةً، عرَفَها زبائنُها عندَ مَن امتهنُوها.

وعادتُهم في السَّكَنِ أن يتجمَّعوا حولَ بعضِهم في أزقَّةٍ ضيِّقةٍ، ومحلَّاتٍ خاصَّةٍ بهم، ولهم معبدُهم الخاصُّ، يتجمَّعونَ فيه أوقاتَ عبادتِهم، ولا سيَّما يومَ السَّبتِ.

ومضت أجيالٌ وهم آمنونَ على أنفسِهم وأموالِهم وأعمالِهم حتَّى دخلتْ سنةُ (١٩٢٧م)، إذ بلغَ عددُ دورِهم المئةَ، وكلُّهم يتكسَّبُ؛ ذَكَرُهم وأُنثاهم وصغيرُهم وكبيرُهم.

(١) تورَّعَ عن كذا: أي تحرَّجَ. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٨/ ٣٨٨).

وكان السَّبتُ يومَ كَسادٍ[١] في الأسواقِ؛ لعطلةِ اليهودِ فيها، وأنشطُ الأيَّامِ في السُّوقِ يومُ الجمعةِ؛ لأنَّ النَّاسَ يحسبونَ ليومِ السَّبتِ حسابًا، فينشطُ السُّوقُ، ويَكثُرُ فيه البائعُ والشَّاري، والمستوفي والموفِّي.

وبدأت قضايا فلسطينَ سنةَ (١٩٢١م) في حيفا، وظهر أثرُها سنةَ (١٩٢٦و١٩٢٧م)، إذ إنَّ اليهودَ منذُ القِدَمِ مكروهونَ وإن كانوا يساكنونَ العربَ في أوطانِهم؛ لأنَّهم مهما أظهروا مِن وُدٍّ فلن يستطيعوا أن يمتزجوا معَ غيرِهم من اليهود، وهذا ما أمرَهم به تلمودُهم الْمُقَدَّسُ.

واليهوديُّ يعدُّ نفسَه من شعبِ اللهِ الْمُختار، ومَن سواه حيواناتٍ خُلِقَتْ للذِّلَّةِ والاستعبادِ والقتلِ، ومَن كان هذا شأنُه لا يمكنُه أن يَصْدُقَ في صداقتِه لغيرِه، ولا يستطيعُ أن يُخْلِصَ لِمَنْ هو دُونَه، وهذا ما جعلَ اليهوديَّ يعتزلُ غيرَ جنسِه إلَّا في سبيل المصلحةِ والنَّفْعِ، وإذا أحسنَ اليهوديُّ المعاملةَ أو صدقَ فيها فإنَّ ذلك لاستجلابِ مصلحةٍ أو دفعِ ضررٍ.

بدأَ أثرُ بُغْضِ اليهودِ للعربِ يظهرُ، والْمُناوشةُ[٢] تشتدُّ بينَهم في القدسِ، ويافا المجاورة لتلِّ أبيب، وحيفا، وكانت المذبحةُ الكبرى في الخليل الَّتي ذهبَ ضحيَّتَها مئاتٌ من اليهودِ والعربِ.

---

(١) كساد: أي لم يَنْفُقْ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٩/ ١٠٨).

(٢) المناوشةُ: في القتال، وتُقالُ للرَّجلِ إذا تناول رجلًا ليأخذ برأسِه ولحيتِه. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٦/ ٣٦٢).

كشفت بريطانيا عن عدائها للعربِ، ووقفتْ في صفِّ اليهودِ تقتلُ المسلمِينَ رجالًا ونساءً، وقد سلبتْ ما سلبت، ونفتْ وشرَّدتِ الألوفَ ممَّنْ جاهرَ بعداءِ اليهود وحربِهم، وفي كلِّ هذا كانت الكويت تُقَاوِمُ اليهودَ وتُبعِدُهم عنها.

كان يومئذٍ أحمدُ الجابر الصُّباح، الحاكمَ العاشرَ للكويتِ مِن ذُرِّيَّةِ صُباحٍ الأوَّلِ الَّذي بدأ حكمُه سنةَ (١٣٣٩هـ)[١]، وانتهى سنةَ (١٣٦٩هـ)[٢]، وكان أمنُ الكويتِ وإدارتُها الدَّاخليَّةُ بيدِ عبدِ اللهِ بنِ جابر بن عبد الله بن صُباحٍ الثَّاني، وهو ابنُ عمِّ الحاكمِ وزوجُ ابنتِه.

أهانَ عبدُ اللهِ الجابر اليهودَ منذُ سنة (١٩٢٧م) على أقلِّ بادرةٍ سيِّئةٍ تبدرُ من أحدِهم، فكان يأتي باليهوديِّ فيحاكمُه، فإذا ثبتَ جرمُه ضاعفَ عقوبتَه، واليهوديُّ لا بدَّ أن يُجرِمَ؛ لأنَّ طبيعتَه الإجرامُ، فإذا عادَ مُجرِمًا نفاهُ.

واشتدَّتْ يدُ عبدِ اللهِ الجابر عليهم، وأخذَ بخناقِهم وإيذائِهم، فلا يخلو أسبوعٌ من نفيِ أُسرةٍ وإيذاءِ أشخاصٍ، وعُرِفَ عن بعضِهم بأنَّهم مُضطَهَدُونَ[٣]، صفُّوا أعمالَهم ورحلوا، وكان لكثيرٍ منهم دورٌ وعقارٌ باعوه بأبخسِ الأثمانِ؛ فرارًا بالمالِ والنَّفْسِ.

أوَّلُ يهوديٍّ أُبْعِدَ مِن الكويتِ سنةَ (١٩٣٠م)، وآخرُ يهوديٍّ أُبْعِدَ منها سنةَ (١٩٣٦م).

---

(١) أي: سنة (١٩٢٠م).

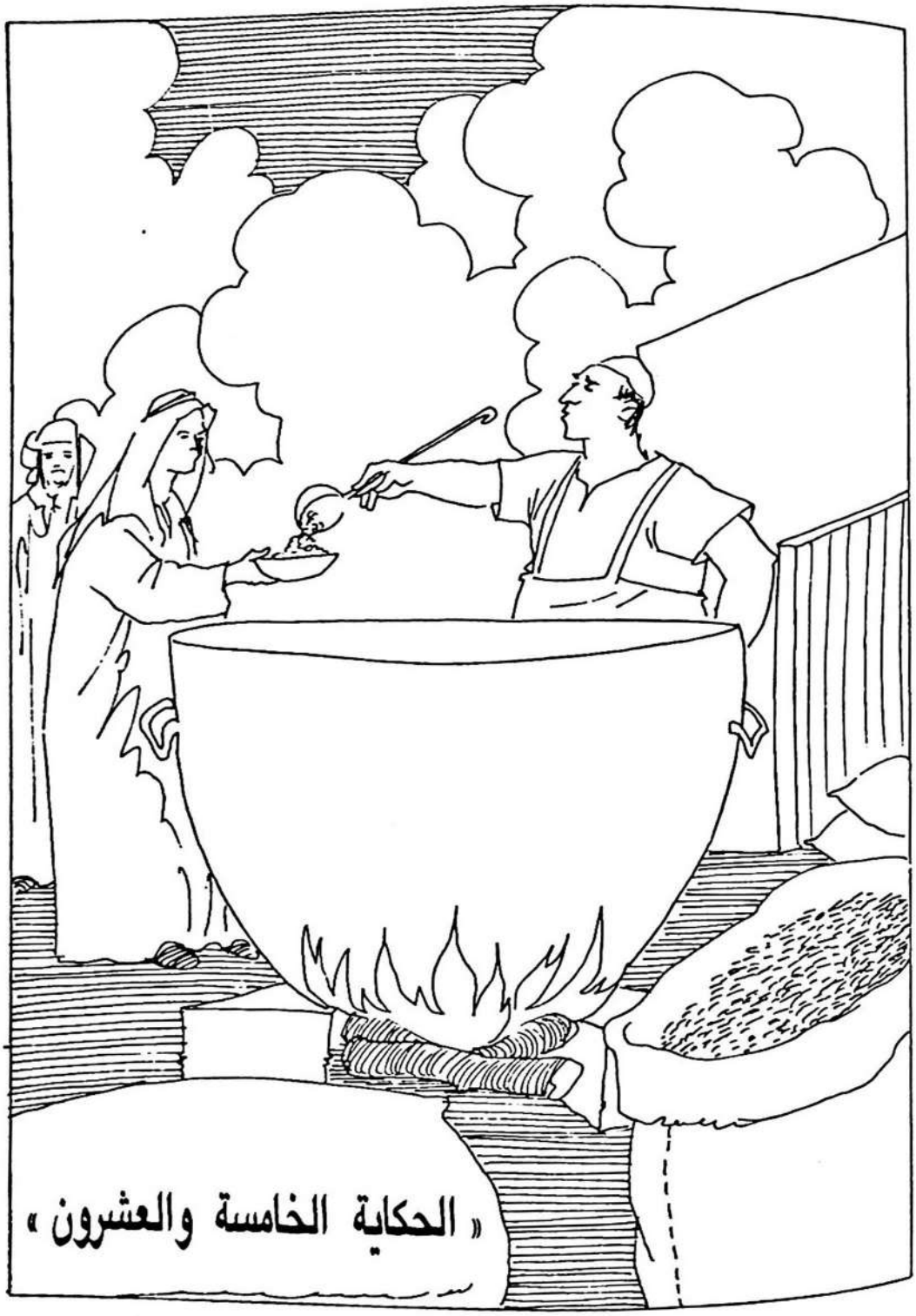
(٢) أي: سنة (١٩٤٩م).

(٣) مضطهَدونَ: مغلوبونَ مقهورونَ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٨/ ٣١٧).

استراحت الكويتُ بعد ذلك من اليهودِ، وعاشت حتَّى يومِنا هذا طاهرةً منهم، تقيَّةً من رِجْسِهم[١]، سالِمَةً من فتنتِهم، آمِنَةً من فسادِهم وإفسادِهم[٢].



(١) الرِّجسُ: المأثَم. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٦/ ١١٥).
(٢) لقد عايشتُ هذه الحوادث؛ لأنِّي كنت كاتبًا لعبد الله الجابر الصُّباح منذُ سنة (١٩٣٥م) إلى سنة (١٩٥٦م).


« الحكاية الخامسة والعشرون »

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾

[الإنسان: ٨-٩].

وصفَ اللهُ عبادَه الأنصارَ في المدينة المنوَّرة بأنَّهم يُؤْثِرُونَ[١] على أنفسِهم ولو كانَ بهم خَصَاصَةٌ[٢]، فقال جلَّ شأنُه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

ضاقَتِ الأرضُ بأهل الكويت تلك السَّنةَ جوعًا وعُرْيًا، وحصلتْ في العالَمِ مجاعاتٌ شديدةٌ اضطرَّ النَّاسُ فيها إلى بيعِ بناتِهم في الأسواقِ مقابلَ لقمةٍ يخفِّفُ بها الإنسانُ جوعتَه أو يسدُّ رمقَه[٣].

وفي الخليجِ حصلتْ مجاعاتٌ شديدةٌ، أشدُّها تلكَ المجاعةُ الَّتي بدأتْ سنةَ (١٢٨٥هـ)[٤]، واستمرَّتْ حتَّى (١٢٨٨هـ)[٥]، وسُمِّيَتْ

(١) آثَرَ: اختارَ وفضَّلَ وقدَّمَ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٠/ ٢٠).
(٢) الخَصَاصَةُ: الخَلَّةُ والفَقْرُ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٧/ ٥٥٣).
(٣) الرَّمَقُ: بقيَّةُ الحياة. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٥/ ٣٦٣).
(٤) أي: سنة (١٨٦٨م).
(٥) أي: سنة (١٨٧١م).

الهيلك، ولعلَّها كلمةٌ جاءتْ من الهلاكِ، دارتْ على ألسنةِ النَّاسِ، فأُبدِلَت فيها الكافُ جيمًا مصريَّةً أو قافًا مُخَفَّفَةً، ولا أعلم من أين جاؤوا بهذا اللَّفظِ!

امتدَّتِ المجاعةُ إلى بلادٍ شاسعةٍ هي ما بينَ أواسطِ الفُراتِ في العراق حتَّى الأحساءِ في الجنوبِ، وكذلك البلاد الواقعة على السَّاحل الشَّرقيِّ في الخليج العربيِّ، وقد أكلُوا في تلكَ المجاعةِ دماءَ البهائمِ وجلودَها ومِيتَتَها.

وكان الأغنياءُ في الكويتِ يُشرِكُونَ الفقراءَ في طعامِهم، ويؤثرونَ على أنفسِهم المواطنَ قبلَ غيرِه من النَّاسِ، «**والأقربونَ أَولى بالمعروفِ**»[1] وأحقُّ به، واشتُهِرُوا بهذه الصِّفةِ بينَ النَّاسِ.

اشتُهِرَ من النَّاسِ في ذلك العهدِ رجلانِ، هما: يوسُفُ بْنُ بدرٍ، ويوسُفُ بْنُ صُبَيحٍ، اتَّخَذَ كلٌّ واحدٍ منهما بيتًا يطبخُ فيه الرُّزَّ، ويُطعِمُه للفقراءِ والجائعِينَ، ويُجَهِّزُ فيه الموتى بما يحتاجونَ إليه من تجهيزٍ.

وقبلَ سنةِ المجاعةِ هذه كانَ الأميرُ جابرٌ الأوَّلُ بْنُ صُباحٍ الأوَّلِ يُطعِمُ الفُقراءَ، وقد عملَ مضافةً كبيرةً طبخَ فيها الرُّزَّ - يُسمَّى في الكويت العيش - لإطعامِ الفُقراءِ، وسُمِّيَ بعدَ ذلك جابرًا العيش.

وفي سنةِ (١٩١٤م) وقعتِ الحربُ العُظمى، وحُوصِرَ كثيرٌ من البلاد، وسنةَ (١٩١٦م) حصلتْ مجاعاتٌ شديدةٌ لا سيَّما في العراقِ وسوريَّةَ، مدَّتِ الكويتُ آنَذاكَ المعونةَ لسوريَّةَ ولبلادٍ غيرِها من

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، رقم: (٤٨٦).

الأطعمةِ المستوردةِ بِسُفُنِ الكويتِ من الهند وإفريقيَّة.

ومعَ هذا كلِّه من الخيراتِ الَّتي كانت تستوردُها سفنُ الكويتِ وتُصَدِّرُها، وعدمِ سلامةِ بعضِ النَّاسِ فيها من المجاعةِ؛ بسبب البطالةِ[1] الَّتي اشتدَّتْ وطأتُها[2] على بلادِ النَّاس جميعِها، إلَّا أنَّه لم يَبِتْ فيها أحدٌ جائعًا؛ فلن يجوعَ فقيرٌ وفي المحلَّةِ غنيٌّ.

لقد جادَ الأجوادُ بما مَنَّ اللهُ عليهم من الخيرِ، وآسَوُا[3] الضُّعفاءَ، وأطعموا الجياعَ، وكَسُوا العُراةَ، وتفقَّدوا مَن ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٣]، فأرسلوا إليهم بالدَّراهمِ والطَّعامِ بلا مَنٍّ ولا أذًى.

من أولئكَ الأجوادِ حمدٌ بْنُ عبدِ اللهِ الصَّقرُ، فقد تصدَّقَ يومًا من الأيَّامِ بشحنةِ سفينةٍ من الرُّزِّ، تفقَّدَ فيها أهلَ الحاجةِ، فأنفقَها عليهم في يومَينِ اثنَينِ، ولم يُتبعْ ما أنفقَ على مواطنيه منًّا ولا أذًى، ووجدَ - ولا شكَّ - ذلك عندَ اللهِ، ولو أردْنا أن نُحصِيَ أهلَ الفضلِ في أوقاتِ المِحَنِ لَمَا قَدِرْنا؛ لأنَّهم كثيرونَ، ولا أُبالِغُ إذا قلتُ: إنَّهم الجُلُّ، وإنَّ الشَّحِيحَ فيهم قليلٌ.



(١) البطالة: اتِّباعُ اللَّهْوِ والجهالة. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٨/ ٩١).
(٢) الوطْأَةُ: الأَخْذَةُ الشَّديدة. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١/ ٤٩٣).
(٣) آسَوا: من المواساة. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٧/ ٧٧).


(الحكاية السادسة والعشرون)

قال أبو الطَّيِّب المتنبِّي:

لَا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيْعُ مِنَ الْأَذَى حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ(١)

الكويتُ بلدٌ بحريٌّ يعتمدُ في دَخْلِهِ القوميِّ البحرَ، وقد قلنا في حكاياتٍ سابقةٍ: إنَّ العملَ في البحر ينقسم إلى أقسامٍ ثلاثةٍ: صيد السَّمك، والغوص، والملاحة التِّجاريَّة.

وحُكَّامُ الكويتِ منذُ بدأَ حُكمُهم لم يطمعْ أحدُهم يومًا ما في مالِ مواطنٍ، وإنَّما كان موردُ الإمارةِ من رسومٍ تُفرَضُ على الغوَّاصِ صاحبِ سفينةِ الغوصِ، وعلى ما تستوردُه البلادُ من بضاعةٍ للتِّجارة تُؤخَذُ رسومُها من المستورد نفسِه.

ومن عادةِ شيوخِ الكويتِ أن يستخدموا مِن خَدَمِهم مَن يقبضُ هذه الرُّسومَ الَّتي لا تزالُ حتَّى يومِنا هذا أربعةً في المئةِ من رأسِ المالِ، تؤخَذُ مِن كلِّ بضاعةٍ تَرِدُ إمَّا عينًا وإمَّا نقدًا، ما عدا بعض الأغذيةِ؛ كالحنطة والشَّعير والسَّمن ومنتجات الألبان والفواكه، وتُؤخَذُ هذه الرُّسومُ أيضًا على الصَّادرِ رسمًا مُسمًّى على كلِّ حملِ بَعِيرٍ.

وفي عهد الشَّيخِ صُباحِ بْنِ جابرٍ تولَّى هذه الوظيفةَ خادمٌ أسودُ، يُقالُ له: عنبرٌ، مُعجَبٌ بنفسِه، مغرورٌ بوظيفتِه، يرى في نفسِه أنَّه

(١) انظر: جواهر الأدب في أدبيَّات وإنشاء لغة العرب، للمصطفى الهاشميِّ (٢/ ١٩٧).

أعلمُ النَّاسِ، ولم يُوَلِّهِ - في نظرِه - سيِّدُه هذه المهمَّةَ إلَّا لأنَّه خيرُ النَّاسِ.

وفي أحد الأيَّامِ هيَّأَ جماعةٌ من التُّجَّارِ قافلةً تجاريَّةً إلى نجدٍ محمَّلةً بأصنافِ البضائعِ من حبوبٍ وسُكَّرٍ وأقمشةٍ، وطلبَ المسؤولونَ في هذه القافلةِ إلى عنبرٍ إكمالَ المعاملةِ لتسييرِها قبلَ فواتِ الفرصة، إلَّا أنَّ عنبرًا لم يلتفتْ إلى هذا الطَّلبِ ولم يُعطِهِ اهتمامًا.

والقافلةُ في ذلك الزَّمنِ مكوَّنةٌ من الإبلِ ومن حيواناتٍ تحتاجُ إلى عَلَفٍ[1] وماءٍ، وبقاؤُها يُضِرُّ، ورُبَّما جرَّ إلى الخسارةِ، وألحَّ المسؤولونَ على عنبرٍ أن يُسهِّلَ لهم الأمرَ، ويُصرِّحَ لهم بالمسيرِ، ولكنَّ عنبرًا لم يلتفتْ إليهم، ولم يُعطِهم موعدًا للتَّصريحِ لهم بالسَّفرِ.

اشتكى بعضُهم إلى عبدِ اللهِ العنقريِّ؛ الكائنِ مِن كبارِ وُجهاءِ الكويتِ يومئذٍ، فجاءَ عبدُ الله إلى عنبرٍ يرجوهُ أن يُسرِعَ بأخذِ الرُّسومِ، ويُسَهِّلَ أمرَ القافلةِ، لكنَّ عنبرًا رأى مِن تدخُّلِ عبدِ اللهِ في شؤونِه إهانةً له، فثارَ في وجهِه، وشتمَهُ، وتوعَّدَهُ بالإيقاعِ به.

وفي عصرِ ذلك اليومِ تعمَّدَ عنبرٌ أن يَلقَى عبدَ اللهِ في الطَّريقِ وحيدًا، وفعلًا لَقِيَهُ وضَرَبَهُ بعصًا كانت بيدِه ضربًا شديدًا أثَّرَ في جسمِه.

---

(١) العَلَفُ: ما تأكلُه الماشيةُ، أو هو قوتُ الحيوان. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٤/ ١٨١).

عَلِمَ التُّجَّارُ بما جرى لعبدِ اللهِ، ورفعوا الأمرَ إلى صُباحٍ، ولسانُ حالِهم يقولُ كما قال الوزيرُ أبو الوليدِ بنُ طريفٍ:

مَنْ حُلِقَتْ لِحْيَةُ جَارٍ لَهُ فَلْيَسْكُبِ الْمَاءَ عَلَى لِحْيَتِهْ[1]

وقالوا له: إن كانَ عنبرٌ قد وصلَ به غرورُه إلى أن يضربَ كبيرَنا وأوجَهَنا عبدَ اللهِ العنقريَّ فلسنا نأمنُ يومًا أن يضربَنا، ورجاؤُنا من طويلِ العمرِ أن يَعزِلَ هذا الرَّجُلَ، ويُبعِدَهُ مِن البلادِ.

لم يَهُنْ على صُباحٍ نَفْيُ خادِمه، وقال للشَّاكِينَ: لكم عليَّ عزلُه وسجنُه.

فقالوا: لا نرضى إلَّا بِنَفْيِه.

فقالَ: لكم عليَّ عزلُه وسجنُه.

قالوا: إذنْ نُغادِرُ البلدَ، وبلادُ اللهِ واسعةٌ.

قال صُباحٌ: تركُ الوطنِ أمرٌ صعبٌ، أسهلُ منه فراقُ الوالدِ والولدِ!

قالوا: النَّارُ ولا المذلَّةُ، ولا يرضى بالذُّلِّ إلَّا الحِمارُ، ولا يُقادُ إلى الخَسْفِ[2] إلَّا الهجينُ[3].

ومعَ ذلك كلِّهِ كرَّرَ صُباحٌ كلمتَه قائلًا للقومِ: لكم عليَّ عزلُه

(١) انظر: نفح الطِّيب من غصنِ الأندلسِ الرَّطيب، وذكر وزيرِها لسان الدِّينِ بنِ الخطيب، للمَقَّرِيِّ التِّلمسانيِّ (٣/ ٤٢٩).

(٢) الخَسْفُ: النَّقيصة. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٣/ ٢٠١).

(٣) الهَجِينُ: اللَّئيمُ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٦/ ٢٧٣).

وسجنُه، ولا شيءَ غير ذلك.

فتركَ التُّجَّارُ المجلسَ، وقد صمَّموا على الهجرةِ.

كانَ محمَّد بْنُ صُباحٍ حاضرًا هذا الجدلَ بينَ أبيهِ أميرِ البلادِ وَوُجَهاءِ بلدِه من التُّجَّارِ، وقد عَلِمَ بالإهانة الَّتي لَحِقَتْ بالوجيهِ الْمُسِنِّ عبدِ اللهِ العنقريِّ، فشقَّ عليه الأمرُ، ونهضَ إلى عنبرٍ وهو في عملِه، وانتقمَ لعبدِ اللهِ العنقريِّ.

فقد ضربَ محمَّدٌ بْنُ صُباحٍ الخادمَ حتَّى أدماهُ، فقالَ العبدُ: قتلتَني يا عمُّ!

قالَ: مُتْ فداءً لثلاثِينَ مِن وُجهاءِ بلدي، ووجيهٍ أُهِينَ ولم يُنتقَمْ له، ولِي أمرُه.

لم يَلبَثِ الخادمُ عنبرٌ بعدَ ذلك أن ماتَ، وبموتِه سكنتِ الزَّوبعةُ[1]، ورَضِيَ وُجهاءُ البلدِ، ورضيَ عبدُ اللهِ أسنُّ الوُجهاءِ وأوجهُهم، وشكرَ النَّاسُ لِمُحَمَّدٍ فعلتَه حينَ أرضى مواطنيه، وأحسَّ حينئذٍ صُباحٌ بِخَطَئِهِ تجاهَ مواطنيهِ، واعتذرَ إليهم، ولكنْ بعدَ فَواتِ الأَوانِ[2].



(١) الزَّوبعةُ: ريحٌ تدورُ في الأرضِ، لا تقصِدُ وجهًا واحدًا، أُخِذَتْ من التَّزَبُّعِ، وهو سوءُ الخُلُقِ وقلَّةُ الاستقامة. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٨/ ١٤٠).

(٢) ذكرَ هذه الحكايةَ المرحومُ الشَّيخُ عبدُ العزيز الرَّشيد في تاريخه مُجْمَلَةً.


(الحكاية السابعة والعشرون)

مِن مأثورِ القولِ: نعمتانِ محسودٌ عليهما كثيرٌ من النَّاسِ: الصِّحَّة في الأبدان، والأمن في الأوطان[١].

بالأمنِ تنامُ العَينُ، وتطمئنُّ النَّفْسُ، ويهدأُ البالُ، ويستقرُّ الحالُ، ويشبعُ الجائعُ، ويرتوي الظَّامِئُ، ويعملُ العاملُ، ويكسبُ التَّاجِرُ، وينتشرُ النَّاسُ في الأرضِ، يبتغونَ من فضلِ اللهِ خيرِ الرَّازقِينَ، وبه امتنَّ اللهُ على أهلِ مكَّةَ بأنْ ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قُرَيش: ٤].

وفي يومٍ من أيَّامِ الرَّبيعِ الْمُشرِقَةِ في الكويت سنةَ (١٢٨٠هـ)[٢] وَلِيَ الحُكمَ فيها صُباحٌ الثَّاني، بعدَ وفاةِ أبيه جابرٍ الأوَّلِ، وقد بدأَ هذا البلدُ الطَّيِّبُ تتَّسِعُ رُقعَتُهُ[٣]، ويخرجُ عن نطاقِ سورِه شرقًا وغربًا، وقد أَخضَرَتِ المرابعُ[٤]، واسترعى الباديةَ كثيرٌ من العربِ بسوائمِهم[٥].

(١) لم أقف عليه ولم أجده فيما توفر لي من مصادر.

(٢) أي: سنة (١٨٦٣م).

(٣) الرُّقعَةُ: قطعةٌ من الأرضِ تلتزِقُ بأخرى. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢١/ ١٢١).

(٤) المَربَع: الموضعُ الَّذي يُنزَلُ فيه أيَّامَ الرَّبيع. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٨/ ١٠٤).

(٥) السَّائمة: الإبلُ الرَّاعية. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٢/ ٤٣١).

وفي مثل هذه الحالِ قد يخافُ النَّاسُ من انتشارِ البادي ودخولِ الغريبِ في الأسواقِ، فرأى صُباحٌ في أخيه دعيج بْنِ جابرٍ الرَّجُلَ الحازمَ الَّذي ليسَ أحدٌ غيرُه يصلحُ لأن يتولَّى حمايةَ البلدِ مِن مُتَسَلِّلٍ أو مُرجِفٍ[١] أو مُخِلٍّ بالأمنِ، فهوَ أَولى بأن يكونَ الأمينَ على الأمنِ، فيأخذَ على يدِ العابثِ، ويردعَ[٢] المعتديَ، «**والله ما يَزَعُ اللهُ بسلطانٍ أعظمُ ممَّا يزعُ[٣] بالقرآنِ**»[٤].

واستشارَ في الأمرِ أولي الرَّأيِ فاتَّفقوا على أنَّ دعيجًا أهلٌ له، وما لهذا خيرٌ منه.

وَلِيَ دعيجٌ الأمنَ، فأيقظَ النَّائِمَ نهارًا، وأنامَ السَّاهِرَ ليلًا، وأشغلَ العاطِلَ، وشجَّعَ العامِلَ، ورَدَّ الحقوقَ المغصوبةَ إلى أهلِها، وأصبحَ النَّاسُ منذُ وَلِيَ دعيجٌ الأمنَ في البلادِ يسعدونَ باستقرارٍ قد لا يجدونَ مثلَه في بعض أيَّامِ الرَّبيعِ، أو أيَّامِ التفافِ البوادي على مياه الكويت، أو قدوم البوادي على أسواقها، يمتارون[٥] مَيْرَهُم، ويبيعونَ نماءَهم

(١) المُرْجِف: الَّذي يولِّدُ الأخبارَ الكاذبةَ الَّتي يكونُ معَها اضطرابٌ في النَّاس. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٣/ ٣٢٥).

(٢) ردَعَهُ: كفَّهُ ورَدَّهُ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢١/ ٨١).

(٣) أي: مَن يكُفُّ عن ارتكاب العظائم مخافة السُّلطان أكثرُ ممَّن يكُفُّه مخافة القرآن والله تعالى، يُقال: وزعه وزعًا: إذا كفَّه ومنعه. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٥/ ١٨٠).

(٤) أوردَه المتَّقي الهندي في كنز العمَّال، رقم: (١٤٢٨٤).

(٥) المَوْرُ: الاضطرابُ والجريانُ على وجهِ الأرضِ، والتَّحرُّكُ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٤/ ١٥٢).

أو حاصلَهم، ويبتاعونَ بثمنِها ما يحتاجونَ.

حكى النَّاسُ عن دعيجٍ حكاياتٍ تشبهُ الأساطيرَ[١]؛ فقد كان الرَّجلُ يحملُ بيدِه عصًا قصيرةً ذاتَ رأسٍ تُسمَّى عُجْرَةً، وربَّما وجدَ بعدَ شروقِ الشَّمسِ نائمًا في ظلِّ جدارٍ أو شجرةٍ، ضربَهُ بهذه العُجْرَةِ، فأذهبَ عنه كسلَه، وجعلَ منه الشَّابَّ النَّشيطَ العاملَ لمستقبلِه، الحريصَ على كسبِ رزقِه، الَّذي ضَحِكَ له الزَّمانُ بعدَ تلك الضَّربةِ، فبرزَ في المجتمعِ، وابتسم له الحظُّ.

وربَّما مرَّ بعُمَّالٍ فرأى فيهم الكَسِلَ أو المتكاسِلَ، فانبعثَ فيه النَّشاطُ بضربةٍ من هذه العُجْرَةِ، فلا يجدُ بعدَها كسلًا.

وفي ليلةٍ من ليالي دعيجٍ وقد أخذَ يجوبُ[٢] سككَ البلدِ، مرَّ ببيتٍ وجدَ بابَه مفتوحًا، ومن العجبِ أن يكونَ في مثلِ هذا الوقتِ بابٌ مفتوحٌ! فأطلَّ برأسِه داخلَ البيتِ، فرأى شابَّةً تُداوِي عنزةً لها مريضةً، فسعلَ لِيُشعِرَها بوجودِه، ولكنَّ الشَّابَّةَ خافتْ والتفتتْ قائلةً: من؟

قالَ: أنا دعيجٌ، أينَ زوجُكِ يا بنتُ؟

قالتْ: إنَّه خرجَ يُصلِّي العشاءَ ولم يَعُدْ حتَّى الآنَ.

قالَ دعيجٌ: قد انتهتِ الصَّلاةُ وأُغلِقَتِ المساجدُ منذُ ساعةٍ، فأينَ

(١) الأساطير: الأباطيلُ والأكاذيب، والأحاديثُ الَّتي لا نظامَ لها. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٢/ ٢٥).

(٢) يجوبُ: يقطعُ ويخرق. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢/ ٢٠١).

ولَّى زوجُكِ وتركَكِ وحدَك؟ وماذا تعملينَ؟

قالتْ: إنَّ العنزةَ لم تأكلْ شعيرَها، ولم تشربْ ماءَها، ولكنْ قُلْ لي باللهِ عليك ما الَّذي أتى بك إلى هنا وماذا تريدُ؟

قالَ: أريدُ أن أعرفَ أين ذهبَ عبدُ اللهِ زوجُكِ؟ وأنا المسؤولُ عنكِ وعَن غيبتِه عن بيتِه في مثلِ هذه السَّاعة.

وكانَ عبدُ اللهِ زوجُ المرأةِ خلفَ دعيجٍ يسمعُ كلامَه، ويرتجفُ خوفًا من عجرةِ دعيجٍ؛ لأنَّه أتى في ساعةٍ متأخِّرةٍ، قال عبدُ الله: هأنذا يا طويلَ العمرِ.

قال له دعيجٌ: أين كنتَ؟

قالَ: بعدَ أن صلَّيتُ العِشاءَ ذهبتُ إلى دكَّاني لأُحْضِرَ أمانةً أودعَني إيَّاها بدويٌّ نسيتُ أن آخُذَها؛ لأنَّ دكَّاني ليسَ فيه حِرْزٌ[1] أمينٌ، وتذكَّرتُ ذلك وقتَ الصَّلاة.

قالَ دعيجٌ: أيُّ الأمانتَينِ أَولى بالحفظِ؟ أمانة بنتٍ جميلةٍ أخذْتَها من أبيها، أم أمانة صُرَّةٍ فيها أَرْيُلٌ - جمع ريال - أودَعكَ إيَّاها بدويٌّ! احذرْ مِن أن تتركَ بيتَك بعدَ صلاةِ العِشاءِ، وإلَّا أوجعتُكَ ضربًا بهذه العُجْرَةِ، احفظُوا نساءَكم وناموا مُبكِّرِينَ حتَّى تستيقظوا لرزقِكم مبكِّرِينَ، ثمَّ قالَ: يا عبدَ اللهِ! اذكُرْني وراءَك.

عاشَ دعيجٌ أيَّامَ صُباحٍ الثَّاني، وعبدِ اللهِ الثَّاني، ومحمَّدٍ بْنِ صُباحٍ، وسنواتٍ من حُكمِ مُباركٍ، وماتَ رَحِمَهُ اللهُ بعدَ خمسِ سنواتٍ من

(١) الحِرْزُ: الموضِعُ الحصين. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٥/ ٩٩).

حُكْمِ مُباركٍ؛ أي: إنَّهُ وَلِيَ أمنَ الكويتِ أربعِينَ سنةً تقريبًا.

كانَ النَّاسُ كلُّهم يخافونَه، وهو الرَّجلُ الوحيدُ الَّذي حَفِظَ الأمنَ وحدَه دونَ مُعِينٍ أو أفرادٍ يساعدُونَه، اللَّهُمَّ إلَّا حُرَّاس ليلٍ لا يزيدُ عددُهم على العشرة.



(الحكاية الثامنة والعشرون)



فاظفرْ بذات الدِّين[١]

للكفاءةِ في الْمُصاهرةِ عندَ العربِ شأنٌ عظيمٌ، وللقبائلِ رُتَبٌ، فلا يُزَوِّجُ الأبُ ابنتَه إلَّا مِن كُفْءٍ لأبيها، أو مِمَّنْ هو أعلى منه نسبًا ومكانةً.

وجاءَ الإسلامُ وأيَّدَها، ولكنَّ تأييدَه لها في الدِّينِ، ولهذا كانَ مِن قولِ النَّبيِّ ﷺ: «**عليكَ بِذَاتِ الدِّينِ**»[٢]، وقولِه: «**إذا جاءكم مَن ترضونَ دِينَه وأمانتَه فزوِّجوه**»[٣].

وبقيتِ الحالُ على هذا في عهدِ النَّبيِّ ﷺ وخلفائِه الرَّاشدِينَ، ولكنَّ الأمرَ عادَ، وتعصَّبَ العربُ للكفاءةِ القبليَّةِ.

وللغنيِّ شأنٌ في هذه الكفاءة، فمَن كان غنيًّا ومن قبيلةٍ معروفةٍ لا يُزَوِّجُ ابنتَه إلَّا للغنيِّ من قبيلتِه أو من كُفْءٍ في قبيلةٍ مثل قبيلتِه.

والقبائلُ طبقاتٌ يعرفُها رجالٌ مختصُّونَ بالأنسابِ، والكويت بلدٌ عربيٌّ يسكنُه أُسَرٌ من طبقاتِ العربِ شَتَّى، فيهم مَن ينتسبُ إلى القبائلِ المعروفةِ؛ كعنزةَ، وحربٍ، وعتيبةَ، والعجمانِ، ومطيرٍ، وشمرٍ، والهواجرِ، والجلاهمةِ.

---

(١) سبقَ تخريجُه.

(٢) سبقَ تخريجُه.

(٣) سبقَ تخريجُه.

وفيهم غيرُ هؤلاءِ مَن هُم أقلُّ تعصُّبًا في المصاهرة، وفيهم مَن لا قبيلةَ له، ويسمُّونَهم في العرفِ بياسر، والواحدُ بَيْسَرِيٌّ، وفي القاموسِ: البياسرةُ جيلٌ من النَّاسِ في السِّندِ أو الهندِ تستأجرُهم أهلُ السُّفُنِ، يُقالُ للواحدِ منهم بيسريٌّ.

وفي النِّصفِ الثَّاني من القرنِ الثَّالثَ عشرَ للهجرةِ عاشَ في الكويت رجلٌ من خيارِها، نرمزُ لاسمِه بِحَرْفَي (ي ب)، له أولادٌ ذكورٌ وإناثٌ، وهو على حظٍّ وافرٍ من الغِنَى، وحظٍّ أوفرَ من الجاهِ، يُشارُ إليه بهما لا في الكويت وحدَها، وإنَّما فيما جاورَها من البلادِ وفيما هي أبعدُ.

زوَّجَ أبناءَه مَنِ اختارَهُنَّ لهم مِن بناتِ الأشرافِ، ولكنْ لم يتقدَّمْ لبناتِه خاطبٌ، وهُنَّ اللَّواتي حُزْنَ الجمالَ وشرفَ العمِّ والخالِ، ولم يسبقْ لأحدٍ مثلِه من الآباءِ أن تقدَّمَ يخطبُ لبناتِه أزواجًا، ولو سبقَه أحدٌ لذلك لفعلَ، معَ أنَّ الإسلامَ أقرَّ هذه الصِّفةَ؛ فقد خطبَ عمرُ رضي الله عنه لابنتِه بعدَ أن ترمَّلَتْ.

كبرتِ البناتُ وعَنَسَتْ كبراهُنَّ ولم يَجْسُرْ[1] أحدٌ أن يخطبَ مِن (ي ب)، فمَن كانَ في مثلِ مكانتِه من شرفِ الأُسرة تقصرُ ذاتُ يدِه أن يكونَ له مالٌ مثلُ مالِه، ومَن كانَ في مثلِ غِنَاهُ يكونُ دونَه في شرفِ الأُسرة، ولا يستطيعُ هذا وذاك أن يطلبَ مصاهرتَه.

وفي ظهر يومِ صيفٍ دخلتِ البيتَ سائلةٌ تطلبُ طعامًا لِغَدَائِها، وبيتُ (ي ب) مفتوحٌ بابُه لكلِّ محتاجٍ، وطعامُه في متناول كلِّ

(١) تجَاسَرَ: اجترأَ وأقدَمَ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٠/ ٤٢٩).

طاعِمٍ، وكانَ (ي ب) في مقصورتِه[١] لم يأخذْهُ رقادُ[٢] القيلولةِ، فاستقبلتِ السَّائلةَ إحدى بناتِه، وأعطتْها ما أرضاها، فدَعَتْ لها قائلةً: كبَّرَ اللهُ حظَّكِ يا بنتي.

سَمِعَ (ي ب) دعوةَ السَّائلةِ، وأطلَّ عليها فعَرِفَها، وقالَ: يا أمَّ فلانٍ! تعالي، فصعدتْ إليه، وقال لها: دعوتِ لابنتي فلانةٍ بكبرِ الحظِّ، ولا أظنُّ في الكويتِ أنَّ بنتًا لها حظٌّ مثلُ حظوظِ بناتي؛ أسرةٌ شريفةٌ، وغنًى وافرٌ، ووجهٌ جميلٌ، فأيُّ حظٍّ تريدينَ لهنَّ أكبرَ مِن هذا؟

فقالتِ السَّائلةُ: يا عمُّ! هل أتكلَّمُ بصراحةٍ مِن دون أن تغضبَ؟

قالَ لها: تكلَّمي ولا تخافي.

فقالت السَّائلةُ: حظُّ البنتِ عندَ الزَّوجِ الْمُحِبِّ، ومهما كانت مكانتُها عندَ أبيها، فمكانتُها عندَ زوجِها أحبُّ إليها وأفضلُ لها.

إنَّ البنتَ عندَ أبيها مرؤوسةٌ دائمًا، ولكنَّها في بيت زوجِها رئيسةٌ، وإذا أحبَّها الزَّوجُ كانت الرَّئيسةَ عليه، وأسعدُ أيَّامِ البنتِ عندَما تكونُ زوجةً ثمَّ أُمًّا، وهذه سُنَّةُ اللهِ في خَلْقِه.

قالَ: صدقْتِ.

وأعطاها صدقةً من مالِه، وصَرَفَها وهو يقولُ في نفسِه: هذا ما أبعدَ عنِّي النَّومَ اللَّيلةَ واليومَ، وبدأَ يُفَكِّرُ، وقرَّرَ ألَّا يحولَ الحَوْلُ حتَّى

(١) المَقْصُورةُ: الدَّارُ الواسعةُ المحصَّنةُ بالحيطان. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٣/ ٤٢٦).

(٢) الرُّقادُ: النَّومُ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٨/ ١١١).

يُزَوِّجَ هؤلاءِ البناتِ.

وليسَ هُناكَ مِن حَلٍّ لهذه العقدةِ إلَّا أن يكونَ هو الخاطبَ لبناتِه، والْمُجَهِّزَ لَهُنَّ، وجهازٌ لمثلِ بناتِه يجبُ أن يكونَ غاليًا، إذن فليكن، ولِمَ لا وصحابةُ رسولِ اللهِ ﷺ خطبوا لبناتهم؟! إذنْ فليستنَّ بهم.

وبدأ بتنفيذِ خُطَّةٍ رسمَها؛ أرسلَ إلى (خ خ) وكانَ من خيارِ النَّاسِ في نسبِه وتقواه، ولكنَّه قليلُ ذاتِ اليدِ، وقالَ له: لِمَ لا تتزوَّجُ يا فلانُ؟

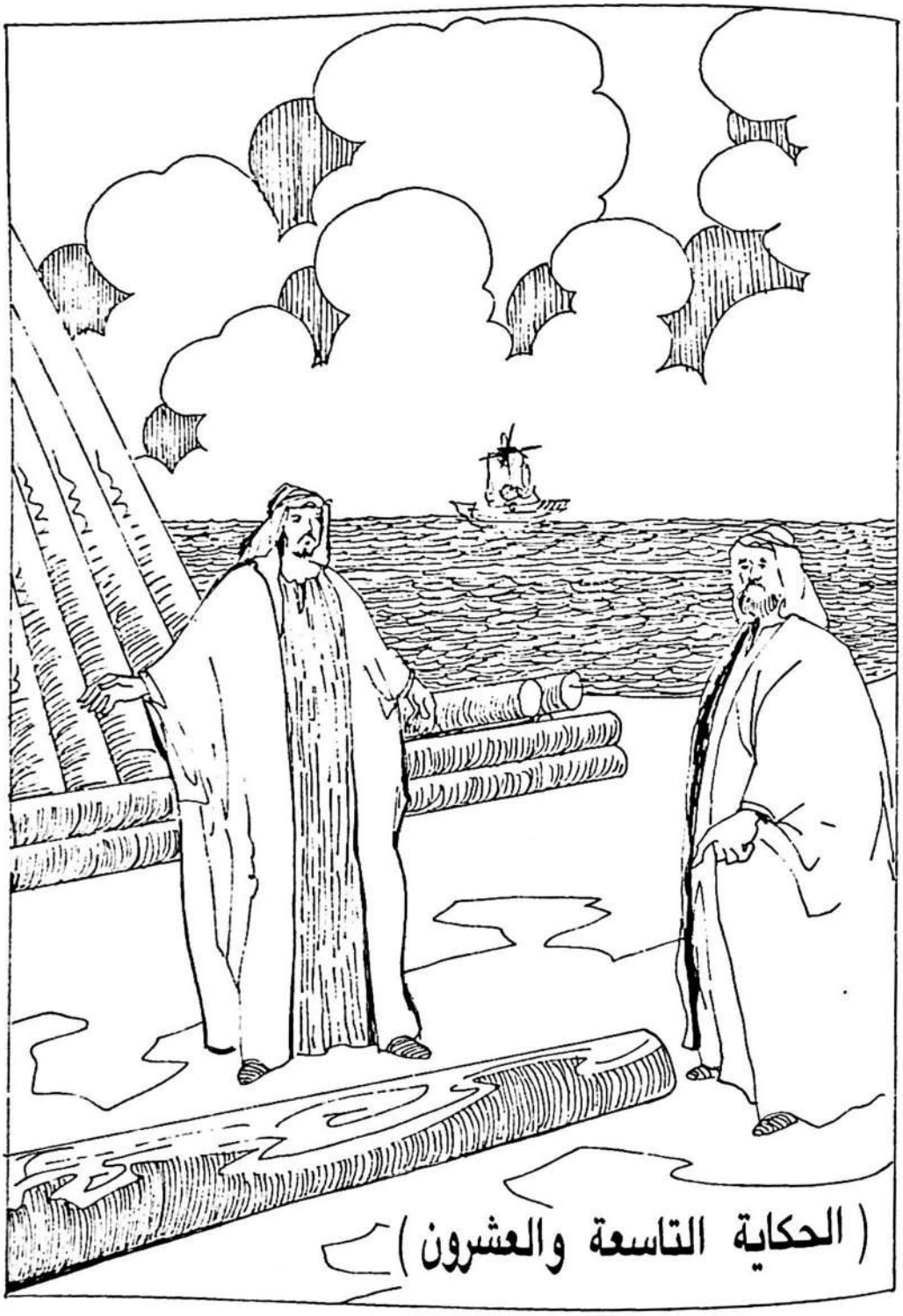
فأجابَ (خ خ): الزَّواجُ يحتاجُ إلى مالٍ وسكنٍ، ولا أملكُ ذلك.

قال (ي ب): وقد هيَّأَ اللهُ لكَ المالَ والسَّكنَ؛ خذْ هذه الصُّرَّةَ، وإذا أمسيتَ غدًا فَأْتِنِي في محلِّي واخطبْ منِّي فلانةً، وقد وهبتُها الدَّارَ الفلانيَّةَ، وادفعْ مهرَها هذا، وبعدَ أسبوعٍ تزوَّجَتِ البنتُ الكُبرى من (خ خ).

وفي الأسبوعِ الثَّالثِ أرسلَ إلى (ع س)، وأعطاه مثلَما أعطى (خ خ)، وقالَ له مثلَ قولِه، وبعدَ أسبوعٍ تزوَّجَت ابنتُه الثَّانيةُ.

وهكذا فعلَ مع بقيَّةِ بناتِه الأربعة، اختارَ لَهُنَّ الأزواجَ الصَّالحِينَ، وعِشْنَ معَ أزواجهنَّ أحسنَ زوجاتٍ صالحاتٍ، وأنجبنَ خيرَ أبناءٍ وبناتٍ، ووفَّقَ اللهُ الأزواجَ وأغناهم، وما زال في الكويتِ لَهُنَّ خيرُ أحفادٍ، شاركوا في الدِّفاع عن هذا الوطن، كما شاركَ في الدِّفاع عنه آباؤهم وأجدادُهم، وسيكونُ لهم عَقِبٌ صالحٌ ينفعُ الوطنَ في مستقبلِه إنْ شاءَ اللهُ.





(الحكاية التاسعة والعشرون)

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النِّسَاء: ١١٤].

الخصومةُ بينَ النَّاسِ قائمةٌ منذُ وُجِدَ النَّاسُ؛ إذ لا بدَّ من خلافٍ ينشبُ[1] بينَ اثنَينِ على شيءٍ يراه أحدُهم حسنًا، والآخَرُ باطلًا، أو يستحسنُه الاثنانِ يريدُ كلٌّ واحدٍ منهم الحصولَ عليه والأحقِّيَّةَ فيه، ويتقاضى المتخاصمانِ إلى حكمٍ مُعَيَّنٍ؛ إمَّا بأمرٍ حكوميٍّ وإمَّا بِرِضَا المتخاصمَينِ.

وكلُّنا قرأَ في كتابِ اللهِ جلَّ شأنُه قصَّةَ الخصومةِ الَّتي حصلتْ بينَ بني آدمَ وكانَ ضحيَّتَها أحدُهما.

مرَّ زمنٌ في الكويت كانَ فيه الحاجُّ شاهينُ الغانم حَكَمًا في الخصوماتِ الَّتي تكون بينَ أهلِ البحرِ على اختلاف أعمالِهم، أو بينَ أهل السُّفنِ، ارتضاهُ النَّاسُ فرَضِيَهُ لهم السُّلطانُ.

وذاتَ يومٍ اختصمَ (ع ف) و(ج ق) إلى شاهينَ؛ ادَّعَى (ج ق) أنَّ سفينتَه كانَتْ راسيةً في البندرِ، وأنَّ (ع ف) خرجَ بسفينتِه الَّتي لم يُحْسِنْ قيادتَها ولم يُمْسِكْ دفَّتَها أو سكَّانَها، وصدَمَ بهذا الإهمالِ سفينتَه وحطَّم الدَّستورَ، والدَّستورُ: خشبةٌ طويلةٌ تُوضَعُ على طولِ

(١) نشبَ: اشتبكَ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٤/ ٢٦٩).

السَّفينةِ، طرفُها الدَّاخِلُ يُمْسِكُ بالصَّاري، وطرفُها الخارجُ يُمْسِكُ بمقدَّمِ السَّفينةِ، وله بكرةٌ يُقدِّمُ بها ويُؤخِّرُ، وفائدةُ هذه الخشبة الدُّستورِ أنَّها تُمْسِكُ بطرفِ الشِّراعِ الأسفلِ عندَما يكونُ الهواءُ جانبيًّا، بحيثُ يضربُ الهواءُ في الشِّراعِ، فيدفعُ السَّفينةَ إلى الأمامِ، ولا أعلمُ مِن أينَ جاءتْ هذه الكلمةُ في الاصطلاحِ البحريِّ، والمعروفُ أنَّ الدُّستورَ مجموعةُ أنظمةٍ وضوابطَ للدَّولةِ، يلزم العمل بمقتضاها.

ولم يُنكِرْ (ع ف) ذلكَ، وقال: إنِّي لم أتعمَّدْ فعلَ ما فعلتُ، ولكنَّ المسافةَ ضيِّقةٌ، ومُضايَقَةُ السُّفُنِ الأُخرى أجبرتْنِي على أن أفعلَ ما فعلتُ.

ونوى شاهينُ في نفسِه فعلًا يُزِيلُ به الخلافَ بينَ الأخوَينِ المتخاصمَينِ، فخرجَ معَهما طالبًا إليهما أن يُرِيَاهُ الخشبةَ التَّالفةَ؛ لِيُقَدِّرَ ثمنَها، ولعلَّهما في الطَّريق يتصالحانِ.

وصلوا إلى مكانِ الحادث، ورأى شاهينُ الدُّستورَ، وعرَفَ قيمتَه، ونوعَه، وقاسَه طولًا وعرضًا وسُمْكًا، ونظر إلى وجه الخصمَينِ لعلَّهما يصطلحانِ، فلم يرَ أثرًا للرِّضا في وجه الشَّاكي؛ لأنَّ الحاجةَ عندَه ماسَّةٌ، وليس في مقدورِه أن يُعَوِّضَ ما تلفَ، وشاهينُ يعلمُ في نفسِه أنَّ (ع ف) لم يكن أحسنَ حالًا من (ج ق).

رأى شاهينُ على السَّاحل أخشابًا تُعرَضُ، بينهما خشبةٌ تصلُحُ أن تكونَ دستورًا لسفينةِ (ج ق)، فلتكنْ له دونَ أن يُغَرَّمَ (ع ف) بثمنِها؛ وليظفر المصلحُ بأجرِ الإصلاحِ بينَ النَّاسِ، وليكن من الفائزينَ به.

وشاهينُ يعرفُ أنَّ إصلاحَ ذاتِ البين أفضلُ من درجةِ الصَّلاةِ والصِّيامِ والصَّدقةِ كما قال رسولُ الله ﷺ: «**ألا أُخبِرُكُمْ بأفضلَ مِن درجةِ الصِّيامِ والزَّكاةِ والصَّدَقَةِ؟ قالوا: بلى، قال: إصلاحُ ذاتِ البَيْنِ، فإنَّ فسادَ البَينِ هي الحالِقةُ**»[1].

وقفَ على الخشبِ المعروضِ يسألُ أهلَه عن ثمنِ هذه الخشبة، فقالَ الرَّجلُ: هذه الخشبةَ ليستْ لي، إنَّها لحمودٍ، وقد تركَها عندي لأبيعَها، وجعلَ ثمنَها مئةً.

قال شاهينُ: قد قَبِلْتُها بمئةٍ، خذْها يا (ج ق) على شرطِ أن تصطلحَ مع خصمِك (ع ف) وثمنُها عَلَيَّ، ثمَّ التفتَ إلى البائعِ وقالَ له: بلِّغْ حمودًا أن يأتيَني ليأخذَ ثمنَ الخشبةِ.

جاءَ حمودٌ ولم يرَ الحطبةَ، فسألَ صاحبَ المحلِّ عنها، فأخبرَه بما فعلَ شاهينُ، وما قال للمتخاصمَينِ (ج ق) و(ع ف)، وأنَّ الحطبةَ استلمَها (ج ق).

ذهبَ حمودٌ إلى شاهينَ، فسلَّمَ وجلسَ، فأمرَ شاهينُ أحدَ أبنائِه أن يدفعَ إلى حمودٍ المئةَ، لكنَّ حمودًا رفضَ وقال لشاهينَ: لا أُريدُ أن أحرِمَ نفسي الأجرَ ومحبَّةَ الجماعةِ ودعاءهم الصَّالِحَ، وإنِّي أتبرَّعُ بثمن هذه الحطبةِ، معَ حاجتي إلى ثمنِها؛ في سبيلِ الإصلاحِ بينَ أخويَّ (ج ق) و (ع ف)، وأرجو بذلك ذُخْرَها[2] وأجرَها عند ربِّي.

---

(١) سبقَ تخريجُه.

(٢) الذَّاخِرُ: السَّمين. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١١/ ٣٦٣).

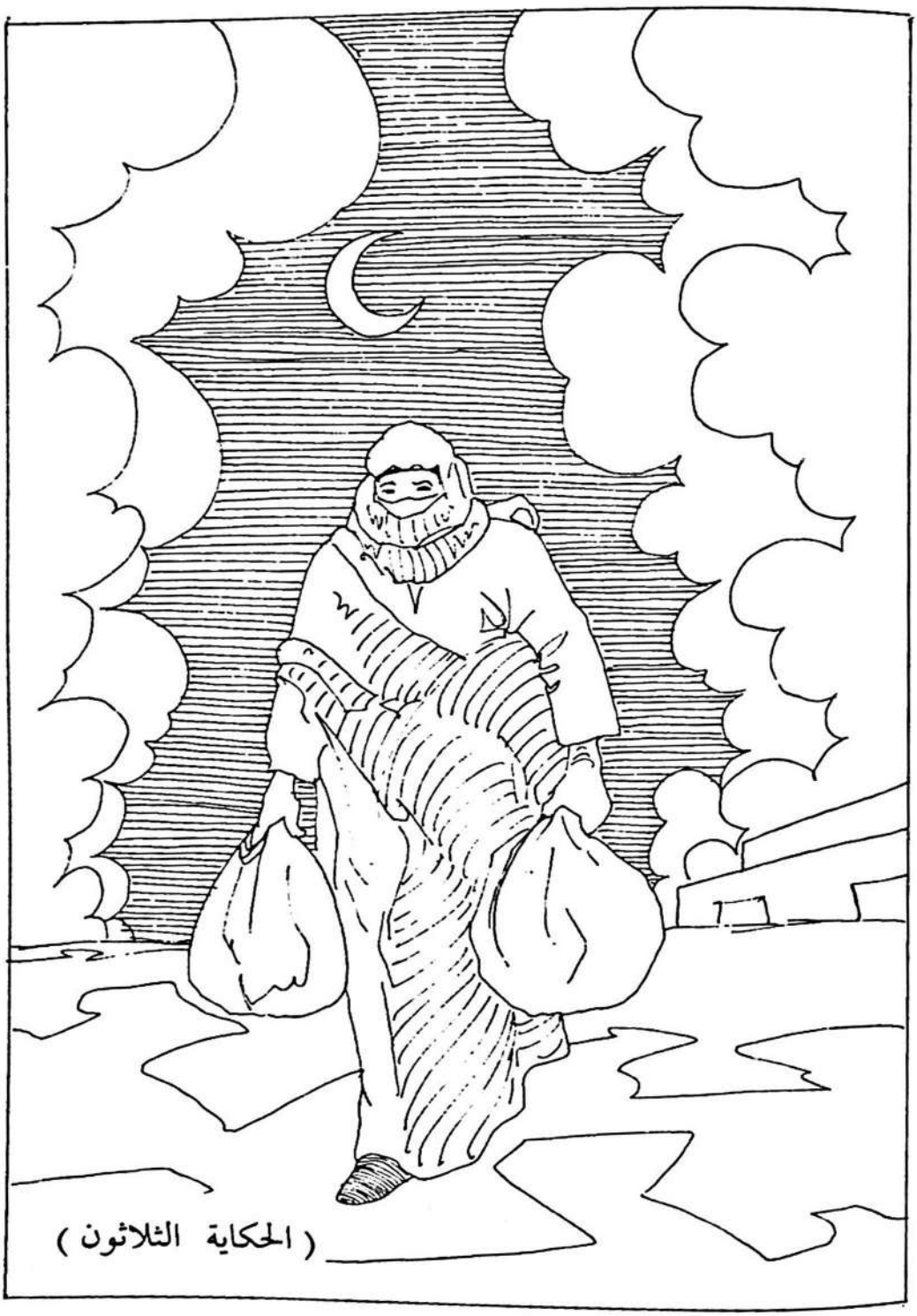
ثمَّ التفتَ إلى شاهينَ وقال له: وأنتَ أيضًا جزاك اللهُ خيرًا؛ إذ وقعَ اختيارُك على ما كانَ لي، والحمدُ للهِ ربِّ العالَمِينَ.

وطالَ الزَّمنُ، وتَلِفَتِ[1] السُّفُنُ، وماتَ الرِّجالُ، وبقي الذِّكرُ الحَسَنُ، وصدقَ الشَّاعِرُ أبو بكرٍ محمَّدُ بنُ دُرَيدٍ الأزديُّ إذ قالَ:

وَإِنَّمَا الْمَرْءُ حَدِيْثٌ بَعْدَهُ فَكُنْ حَدِيْثًا حَسَنًا لِمَنْ وَعَى[2]

(١) التَّلَفُ: الهلاكُ والعَطَبُ في كلِّ شيءٍ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٣/ ٥٦).

(٢) انظر: جواهر الأدب في أدبيَّات وإنشاء لغة العرب، للمصطفى الهاشميِّ (٢/ ٢١٧).



(الحكاية الثلاثون)



«رجلٌ تصدَّقَ بصدقةٍ فأخفاها»[١]

حَرَصَ[٢] النَّاسُ على التَّمسُّكِ بالفضائلِ، وتسابقوا إلى فعلِ الخيرِ، وتنافسوا في كسبِ السُّمعةِ الحسنةِ، واجتهدَ كلُّ واحدٍ منهم أن يكسبَ رضا اللهِ بحسناتٍ خفيَّةٍ يفعلُها بينَه وبينَ ربِّه، يمتحنُ بها نفسَه، بُعدًا مِن الرِّياء[٣].

كانَ فيهم مَن يَحرِصُ على قيامِ اللَّيلِ، يجتهدُ في أن يفعلَ ذلك خفيةً حتَّى عن أهلِه وأولادِه، ومنهم مَن يصومُ الأيَّامَ لا يعلمُ بِه أحدٌ من أهل بيتِه، ومنهم مَن يتصدَّقُ بالصَّدقةِ يُخفيها، ولعلَّهُ يتحرَّى[٤] بها اللَّيلَ المظلمَ حتَّى لا يعرفُه مَن يأخذُها مِن يدِه.

كان محمَّدٌ مُعدَمًا وهو في الوقتِ نفسه مِن أُسرةٍ ذاتِ عزٍّ، ولكنَّهُ اجتهدَ أن يُخفِيَ عدمَهُ ويسترَ فقرَه، أخفى ذلك على قرابتِه وبني عمِّه.

---

(١) رواه البخاريُّ، رقم: (١٤٢٣)، ومسلم، رقم: (١٠٣١).

(٢) الحِرْصُ: الجَشَعُ وهو شدَّةُ الإرادةِ والشَّره إلى المطلوب. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٧/ ٥١٠).

(٣) الرِّياءُ: الفعلُ المقصودُ به رؤيةَ الخَلْقِ غفلةً عن الخالقِ وعِمايةً عنه. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٨/ ١٠٥).

(٤) فلانٌ يتحرَّى الأمرَ: أي يتوخَّاهُ ويقصِدُه. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٤/ ١٧٣).

وفي ليلةٍ من اللَّيالي وكان القمرُ في المحاقِ[١]، سَمِعَ طارقًا يطرقُ البابَ يطلبُ محمَّدًا، فرأى محمَّدٌ أمامَ البابِ رجلًا طويلًا، عليه عباءةٌ رثَّةٌ[٢] سوداءُ كسوادِ اللَّيلِ، قد قَبَعَ فيها[٣]، مدَّ يدَه إليهِ بِصُرَّةٍ فيها نقودٌ، ثمَّ أدبرَ مُهَرْولًا[٤]، فناداهُ محمَّدٌ ولكنَّ الرَّجُلَ المجهولَ لم يردَّ عليه وكأنَّه أصمُّ!

تركَ محمَّدٌ البابَ، ودخل البيتَ، وفتحَ الصُّرَّةَ، وعرَفَ ما فيها، وبقيَ يُفكِّرُ في هذا المجهول الفاعلِ للخيرِ، كيفَ عرَفَ حاجتَه، لكنَّهُ رَضِيَ بالواقعِ، وصرفَ المبلغَ في حاجتِه.

وفي المحاقِ الَّذي يليه - والمحاق آخر الشَّهر القمريِّ - جاءَ الرَّجلُ المجهولُ، فطرقَ البابَ، فطلبَ محمَّدًا، فدفعَ إليه بالصُّرَّةِ كما فعلَ في الأوَّلِ، فأدبرَ.

حاولَ محمَّدٌ أن يلحقَ به، لكنَّ الرَّجُلَ كان سريعَ العَدْوِ، واسِعَ الخُطَا، وَلَّى ولم يعقِّبْ، وكأنَّ وحشًا لَحِقَهُ.

رَضِيَ محمَّدٌ بالمقسومِ، وتركَ الرَّجُلَ المجهولَ يذهبُ إلى حالِ سبيلِه، ودامَ الحالُ على ذلك مرَّاتٍ، لكنَّ حُبَّ الاستطلاعِ في محمَّدٍ

---

(١) المحاق: آخرُ الشَّهر إذا امَّحق الهلالُ فلم يُرَ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٦/ ٣٧٨)

(٢) الرَّثُّ: الخَلَقُ الخسيسُ البالي من كلِّ شيءٍ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٥/ ٢٥٧).

(٣) قبَعَ الرَّجُلُ: أدخل رأسَه في قميصِه. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢١/ ٥١٦).

(٤) الهَروَلَةُ: بينَ العَدْوِ والمشيِ. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١١/ ٦٩٥).

ألحَّ عليه أن يعرف صاحبَه، وفكَّرَ في نفسِه، وهو القويُّ في بدنِه أن يُمْسِكَ بيدِ الرَّجُلِ حينَ يُناوِلُه الصُّرَّةَ.

وفي اللَّيلةِ الْمُعَيَّنَةِ ليلةِ محاقِ القمرِ طرقَ الرَّجلُ المجهولُ البابَ كعادته، فخرجَ إليه محمَّدٌ، فمدَّ المجهولُ يدَهُ بالصُّرَّةِ، فمَدَّ مُحَمَّدٌ يدَه لِيَقْبِضَ، لكنَّهُ أمسَكَ بالصُّرَّةِ واليدِ، فحاولَ المجهولُ أن يتخلَّصَ من يد محمَّدٍ، فلم يستطعْ؛ لأنَّ محمَّدًا أقوى منه.

عرفَ محمَّدٌ صاحبَه، ومَن تظنُّهُ يا تُرَى؟! وكأنِّي بكَ أيُّها القارِئُ الكريمُ تفكِّرُ مثلي، وتضربُ بتفكيرِكَ بوادٍ ووديانٍ؛ لِتعرِفَ مَن جابرُ العثراتِ الَّذي تعوَّدَ أن يتفقَّدَ كلَّ عزيزٍ ذُلَّ في قومِه، ويَمُدَّ يدَه بالعونِ لكلِّ غنيٍّ افتقرَ! إنَّهُ أميرُ البلادِ يومئذٍ الشَّيخُ سالِمُ بْنُ مُبارَكٍ بْنُ صُباحٍ، الرَّجُلُ التَّقيُّ الصَّالِحُ الَّذي لم يتركْ مَكْرُمَةً إلَّا كان من السَّابقِينَ إليها.

قالَ الشَّيخُ سالِمٌ لمحمَّدٍ: لقدْ عرفتَني ولكنِّي أُقسِمُ عليكَ بِمَنْ مَحَا آيةَ اللَّيلِ وجعلَ آيةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً أن تُخفِيَ أمري هذا معَك حتَّى يأتِيَ وعدُ الله.

تعجَّبَ محمَّدٌ في نفسِه؛ أن يكونَ هذا الأميرُ المهابُ بهذه الصِّفةِ الرَّقيقةِ فيتفقَّده، ولا شكَّ أنَّه يتفقَّدُ أمثالَه، ويتحرَّى بهذا التَّفقُّدِ اللَّيالِي المظلمةَ يتنكَّرُ فيها بأفقرِ زيٍّ، وأوهنِ ملبسٍ، يسيرُ في الدُّروبِ وحدَه وهو الَّذي لا يمشي في النَّهارِ إلَّا في المواكبِ.

أثَّرَ ذلك في نفسِ محمَّدٍ، فرقَّ قلبُه وبَكَتْ عيناه، وقال لصاحبِه: أُقسِمُ بالله العليِّ العظيمِ إنَّ أمرَكَ هذا سيبقى سرًّا، اللَّهُمَّ إلَّا إذا

عشتُ بعدَك فسأحكيه للنَّاس، أرجو أن يكونَ لِمَنْ بعدَكَ فيه عبرةٌ.

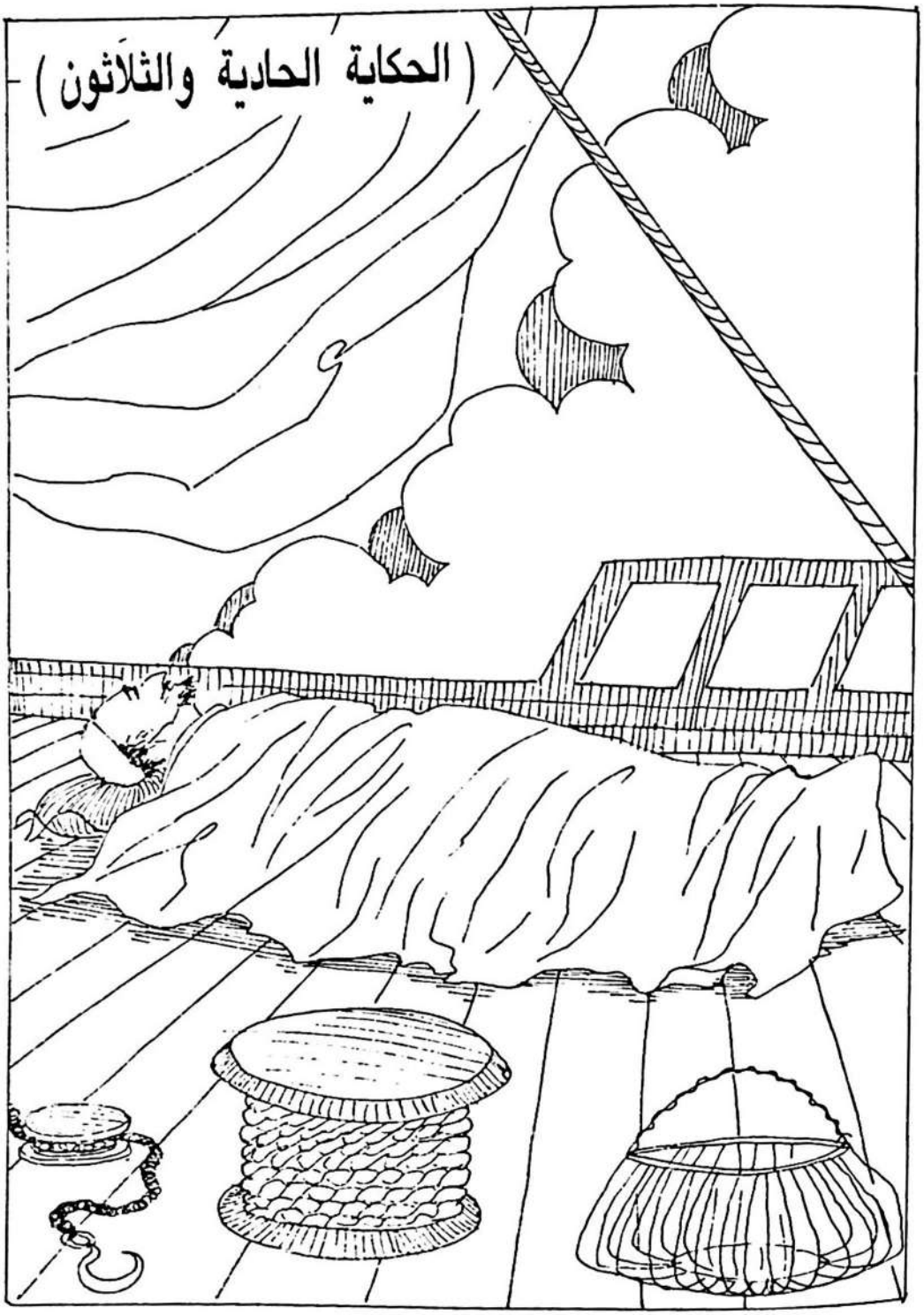
وظلَّ سالِمٌ أشهرًا يُكرِمُ محمَّدًا ويتصدَّقُ بالسِّرِّ على غيرِ محمَّدٍ، حتَّى إذا جاءَ اليومُ الموعودُ يوم (١٥) جمادى الثَّانية سنةَ (١٣٣٩هـ)[١] تُوُفِّيَ المرحومُ الشَّيخُ سالم بن مُبارك بن صُباحٍ، وفقدَ كثيرٌ من النَّاسِ العطفَ الَّذي كانوا يرونَه من الْمُحسِنِ المجهولِ.

أذاعَ محمَّدٌ نبأَه، وكشفَ لهم عن سِرِّه، وكان النَّاسُ قد فقدوا ذلك الْمُحْسِنَ منذُ فقدوا أميرَهم، فصدَّقوا خبرَ محمَّدٍ، وترحَّموا على الأميرِ الرَّاحلِ والأبِ البارِّ والحاكمِ العادلِ.

رَحِمَ اللهُ المحسنَ الشَّيخَ سالمَ بْنَ مُبارَكٍ، وأسكنَهُ فراديسَ جنَّاتِه معَ الَّذين أنعمَ اللهُ عليهم ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القَمَر: ٥٥].



(١) أي: سنة (١٩٢٠م).


(الحكاية الحادية والثلاثون)

«إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: أَنَا ثَالِثُ الشَّرِيكَيْنِ مَا لَمْ يَخُنْ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ، فَإِذَا خَانَهُ خَرَجْتُ مِنْ بَيْنِهِمَا»[1].

الغوصُ مصدرُ رزقٍ رئيسٌ في الكويتِ، وأكثرُ النَّاسِ يعملونَ به في موسمِه، حتَّى التَّاجرُ والعاملُ والموظَّفُ، وبعضُ المدرِّسِينَ يتركونَ أعمالَهم طلبًا للرِّزقِ فيه، وإذا نجحَ صاحبُ الغوصِ كان محظوظًا عندَ النَّاسِ، منظورًا إليه بعين الاحترام.

والملَّاحُونَ في سفنِ الغوصِ أربعةٌ: النُّوخذا وهو ربَّانُ السَّفينةِ، والغائصُ وهو الَّذي ينزلُ إلى الأعماقِ، والسَّيْبُ وهو الَّذي يتولَّى خدمةَ الغائصِ، والرَّضيفُ وجمعُه رضفةٌ؛ بَحَّارٌ مُساعِدٌ وهو صبيٌّ، وأكثرُ الرُّضفةِ صبيانٌ لم يبلغوا الحِلمَ، ولم أجدْ في القاموسِ لهذه الكلمةِ معنًى، وأحيانًا يُطلَقُ على الرَّضيفِ اسمُ تبَّابٍ.

وموسمُ الغوصِ في الكويتِ يبدأُ (٢١) أيَّار، وينتهي (٢٣) أيلول، أي أربعةُ أشهرٍ كاملةٌ.

عندَما كانتْ سيلانُ مستعمرةً بريطانيَّةً فتحتْ للنَّاسِ بابَ الغوصِ فيها، ولكن في مراحلَ متباعدةٍ، والمدَّةُ الَّتي بدأت في رجب سنةَ

(١) رواهُ أبو داود، رقم: (٣٣٨٣).

(١٣٤٣هـ-مارس١٩٢٥م) أربعونَ يومًا.

خرجَ لها من الكويتِ أكثرُ من ثلاثمئة طالبِ رزقٍ، أكثرُهم غائصونَ، وفيهم التَّاجرُ باللُّؤلؤِ، ويُسمَّى في عُرْفِ الكويت طوَّاشًا، مِن: طاشَ يَطُوشُ، ولم أجدْها في القاموس.

خرجَ في هذا العددِ خمسةُ أصدقاءَ عقدوا شركتَهم في الكويتِ بالنِّيَّةِ والقولِ، من غير أن يكتبوا هذا العقدَ أو يُشهِدوا عليهم فيه شاهدًا، ووصلوا إلى المغاصِ، وبدأَ وباءُ التِّيفوس يفتكُ في المنطقة، والوباء لا يعرفُ جنسيَّةً ولا لونًا، يأتي معَهُ الموتُ غالبًا.

أُصِيبَ من الشُّركاءِ الخمسةِ سُليمانُ، وتأخَّرَ تمريضُ واحدٍ من الأربعةِ، وقد ثَقُلَ سليمانُ في اليوم الثَّاني، وفي اللَّيلِ فاضتْ روحُه إلى رحمةِ اللهِ بينَ رفاقِه الأربعةِ، وكان قد عملَ معَ شركائِه خمسةَ أيَّامٍ فقط، وواصلَ أصحابُه العملَ بعدَ وفاتِه ورزقَهُم اللهُ رزقًا حسنًا.

ولَمَّا كانَ اليومُ الأخيرُ من موسمِ الغوصِ في سيلان -وهو اليومُ العاشرُ من نيسانَ - حضرَ الأربعةُ، وأحضروا من الباقِينَ في منطقةِ الغوصِ شهودًا مِن أهلِ العدالةِ؛ وقالوا أمامَ الشُّهودِ: خرجْنا من الكويت ونحنُ خمسةٌ، عقدْنا الشِّركَةَ فيما بينَنا على أن نعمل شركاءَ بأبدانِنا، ولكنَّ اللهَ أرادَ لأحدِنا الرَّحمةَ، فانتقلَ إلى جوارِ الله، إلَّا أنَّ رُوحَهُ معَنا، وكنَّا نَوَيْنَا بقاءَ هذه الشِّركةِ حتَّى نهايةِ الموسم، وقد رزقَنا اللهُ من فضلِه بهذه النِّيَّةِ، وتحاسبْنا فيما بينَنا، وأخرجْنا حصَّةَ شريكِنا سليمانَ منذُ بدءِ العملِ حتَّى اليوم، وهو خُمْسُ الْمَكْسَبِ، وكأنَّه لم يَمُتْ، فقد بلغتْ حصَّتُه من الدَّراهم كثيرًا، وإنَّنا نُشْهِدُ اللهَ

ونُشهِدُكُنَّ على ذلك.

شكرَ الشُّهودُ الشُّركاءَ، وترحَّموا على الميِّتِ، ورجَعَ النَّاسُ إلى الوطن، وشاعَ الخيرُ بينَ المواطنِينَ.

ولم تَكُنِ الحكايةُ غريبةً بينَ أهلِ الكويتِ؛ لأنَّ أمثالَ هؤلاءِ يومئذٍ كثيرونَ، وهي في جيلِنا الحاضرِ غريبةٌ وعجيبةٌ، فالمادَّةُ أصبحتْ كلَّ شيءٍ في حياة النَّاس، وليسَ فوقَ المادَّةِ شيءٌ، فالحلالُ ما حلَّ بأيديهم منها، والحرامُ ما حرَّموه، والصِّدقُ والوفاءُ والصَّداقةُ والإخاءُ أشياءُ ثانويَّةٌ بالنِّسبةِ إلى المادَّةِ، بل قُلْ إنَّها كلماتٌ نجدُها في كتبِ اللُّغةِ، لا أثرَ لها في القلوبِ اليومَ، وكان محلُّها عندَ سلفِنا الصَّالِحِ في سويداءِ القلبِ.





(الحكاية الثانية والثلاثون)

﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴾

[النِّسَاء: ٦]

عاشَ عبدُ اللهِ في ميسرةٍ من العَيشِ يبيعُ ويشتري، وكان حَسَنَ المعاملةِ معَ النَّاسِ، لا يُماطِلُ في وفاءٍ، سَمْحًا عندَ الاقتضاءِ، سَمْحًا في البيعِ والشَّراءِ، له بيتٌ يعيشُ فيه مع زوجِه[1] وأولادِه الأربعةِ؛ ثلاثةِ بنينَ وبنتٍ واحدةٍ كانت أصغرَهم.

وفي يومٍ بَزَغَتْ[2] شمسُه افتقدَ النَّاسُ عبدَ اللهِ؛ لأنَّه لم يدخلِ السُّوقَ، فقدِ اعتادَ أن يُبَكِّرَ، فلا يفتحُ أحدٌ دكَّانَه قبلَه، وقد قِيلَ: أصابَه مرضٌ أدناهُ من النِّهاية.

أرسلَ عبدُ الله إلى صديقٍ له كان يَعرِفُ فيه التَّقوى والصِّدقَ -

(١) قالَ بعضُ النَّحْوِيِّيْنَ: أمَّا الزَّوجُ فأهلُ الحجازِ يضعونه للمذكَّر والمؤنَّثِ وضعًا واحدًا، تقولُ المرأةُ هذا زوجي، ويقولُ الرَّجلُ هذه زوجي. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٦/ ٢٠).

(٢) بَزَغَتِ الشَّمسُ: بدا منها طلوعٌ، شَرَقَتْ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٢/ ٤٤٠).

وإنَّ التَّقوى لَتَعْصِمُ[١] صاحبَها من الزَّلَلِ[٢] - فجاءَهُ الصَّديقُ، قالَ عبدُ اللهِ: يا عبدَ العزيزِ أراني ثَقُلْتُ، ولستُ جازعًا من الموتِ؛ لأنَّ الحيَّ لا بُدَّ له من النِّهاية، و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرَّحمٰن: ٢٦-٢٧]، وقدْ أكثرتُ التَّفكيرَ في مَن يتولَّى أولادي مِن بعدي، ولم أثقْ بأحدٍ سواكَ، فَكُنِ الوَصِيَّ على أولادي مِن بعدِي، رَبِّ صغيرَهم، وزوِّجْ كبيرَهم، واتَّقِ اللهَ فيما أوصيتُكَ به، واللهُ يتولَّانا ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النِّسَاء: ٦].

قالَ عبدُ العزيزِ: واللهِ يا أخي لولا أنَّكَ وضعتَ الثِّقةَ فيَّ وأحسنتَ ظنَّكَ بي ما قَبِلْتُ وصيَّتَكَ هذه، أسألُ اللهَ أن يكشفَ ضرَّكَ، ويُعِينَني على القيامِ بما كلَّفتَني به، ويجعلَني عندَ حُسنِ ظنِّكَ.

ثمَّ طلبَ عبدُ اللهِ إلى عُوَّادِه شهودًا على هذه الوصيَّةِ كتبوها وشَهِدوا عليها، ولم يلبثْ أن ماتَ بعدَ يومَينِ مِن وصيَّتِه، فاستلمَ عبدُ العزيزِ التَّرِكَةَ[٣] الَّتي كان يظنُّها كثيرةً، وما كانت كثيرةً، وبدأَ يُنفِقُ على أولادِ عبدِ اللهِ مِن سَعَتِه، رعاهم فأحسنَ رعايتَهم، حتَّى أنساهم حنانَ الأبِ؛ إذ رأَوا مِن عبدِ العزيزِ حنانًا خيرًا منه.

ولم تُقَصِّرِ الأُمُّ في رعايةِ أولادِها، بل أوقفتْ نفسَها على هذه الرِّعايةِ، وكانتْ كَسَفْعَاءِ الخَدَّيْنِ الَّتي أخبرَ عنها رسولُ اللهِ ﷺ أنَّها

(١) عَصَمَ: منعَ، وَقَى. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٣/ ٩٨).
(٢) زَلَّ الرَّجُلُ: إذا وقعَ في أمرٍ مكروهٍ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٩/ ١٢٩).
(٣) التَّرِكَة: الشَّيءُ المتروك. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٧/ ٩٤).

في الجنَّةِ، في قوله: «**أَنَا وَامرَأَةٌ سَفْعَاءُ الخَدَّيْنِ كَهَاتَيْنِ يَومَ القِيَامَةِ**» وَأَوْمَأَ يَزِيدُ بِالْوُسْطَى وَالسَّبَّابَةِ «**امرَأَةٌ آمَتْ مِن زَوْجِهَا ذَاتُ مَنصِبٍ، وجَمالٍ، حَبَسَتْ نَفسَهَا عَلَى يَتَامَاهَا حَتَّى بَانُوا أو مَاتُوا**»[1]، وكانتِ أمُّهم امرأةً شابَّةً ذاتَ وسامةٍ، تَرَكَ زوجُها أيتامًا ومالًا، فحبستْ نفسَها على يتاماها، حتَّى شحبَ[2] لونُها.

اتَّسعَ عملُ عبدِ العزيزِ، وكبرَ أبناءُ عبدِ اللهِ ولم يجسرْ أحدٌ منهم أن يقولَ له: حاسبْنا فقدْ بلغْنا الرُّشْدَ؛ وذلك لإحسانِه إليهم، وطيبةِ خُلُقِه معَهم.

كانَ عبدُ العزيزِ يستشيرُ أبناءَ عبدِ اللهِ في كلِّ دقيقةٍ من العمل، وكأنَّهم من رجالِ العملِ، جعلَ منهم شركاءَ له في كلِّ حركةٍ من الحركات، وعلَّمَهُمْ وأحسنَ تأديبَهم.

وبعدَ مرورِ ثمانيةَ عشرَ عامًا على وفاةِ أبيهم، أحضرَ الأبناءَ الثَّلاثةَ وأُختَهم وأُمَّهم، وكان قد عملَ جَرْدَ[3] حسابٍ لِمَا تركَه أبوهم، وحسبَ رأسَ المالِ والأرباحِ في هذه المدَّة، مصاريفَ، وخسائرًا لم تكن بالنِّسبةِ إلى الأرباحِ شيئًا، وكذلك عملَ جَرْدًا حسابيًّا لِمَا أكلَه بالمعروفِ نظيرَ أتعابِه، وقال: يا أولادي! هذا مالُكم وحسابُكم وقد كبرتم ورشدتم، إنَّ أباكم قد أوصاني، وأظنُّ أنِّي أحسنتُ القيامَ بما

(١) رواهُ أبو داود، رقم: (٥١٤٩).
(٢) شحبَ: تغيَّرَ. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣/ ١٠٢).
(٣) الجَرْدُ: التُّرْسُ، والبقيَّةُ من المال. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٧/ ٤٩١).

وَكَّلَهُ إليَّ وأوصاني به، وها أنتم قد آنَسْتُ فيكم الرُّشْدَ[١]، فخُذوا مالَكم، ثمَّ إنَّ هذا مبلغُ ما أكلتُه من مالِكم مُقابِلَ عملي فيه، فإن سمحتْ أنفسُكم لي فيه - وهذا ما أظنُّه فيكم - فخيرًا فعلتُم، وإلَّا فاجعلوه دَينًا عليَّ، وأَنْظِرُوني[٢] فيه إلى مَيسَرةٍ[٣].

نظرَ بعضُهم إلى بعضٍ، وأخيرًا بعدَ صمتٍ طويلٍ استقرَّ نظرُ الخمسةِ على أخيهم الأكبرِ، والتفتَ الأكبرُ إلى عبدِ العزيزِ وقالَ: يا عمُّ! لا، بل أقولُ يا أبانا، يا مَن أنسيتَنا حنانَ أبينا وعطفَه، إنَّنا لا نستطيعُ العيشَ مِن دونِكَ، ابقَ معَنا، وأَرشِدْنا برأيِكَ، وانصحْنا بصدقِكَ.

ثمَّ التفتَ إلى إخوتِه وأُمِّه وقالَ: ما رأيُكم أن يكونَ هذا الأبُ البارُّ بأبناءِ صديقِه شريكًا لنا في هذا المالِ - وأشارَ إلى صحائفِ الحسابِ - الَّذي بلغَ أضعافَ ما تركَهُ أبونا؟ قالوا: رَضِيْنا.

قالَ كبيرُ الإخوةِ: أريدُ أن يكونَ لأبينا عبدِ العزيزِ الخُمسَ في هذا المال، ولكلٍّ واحدٍ منا نحنُ الذُّكورَ الخُمسَ، ولأُختِنا نصفَ الخُمسِ، ولِأُمِّنا نصفَ الخُمسِ، ومعنى ذلك أنَّ الأخماسَ الأربعةَ الباقيةَ تُقسَمُ بينَنا قسمةَ ميراثٍ.

قالوا: رضينا.

---

(١) آنَسْتُ منه رُشدًا: عَلِمْتُه. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٥/ ٤١٥).

(٢) أَنْظَرْتُه: أمهلتُه، أخَّرْتُه. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (١٤/ ٢٤٩).

(٣) المَيْسَرَةُ والميسُرَة: السُّهولة والغنى. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٥/ ٢٩٦).

قالَ: عندي اقتراحٌ آخَرُ أرجو موافقتَكم عليه؛ أتزوَّجُ أنا وأخي الثَّاني بِنْتَي أبينا عبدِ العزيز؛ لتكونَ الصِّلةُ بينَنا وبينَه بالمصاهرةِ أوثقَ، ولو كان له ابنٌ لَزوَّجْتُه أُختي.

فقالوا جميعًا: ورَضِينا بهذا أيضًا.

عاشَوا بعدَ ذلك زمنًا يسيرًا، تزوَّجَ فيه أبناءُ عبدِ الله بِنْتَي عبدِ العزيز، وقضى عبدُ العزيز في يومِه الموعودِ مُحاطًا برعايةِ أبناءِ عبدِ اللهِ الَّذينَ بَكَوهُ، وبقيَ ذكرُه مَضْرِبَ المثلِ لِمَنْ عَرَفَ صِدْقَه ووفاءَه لصديقِه في رعاية أبنائه، رحمةُ الله عليهِم، وعلى كلِّ وفيٍّ من الأصدقاء.



خاتمة

وبعدُ، فالحكاياتُ عن الأسلافِ كثيرةٌ، لا يُحصِيها في العدِّ حسابٌ، ولا تُجمَعُ في كتابٍ، لقد كانوا يتنافسونَ بعملِ الخيرِ، ويتسابقونَ إلى بذلِ المعروفِ الَّذي خُلِقوا له، رَحِمَهُمُ اللهُ جميعًا، وجعلَ في خَلَفِهِمُ الخيرَ، ووفَّقَنا للاقتداءِ بهم في فعلِ الخيرِ.



فهرس الموضوعات

شهر في الحجاز

المقدمة ٧
الحجُّ ٩
العزم على السَّفر ١١
الحملدار فهد الفهد ١٣
بدأ السَّفر ١٥
المطوِّفون وعملهم ٢٣
صورة البرقيَّة السَّبت (٢١-١١-١٣٧٢هـ) ٢٤
التَّوقيعات ٢٥
المدينة المنوَّرة ٣١
المزوِّرون ٣٥
صفة المسجد النَّبويِّ ٣٩
المحراب النَّبويُّ والرَّوضةُ الشَّريفة ٤١
المحاريب ٤٣
المنبر ٤٥
تاريخ المنبر النَّبويِّ ٤٧
حدود المسجد النَّبويِّ ٤٩

الأبواب ٥١
الحجرة الشَّريفة ٥٣
تاريخ المسجد النَّبويِّ ٥٥
صحن المسجد ٥٩
حديث النَّفْس في المسجد ٦١
أثاث المسجد وإنارته ٦٧
مكتبة الحرم وكتابه ٦٩
الزِّيارة ٧١
من آثار المدينة أُحد ٧٣
العين الزَّرقاء ٨١
مسجد قُباء ٨٣
بئر أريس ٨٥
سقيفة بني ساعدة ٨٧
البقيع ٩١
مسجد القبلتين ٩٥
الإقامة في المدينة ٩٧
السَّفر من المدينة ٩٩
الإحرام ومواقيته ١٠١
مواصلة السَّير ١٠٣
جدَّة ١٠٥
مكَّة المكرَّمة ١٠٩

تاريخ مكَّة ١١١
تاريخ الكعبة ١١٣
صفة الكعبة ١١٥
وصف داخل الكعبة ١١٧
الحجر والحطيم ١١٩
المعجنة ١٢١
الملتزم ١٢٣
الرُّكن اليمانيُّ ١٢٥
المطاف ١٢٧
الحجر الأسود ١٢٩
نبذةٌ من تاريخ الحجر الأسود ١٣٣
المقام ١٣٥
بئر زمزم ١٣٧
كسوة الكعبة ١٤١
المسجد الحرام ١٤٥
تاريخ المسجد الحرام ١٥١
إنارة المسجد الحرام ١٥٥
مقامنا في مكَّة قبل الحجِّ ١٥٧
العمرة ١٥٩
الحجُّ ١٦١
وصف عرفات ١٦٣

المسعى ١٧١
منى ١٧٣
جمرة العقبة ١٧٥
وضع الطَّريق ١٧٧
بعد الإفاضة ١٨٥
القُفول ١٨٧

فهرس الموضوعات

يوميات زائر للشرق الأقصى

الإهداء ١٩١
مُقَدِّمَةٌ ١٩٣
الوصولُ إلى مطارِ عاصمةِ ماليزيا (كوالالمبور) ٢٠٣
(وظيفةُ نائبِ الوزيرِ) ٢٠٥
(كوالالمبور) ٢٠٧
مبنى البَرْلَمَانِ ٢١١
المدينةُ الجامعيَّةُ الإسلاميَّةُ ٢١٣
المتحفُ الوطنيُّ ٢١٥
(الاتِّحادُ الفيدراليُّ الماليزيُّ) ٢٢٧
الكلمة ٢٣١
(الكُلِّيَّةُ الإسلاميَّةُ بكلانج) ٢٣٥
(زيارتي الكُلِّيَّةَ) ٢٣٧
(نُبْذَةٌ عن الاختلاطِ في دُورِ العلمِ) ٢٣٩
(عودةٌ إلى الكُلِّيَّة) ٢٤١
الكلمةُ الَّتي قلتُها أمامَ الطَّلبةِ والمدرِّسِينَ ٢٤٣
الأميرُ تنكو عبد الرَّحمنِ ٢٤٧

مؤسَّسةُ الدَّعوةِ الإسلاميَّة ٢٤٩
المدرسةُ التَّوفيقيَّةُ ٢٥٣
مسجد الملك فيصل ٢٦١
صلاةُ الجمعةِ ٢٦٣
زيارة تنكو عبدِ الرَّحمنِ ٢٦٥
النُّصْبُ التَّذكاريُّ ٢٦٧
الشَّعبُ ٢٦٩
اللُّغةُ ٢٧١
الحروفُ الهجائيَّةُ المالويَّةُ ٢٧٣
الدِّين ٢٧٥
المسجدُ الوطنيُّ أو مسجدُ نيجارا ٢٧٧
السَّفرُ إلى جاوا ٢٧٩
مدينةُ جاكرتا ٢٨٣
الكلمةُ ٢٨٥
مدرسةُ المعلِّماتِ الأهليَّةُ ٢٩١
الكلمةُ ٢٩٣
المستشفى المحمَّديُّ ٢٩٧
معهد فابيلان ٢٩٩
كلمتي في معهدِ فابيلان ٣٠٣
الجامعةُ الإسلاميَّةُ في جوكجاكرتا ٣٠٧
المسابقةُ السَّنويَّةُ للقرآنِ الكريمِ ٣٠٩

من كلمتي في مسجدِ الجامعةِ ٣١١
المدرسةُ الثَّانويَّةُ في المعهدِ الإسلاميِّ ٣١٥
جزيرةُ جاوا ٣١٧
جزيرةُ بالي ٣١٩
المعبدُ الكبيرُ ٣٢٣
(في المساء) ٣٣٥
(كلمةٌ في جامعةِ جاكرتا) ٣٣٧
المركزُ الإسلاميُّ ٣٤٥
المؤسَّسةُ الطَّاهريَّةُ ٣٤٩
المؤسَّسةُ الشَّافعيَّةُ ٣٥٧
من الكلمة ٣٦١
شيءٌ من تاريخِ إندونيسيا ٣٧٥
ولايةُ باهانج ٣٨١
ولاية (بينانج) ٣٨٣
(مركزُ الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ) _ فركيم _ Firkim ٣٨٧
ولايةُ كلنتن ٣٩١
(المركزُ الإسلاميُّ في كلنتن في العاصمةِ كوتابارو) ٣٩٣
الاحتفال ٣٩٥
من الكلمةِ ٣٩٧
شاطئُ الغرامِ ٤٠٥
(مجلسُ الشُّؤونِ الإسلاميَّة والتَّقاليد المالويَّة) ٤٠٧

العودةُ إلى العاصمةِ ٤١١
(من الفقهِ) ٤١٣
(المُنتزهاتُ المرتفعةُ في شبهِ جزيرةِ الملايو) ٤٢١
(الجزر السِّياحيِّة) ٤٢٣
(العملة في ماليزيا وإندونيسيا) ٤٢٩
ختام ٤٣١

فهرس الموضوعات

حكايات من تاريخ الكويت

الإهداء ٤٣٥
«ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» ٤٤١
﴿وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾ ٤٤٧
ما عال من اقتصد ٤٥٣
﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ١١٧﴾ ٤٥٩
«العدل حسن، ولكنه في الأمراء أحسن» ٤٦٧
﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ ٤٧٥
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾ ٤٨١
﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ ٤٨٩
«إنما الأعمال بالنيات» ٤٩٧
﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ﴾ ٥٠٥
من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ٥١١
سواي يهاب الموت أو يرهب الردى ٥١٧
«نية المرء خير من عمله» ٥٢٣

«رحم الله امرأ جب الغيبة عن نفسه» ٥٢٩
«إن الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» ٥٣٥
«الجماعة رحمة، والفرقة عذاب» ٥٤٣
خياركم الذين تحبونهم ويحبونكم ٥٤٩
«كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته...» ٥٥٥
«الخلق عيال الله، وأحب العباد إلى الله أنفعهم لعياله» ٥٦١
«إن الله سائل كل راعٍ عما استرعاه، أحفظ ذلك أم ضيع...» ٥٦٧
﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ ٥٧٥
﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ ٥٨١
﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ ٥٨٧
﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾ ٥٩٥
﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ٨﴾ ٦٠١
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ٦٠٧
نعمتان محسود عليهما كثير من الناس: الصحة في الأبدان.... ..... ٦١٣
«فاظفر بذات الدين» ٦٢١
﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ ٦٢٧
«رجل تصدق بصدقة بأخفاها» ٦٣٣
«إن الله يقول: أنا ثالث الشريكين مالم يخن أحدهما صاحبه.....» .. ٦٣٩
﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ﴾ ٦٤٥
خاتمة ٦٥١
فهرس الموضوعات ٦٥٣

قَبَسٌ مِن مُقدِّمةِ الأعمَالِ الكَامِلةِ

لبنةٌ مُبارَكةٌ، تحتوي الأعمالَ الجليلةَ لعالمٍ مِن عُلماءِ النَّهضةِ العلميَّة في كويت الخير... الأعمالُ الكاملةُ لفضيلةِ الشَّيخِ العلَّامةِ عبد الله النُّوري رَحِمَهُ اللَّهُ، هي: نِتاجُ حياةٍ مُباركةٍ مَليئةٍ بالجِدِّ والنَّشاطِ، والاجتهادِ والمثابرةِ، وأعمالِ البِرِّ والخير؛ فجاءتِ الأعمالُ ثريَّةً متنوِّعةً بين علميَّة مُنَمَّقة، وأدبيَّة مُشوِّقة، وتُراثيَّة مُدَقِّقَة، واجتماعيَّة مُتَعمِّقة، فيها خُلَاصةُ الفِكر، وزُبدةُ المخضِ، وحُليَةُ الأدبِ، وروائعُ مِنَ التَّاريخ.

تأتي هذه الأعمالُ المُباركةُ ضمنَ سِلسلةِ جمعِ تُراثِ عُلماء الكويت؛ لحفظِ تُراثِ الأجدادِ، وإثراءِ المكتبةِ الإسلاميَّة عمومًا، والمكتبة الكويتيَّة خصوصًا؛ لتكونَ منارة للقُرَّاءِ والباحثينَ والدَّارسينَ على مَرِّ العُصورِ، ينهلونَ مِن مَعِينِهَا بمختلف العلوم والمعارف، لِيَصْدُقَ فيهم قولُ الشَّاعر:

وإنِّي وإيَّاكُم لَكَالنَّحلِ نَصطَفِي ... رَحِيقَ مَجَانِيهِ لألسُنِنَا شَهدًا

د. عَبْد المُحسِن عَبْد الله الجَار الله الخَرَافي